السياسة الدولية

وأشهر رجالها

القسم الثاني
أقطاب المناهج السياسية

تأليف

الدكتور نجيب الأرمنازي

دمشق ١٩٥١

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

السياسة الدولية

وأشهر رجالها

القسم الثاني
أقطاب المناهج السياسية

تأليف

الدكتور نجيب الأرمنازي

دمشق ١٩٥٠

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com رابط بديل

تمهيد

اذا عد رجال الدول الذين ابقوا من بعدهم مناهج سياسية ومذاهب مقلدة وخططاً متبعة فانه يأتي في المقدمة مكيفلي ورشليو وتايران ومترنيخ وكافور وبالمرستن وبسمرك من اقطاب السياسة التقليدية والواقعية ، اما السياسة المثالية فلا نجد اسما يقترن بها اجدر من الرئيس ولسن الذي اراد ان يقيم في العالم مبادئ جديدة ومناهج حديثة ، يطبق فيها الآراء والقواعد التي يدعو اليها عالماً فيلسوفاً واستاذاً مفكراً وهو رئيس دولة وقائد امة ، بدلا من السياسة القديمة ، القائمة على الدهاء والكيد والقهر والفتح والشدة والعنف ، وكل ما يحتوي عليه الامر الواقع من اكراه وغلبة

على ان الطريقة التي اتبعتها لايقصد بها الحصر ، اذ لايقتصر تاريخ السياسة الباهر على هؤلاء وحدهم ، وان كانوا يذكرون بما احدثوه من سنن وتقاليد ، ولجميع الدول سياسيون مشهورون ، وقد عرفت هولندة غروسيوس مؤسس الشرع الدولي وصاحب الكتاب الكبير (حق الحرب والسلم) الذي الفه في فرنسة وقدمه للويس الثالث عشر ، وقدغلبت عليه الناحية الشرعية اكثر من الناحية السياسية ، وامتاز في انكلترة بيت وكاننغ ودزرائيلي ، وقام في النمسة عدا مترنيخ واندراسي وسواهما من الذين جعلوا لسياسة الدولة المثناة شهرة ذائعة ، وقدعد غورشاكوف في روسية مناظراً لبسمرك ، وانجبت لها ثورة ١٩١٧ نمطاً جديداً من الدهاة الذين خلعوا على سياستهم الواقعية برود المثالية الشيوعية .

ولم يدع العالم الجديد للعالم القديم ان يتفرد برجال السياسة الذين تقدموا على سواهم وسارت في الخافقين آثارهم ، فقد ظهر في الولايات المتحدة انداد لهم واكفاء مثل وشنطن وفرنكلين ولنكلن ، الذين تابعوا بجهد وعناء تكوين الجمهورية الكبرى وانشاء وحدتها والدفاع عن كيانها ، وحملوا المشعل المضيء في تلك الارجاء النائية ، وكانت شهرتهم السياسية مشرقة بالفضائل الرفيعة ، التي هي فخر الانسانية الخالد .

حزيران سنة ١٩٥٠ نجيب الارمنازي

الفصل الاول

مكيفلي

مؤسس السياسة الحديثة

١ — السياسة التقليدية

قد يكون مكيفلي ابعد رجال الدولة اثراً في معالجة صناعة السياسة والغوص على دقائقها، وانه ليصح ان يقال ان المكيفلية هي اسلوب، اكثر مما هي مذهبا او طريقة، لان صاحبها لم يقرر المبادئ والقواعد، بل كان يتتبع احداث زمانه وما جرى من قبلها، ويستخرج منها اسساً تنطبق على كل زمان مهما كان عوامل الاختلاف، فالرجال هم الرجال والاشياء هي الاشياء، والسياسة هي الصناعة التي تقـاد فيها الرجال الاشياء والاشياء للرجال، وتوجه الوسائل لتحقيق الغايات.

وكان صنع مكيفلي في المرحلة التي انتهت اليهـا سيـاسة القرون الوسطى وبدأت السياسة الحديثه ان وضع الاسـاس الاول لدرس المشكلات السياسية، درساً مجرداً قائما على التحرر من كل فكرة دينية واخلاقية، وكان الدين في القرون الوسطي لاينفصل عن الاخلاق، والسلطة الدينية تتطلب باسم الاخلاق السيادة، فلما غلبت في النضال، جرت وراءها الاخلاق، وبقيت السياسة وحدها منقادة الى اضعف مبادئها، وليس فيها الاعلم التغلب بالحيلة والتسلط بالقوة، من غير ان تذعن لزاجر او تخضع لوازع، والدين الذي كان كل شيء في القرون الوسطى وغاية الغايات للدولة، لم يكن عند مكيفلي الاوسيلة سيـاسية تستخدم للمحافظة على الدولة وتوسيعها، واداة تستعين بها الحكومة لتحقيق غاياتها.

وجملة الآراء التي ابداها مكيفلي في كتبه المختلفة ترمي الى ادخال الفلسفة العملية والتجارب المشهورة في السياسة ، وهو يستند بها الى منطق الحوادث كما هي كائنة ، لا كما يراد ان تكون ، اوكما يريد اصحاب الاحلام ، وقد اعرب فيما كتبه عن آراء معاصريه ، فكان مرآة افكارهم وترجمان خواطرهم ، واصبح من بعد مؤسساً لعلم السياسة الحديثة بما ادخل عليه من البحث الحر والانتقاد الصحيح وقواعد المشاهدة والتتبع ، والاعتماد في كل ذلك على الحقائق الثابتة والطبائع الخالدة والمصالح الباقية والشواهد التاريخية .

والسياسة في كل زمان ومكان هي الفن الذي يؤلف بين الرجال والاشيا ، ويمهد السبل ويذلل الصعاب وطبيعة الانسان لاتتغير في قواعدها واسسها وان تغيرت ببعض مظاهرها ، وهي عنصر السياسة الدائم ، ولذلك فان المكيفالية انما تستخرج بقاءها ودوامها من هذه الطبيعة ، وهي في القرن العشرين كما كانت في القرن السادس عشر ، تعتمد على مراعاة الظروف والفوارق ، والسبب الاكبر في ذلك ان الرجل لايزال هو هو ، وان السياسة تعمل مع الرجل وفي الرجل وللرجل ، واذا كان هنالك ما يؤسف له في عمل مكيفلي ، فهو طريقة البحث الجديدة في تأييد مذهب مكروه ، توفر حظه من الجنايات والاثام التي ارتكبت باسمه ، واذا كانت تبعة ما انشأه في كتبه تلحق اهل زمانه ، فليس ذلك كافيا في التماس العذر له ، لان الخداع والعنف قادران بقوتها على احراز مايبغيانه من الشأن في العالم ، بدون ان يعدهما العلم بحججه وبراهينه .

٢ — الاخلاق والسياسة

لم يكن مكيفلي يجهل الاخلاق وينكرها ، ولكن كان يميز بين الاخلاق والسياسة ، ويرى ان السياسة لاتتحرج كثيراً في خدمة الدولة ومصلحتها ومقتضيات شؤونها ، والمكيفلية التي هي قائمة على حق الدولة وغايتها ليست خاصة بشكل من اشكال الحكومات ووضع من اوضاعها ، ولكنها توافق الاستبداد اكثر مما توافق سواه ، وقد تكون في الدول الدمقراطية كما تكون في الدول التي تسيطر عليها بعض الجماعات والأسر . وقد شرح فكرته في كتاب الامير بقوله : وصف بعض المؤلفين جمهوريات وحكومات لم يشاهد مثلها وهي تفتقر الى اشياء كثيرة حتى تكون حقيقة ، وثمة فرق عظيم بين الطريقة التي يعيش الناس عليها وبين الطريقة التي يجب ان يعيشوا بحسبها ، والذي يدع العمل بما هو كائن ، ويعمل لما يجب ان يكون ، يسير الى فناء لابد منه ، كما ان الرجل الذي يريد ان يكون صالحاً كل الصلاح في مجتمع ليس كذلك يعرض نفسه للأخطار .

فهذه الجملة تحوي شيئاً كثيراً من فلسفة مكيفلي التي ليست بعيدة الغور ، ولكنها تنطبق على قواعد عامية واصول خشنة ، واكثر الرجال ليسوا بفلاسفة حتى ينشئوا المذاهب لتقرير اهوائهم ومصالحهم ، واذا كان الضمير يوحي اليهم وجوب التمييز بين العدل والجور فان الهوى يمنعهم من التفريق ، وهم يعترفون بانهم لايعملون بما يفكرون ، بل يقولون انهم يكونون مخدوعين بسواهم اذا عملوا غير ذلك ، فخبث فريق يسبب ضعف آخرين ، وجميع الوسائل حسنة اذا اعانت على بلوغ الغاية ، كما هو مقرر في الفلسفة العملية العامة ، فاذا نقلنا ذلك الى الفلسفة السياسية وجدنا اسس السياسة المكيفلية التي هي قائمة على قاعدة الإستخفاف بالوسائل في سبيل الغاية السياسية ، ولم يكن يغيب عن

مكيفلي ما في هذه القاعدة من فساد ولكنه يلتمس لها العذر بقوله : لاشك ان اميراً من الامراء يكون مشرق الجد ، سعيد الطالع ، اذا تيسر له ان يجمع اشتات الفضائل ، ولكن طبيعتنا لاتحتمل مثل هذا الكمال ، والامير بحاجة للحيطة والحذر ، حتى يصون نفسه من الرذائل التي قد تؤثر به ، وعليه ان لا يخشى لائماً اذا لجأ الى اي وسيلة كانت لتأييدبلاده وتعزيزها ، ومهما تكن بعض الفضائل محمودة فقد تقود صاحبها الى الهلاك ، ومهما تكن بعض الرذائل مستنكرة مذمومة فقد تحمل الى صاحبها الامان والرخاء .

ولم يخل بعض كلام مكيفلي من ناحية انسانية اذ يقول : ما ابعد عن الفضل الرجل الذي يفتك بمواطنيه ويسلم اصدقاءه ، ولا يكون مخلص السريرة صاحب دين وتقوى ، وهو قد ينال ما يريده من السلطة ولكنه لا يبلغ منازل الحق ، وليس هنالك شيء يحول دونه ودون الشهرة التي يتمتع بها كبار القواد ، ولكن قسوته وشدته وغلظ كبده وقلة رحمته يحول دونه ودون ان يكون من كبار الرجال .

وقد ناظر مكيفلي بين الامراء الذين استطاعوا ان يعيشوا بسلام هم ورعاياهم من غير ان يختلفوا عليهم ، وبين الامراء الذين لم يستطيعوا ان يدركوا ذلك بسبب التجائهم الى القسوة في توطيد ملكهم في السلم او في الحرب ، وقال : انهم قد يحسنون او يسيئون وضع القسوة في موضعها ، والقسوة تكون حسنة ــ اذا صحت تسمية القبيح بالحسن ــ ان استعملت مرة واحدة وقضت بها ضرورة تعزيز السلطان وخير الامة ، اما القسوة التي تكون سيئة فهي التي تتسع وتنتشر بدلاً من ان يضيق نطاقها ويكفكف من شدتها . وقد فضل مكيفلي الامراء الذين يصلحون رعاياهم ويجتنبون اعمال القسوة والعنف في سياستهم ، وهو بذلك اميل الى جانب الاخلاق .

٣ – التآمر والنكث والغدر

كانت المؤامرات تغلب على مكيفلي وتغلق خاطره ، وقد عزيت اليه فيها اقوال كثيرة لم تصدر عنه ، غير انه كتب فصلاً عن المؤامرات هو من اشهر ما كتبه وما عرف من مناهجه ، وغايته من هذا الفصل ان يبث فكرة التحرر والتحفظ لان الدول تضيع بالمؤامرات اكثر مما تضيع بالحروب الخارجية ، وان يحض على القناعة بما هو كائن . وهو يرى ان اخطار المؤامرات اما ان تكون في اثناء التأهب او في اثناء التنفيذ او بعد ذلك ، وقليل ماهم الرجال الذين يصممون على الذهاب الى موت محتم ، ولولا امل السلامة لقل الاقدام على التآمر ، واذا كثر العدد لايبقى السر مكنوناً ، وقد يكتشف بالدلائل والقرائن ، ومن واجبات الحذر ان لايباح سر الخطة المؤتمرين ، وان يحافظ على كتمانها الى ساعة التنفيذ ولا يوجد خطر اشد من الاضطرار الى تبديل الخطة في الساعة الاخيرة ، وربما تخون الرجل شجاعته في وقت التنفيذ .

واذا دبرت مؤامرة لاصابة بعض الاغراض فانها تنقلب احياناً على اصحابها ، ومتى عرف امرهم فانهم حينئذ لايبالون بشيء اذ لايبقى لديهم ما يصونونه ، وقد يرى الأمير فائدة من مداراة المؤتمرين موقتاً ريثما يطش بهم ، واذا كانوا ضعافاً فعليه ان يسرع بهلاكهم بدون ابقاء ولا مبالاة .

والمؤامرات التي يبحث عنها مكيفلي ، ويعتمد اصحابها على السيف والسم لايتعرض فيها مطلقاً للناحية الاخلاقية ، ولايذكر كلمة الاخلاق ، ولكنه يبحث بصورة مجردة عن المؤامرات وعن وسائلها وعن غاياتها وثمراتها وعن محاذيرها وعما يعترضها من المصاعب ويقف في سبيلها من المخاطر ، وينجم عنها من خير او شر للذين يفعلونها ، او للذين يتصلون بهم ويقاسون احيانا جرائر ما لم يجنوه ،

والرذائل التي كان ينصح بها مكيفلي ويعتبرها من حاجات الدول ترجع في اصولها الى القسوة وسوء النية ، ولايذهل مكيفلي عن تأثير الامثال في النفوس، وان كان ذلك لايستطيع التغلب على الحق او اضعاف شأنه ، اذا نظر اليه من وجهة النفع العام وسلامة الدولة ، وقد عني بانتخاب امثاله من الرجال الذين تخلع عليهم الامارة والمنزلة الدينية ثقة متناهية في نفوس الجماهير ، وهما البابا اسكندر السادس وقيصر بورجيا اللذين لم يكن لهما نظير في مساويء الاخلاق في القرن الخامس عشر . وكان يعجب مكيفلي بقيصر بورجيا ويشيد بوقائعه الدامية التي اعانته على تأسيس ملكه ، وان كانت اشبه باعمال قطاع السابلة وادنى الى حوادث الاغتيال التي يلجأ اليها السفاكون المائثون .

اما نقض العهود فان المرء ليستصعب ان يتصور كيف يبحث مكيفلي فيه بجرأة وسهولة ، من غير ان يتقيد بالاستباحة في الحال الاستثنائية ، ولا ان يعترف بانه من الامور المحمودة ان يكون المرء وفيا بعهده ، وقد قال انه ندر بين الرجال الذين قاموا باعمال عظيمة من اهتم بالوفاء وبالعهد ، ومن تردد بخديعة الذين كانوا يعتمدون على الصدق والاخلاص . والوفاء بالوعود والعهود والعقود من فضائل الدول التي لم يعرفها العالم ولم تعرفها الحياة ، اذ على الامير اليقظ ان يجتنب الوفاء بالعهود التى تكون مغايرة لمنافعه ، وكيف يتقيد الامير بعهوده وسائر الرجال لايهمهم الوفاء بالعهد ؟

والسبب الاكبر بل السبب الوحيد الذي يدلى به مكيفلي للدفاع عن وجهه هو ماعرف به الرجال من الخبث وفساد الطوية ، ورأيه بالمجتمع البشرى يحمله على اتخاذ الخداع قاعدة للسياسة ، وهو يحتج بالسهولة التي يجدها المخادع في التغرير بالآخرين الذين يقعون بدون عناء في حبائله ويخدعون به ، وكثيراً ماهم ، ولذلك فانه تضرب الامثال للغدر وتملك النفوس بنجاح الخديعة وتروي الاحاديث فيما عرف من ان

النصر يكون للذي هو ادق مدخلا والطف مخرجا واكثر انتباهاً واشد يقظة في مخادعة غيره وصيانة نفسه .

والفضيلة في نظر مكيفلي ليست الا كالدين وسيلة من وسائل الحكومة ، وهي حسنة مادامت مفيدة ، ومرغوب عنها مادامت مضرة . وقناع يجب وضعه عند الحاجة ونزعه عند الحاجة ، والامير الكامل يشبه الرجل الجائر الذي يقول افلاطون عنه بانه يظهر بجميع مظاهر العدل ، ويخفي في نفسه حقائق الجور ، وهو يجمل لنفسه سمعة حسنة بالطيب والمرحمة ، والوفاء بالعهد ، والتمسك بالعدل ، والتحلي بالصفات المحمودة كلها ، ولكن عليه ان يكون متمكنا من نفسه بحيث يقوم باضدادها اذا اقتضى ذلك . ولا يرى مكيفلي اميراً ، ولاسيما اذا كان حديث عهد بالامارة يستطيع ان يتصف بالفضائل من غير ان يصيبه ضير ، لان غاية الدفاع عن نفسه وعن كيانه تلزمه احيانا بالخروج على قوانين الانسانية واصول الدين وقواعد الاحسان ، والمحافظة على النفوذ والمكانة هي الغاية ، واما الوسائل فانه يحكم دائماً بانها شريفة ومحمودة ، والرجل العامي يؤخذ دائماً بالظاهر ولا يحكم الا بما يقع تحت بصره ، والعقلاء لايحكمون على رجل عظيم الخطر بانه لجأ الى وسيلة غير مألوفة في جارى العادة ، اذا كان المقصد جليلاً كتنظيم مملكة او تأسيس جمهورية ، والنتيجة الحسنة تمهد سبيل العذر للجريمة ، والعنف لايكون ممقوتا الا اذا وضع في خدمة الشر لافي خدمة الخير .

وقد ضرب مكيفلي امثلة عديدة حسن فيها الجرائم الكبيرة التي ترتكب في سبيل غاية سياسية ، ولكنه مع ذلك كان يألم ضميره في بعض الاحيان ، ويتكلم بكلمات شريفة في تقبيح الجرائم واستنكار الاساليب القاسية التي هي مفسدة للاخلاق ومغايرة للانسانية ، وخيرللمرء ان يجتنبها ويختار العزلة والانفراد من ان يؤسس ملكه بسفك الدماء ، ولكن هذه الكلمات النبيله النادرة التي

صدرت عن قلب مكيفلي واعربت عن شعور انساني لم يدم اثرها طويلاً ، فهو لايلبث ان يرجع ويقول : ان الذي لايستطيع ان يحافظ على سلطانه الا بالالتجاء الى تلك الوسائل العنيفة عليه ان يسلك طريقها اذا كان مضطراً اليه ولم يجد طريقاً غيره .

واستشهد مكيفلي في غير كتاب الامير بسيرة القدماء من الفرس والرومان الذين اعتمدوا على الخداع في سبيل النجاح ، اذ الامير الذي يريد ان يدرك الاغراض الرفيعة يجب ان يتعلم فن الخداع ، لذلك كان مكيفلي يعتمد في سياسته على الغدر ، وينصح بمصانعة العدو والتظاهر بمودته ، حتى يطمئن كل الطمأنية ويكون الانتقام منه سهلاً .

واذا قيل في صدد الدفاع عن مكيفلي انه يشير بالغدر والقسوة والخيانة ونقض العهد عندما تقتضي الضرورة لدى تأسيس امارة جديدة ، فلماذا يباح الظلم لامير جديد ولا يباح لأمير وارث ، واذا كان مذهب مكيفلي لاينطبق على جميع الاوضاع السياسية والاشكال الحكومية فانه يكون مذهباً سخيفاً محدوداً فضلا عن مناهج الغدر التي فيه .

٤ — اصول الحكم

كان السياسيون الاولون يميزون بين احراز الملك عن طريق العنف او بموافقة الشعب اوبانتقاله من وارث الى وارث ، غير ان مكيفلي لم يكن يأبه الى هذا التقسيم ، وهو يرى ان هنالك طريقتين : الدهاء والشجاعة ، او الحظ ومعونة الآخرين ، وهو كذلك يميز بين وسيلتين لاحراز السلطان : الجريمة وموافقة الشعب .

والحرية عند مكيفلي لاتنال في دولة اذا لم تكن هناك مساواة ، ولا بد لادراك هذه الغاية من القضاء على مابين الناس من تفاوت ، وضرب لذلك مثلا

ازدهار المدن الالمانية الجمهورية ، ورد هذا الازدهار الى ضعف شأن النبلاء ، ولذلك فانه كان يستحسن القضاء على الاشراف ، ويرى في عدم المساواة تمهيد السبيل للفساد والرشوة واستئصال الحرية ، ويدعو الى اقامة حكم الارهاب ، والقضاء على النبلاء ، والتخلص من الاعداء بكل وسيلة ، واحراز السلطة العليا احياناً بالتغلب لنيل الحرية والمساواة .

وكان مكيفلي يفضل نسق حكومة اسبارطة ورومة على سواهما ، ورسائله في هذا الباب ترديد لما كتبه الاقدمون ، وقد وصف في الغالب حكومتين : الجمهورية والمستبدة ، وهو ما كان يجده في ايطالية التي كانت تشابه بلاد اليونان في اتساعها وتفرقها وتشعبها الى مدن متخاصمة ، وقد استطاع مكيفلي ان يتعلم السياسة في هذه الارجاء ، ووجد فيها ميدانا فسيحا لتتبعاته وملاحظاته . وقارن مكيفلي بين الحكومات الشعبية والحكومات المطلقة فكان ترجيحه للاولى ، ومع ان الوهم الغالب هو تأييد الامراء وان انتقاد الشعب هين على الالسن اكثر من انتقاد الامراء ، فان مكيفلي لم يكن يخفي اعجابه بالشعب ، ويرى ان اعمال الشعب الفاسد كأعمال الامير الفاسد واعمال الشعب الصالح كاعمال الامير الصالح ، وكذلك فان نكران الجميل كثير عند الامراء قليل عند الشعوب ، وهو ينشأ من الخوف والبخل ، اما الخوف فانه سبب يعتذر منه ، لان الرجل اذا اصبح رفيع القدر عظيم الشأن بحيث يخشاه الامير على سلطانه والشعب على حريته ، فحينئذ يشترك في نكران الجميل الامراء والشعوب بدون تفريق ، وكان الرومانيون لايشكرون احسان محسن اكثر من سائر الشعوب ، ومن ذلك ما صنعوه بسيبيون الا فريقي ، حتى قالوا ان جمهورية لاتفاخر بانها حرة اذا كان القضاة يخشون احد ابنائها ، واما البخل فانه يلبس صاحبه العار ، وعدم مقابلة الصنيع بمثله الناشيء عن البخل خطأ لاسبيل الى غفرانه ، وهو كثير عند الامراء قليل

عند الشعوب . والجمهوريات تتمسك بالعهود وتقوم بحقوق المحالفات اكثر من الامراء لان المنفعة تمنع الامير من الوفاء بما عاهد عليه ، وذلك صعب على الجمهوريات التي تحتاج الى اسباب كبرى حتى تلجأ الى مثل ذلك ، بل ان الاسباب الكبرى نفسها لاتستطيع احياناً ان تحمل الجمهوريات على النكث بالمواثيق .

ويرى مكيفلي سببين آخرين لتفضيل الجمهورية على الملكية ، وهما انتخاب الرجال القادرين على الحكم ، ومسايرة الزمان في تطوره ، والامران صعبان في الممالك الموروثة ، على ان الامراء افضل لانشاء الممالك ، والجمهوريات افضل لمحافظتها والابقاء عليها ، والتأسيس يحتاج الى فرد يقبض على ناصية الامور بكلتى يديه ولا يشاركه في ذلك احد ، ولكن فرداً يهدم ما بناه فرد آخر ، وهذا لايقع في الجمهورية . واذا كان في هذا القول كثير من الحقيقة ، فلا يمكن ان يقال انه الحقيقة كلها ، وقد جدت جمهوريات مستبدة وممالك دستورية ، وكانت الثانية خيراً من الاولى ، فلم تؤيد الوقائع راي مكيفلي على اطلاقه .

٥ — مكيفلي بين انصاره وخصومه والحكم في مذهبه

لاشك في ان عبقرية كعبقرية مكيفلي لاتذهب بدون ان تبقي اثراً بعيد المدى ، وقد ابقى مكيفلي هذا الاثر من الوجهة العامة ومن الوجهة الخاصة ، وسار ذكره في جمهورية فلورنسة التي نمت فيها وفي جمهورية البندقية العلوم السياسية نمواً حسنا ، وفاق جميع منافسيه ونظرائه ، واثار اسمه الخلاف والجدل ، وكان دعاته يختلفون من حيث المذهب والاسلوب ويجتمعون في عقيدة واحدة وهي استباحة الكذب والحيلة في السياسة ، على ان الذين انكروا اقواله وطعنوا بها لم يستطيعوا الاتيان باعتراضات قاطعة ، لان ذلك لم يكن هينا ، فالى جانب الضمير

ومقتضيات الوجدان تقوم الغاية والواسطة والنية الحسنة والنية السيئة ، ولا بدع اذا التبست الامور ،وتعذر حل الخلاف ، وظل اصحاب الرأي منقسمين بين ما دح وذام .

وقد استمر النضال قائماً مدة ثلاثة عصور حول الطريقة المكيفلية ، ويمكن القول ان هذه الطريقة مرت بمرحلتين : ففي المرحلة الاولى لم يكن نقاد مكيفلي الا انصاراً متعصبين او اعداء متشددين ،فريق يدافع عن سياسة داهية فلورنسة وآرائه دفاعاً اعمى؛ وفريق يحمل عليه وينعته باقبح النعوت ويجرده من كل دهاء وعبقرية ، فلايمكن ان يسمى هذا العهد الا عهد نضال ، يتبارى فيه المدافعون والمهاجمون بدون روية ولا انصاف في الحالتين ، فالمدافعون لايفهمونه والمهاجمون لايعرفونه .

اما في المرحلة الثانية فقد اصبح مكيفلي يجد انصاراً اكثر براعة او نقاداً اقل خصومة ، فلم يتعصب الاولون لآراء مكيفلي ولكنهم اخذوا يحللونها ويؤولونها ، وهم يستحيون من التمسك بنصوصها من غير ان يتحروا معانيها ، فاعادوا اليه منزلته شيئاً فشيئاً ، واستعانوا على ذلك بما احدثته العلوم الفلسفية في النفوس من الميل الى العدل والانصاف ، على ان فريقاً من الكتاب الذين عرفوا بسمو المبادئ وشرف الاخلاق لم يغالوا في اعلاء شأنه ورفع قدره ، وما برحت ضمائرهم تحتج على قواعده ولا تقبل ادنى هوادة فيه ، واستمروا على محاربة اغلاطه من غير ان ينكروا عبقريته او يغمضوا عيونهم عن محاسن ما كتبه . وقد حبب جان جاك روسو مكيفلي للناس بما كتب عنه ، فقال عن كتاب الامير انه كتاب الجمهوريين وعن مكيفلي انه رجل شريف ومواطن كريم ، وكانت الصلة بينه وبين اسرة مديتشي تضطره الى اخفاء حبه للحرية والتغاضي عما تقاسيه بلاده من اضطهاد فاوحى اليه وضع كتاب الامير هوى بلاده ورغبته في ان يراها مستقلة ، وقددل هذا الكتاب ولاسيما فصله الاخير الذي يتدفق فصاحة على انه يحب وطنه

حباً جماً ، وكان ذلك احسن ختام لما كتبه . ومع ذلك فانه لم يبرح في راي فريق كاتباً ثائراً يدعو الى الاستبداد ويرجو من ورآء ذلك الوصول الى اقامة صرح المساواة والحرية .

وعلى كثرة الامراء ورجال السياسة في فرنسة وانكلترة والمانية وروسية وايطالية حتى بلمغاربة من الذين وصفوا بانهم تلاميذ مكيفلي ومريديه ، فقد الف الامراء ورجال السياسة ان يطعنوا بمكيفلي وبعدم تقيده بالاخلاق ، كما كان يصنع فردريك ومترنيخ ، ولكن العالم الذي وجد ان نابليون لايدع من يده كتاب الامير ، وان دولتين اتحدتا واجتمعتا في ظلال المبادئ التي وضعها مكيفلي: ايطالية في ايام كافور والمانية في ايام بسمرك ، لايرى مجالاً للطعن فيه لان الاسس التي استخرجها تدل على ماهو متمكن في طبيعة الانسان من الحقائق السياسية الخالدة ، ففي البلاد التي تحميها جبال الالب ، وفي البلاد التي يحدها نهر الرين ، ارتفع الصوت الذي يدفع الشعوب ويبعثها من سباتها ، ونهض الرجل المنتظر كانه ينفض عنه غبار الرقاد ، الرجل الذي هو كما وصفه مكيفلي ، كثير الخداع عظيم الدهاء ، يظهر غير مايبطن ، ويبطن غير مايظهر ، شديد المعرفة بانتهاز الفرص ، يشارك العناية بحسن تصرفه ، ويغير الحظ بجرأته ، يتمسك بالحيلة ويجل القوة ، فطوراً يشابه الليث وطوراً يشابه الثعلب .

ولم تقتصر الخطط المكيفلية على ما شهدناه من آثارها في تكوين الشعوب بل ان كثيراً مايلجأ اليها في الامور السياسية الطارئة والحوادث الجارية ، ولا تكاد تتبدل الا تبدلا يسيراً بما يطرأ عليها من التجديد والتغيير ، ولكنها تبقى كما هي برغم التقلبات التي مرت عليها ، فالامير هو الرجل الذي ينتظر والرجل الذي يريد ان يبلغ مداه ، وهو في الماضي رئيس عصابة واليوم رئيس حزب ، وليس الفرق بينهما عظيما من حيث الغاية والمسمى ، على ان تبدل البيئة وتبدل

الحال مما يقضي بالحذر والحيطة حتى تؤدي الوسائل نفسها الى نفس النتائج واذا كان في الوسائل ماهو حسن وماهو سيء ، وماهو اخلاقي وما هو غير اخلاقي ، فالعبرة عند مكيفلي بالنجاح الذي لا يتقيد بالصفة الاخلاقية ولا بحسنها او بسوءها ولذلك فانه فرق بين السياسة وبين الاخلاق وهو لم يقل في مكان : انه من الخير ان يفعل كذا ، ولكنه قال : يجب ان يفعل كذا وقل كذلك بغير مخادعة ولا تغرير : ان هذا الامر يحتاج الى الدم ، وهذا يحتاج الى الحديد .

وقد اشتبكت المكيفلية بالمذاهب الجديدة الفلسفية والسياسية وكان في رجالها من ينتصرلها او يخاصمها . فذهب دكارت مؤسس الفلسفة الحديثة واحد اصحاب المدارك الكبرى في القرن السابع عشر مذهباً يقارب المكيفلية . وكان في محاربته اياها يكاد يكون ادنى الى تأييدها ، فبينما ينتقد القواعد التي سنها مكيفلي ويعدها ظالمة سخيفة ويوصى باتباع ما يناقضها ، تراه يقرر قواعد مشابهة لها كقوله : ينبغي ان نعتبر جميع الوسائل التي يتخذها الامير لاجل استقرار ملكة عادلة ، وان نعتبر جميع الامراء عادلين وما يعملونه عدلا ، لان حدود العدل عند الامراء ليست كحدوده عند سائر الناس ، وكأن الله يمنح الحق الذي يمنحه القوة . فهذا المبدأ لا يختلف بشيء عن المكيفلية ، بل ان دكارت ذهب ابعد منها بقوله : انه يكاد يستباح كل شيء في مقاتلة العدو وجميع الذين هم ليسوا باصدقاء ولا حلفاء فانهم اعداء ، يجب ان يحاربوا اذا كان في الحرب خير يرتجى ، ويجب اجتنابهم اذا كانت تحوم حولهم الشبهات وكانوا يثيرون المخاوف : في هذه الآراء التي ابداها دكارت نجد قوة المكيفلية بلغت اقصى ما نريده ، فاغارت حتى على الذين ارادوا نقضها وافسدت عليهم امرهم .

وقد خيل للناس في منتصف القرن السابع عشر ان المكيفلية سائرة الى الزوال وانها تضاءلت قواعدها وادغمت في مذاهب اخرى حتى امكن القول ان مذاهب السياسة اصبحت اميل الى التحسن ، والبرهان على ذلك ماورد في وصية رشليو السياسية التي نرى فيها قليلا من السياسة المكيفلية ممتزجة بعبقرية

رشليو المستبدة ، ذلك الوزير الكبير الذي لايعد غير جريء في اعماله، ولا يظهر التردد والتحرج في مبادئه لولم يكن قد دخل في سياسة عصره ، عصر السلطة المطلقة ، ماهو اسمى وانبل من الآراء ، ومع ذلك فان المبادئ التي وضعها دلت على رسوخها وبقائها فلم يخل من آثارها ما كتبه رشليو في وصيته ، ولا سيما في بحثه عن عدل الدولة ، فقد اشار بان القتل يجب ان يبدأ به احياناً قبل كل شيء سواه ولكنه يشترط لمثل هذه الوسائل المفرطة ان لايلجأ اليها الا عند اقصى الحاجة ، وانه يجب الاقتصار على الابعاد والحبس فيما دون ذلك .

وبرغم ما احتواه هذا المبدأ واشباهه من الاساليب المكيفلية ،فانه لم يحكم كاتب سياسي بطريقة اشد واقوى من رشليو على قلة الوفاء بالعهود فقال : يجب على الملوك ان يبذلوا قصارى جهدهم في المحافظة على العهود التي قطعوها ، كما يحافظون على العقيدة والدين . واني لااجهل ان كثيراً من رجال السياسة يدعون الى غير هذا المذهب ، ويسلكونه على مافي من عوج ومغايرة الدين وفقدان للشرف الذي هو اشد من فقدان الروح ، وعلى الامير ان يخاطر بنفسه وبمصلحة بلاده ولكن لايجوز ان يخيس بعهده وان يضيع حسن سمعته ويضيع بذلك اعظم قوة عنده .

فلايستطاع بعد هذه الشهادة الصادرة عن رجل له مثل ذلك الشأن تجديد القواعد التي وضعها مكيفلي في نقض العهود ولا المدافعة عنها ، واذا كان يهون نقض العهود ، فلم يبق احد يستطيع ان يقرر للحنث بها مذهباً تستند اليه ، وكلام رشليو هو اعظم قوة من كل صاحب مذهب ، لان الامر الذي يكون رأيا وفكرة عند صاحب الفلسفة له قيمة حكم اذا صدر عن رجل من اكبر رجال الدولة في تاريخ العالم .

واذا كانت المكيفلية قد اتخذت غرضاً للسهام في بعض الاجيال ، فقد عادت في السنين الاخيرة الى المنزلة الرفيعة التي قلما نالت مثلها في الايام الخالية بعد ان

كشفت السياسة الدولية القناع عن وجهها الصحيح ، فكتب موسوليني مقدمة لطبعة جديدة بالفرنسية لكتاب الامير ، صرح فيها مفاخراً بان عمله انما يستمد قوته من آراء مكيفلي ثم تساءل قائلا ماذا بقي من كتاب الامير بعد اربعة قرون ؟ وهل تفيد نصائح مكيفلي شيئاً لرجال الدول الحديثة ؟ ام انقضى عهد هذه النصائح بانقضاء الوقت الذي وضعت فيه ، او انها عامة خالدة لم تذهب فائدتها في هذه الايام ؟

وقد اجاب على هذا التساؤل بقوله : ان مبادئ مكيفلي مفيدة في هذه الايام اكثر منها قبل اربعة قرون ، لانه اذا كانت قد تغيرت المظاهر الخارجية فان افكار الرجال والشعوب لم تتغير الا قليلا . وقال : اذا كانت السياسة هي فن حكم الرجال وتوجيههم والاستفادة منهم وتربية ميولهم وانانياتهم والتأليف بين مصالحهم الخاصة والمصالح العامة التي تتجاوز حياة الفرد لان همها في المستقبل ، فلاشك ان الرجل هو العنصر الاساسي الذي نعتمد عليه في عملنا كله .

ويعد هتلر نفسه من اكبر مريدي مكيفلي ، ويقول انه قرأ ثم قرأ كتاب الامير الذي الفه الفلورنسي الكبير ، وهو يرى انه ضروري لكل رجل من رجال السياسة وانه لم يعرف كنه السياسة الابعد قراءة هذا الكتاب الذي يرهف الحس ويوقظ الذهن ، ولذلك فانه ينحي باللائمة على السياسيين الالمان وعلى وزارة الخارجية التي ليست الا تقاليد بالية واياما ضائعة واوراقا وصيغاً لا فائدة منها ، كما ينتقد تقارير السفراء ووسائلهم في استطلاع الاخبار التي لاتخرج عما تنشره الصحف ، اما تقاريرهم التي عليها صبغة علمية فليست الاحجة تتخذ لاقامة البرهان على استحقاقهم مايتقاضونه من رواتب ضخمة ويتمتعون به من الجلوس على الارائك الوثيرة .

وقد ذكر هتلر في صدد بحثه عن مكيفلي انه يهتم باقامة « مصلحة سرية » من الاختصاصيين في امور الجاسوسية ، ولكن ليس على النمط الماضي من اعمال

الجواسيس ومحاربة بعضهم لبعض ، بل على النمط الانكليزي من رجال ينفذون مهمتهم بهوى وولوع ، وهو يرى ان يستخدم لاغراضه السياسية كبريات النساء بدلا من اقامتهن في عطالة مملة ، كما انه لايحجم عن الاستعانة حتى بالمغامرين والاشخاص الشاذين في طبائعهم واطوارهم .

وغرور السياسيين في رأيه — يتجاوز كل حد ، وهم يبالغون في تقدير صناعتهم والاحتفاظ باسرارها ، والسفير الذي ينتدبه ينبغي له ان يبذل جميع الوسائل لادراك غايته ، فيؤلف الاضبارات لرجال السياسة الذين يهمونه من اصحاب النفوذ عند الدول ، ويتعرف احوالهم فيما اذا كانوا يشرون بالمال اوبشيء غيره ؟ وما هي مواطن ضعفهم ودخائل امورهم ، وحياتهم وسيرتهم واخلاقهم وشهواتهم ؟ ويرمي هتلر بذلك الى بسط نفوذه في البلاد التي يدخلها عن طريق اكتساب الرجال واصطناعهم ، فذلك افضل بكثير من بث الدعوة التي يراد منها استمالة الجماهير والتي يبالغ في تقدير فائدتها . وهو يعتمد على سلطان الكبرياء وحب المال واهواء النفوس وحكم القوة ، ولا يتردد في استباحة الوسائل ، ولا يكترث فيماسنه العرف والعادة ، ولا يبالي بما يدعي من مخادعته ومؤاربته ونقضه المواثيق وانكاره العهود ، اذا كان في ذلك تحقيق لما يريده ، ومن الآراء الفاسدة عنده مايقال من ان الحرب الدامية هي اخف شراً من هذه الاساليب الحربية الخفية ، وهل الحرب الا حيلة وخديعة وتعبئة وهجوم ومفاجأة ؟ وهل انشئت الامبراطوريات واسست الممالك بالعهود ام بالغلبة والاجتياح والغارة ؟ واذا كان تاريخ المدن الايطالية التي وضعت فيها تلك القوعد السياسية واقتبست اساليبها لايدل على انها طويلة المدى ، فان هتلر لايريد من التمسك بها الا تحقيق غاية تخفف عن بلاده اعباء الحروب الدامية وتفتح ثغرة في السور التي اقيم حولها . والسياسة في نظره لاتقبل اي دستور اخلاقي فهي عمل يتغير ويتبدل ويتقبل جميع الحيل والاساليب على حسب براعة اللاعب ، ولايهم المستشار الالماني مايتهم به من انه سفاك للدماء ، مستبيح للحرم ، طاغية من الطغاة ، لان

السلطة لايمكن انتزاعها من ايدي الاخرين بدون عنف ، والعنف مصدر كل حكم واساس كل سلطان ، ولا يهمه ايضاً مايقال من انه محاط باصحاب المطامع ، فهو لا يريد ان يعترض سبيل الذين يعملون كل شيء لأجله واجل وطنهم ، ولايحاول اصلاح الانسانية ومعالجة ادوائها .

اما مايتعلق بالعهود والمواثيق فقد كان هتلر يكاشف ثقاته بانه لايابى توقيع كل اتفاق يراد منه اذا اطلقت يده في تجهيز بلاده بالسلاح ، وبقي حراً في متابعة السياسة التي يريدها ، وان تنازل في سبيلها عن كثير من الحقوق ، وهو يري من البلاهة ان يحجم عن توقيع ميثاق خشية من ان يضطر ذات يوم الى انتهاكه ،اذ لايوجد ميثاق مهما كان عظيما لم ينقض ولم يبدل ، اما الذين يضطرون الى محاسبة ضمائرهم قبل توقيع اي ميثاق فلاينبغي لهم مزاولة السياسة بل يجب ان يتخلوا عنها ويتركوها وشأنها وماذا يضره توقيع يسرخصمه اذا كان عزقه لخدمة بلاده .

فالكتيبة الخامسة وما يقــــال عنها ، وارسال الجنود في لباس الاسفـار ، والمؤامرات الداخلية ، واثارة الفتن والقلاقل ، ومحاولة ايقاع الخوف والرعب ، وعقد المواثيق حين الحاجة اليها ، ونقضها عند الاستغناء عنها ، ومحاربة الخصم ثم مصافاته ، واستباحة جميع الوسائل لبلوغ الغاية ، كل ذلك تطبيق لمادونه مكيفلي من القواعد ، وما اثبته من الخطط السياسية التي استخرجها من طبيعه الاشياء وحقيقة الرجال ، وكانت هي الفــائزة في كل جيل وقبيل ، حية في نفوس الذين يتولون قيادة الشعوب ، فطوراً تكشف قناعها وتصرح عن ناجذها ، وطوراً تختفي في حجب من الرياء والكتمان .

وجملة القول في مكيفلي ومذهبه انه لم يبذ اقرانه بالآراء السياسية المجردة ولا الاساليب الكلامية الجدلية ولكن علو كعبه يظهر في المشكلات السياسة العملية. وابحاثه امثلة تحتذي في معرفة النفس السياسـية والمناهج الدولية ،وهو بذلك يتكلم عن خبرة وتجربة فقد عرف هؤلآء الامراء والشعوب وادرك اطماعهم ، وخدم

جمهوريته وفاوض الامراء والملوك واستفاد كثيراً من الذين تقدموه ولا سيما تاريخ الرومان واستشهد بما كان يجري عندهم وطبقه على الحوادث والمسائل التي عرضت له في الشؤون المختلفة وهو يبدي في كتاباته حكمة ودقة وقوة لاتجاري ، فلا يستغرب ما كان في القرون المتوالية من الاعجاب بكتبه ومؤلفاته وآرائه . وقد كان شأن المكيفلية يتراءى للناس احيانا انه يتضاءل ويضمحل في حركة الزمان الكبرى ولكنه لايلبث ان يعود فيقيم البرهان على قوته وشدة مراسه وتغلغله في النفوس ، ولما اصبحت المناقشة البالغة للسياسة الجديدة قائمة على مناقشة الحرية والسلطة المطلقة كان مكيفلي يتكلم عن الحرية كرجل لايزال قلبه مشرباً بالآراء القديمة التي لايتسع صدرها للحديث ، وهو لم يتوقع الاضطرابات والقلاقل التي ستحدث بين الملوك والشعوب ، ولكن الزمن لم يكن بعيداً عن تلك الحوادث الكبرى التي ستزلزل بنيان الدول العظيمة في اوربة .

ومهما بالغ المادحون في حسنات المكيفلية لانها تنطبق على روح الزمان وتستمد قوتها منه فلا مراء في انها تذيق الامم العذاب الشديد في سبيل اهوائها ومآربها ، ويمكن ان يستبدل بها ماهو خير منها، فيصح حينئذ القول ان السياسة الشريفة هي خير ما تعتمد عليه الحكومات وتقره الدول ، وقد حفلت صحائف التاريخ السياسي بانباء الرجال الذين وثقوا الصلات البسيطة بين الاشياء وبين الاعمال، وفرقوا كثيراً بين المصلحة الخاصة والطمع والشهوة وبين المصلحة العامة والغايات الوطنية ، وبين الاسباب الرفيعة وبين الاسباب الدنيئة ، وانشأوا تقاليد مأثورة في البراعة السياسية تعذر معها ادراك النجاح بالوسائل المألوفة والاساليب الصريحة وبالمحافظه على الصدق والاخلاص في سياسة الدول وتدبير الممالك ،ولكنه قام كذلك الى جانبهم رجال ابقوا لانفسهم احدوثة طيبة ، وسمعة ذائعة بالفضيلة والاستقامة ، واثروا اثراً بعيداً في شؤون زمانهم وسياسة بلادهم ، وامثلة هؤلآء كثيرة واخصها بالذكر عند المحدثين وشنطن ، ومهما كانت الاوهام السائدة ، فانه عند ظهور رجل من هؤلآء الرجال الموصوفين بالاخلاق القويمة ،

كان يحاط بالاجلال العام الشامل ، وكانت سلطة الفضيلة عنده تقوم مقام الدهاء والفطنة ، على انه لا يقال ان الفضيلة معناها الاستخفاف بالبراعة والاستهانة بالمجاملة ، وعدم الاكتراث بمقتضيات الظروف ومسايرة الحوادث ، والذي جعل الفضيلة ضعيفة الشأن في السياسة حرمانها احيانا من الذكاء والتجربة اللذين هما اساس النجاح ، واللذين لا تستطيع الفضيلة ان تستخف بهما او ان تقوم مقامهما ، وعلاوة على ذلك فان الفضيلة لم تكن دائما في المكانة الرفيعة والمنزلة الجليلة التي تخضع لها الدسيسة وتطاطيء الحيلة ، وتتضاءل في جانبها وجوه الرياء وتضمحل المصاعب والعقبات ، فتصمد للسياسة وشباكها واحابيلها بعزيمة صادقة فخورة ، ونفس كبيرة مطمئنة ، اما الفضيلة الضئيلة الضعيفة فانها تسلم وتذعن ، وهي لا تريد الشر ولكن ليس لها قوة على ارادة الخير ، وهي تثير الغضب بترددهـــا وتمسكها اكثر من ان تعتز بحزمها وامانتها ، وضعف الفضيلة يفسدها ويجرىء عليها الرذيلة ، ويعطي المكيفلية اكثر حججها وبراهينها ويمهد سبيل العذر لهـــا.

٦ — طائفة من آراء مكيفلي
في كتاب الامير وتيت ليف

الرجل القوي : ان الرجل القوي ينظر الى العالم كما هو والى الرجال كما هم ، ولا يهمه كيف يكون الامر ولكن يهمه الامر نفسه ، والمنافسون غير الصالحين هم الذين افسدوه ، لان سوء الطبع الذي جبل عليه الانســان حال دونه ودون التمسك بمحاسن الخلال .

رجل الدولة : على رجل الدولة ان يجتهد في اجتناب المساويء التي تضيع الدولة ، فلا يجوز ان يكون بطيئاً في ادراكه متقاعساً في حركته ، ولا يجوز ان يركن في الثقة الى حد الاضاعة ولا في الريبة الى حد الاملال : ويجب ان يدرك في صميم لبه اذا كان يجب ان تملأ القلوب محبته او ان يكون مخوفا جانبه ، واذا

لم يستطع ان يكون الاثنين معاً فخير له ان يبعث الخوف في النفوس من ان يبعث الحب لان عامل الخوف يتوقف عليه ، وعامل الحب يتوقف على سواه .

صفات الامير : يجب على الامير ان لايستنيم بالثقة الى غيره ، وان يعلم انه من الخيرله ان يقوم بحق ما حالف عليه ، ولكن كثيراً من الذين لم يعبئوا بحلفهم فازوا على الذين اوفوا بعهودهم وحافظوا عليها ، ولو ان الرجال كانوا كلهم صالحين لكانت هذه القواعد غير محمودة ، ولكنهم لما كانوا في كثرتهم فاسدين لايكترثون بغيرهم فلا ينبغي الاكتراث بهم ، وعلى الامير ان لاينصرف عن الخير اذا استطاع اليه السبيل ، وان يتعود على الشر اذا لم يجد حيلة في اجتنابه ، والظهور بمظهر الرجل المتخلق بالفضائل هو غير التخلق الحقيقي بها ، والفضائل في ذاتها قد تكون ضارة اما الادعاء بها فلا يكون الا نافعا ، وجماع ما في الامر المحافظة على الدولة وتوسيع نطاقها ، ولاجل الوصول الى هذه الغاية فما من وسيلة لاتعد شريفة وعامة الناس لاترى غير الظواهر ، والعالم لايتألف الامن العامة ، وليس هنالك الا الحقيقة الواقعة والانانية وتقدير الامور وعدم الاكتراث للخير والشر والحق او الباطل والقيام بالعهد او النكوص عنه، فينبغي عقد العزيمة واعداد الشعور وتوجيه العاطفة وخلق رجل مصطنع فوق الطبيعة ، لايبالي بوسائل النجاح ولكن بالنجاح نفسه ، ولايهمه الا ان يكون كبيراً مع الظهور بالمظهر الحسن وان تجرد في عمله من الضمير والشعور والاخلاق واضاف اليها بعض الرذائل والجرائم

الامراء الحديثون : يستولى القلق على جميع الامراء الحديثين بعد استيلائهم على مقاليد الامور . لان الدول التى يمدون ايديهم اليها ويتمكنون منها لاتستند الى اساس ، فهم يشعرون انهم مهددون في كل ساعة وان دولتهم غير ثابتة ، وقد لايكون اكثرهم في بدء امره شيئاً مذكوراً فهم يخشون ان يعودوا الى ما كانوا عليه ، ولاسيما اذا شهدوا في يوم من ايامهم ضياع الفرصة وذاقوا وبال امرهم ، ولكن من الذي يعلم الى متي يدوم الحظ الذي هو في الغالب سريع التقلب سريع

الزوال ،تسقط ثمرته قبل نضجها ، فالمتغلب على الامر محاط بالاخطار ، لايذوق طعم الهناء والراحة ، ولا يبرح مرهفاً سمعه ومحدقا ببصره .

واذا بلغ شخص من العامة منزلة الامراء فانه لاينال ذلك الا بجده ومساعفة الحظ له ، وكبار الرجال تؤاتيهم المقادير بالفرص السانحة ، والفرصة هي المادة التي يسبغ عليها الرجل صبغتها ، وحسن انتهاز الفرص من اسس الفضائل ، اما الذي ينال الامارة بعزيمته وفضل قوته فانه يركب الصعاب حتى ينالها ،ولكن لايصعب عليه الاحتفاظ بها ، وطبيعة الشعوب متبدلة ، وقد يسهل اقناعها ، ولكن من الصعب بقاؤها فيما تقنع به ، والذين تصل اليهم الامارة عن طريق سواهم ، فانه من السهل وصولهم اليها ، ومن الصعب بقاؤهم فيها ،الا اذا كان الذي بلغ الامارة رجلا مقدما في رأيه موصوفا بالحكمة وسعة العقل .

والامير الجديد يراقب في عمله اكثر من الامير الذي يرث الامارة ، وكثير ماهم الذين يعتقدون ان امور هذا العالم تحكم بالحظ وبالعناية اكثر مما تحكم بتعب الرجال وعنائهم ، وقد يرافق الحظ بعض الامراء ، ولكن اذا اعتمدوا عليه وحده اصابهم الدمار عند ما يتخلى عنهم فعليهم ان يحسنوا مسايرة الزمان حتى يجتنبوا عواقب الجدود العواثر .

مخاوف الامير ومطامعه : الامير مهدد في ملكه بامير جديد او جار طامع وهو لايرعى عهدا ولا ذمة ولا مودة ولا حلفا ولا رابطة ولا صهراً ولا قرابة الا اذا كانت هنالك مصلحة له . وفي الداخل فالامير المستبد هو اقل طمأنينة واذا كان مزوداً بالسلاح وكان الجند تحت امره فانه مع ذلك يخشى من هو اعظم منه واشد من ان تحدثه نفسه بانتزاع ملكه واستئصاله وعلى الامير الحازم ان يتقي الاخطار وان يستعد لدفعها والدهرموات، واذادنت منه فقد ذهب اوان معالجتها ، ولايجوز السكون الى المثل القائل : يجب التنعم بحسنات الزمان الذي نحن فيه فان الزمان يسوق امامه كل شيء : الخير كالشر والشر كالخير .

وقد يهاجم الامير غيره خوفا اكثر مما يهاجمه حقداً وطمعاً ومخدوع من يظن ان حسنات الحاضر تنسى سيئات الماضي عند كبار الرجال ، وفي الدول القديمة والدول الحديثة يعتمد في البقاء على القوانين الصالحه والاساحة الماضية . وقد يعمل بعض الامراء في سبيل الاحتفــــاظ بدولتهم على نزع سلاح رعاياهم وآخرون على بث التفرقة وغرس الاحقاد ويعمل بعض الامراء على استمالة الذين يرتابون منهم ويقربون اليهم . وبعضهم يشيد الحصون وبعضهم يقوضها . وسلامة المملكة لاتتوقف على ان يكون فيها امير يحسن تدبير شؤونها ولكن بان يكون فيها امير اذا مات تبقى المملكة ثابتة . واذا توالى اميران ضعيفان في مملكة قضيا على الملك مالم تكن قواعد الدولة مكينة واركانها ثابتة .

الصدق والخداع : ما اكثر ما يكون الامير محموداً اذا ايد ملكة بالصدق ولم يفتقر الى الخداع غير ان التجارب تدل على ان كثيراً من الامراء الذين لجأوا الى الخداع قد استطاعوا مغالبة الاحداث وزادوا في ملكهم وسلطانهم واستطالوا على الذين جعلوا الصدق رائداً لهم .

الامير الاخرق المحتقر : على الامير ان يعني باجتناب مايجعله اخرق اويسبب احتقاره ؛ اما ان يكون اخرق فذلك اذا كان نهابا يطمع في اموال الرعية ويتطلع الى نسائها ، وهذا ما يتم اجتنابه ، وهو يكون محتقراً اذا كان كثير التبذل ماجنا متخنثاً جبانا مترددا ضعيف الرأي خوار العزيمة ، ويجب ان يعرف عنه كبر النفس والجرأة ورباطة الجأش والقوة ، وانه اذا قضى امراً فلا يرده شيء عنه ولايستطيع احد ان يغلبه على رأيه او يتمكن من السيطرة عليه ، ولايكفي الامير ان تكون لديه الصفات السلبية اي ان يجتنب المساوئ بل ان هنالك من المحاسن ما يتحتم عليه الانصاف به ، وعلى كل حال فانه يجب محاذرة احتقار الاجانب فانها تثير الاحقاد والامور التي تجعل الرئيس محتقرا في الشعب حرمانه اياه من النفع وتكبره عليه وغروره ويجب ان يكون الامير آمنا في شعب آمن .

المؤامرات : قديكون الامير عرضة للمؤامرات وهو مايدفع اليه الخوف والحسد او خشية العقاب ، فعليه ان يقاومها بسمو نفسه وحسن سياسته ووقور عقله وكمال تدبيره وصلاح قوانينه والدفاع عن اصدقائه وحماية اوضاع الدولة ، واذا اضاف الى ذلك محبة الشعب له وعطفه عليه فمن المستحيل ان يجد من يتجرأ على مقاومته وفي ضد ذلك فانه يخشى كل واحد من اعدائه الذين يتجرأون عليه . واذا كان الشعب يبغض الامير فان المعاقل والحصون وحدها لاتفيده . وعليه ان يضيف الى ذلك محبة الشعب واخلاصه وولاءه .

اصدقاء الدولة وخصومها : قد يجد بعض الامراء صدقا واخلاصاً في بدء دولتهم عند الذين يرتابون بهم اكثر من الذين يوحون اليهم بثقتهم وهم يبذلون جهدهم لازالة مافي نفس الامير منهم اوما كان سبق لهم عمله ، وقد يجد المتتبع في شواهد التاريخ مايدل على انه في كثير من الاحيان يسهل على الامير ان يستميل خصومه من ان يستبقي اصدقاءه الذين سبقت معونتهم له : ولا يجوز ان يساء الى احدهم يولى عملا كبيرا في الدولة واذا عرف الامير انه صديق او عدو غشيت العيون مهابته واذا عرف انه لاهذا ولا ذاك اقتحمته العيون ، والامير المتردد ينقاد الى خطة الحياد بين الاعداء والاصدقاء وذلك مايقضي عليه ، ومن المهم حسن اختيار الامير لوزرائه فاذا كانوا من اصحاب الكفاية والوفاء عد رجلاً حكيما ، واذا كانوا بضد ذلك فهذا الاختيار هو اول خطأ ارتكبه ، ولا يجوز ان تكافأ الاغلاط في دولة ، كما انه لابد في التجديد والاصلاح من التمسك ببقايا الماضي ، والامير الحذر يفر من المخادعين ويثق بمن يقول له الصدق فيما يسأله ويستشيره والمشورة لازمة ولكن عندما يريدها الامير ، واذا كان فاسدا فانه لايستفيد من نصح او استشارة الا ما كان من قبل الصدفة والرجال ينصحون ويخلصون اذا لم تكن هنالك اسباب تدعو لغير ذلك .

الحرب : ليس المال بعصب الحرب كما يظن غالباً ، ومن السهل الابتداء بحرب ولكن من الصعب الانتهاء منها كما يريد البادىء ، فيجب ان يعرف قوته

ويفكر في العواقب ، والقتال لايكون بالذهب ولكن بالحديد ، والذهب لايكفي لحشد الجيوش وتعبئتها .

والهجوم والدفاع في القتال يتوقفان على حالة البلاد العسكرية او الجغرافية على ان المهاجم اكثر حماسة وهو يسلب خصمه موارد ثروته ووسائل حربه ويطرح الضرائب ويغنم الغنائم ويتغلب على المقاومة ، اما المدافع فخير له ان ينتظر وهو يعرف البلاد ويتصرف بقواه ويستطيع ان يستعملها كلها من غير ان يخاطر بجميع مالديه في خارج بلاده .

والمرء يخدع نفسه اذا ظن انه يدفع العدو المستكبر بالخضوع له ، فالخضوع لايجر نفعا ولكنه يؤذي ويضر ، وعلى الاميران يحتفظ بشأنه ومنزلته وخيرله اذا كان لابد من التسليم ان يدع للقوة سبيل انتزاعه ، واذا كان التسليم ينشأ عن الخوف من الحرب وعن الرغبة في اجتناب اهوالها فان الحرب مع ذلك لاتجتنب ، واكثر الدول شقاء التي تطلب السلم ولا تناله ، كما انها لاتستطيع المثابرة على القتال ، والحرب التي تبدأ بدون خوف تستمر بدون خطر وتنتهي بدون خسران .

وحسب الدول ان تقنع بالنصر ، واذا طمعت في غيره فانها تضيعه ، واكبر خطأ تقع فيه الدول المهاجمة هو في رفض كل صلح يعرض عليها اذا كانت القوى المهاجمة اكثر منها واعظم ، ولكن الرجال في الغالب يسبحون في فضاء واسع من الآمال يعتمدون عليها ويهلكون فيها ، والخديعة من مفاخر الحروب والتخلي عن الاصدقاء المهاجمين كالتخلي عن معقل بعد احتلاله بدون الدفاع عنه .

الجنود والقادة : ايهما افضل جيش صالح قائده فاسد ام جيش فاسد قائده صالح ؟ يقول يوليوس قيصر : ان كليهما جدير ان لايعتمد عليه ولا يركن بالثقة اليه ، ومع ذلك فانه يسهل على الجيش ان يجد قائداً اكثر مما يسهل على القائد ان يجد جيشا وان كان لاينكر الخطر من وجود جيش بدون قائد ، والفخر مضاعف للقائد الذي يجمع الجيش المتفرق ويحارب به العدو وينتصر عليه ، والتبدل الذي

يقع في المعارك وانتشار الاراجيف يبعث الفوضى في الجيش غير المنظم اكثر مما يبعثها في الجيش المنظم ، والتنظيم يجري احيانا لاجل الاحراز واحيانا لاجل الاحتفاظ ورئيس واحد في جيش افضل من وجود رئيسين قديرين يتنازعان السلطة ويختلفان على النفوذ ، واسوأ الدفاع الذي تسوده الفوضى ، واذا اريد ان ينتصر الجيش في الحرب فينبغي ان يثق بنفسه ويثق بقائده ،ولا شيء يفيد القائد كمعرفة خطط العدو .

وكان الرومان في تقاليدهم القديمة يجتنبون معاقبة القادة اذا ارتكبوا خطأ وساروا بجهالة على خطة تضر بالدولة ويرون انه يكفيهم ما اضاعوه من النصر حتى يضيفوا الى ذلك النكال والعقاب .

الاوضاع السياسية : تتشابه الاوضاع السياسية في الشعوب لان الرغبات واحدة والاهواء واحدة ، ويدب الفناء في الدول عندماتفسد القوانين والاخلاق والعادات ، ويجب التبديل عند تبدل الزمان حتى يكون الحظ مساعفاً، وفي الغالب ان الجمهوريات تنشىء الرجال في الاوقات التى تحتاج اليها فتحتفظ بحظها ولكنها تغير ببطء فيكون ذلك سبباً في اسراع الدمار اليها . والمنفعة او الحرص يجعل افساد الرجال هيناً ، فعلى واضعي القوانين ان يحولوا دون ذلك وان يمنعوا الاطماع من ان يطلق لها العنان بدون زاجر ، لان الانسان يذهب من طمع الى طمع وهو يبدأ بدفع ما يؤذيه ثم يعمل على اذية سواه

سلامة الوطن : ينبغي ان يدافع عن الوطن بكل وسيلة ، واذا كانت سلامة الوطن في خطر فلايجوز الوقوف عند اي اعتبار او علة او وجهة نظر في الظلم والعدل والقسوة او الرحمة والممدوح او المذموم ، لان الواجب كل الواجب في سلوك الخطة التى فيها سلامته وصيانة حريته ، والمواطن الصالح لايهتم بما يصيبه في سبيل وطنه .

كلمات شتى : لايعمل الرجل عملا صالحاً الا لحاجة ، والمرء في الغالب يكون بين الصلاح والفساد .

الزمان يلد كل حقيقة .

لا يجوز ان يغامر المرء بكل حظه ما لم يبذل كل قوته .

لا يجوز التمسك بالوعود التي تمنح بتأثير القوة .

يتحمل المرء الجرح الذي يصنعه بنفسه اكثر من الجرح الذي يصنعه به غيره .

لايجوز الانتقال من حال الى حال تناقضها بدون توسط .

الفصل الثاني

رشليو
وتقاليد فرنسة السياسية

١ — سياسة فرنسة الخارجية

منذ بدأت المملكة الفرنسية تتألف وتجتمع اخذ الخلاف يدب دبيبه بينها وبين المانية بسبب الارجاء الفاصلة بين الدولتين والتي تدعى بها كلتاهما وتريدان تبسط فيها سلطانها ، فكانت حروب الفتح ضروساً وحروب المقاومة عنيفة ، وقد ملاء هذا النضال صحائف التاريخ الاوربي ، وتطور باطوار مختلفة تأتلف مع الزمان الذي كان يقع فيه ، وكذلك شأن الحجج التي يدافع بها كل فريق عن حقه ، فقد كانت تتبدل قواعد الحق العام ، ولكن الغاية كانت تبقى ثابتة لاتتغير مهما تغيرت الوسائل، وهذا الدوام على رأي واحد ، والثبات في متابعة غاية واحدة برغم جميع الثورات والتقلبات التي حدثت في الافكار والاشياء، تشرحه الحوادث والظروف التي تنشأ عنها التقاليد الكبرى للشعوب والدول ، وقد ظهرت منذ ايام فرنسة الاولى هذه العلائق الغريبة التي ترافق تكون الشعوب وتؤلف قوانين التاريخ .

ان السياسة الفرنسية قررتها الجغرافية ، ودعا اليها الشعور الوطني قبل ان يحض عليها حق الدولة ، وهي مؤسسة على قاعدة امبراطورية شرلمان . ومبدأ هذه القضية الكبرى في تاريخ الدولة الفرنسية هو الخلاف الذي لم تتم تسويته حول هذه العوامل والمؤثرات ، ومنه كان يستمد الملوك اسباب اطماعهم ورغائبهم ويستمد المتشرعون مصادر براهينهم واحتجاجاتهم وتستمد التقاليد الشعبية قوتها التي كانت تقود الملوك الى ادعاآتها والمتشرعين الى البحث عن نواحي الحق وحججه.

وما كادت المملكة تخرج من الظلمات حتى اخذ المؤرخون والشعراء يذكرون الملوك بما كان لاسلافهم من جد صاعد وعز باهر، واصبح المثل الاعلى الذي ينشدونه ويتطلعون اليه ملك شرلمان الكبير، هذا الملك الذي كان عظيما في داخل فرنسة وفي خارجها، والذي كانت تستخرج السياسة قواعدها من قواعده واساليبها من اساليبه، وبقيت كذلك في اصولها وفي حقيقتها في ايام جميع الملوك الطامعين، اما الغاية فهي الفتوح واما الوسائل فهي التقاليد واما الاداة فهم المتشرعون .

وقد نشأ الى جانب الملوك طائفة من رجال السياسة، وطائفة من رجال الكنيسة خاصة، فكان منهم المفاوضون واصحاب الاصول وواضعو القوانين وممهدو السبل ومهيئو الحجج، أعدتهم الفطرة وغذت ملكاتهم التربة الصالحة وخرجوا من اعماق المدن وتقدموا على حين غرة في ميدان السياسة فهم يقترحون ويناقشون ويعرفون اوربة وامراءها كما يعرفون فرنسة وسادتها، وهم الشهود الباقون للتقاليد التي نشأت في الشعب، ولولا هذه التقاليد لما عرف شيء من امرهم.

وفي مقدمة الملوك الذين عرفتهم فرنسة وادوا لها اجل الخدمات بسياستهم ودهائهم هنري الرابع، وكان وزيره سوللي واضع الخطط الكبرى في زمانه. وقد امتاز هذا الوزير بحرصه الشديد على نمو بلاده واتساع سلطانها وعظمة ملكها، وكان شديد التمسك بخططها وتقاليدها، يطمح الى ان تسود فرنسة اوربة كلها وذلك بالقضاء على بيت النمسة وابقائه في اسبانية فقط وتقسيم اوربه الى ممتلكات يقيد بعضها بعضاً، وتأليف جمهورية نصرانية فيها يرأسها البابا وتحكمها فرنسة، وكذلك اضعاف منافسي هذه الدولة والفت في عضد خصومها، وتقوية انصارها وتعزيز اصدقائها واحاطتها بمجموعة من الدول المحايدة التي هي في الحقيقة دول خاضعة لها، وطلائع الدفاع عنها، ثم طرد التتر من اوربة واحياء امبراطورية القسطنطينية .

وقد اسندت هذه الخطة، اي انشاء امبراطورية نصرانية جامعة، الى هنري الرابع ولكنها كما قلنا الوزيره سوللي، وقد تلقاها عن بعض الذين سبقوه وجردها من الاوهام

والخيالات التي تأباها فنون السياسة واساليبها وزينها بالاحلام الدينية ، وقد عادت بعد ثلاثة عصور الى الظهور بمظهر جديد واسلوب انيق وضعه (سييس) ، وتصبح فرنسة بحسبه مسيطرة على اوربة ، سائسة لامورهـا ، محاطة بجمهوريات تأتمر بأمرها ، حاملة في العالم لواء السلم وناشرة بين الشعوب مذاهب الثورة . وما برحت القوة المغيرة تجد مؤيداً وناصراً كما ان العدل والحذر يجدان مدافعاً وحامياً ، فترى عند جميع السياسيين القدماء هذه المزية في وضع الحجج الجديدة للدفاع عن تقاليد موروثة ، والاستناد الى الحق والفلسفة في تبرير خطة معينة وتنفيذ سياسة مقصودة ، فيتابع ذلك فريق بحرص اعمى وفريق بطمع شديد ، وآخرون بالحكمة والصبر اللذين يميزان السياسة الصحيحة ويرفعان من شأن اصحابها . وينتمي الى هذه الطبقة مؤسسو السياسة الفرنسية الحديثة وهم الذين يصورون الماضي ويحددون تقاليده ويعنون بالمستقبل ويقررون سياسته : هنري الرابع ورشليو ومزران العمال الخالدون لاعظم امر قامت به فرنسة القديمة وهو معاهدة وستفالية .

وكان هنري الرابع اقل الملوك تعلقاً بالخيالات ، ولكن تستهويه البراهين المنطقية واساليب التفكير الجميلة ، وكان يحب ان يسمع الى سوللي فيما يبديه من آرائه وخططه ، على انه يجد فيها مالا يرضى به ومالا يعتقد بوجوده وهو السلم اوما لا يتفق مع اهوائه ورغباته وذوقه وهو التجرد عن الغاية .

وقد نشأ الكردنال رشليو في تقاليد السياسة التي سنها هنري الرابع وتلقن مبادئها وغذي باساليبها ، فكانت نيته تتجه الى ايطالية وكان يتطلع الى الرين ويريد ان يحمل حدود فرنسة اليه ، فاقتفى الكردنال الكبير خطط الملك الداهية ووسعها واضاف اليها ، وكان يزداد حرصاً وطمعاً كلما ازداد فتحاً ونصراً ، كما قال عن نفسه في مذكراته عند البحث عن خطط هنري الرابع التى انارت سبيله .

ولم تكن هذه التقاليد متمكنة من نفس رشليو وحده بل كانت تجتمع عليها كلمة حزب كبير وطني وملكي معاً ، وهو حزب رجال السياسة ، ولما كان رشليو

قد اعتمد على هذا الحزب ، وحدد ميوله بما كان له من سلطان ، وبما بهر به العيون من رونق ، فنال وشيكاً ما يريده من الحكم واخذه بقوة اخذ عزيز مقتدر . وقد كتب « مالرب » عنه منذ سنة ١٦٢٧ يقول : ان في هذا الرجل شيئاً يتجاوز حد الانسانية . . . والمسافة بين نهر الرين وجبال البرنات لا تظهر كافية له . . . وهو يريد ان يحتل شواطىء البحر الابيض وان يذهب الى ارجاء الشرق البعيدة . . . فقس عظم خططه على عظم شجاعته .

حقا لقد كان رشليو مؤسساً لا نظير له ، وكانت خططه ايجابية وآراؤه واضحة بسيطة ونافذة ، وكان يتفوق في تمييز الفرص وحسن انتهازها ، فعندما ساد الهدوء المملكة ، واخضع الخارجين عليها ، وجاء وقت التفكير بتأييد الامراء البروتستان في المانية على بيت النمسة اذا كانوا يتخلون عما يملكون دون الرين ، فكتب مذكرة الى لويس الثالث عشر يبين فيها الفوائد العظيمة التي يجنيها الملك من هذا العمل والخطر اليسير الذي فيه ، فهو يستطيع ان يمد حدوده الى الرين بدون عناء ، ولكن ينبغي قبل كل شيء اعداد العدة وتمهيد السبيل وذلك باحتلال اللورين ، ومتى تم انجاز ذلك فان حدود فرنسة تصل الى الرين في بضعة اشهر ويمكن مهاجمة فلاندر عند وقوع اي اضطراب في اسبانية .

ومع ذلك فقد كان المفكرون في ايام التقاليد يضعون على السنة العلماء القواعد السياسية الحكيمة ويتحدثون بها ، ومما قالوه في تلك الايام على لسان فيلسوف حكيم واذاعوه بين الناس :

عليك ان تجعل حداً لامالك ورغبتك

ينبغي قبل كل شيء ان تزن خطتك وقوتك ، فلا تتجاوز في خطتك ما لديك من القوة .

لا تستول ابداً على ما لا تستطيع ان تحتفظ به .

٢ — رشليو في طريقته واساليبه

كانت حدود الرين قاعدة كبرى لسياسية رشليو التي عمل فيها على تنفيذ الخطط التقليدية ولما كان لابد من الاتيان بالشواهد الحقوقية والبحث عن الاصول والبراهين والسوابق ، فقد اعد نشرة ذكر فيها ان الامبرطور لاحق له في الحدود التي هي دون الرين ، وليس له فيها الاحق التغلب ، على حين ان حدود فرنسة بقيت على الرين خمسماة سنة ، وعلى هذا المنوال اخذ المتشرعون في اعداد الحجج وذكر الاسباب وتقرير الاحكام .

ولم يكتف رشليو ، بالمفاوضة والقتال لتحقيق غايته ، بل اراد ان تكون سياسته وطنية ، وان يؤيدها الرأي العام ، فاوصى بوضع المؤلفات التي نشرت في عهده وفي عهد سلفه ، وعمل على ارشاد الفرنسين وايضاح الاسباب والنتائج لخطة الحرب والسياسة التي يتبعها ، وكانت البراهين مهيأة لاتفتقر الا الى اقتباسها من التقاليد وابرازها في اساليب ذلك العصر ، وقد اقتفى المؤلفون في القرن السابع عشر خطوات من سبقهم ، وجاء من بعدهم متشرعو الثورة الفرنسية الذين ذهبوا نفس المذهب عند تقلدهم الاحكام ، فحاولوا ان يطبقوا صيغ الشرائع العامة الحديثة على تقاليد الفتح القديمة ، ولاعجب في ذلك فان الذين وضعوا الخطط وسنوا التقاليد خرجوا من اصل واحد وتلقوا فكرة واحدة وشعوراً مشتركاً في الدواوين والسجلات واعمال الدولة . وكان جميع هؤلآء المؤلفين والجدليين يعتقدون اعتقاداً واحداً ان سعادة العالم مرتبطة بسعادة فرنسة وان السعي للسلم العالمي يكون بتعزيز فرنسة في اوربة ، ويرون انه من الحق الذي لامرية فيه ان تلحق فرنسة الالزاس واللورين ، وهي بذلك لم تأت الاحقاً وعدلا ، فلا تقف الادعاآت عند حق التملك السابق بل تتجاوزه ومتى بدأ الانحدار في هذه الوهدة فان الفصاحة والبلاغة لايقفان عند حد ، والمتشرعون يكشفون القناع عن الادعاآت حينما يجدون نفعاً بذلك ويأتون بالبراهين الشرعية لتأييد صحة مدعياتهم .

واحسن شاهد على ما بلغته هذه الخطط السياسية من المنزلة عند الناس في ايام الكردنال رشليو انه كتب في وصيته هذه الكلمة المشهورة : ان غاية وزارتي ان تماد الى بلاد الغال حدودها التي منحتها الطبيعة اياها ، وان يكون ملك الغاليين فيهم وان تكون الغال هي فرنسة ، وحيثما كانت الغال القديمة تكون الجديدة . واذا كانت قد انكرت صحة هذه الوصية فان بينات كثيرة قد اقيمت لاثباتها ، ومهما كان من امرها فان الغاية التي ارادها منشىء هذه الوصية كائنا من كان توافق التقاليد الوطنية وتعرب عن رأي الكردنال وتشرف ذكراه ، ولا شيء اجمل منها لاثارة اعجاب الفرنسيين .

في عهده غلب الانكليز وفتحت مدن كثيرة والحقت اللورين وتم الاستيلاء على معظم الالزاس ، وقد استوسقت لفرنسة الامور حتى لم يبق لها جار لم تغلبه في المعارك ولم تظفر به في الحروب ، ولم تنتزع منه البلدان ، ولا بدع اذا اهتز الفرنسيون عند مطالعة اخباره ومالوا طرباً للمجد عند تذكره . فقد كانت فرنسة مركزاً للسياسة الاوربية ، وابقى رشليو للذين خلفوه وضعاً اوشك ان يبلغ التمام وتقاليد وطنية لا تزال تبنى عليها افضل سياسة خارجية وهي ان يخدم مصالح الوطن الحقيقية اكثر من شهواته ومطامعه ، وطمأنينته اكثر من عظمته .

وقد انتشرت فكرة الكردنال اي انتشار ، لنراها بعد قرن ونصف عند الرجال الذين تسنموا غارب الحكم في فرنسة ، في فرصة من فرص الزمان سنة ١٧٩٤ ، من غير ان يعدوا لذلك تربية غير تربية الفرنسيين الذين عاشوا في زمانهم ولم يكن لهم علم الكردنال في الامور ، ولا معرفته بالرجال ، ولا حزمه ، ولا رجاحة عقله وثبات اخلاقه ونفاذ بصره ، وقبل كل شيء لم يكن عندهم تناسق عبقريته العجيبة ودهائه الخارق العادة لذلك ما برحوا مريدين مضطربين ومقلدين غير متبصرين ، فلم يحفظوا منه الا قواعد عامة يسرفون في حملها حتى يحرفوها عن مواضعها ويتخذوا منها آراءً مجردة سفسطائية ، وهم مع ذلك يحتجون بامثلته ويفاخرون بالانتساب له .

واذا قيل تقاليد رشليو فلاينبغي ان يراد بذلك تلك التقاليد المبهمة التي ما برحت تسوق الفرنسيين الى السعي وراء حدودهم الطبيعية ، ولا سياسة التحالف مع اوربة لمحاربة بيت النمسة التي كانت تضرهم اكثر مما تنفعهم ، فقد نشأت هذه المذاهب قبل رشليو وورثها الفرنسيون من تربيتهم التقليدية في نضال الامبرطورية ونضال شارلكن في القرن السادس عشر ، واستعان بها رشليو في زمانه كما يستعان بالرأي العام في هذا الزمان ، ولكن الذي علمه معاصريه ولقنهم اياه ، هو ان فرنسة في وسط المنازعات الدينية وجب عليها ان تتخذ سياسة خاصة بها مقتصرة على منافعها وهذه المنافع العليا قائمة على ان تكون لها حدود طبيعية ، او غير طبيعية كافية لحماية عاصمتها ووحدتها الموروثة وان لا يكون في جوارها دول قوية تهدد هذه العاصمة وهذه الوحدة وكان شديد الحرص على الاتفاق مع بريطانية العظمى ويقول ان المحالفة معها كانت دائماً مفيدة لفرنسة وهي اشبه بطريق مؤد اليها .

وكذلك فان رشليو ابقى لمن جاء بعده جيشاً حسن القيادة ، وجعل العمل الذي قام به في الخارج بمأمن من القضاء العاجل عليه ، واحسن في اختيار رجل بعيد عن مشابهته ، ولكنه ترسم خطواته واقتفى آثاره في السياسة الخارجية ، وهو الكردنال مزران ، فلم يغير موت رشليو شيئاً من السياسة العامة التي ذلل صعابها لان لويس الثالث عشر لم ينزع ثقته من الرجال الذين كانوا يعملون تحت امرته ، ووضع على رأس المجلس مزران الذي وصى به رشليو ليكون خلفاً له .

وقد عرف رشليو النفي في افنيون وكان يخشى ان يلاقي شراً من ذلك فكتب يومئذ هذه الكلمة التي يجدر ان تردد : لا يوجد براءة مأمونة في الوقت الذي يراد فيه ان يكون هنالك مجرمون . وكان رشليو شديد الوطأة ، قد ارهب الرجال واخافهم مما حكم فيهم ، وكان رشيلو يبحث عن رجاله في كل مكان ، فيختارهم من رجال الكنيسة ومن الاسر النبيلة ومن اناس مجهولين ، يغيرهم ويبدلهم ويؤيد

الذين اختارهم ،وقد يتخلى عنهم، ولكن بعد آن طويل عندما يعرف خطأه فيرسل فريقاً الى القتل ، وآخرين الى البستيل او يكتفي بعزلهم .

ومما قال في وصيته عن الفرنسيين :

ان خفة الفرنسيين وسرعة تقلبهم لا يمكن التغلب عليها الا اذا قام فيهم رجل بيده الامر والنهي ، فهم قادرون على كل شيء اذا كان الذين يقودونهم يستطيعون ارشادهم الى ما يقومون به من الاعمال ،واذا وجد الملك رؤساء جديرين بالقيادة فانه لا يفقد الرعية الطائعة،والرأي الشائع في ارجاء العالم بان الفرنسيين عاجزون عن اتباع النظام ورقابته ، وليس لذلك سبب الا عجز الرؤساء الذين لا يحسنون اختيار الوسائل الضرورية للغايات التي يريدونها .

وكان كردنال الدولة الكبير يرشد الشعب الفرنسي في الخطط الكبرى التي خلفها له ويضع له المناهج الخالدة ويقود سفينته في البحار النائية ، على انه كان يلقي معارضة عنيفة في القصر وفي المدينة ، ولكن الملك كان يؤيده كل التأييد ويعرف له عظيم خطره وجميل اثره ، وفخر القرن السابع عشر يرجع كله اليه والى اساليبه وخططه ، وهو منشيء السياسة الفرنسية الكبرى في اوربة وفي خارج اوربة.

٣ — رشليو ومزران

ابقى رشليو للمملكة وصية هي الكردنال مزران فاتم عمل سلفه وحافظ عليه لامته وورثه لبلاده ، وهو الرجل البارع في اعمال السفارات وصناعة المفاوضات، وكانت طريقته مألوفة فلا يسيطر بعنف ، ولكن يستعين بالدسائس ويلجأ الى المكائد ، وكان يتواضع ويظهر بمظهر الضعيف حتى يغفر له ماهو عليه من عظم الشأن ، وكان عليه ان ينال ثقة امرأة ملكة ام ، لا ثقة ملك استولى عليه حب المجد وجلال العرش ، فلا فائدة من محاولة اقناعها ، ولكن ينبغي ان يعمل على الاستئثار بقلبها ،وقد ادار معركة وستفالية والبرنات السياسية بمهارة لم يسبق لها نظير ، وهو بعيد عن ان يكون رجل دولة مثل رشليو ؛ ولكنه في السياسة

الدولية قد يكون في بعض الاحيـان اكثر براعة منه . ولم يكن الفرنسيون يقدرون مزران حق قدره ، ولا يحلونه المحل الذى هو اهله ، والاجيال الذى جاءت بعد رشليو لم تنظر الا في اسباب عظمته ، كما انها لم تنظر الا في النواحى الضعيفة التى عرفت في حيـاة مزران ، على انه لولم يحمل مزران على عاتقه ميراث رشليو لمـا كنانعرف ماذا يبقى من خطط الكردنال العظيم ، وقد اخرج مزران مرتين من الحـكم ، فـكان في منفاه يدبر الامور ويرشد وينصح ، وعندما يرجع الى السلطان كان يقوم باعباء الحـكم بنفسه المطمئنة وصبره العجيب ، فيستأنف الامور من حيث ابقاها ، ويربط حول اسبانية الشباك التي وضعها ، وكانت مرونته لاتعرف القطع ، ينظر الى المستقبل ببصر حديد ، ولا يفرط حتى في معاملة اشد اعدائه ،حاسبا حساب الزمان وتقلباته ، ومن مفاخره انه لم يأمر بقتل احد ، وقد استطاع هذا الايطـالي العبقري ان يحرز لفرنسة برغم حالتهـا السيئة يومئذ انتصـارات باهرة .

وقد لبس مزران كسوة الكهنوت ليدخل السلك السياسي في خدمة البابا ولم يصبح فرنسياً الا في سنة ١٦٣٩ ، وجعله رشليو كردنالا واستخدمه في القصر وفي ايطـالية ، وقد اقام في اسبانية بضع سنين يتعهده النجاح في جميع اعماله ، ولم يكن احد كمثله عارفا باسـاليب السياسة الايطالية والخطط الاسبانية ، وقد اصبحت ايطالية منذ القرن السادس عشر الارض التقليدية للسياسة الحديثة وقد دخلت منذ ايام فليب الثاني في دائرة النفوذ الاسبانية ، ولم يكن من قبل الصدفة ان الرجل الذي خلف رشليو في ادارة السياسة الفرنسية ايطاليا ، ولا ان الرجل الذي خلف مزران (ليون) قد اسندت اليه مهمات كثيرة في ايطالية وقضى بها عهدا طويلا ، فهذا الانتخاب وذاك يدلان على موقف فرنسة من سياسة هذه الارجاء .

فمزران واشباهه من عمـال رشليو، لم يكن وزير خارجية اعين في خطة برجال افضل منهم وارسخ قدما في تدبير الامور ، ولم يكن مثلهم رجال سياسة مساقين الى العمل النافع ، فقد كانوا يعرفون ان باريس تقرأ تقاريرهم ، وتغوص

على دقائقها وتدرك بعد غورها ، وتناظرها ببعضها وتقارن بينها وتنقب عن مواضع النقد فيها ، ويعرفون ايضا ان مقترحاتهم لاتبقى بدون جواب ، ولا خططهم بدون مراقبة ، وهم في هذه الحال من التأييد لهم والاحاطة بهم يجودون بعظيم جهودهم ، ولم يقتصر رشليو على رجال السياسة بل كان له عمال من جميع الطبقات وفي كل البلاد ، وله في كل مكان عيون وآذان ، يريد ان يستفيد من جميع المواهب ويعرف كل شيء ، وكذلك فقد كان له اقلام يوحي اليها وقد اوجد الصحافة الرسمية لانه يعرف قوة الرأى العام وقوة الاتجاهات السياسية التي تؤثر عليه ، فهو يهتم بشأنها ويضع يده عليها ، ويقود وكلاءه ويعلمهم ، وكان كثير المرونة والملاءمة في اسلوبه ، ولكن فكره السياسي لم يكن اشد مراساً منه ، والقول بانه كان يصيب شاكلة السداد في الاعمال العظيمة التي يقوم بها هو حق لانه يتقن صناعة رجل دولة ورجل سياسة ، وقد تميز هذا العهد بالمنازعات القومية وكان رشليو استاذاً فيها ، يعمل على ان تكون الوقائع طبقاً الاراء والمذاهب ، وقد كان يدعو لاسباب سياسية الى التمسك بالعدل والصدق في العلائق الدولية ، ولم يكن يتنكب عن المفاوضة حتى مع الدول التي يحاربها . ومفاوضاته مستمرة لسبب او لغير سبب في شأن جميع البلاد ، وقد خصص الفصل السادس من وصيته لما سماه مفاوضات مستمرة .

هذه هي السياسة التي تخرج مزران في اساليبها وفنونها ، وجعلته يتخذ المناهج التقليدية قاعدة السياسة الخارجية ووسيلة لتعزيز السياسة الداخلية ، بعد ان بلغت تلك المناهج من القوة انها اصبحت داخلة في وثائق الدولة فحقق مزران خططاً مهمة ، وحاول سنة ١٦٤٦ ان يضم نيس وسافوا الى فرنسة وكان الاستيلاء على البلجيك احب خططه اليه وآثرها عنده ، وكان يرمي الى آمال بعيدة يتوقع ان يعوض بها عن الدماء المسفوكة والاموال الضائعة بحيث لايستطيع ان يجد الناقدون سبيلا للحط منه او الطعن به ، ولكن خاب امله ووجد طلاب

النقد ما ارادوه ، وطعنوا مزران طعنات شديدة ، فلاموه على خوره وتردده وتوانيه ، ومن تهكمهم عليه قولهم : ما اعظم الفرق بين هذا العقل الراجح وبين اضطراب الكردنال رشليو . وكان يظن انه ليس مايضاف الى هذه العبارة الجارحة وفي المديح كما في الذم يزيد التشبيه رفعة او ضعة . اما الاواخر الذين كانوا اقل ريبة من المعاصرين فقد اعجبوا بالكردنالين على سواء اعجابا يستحقه عملهما المشترك الذي ظهرت محاسنه ، وعرفت مع الزمان قوته .

ولكن اليست ايطالية التي كانت بحق مهد السياسة الدولية هي التي انجبت مزران البارع ؟ ان مزران كما وصفه عارفوه لم يكن يبالي ما صنع لاجل الوصول الى غايته ، وكان يجاري الحوادث اذا شاء ، ويستخرج اسرار المكائد مهما اتقن حبكها ، ويضاف الى هذه المزايا صبره ومضاؤه ولا يوجد وزير مثله اثار الغضب والشتم ، فاستطاع ان يهدىء ثورة الناقمين منه وان يزيد في عناء الشاتمين له ، ولم يكن يهمه ان يجرح في كرامته ولا ان تنظم القصائد للطعن فيه ، ولا ان توزع النشرات للايقاع به ، وكان يعرف جيداً قيمة المجاملات فلا يخدع بها ، وكان ينسى مختاراً ويثأر نادراً ، ولم يكن قاسيا ولا غير راحم ، واذا لم يكن طيب القلب فانه لم يكن شديد الحقد ، وقد كان رشليو في زهوه يحب اقتحام الاخطار ولا يكترث بها اما مزران فقد كان يعمل على اجتنابها قبل وقوعها ، وكان يسلم غير ضعيف ولكن اتباعا لخطة ويلجأ الى الرأي المغب المختمر ، بدلا من نزوات الشهوات والاطماع والاندفاعات الشديدة التي لاتدل على بعد نظر ، فكان يفكر في العواقب في بلاد لم يكن فيها من يحسب حسابا للحوادث ، ويميل الى الاساليب الايجابية التي هي في ذوقه وفي صميم نفسه ، ويفضل السلطة المفيدة وان كانت خفية على العصبية الظاهرة ، يقدس المنفعة ويتهالك لاحراز النجاح ، وكان الزمان اكبر نصير له حتى انه كان يقول كثيراً ، « انا والزمان » ويحب ان يردد ذلك ، ولم يكن يسحق كل مايعترض سبيله كما كان يفعل سلفه رشليو ، بل يحتال على الامور باحسن الطرق واوثق الاساليب ، ويرى انه ليس عليه معالجة المبادىء والاكتراث بها ، ولكن الاهتمام

بالمنافع والسعي لادراكها ، وقد فاوض كثيراً من مشاهير رجال السياسة وتغلب عليهم الواحد بعد الاخر ، بمنحهم في الظاهر ما يريدونه ، ولكنه من غير ان يتنازل في الحقيقة عن شيء .

وبعد كل ما قيل عن مزران فقد عاد التاريخ وانصفه ، فهو الذي ورث رشليو ونفذ سياسته وخططه ووصاياه ورفع الى اعلى الدرجات الحرص على الاسم الفرنسي وتابع بوسائل مختلفة الغايتين الاساسيتين اللتين وضعهما نصب عينه : توحيد فرنسة وتوسيعها . وقد نجح نجاح رشليو من غير ان يتبع وسائله واساليبه ، واذا كان دونه بكل مايتعلق بالادارة الداخلية فقد كان مثله في ادارة الحرب والسياسة ، واذا كان فكره اقل سموا واتساعا فانه لم يكن اقل مضاءاً وحزما واعل قلبه كان اكثر تصميما واصح ارادة ، وهو الايطالي المولد كان - كما قال بوسوه - اهلا بعبقريته وعلائقه لصيانة مصالح الوطن .

واذا كان مزران لم ينجح بتقديم الامبرطورية للويس الرابع عشر ، فقد ابلغه مع ذلك جميع اغراضه السياسة في اوربة ولا سيما باضعاف بيت النمسة ، وبتحكيمه بملك اسبانية ، وقد هدئت فرنسة وضمنت حدودها وهابها غيرها . ولم تبق تخشى تآمر جيرانها ولا الثورات في بلادها ، واثقة بنتائج السياسة الحميدة التي سار عليها رشليو ومزران .

وكان فريق من اعداء الكردنال ينتقدونه ويدعون انه اطال امد الحرب في اسبانية لغاية في نفسه وبدون فائدة لفرنسة ، فكتب سنة ١٦٥١ يشرح سياسته ويقول : اني اذن لا اكون غادراً بل اكون محروما من العقل والرأي لو انني لم اشتغل بكل جهدي وكل قلبي لاقرار السلم ، لان في عودة الطمأنينة والسكينة الى المملكة وتمتع الناس بحسنات السلام التي حرمتهم اياها الحرب مايعود على بانی المفاخر ، ولكنت اتلقى من التهاني والمحامد مالا يقاس بما اتعرض له من الالام ومن الطعن ، ولكن وزراء اسبانية لم يكونوا يريدون الا المطاولة والمماطلة في المفاوضات مع

فرنسة ومحاولة انتهاز الفرص التي كانت تشجعهم عليها قلاقل بلادنا واضطراباتها ، وتحول دون موافقتهم على اقامة سلم عادل يتمتع الجميع بحسناته .

٤ — نضال فرنسة للامبرطورية المقدسة
وظفرها في مؤتمر وستفالية

كانت الطريقة التقليدية في سياسة فرنسة ترمي الى اضعاف الامبراطورية واقصاء الفرعين الالماني والاسباني عن بلادها ، وقد بلغت فرنسة ماتريده فتضاءل البيت المالك في النمسة ، ولكن لم تحدث تبدلات كبرى في السيادة وان تبدلت الصلات والعلائق ، فاصبحت فرنسة تجد في المانية انصاراً اكثر مما تجد خصوما ، والامبراطورية التي كانت مهددة اصبحت مسالمة ، والعقبة الكبرى التي كانت تعترض سبيل فرنسة اصبحت اداة لهـا ، وقد عظمت قوة فرنسة اكثرمما اتسعت ارضها ، ولم تكن هذه القوة لتثير الحسد سوى عند بيت النمسة ، وكانها لم تكن حينئذ الا لحماية حق كل ذي حق ، واصبحت السياسة الفرنسية الخارجية قائمة على القاعدة التي اسمدت المملكة في داخلها وهي : القصد في تحكيم القوة .

اما المحالفات التي كانت تتخذ قاعدة للسياسة والتي كانت مرتبطة بعضها ببعض بنظام دقيق ، فانها لم تكن عظيمة الا بقدرماتتماسك اجزاؤها فالالماني والسويدي والهولندي والبولوني حتى التركي يجد كل فريق ان الآخر يؤيده في دفاع عدو مشترك ، ولكن عندما تهددهم فرنسة كانوا يسرعون بالانقلاب عليها ، وبذلك تنحل جميع العرى التي كانت معقودة ، وما كان الالماني يتردد في محالفة الفرنسي لمقاسمة جزء من المانية ، ولا يتردد كذلك في الانقلاب على فرنسة لاسترضاء مواطنيه وهو بصيانة ما بقي من الدولة يسوغ لنفسه الاحتفاظ بما احرزه . كانه يشتري نصيبه من التغلب بما يبذله من المعونة لسلب فرنسة ما نالته من الفتوحات بسببه .

والذين افرطوا بجهالة في تطبيق سياسة رشليو قادهم ذلك الى خيانة مبادئها وظنوا انهم باقامة دولة اخرى الى جانب بيت النمسة وتعزيز السلطة وازالة قسم

كبير من الامارات يقيمون سداً في وجه ذلك البيت ، على حين انهم في الحقيقة يقيمون غيره مقامه ، بدلاً من محاربته والقضاء عليه ، وقد كان رشليو ينظر لايطالية كما ينظر لالمانية ، فاذا كان يفكر بانشاء اتحاد دول فيها ، فذلك لصيانة الحريات العامة من القلاقل والغارات الدائمة التي يقوم بها الاسبان ، لالانشاء بيت ايطالي يكون اشد خطراً على فرنسة ، ويحل محل النفوذ الاسباني الذي لم يكن يطاق .

وكان لهذه السياسة القائمة على اساس التسوية والاتفاق غاية جوهرية هي فائدة فرنسة وتكوين وحدتها . ولم يكن هنري الرابع ورشليو ومزران من علماء الاديان ولا من الفلاسفة ، ولم يكن يدور في خلدهم ان يخضعوا سياسة الدولة الى عقيدة ولا الى قاعدة من القواعد المجردة ، فقد دافع رشليو عن البروتستان في المانية لنفس السبب الذي قاتلهم لاجله في فرنسة ، وذلك بانهم كانوا يؤلفون دولة في قلب الدولة ، وكان يوافق سياسة الكردنال قيام فريق منهم وراء الرين لمقاومة بيت النمسة وافساد امره عليه ، وهكذا كان هؤلاء السياسيون الكبار يسيرون على اسلوب لانظام فيه ولكن الخطط التي يضعونها تتماسك ويستعين بعضها ببعض .

وجميع هذه الخطط كانت تناسب عبقرية الامة ، ويظهر ان الفرنسيين في محاولاتهم الخارجية مشابهون جداً لاعمالهم الداخلية ، يحبون الحرب والمجد ولكن سرعان مايملونها ، واذا كانت الحرب بعيدة قليلا فانهم يشتد حنينهم اليها ، وقد قال نابليون مرة وهو في علياء عزه ، يقود جنوداً اشربوا حبه والتعصب له : سلوا الجيش كله تجدوه يتوق الى فرنسة . والفرنسيون لايعرفون الوني في الدفاع عن وطنهم ، ولكنهم قد يضيقون ذرعا من اتساعه ، ويعال صبرهم به ، واذا خرج هذا الشعب من حدوده فهو لايكاد يعرف نفسه ، وبرغم شجاعته الخارقة لايستطيع ان يسيطر على الشعوب الغريبة ، ولا تظهر قدرته العظيمة الا في ايام بؤسه ، وكان رشليو يفهم ذلك حقا ويقول : ماذا يكون لو ان الفرنسيين كانوا اشد صبرا ، ويقول : لو اضيفت هذه الخلة الى شجاعتهم لما اتسع العالم لفتوحاتهم . ولكن

في الاعمـال الخارجية حد لاينبغي تجاوزه ، ولم يكن الفرنسيون انفسهم قادرين على ان يتمدوه ، وهذا هو سر نجاح الطريقة التقليدية التي توجها مزران في مؤتمر وستفاليه (مونستر ـ اوسنبروك) واسس فيه سلم سنة (١٦٤٨) .

وقد ادركت فرنسة في هذا المؤتمر ما ترمي الى تحقيقه من اضعاف الامبرطورية المقدسة والمقام الامبرطوري ، وكانت فيه المعركة الاخيرة للنضـال المتوارث بين فرنسة وبين التحالف الاسبـــاني الهبسبورغي ، واصبح الامراء اولى حقوق في الامبرطورية واستقلال في التعاقد مع بعضهم وفي التحالف مع الدول الاجنبيـة لضمان بقائهم وامانهم ، على شريطة ان لايكون في هذه العقود مايضر بالميثاق الذي حالفوا عليه الامبرطور . وتم بعد ذلك الاتفاق المسمى عصبة الرين والذي تعاقد فيه امراء المـانية وملك فرنسة ابتغـاء المحافظة على استقلال الامراء ومقاومة اعتداء بيت النمسة وتسلطه .

وجملة القول ان معاهدة وستفالية قررت الفصل النهائي بين الامبرطور وبين الريخ وتداعى المبدأين القديمين الجامعين (الامبرطورية والبابوية) ، وقيام ممالك عظيمة في اوربة ترجع اليها جميع المساعي السياسية والعسكرية في البر والبحر ، وتعتمد عليها الدوَل الثانوية وتتعلق بها بحيث تصبح انظمة الدول ومجموعاتها تابعة لتأثير المحالفات المختلفة ومتحولة معها ، وكان الامبرطور حينئذ في وضع لايقاس به وضع اي ملك او عاهل ، والبحث فيه من حيث الحقوق العامة لايؤدي الا الى الخيبة ، اما من حيث التاريخ والسياسة فان في معاهدة وستفالية كان القضاء على اعمال التخريب والتدمير التي عرفتها الامبرطورية منذ اواخر القرون الوسطى ، وحلت محل دولة عظيمة مخيفة دول شتى ، كل واحدة منها مملوءة تيهـاً وغروراً بنفسهـا واستقلالها ، منقادة الى اساليب الظلم والاستبداد التي كانت الصفة المميزة في ذلك الزمان .

اما المفاوضات في هذا المؤتمر فقد كانت عسيرة صعبة ، بسبب الخلافات الكثيرة حول حق التقدم ، ورغبة المطاولة والتأجيل املا باحراز ظفر عسكري لان المعارك مازالت مشتبكة في جميع الميادين ، وكان قواد فرنسة يحرزون شيئاً فشيئاً انتصارات متتابعة ، وهذا ماحمل الامبرطور على ابتغاء الصلح ، وكانت فرنسة معتدلة مياسرة ترمي في سياستها الى محاسنة العناصر الكاثوليكية في الامبرطورية ، وكان امراء الالمان موافقين على منحهـا الشيء الوحيد الذي تطلبه وهو الالزاس ، وقد بذل مزران كل ماعنده من براعة حتى سوى مختلف المشاكل وارضى مختلف الرغبات ، وقلما بلغت السياسة ما تريده كما بلغت في هذه المعاهدة .

ومؤتمر وستفالية هو اول مؤتمر كبير عليه طابع اوربي ، بحثت فيه شؤون عديدة تتعلق باعادة السلم وتطور العلائق بين الدول ، وتقرير القواعد للتساوي وحل خلافات التقدم بين ممثلي الرؤوس المتوجة وممثلي الجمهوريات والمدن الحرة والدول الصغيرة . ومجتمع كهذا المجتمع يثير بنفسه حادثاً في غاية من الخطر ، وهو يعد بداية الشرع الدولي الحديث ، على انه لايستنتج من نصوص صلح وستفالية مايتفق والغايات التي اريدت منه ، ومع ذلك فقد كانت عظيمة الشأن في محافظة الحالة الراهنة وبقيت العهد السياسي لاوربة مدة قرن ونصف .

وبعد عشر سنين من هذا المؤتمر كان اتفـاق البرنات الذي عقد فيه للويس الرابع عشر على الاميرة الاسبانية ماري ترز ، بعد ان كانت على وشك ان تتزوج بامير من سافوى ، فقاد مزران المفاوضات وجرت محادثات شفوية ، ونظر في اثناء ذلك بالصلاحيات الممنوحة للمتفاوضين ، وبالاعتراف بالملوك وبالعنـاوين وامور التشريفات وحقوق الممثلين السياسيين .

٥ — تبدل السياسة الفرنسية واضطرابها

محالفة النمسة ومنابذة انكلترة

افسد لويس الرابع عشر الطريقة التقليدية ، وجعلت السياسة التي سار عليها فرنسة مكروهة في اعين الدول المجاورة ، ومتهمة في اوربة كلها ، فاحتاج خلفاؤه

الى شيء كثير من الحذر والحكمة ، حتى يخففوا من شعور الخوف والحقد الذي اثاره عهد الحروب والفتوح في هذا الزمن الطويل من الملك ؛ وقد واتاهم الحظ فكانت سياسة الاعتدال ابرع سياسة واجلها فائدة لفرنسة ، فاتسعت حدودها وقل اعداؤها وتضاءل خصومها ، واصبحت اسبانية التي كانت توقد النار وتسعر الاحقاد وتثير الضغائن والحزازات بخطأ الاسلوب اكثر من خطأ الرأي ، وهي ضعيفة غير مستقلة ولا مخوفة ، يحكمها فرع من الاسرة المالكة في فرنسة ، اما النمسة فلاشك انها زادت وعظمت باستيلائها على البلاد المنخفضة وميلانو ونابلي وصقلية ، ولكنها توزعت قواعدها وكثرت مخافرها الامامية التي كانت تعرضها للخلاف والنزاع ، فبينما كانت الدولة الخاصمة لفرنسة تتقهقر وتتضاءل كانت فرنسة تتعزز وتتقوى ، وكانت تجاورها دول اضعف منها تحرص عليها وتخشى بأسها ، واصبحت تستطيع ان تقوم مرة اخرى بمثل ماقامت به في الماضي وتحرص على صيانة السلم الذي هيأه لها رشليو ، وتحمل الى الاقطار الاخرى مافاض فيها من قوة وزاد من مادة ، واصبحت تبحث عن مجال للتوسع في المستعمرات فصادفت انكلترة في طريقها ، فتجدد بذلك عداء حرب المئة سنة او اشد ، غيران فرنسة لم يكن لديها من الموارد ماتستطيع ان تمد به هذا النضال الذي اشتبك في جميع انحاء العالم ، وهي عندما خاضت غمرات القتال في كندا والهند لم يعد يجوز لها ان تعبيء جنودها على ضفاف الرين واصبح عقد الصلح في اوربة والتخلي عن اطماعها الواسعة فيها الشرط الجوهري لادراك الحظ الذي تستطيع ان تفوز به في امريكة وآسية ، ولكنها لم تحسن القيام بهذه المهمة وتخلفت عن الاضطلاع باعبائها ، فعرضت سلطانها للخطر في العالمين باتباعها سياسة الاستعمار وسياسة الفتوح في اوربة في آن واحد ، واحسنت انكلترة الاستفادة من هذه الفرص فعززت الروابط بينها وبين النمسة واصبحت صديقتها وحليفتها في مناوأة فرنسة ، على حين ان هذه كانت تستطيع ان تعزز موقفها باستمالة الدول الاخرى .

ولم تنجح السياسة الفرنسية في تدابيرها المختلفة ومحالفاتها المتعارضة ، فهي طوراً تكون آلة في يد انكلترة ، وطوراً تخاطر بكندا ليحتل فرديك سلزية وهو حليف لا ثقة به ، لم يبال ان تخلى عنها سنة ١٧٥٠ وانضم الى الانكليز ، ثم ينتهي بها الامر فتحالف بيت النمسة وتصبح اداة لسياسته . وقد ظن في باديء الامر ان هذا التحالف سياسة حكيمة ولكنه انقلب الى كارثة ، فحافظ ملك روسية على سلزية واستولت بريطانية على الهند ، وادت سياسة لويس الخامس عشر الى انتصار انكلترة انتصاراً عظيما بدلا من الانكسار الذي كان الغاية الوحيدة لتلك السياسة ، وقد خسرت فرنسة مكانتها في اوربة ، وبعد ان كانت ضمت اليها في الماضي جميع الدول القلقة من النمسة ، اضطرت الى الاختيار بينهم وبينها ، فتركت للنمسة الحبل على الغارب تعمل ماتشاء ، واضاعت بالنتيجة كل شيء لارضاء هوى ماري ترز وشفاء حقدها على فردريك ، وفي آخر الامر تقارب هؤلآء الالمان المختلفون من غير ان تشعر فرنسة ، واتفقوا مع روسية على تمزيق بولونية اقدم الاصدقاء للملكية الفرنسية .

وميثاق الاسرة الذي عقد بين فرنسة واسبانية في سنة ١٧٦١ كان العمل الوحيد النافع الذي تم في هذه النكبات والكوارث ، واذا كان الاتفاق بين فرنسة والنمسة موضع انتقاد شديد في الدولة الاولى ، فان ميثاق الاسرة كان امراً متفقاً عليه ، وكما انه كان يوحد بين الاسرتين فقد كان كذلك يقرب بين الدولتين ، ولم ينتقد هذا الميثاق الا في بعض الامور التفصيلية ، وكان يعد الشعب الاسباني خيالياً ، مغروراً ، قليل الحذر ، شديد البغض للاجانب ، متقهقراً مئتي سنة عن شعوب الحضارة ، وملك اسبانية ليس الا رجلاً من افراد الامة ، وهو كما قال منتسكيو ، كثير الغنى في دولة كثيرة الفقر ، تعيش من مستعمراتها ، وتستأثر بخيراتها ، فتدمرها وتدمر نفسها باستثمارها ، وهي مع

ذلك تتقد فيها جذوة الرغبة في استرداد جبل طارق وطمع بأمر اشد خطراً وهو احتلال البرتغال ، وكانت هذه الاطماع توثق العرى بينها وبين فرنسة التي كانت تستعين باساليب السياسة المختلفة لتزيد في استمالتها وتجدها الى جانبها في مقاتلة انكلترة التي تتهادى في اذيال النصر ، ولكنها لم تبرح شديدة اليقظة والحذر والترقب ، وكانت عداوة فرنسيي القرن الثامن عشر الموروثة لاتطفأ غلتها ولاتدفع خصومتها، ولم تكن المعاهدات مع انكلترة الا مهادنات ومحاجزات ، وبقيت البغضاء كامنة ، وبقي الحقد الذي ولدته العصور ونكأته جراحات الكرامة التي توقد في صدور الفرنسيين حماسة الانتقام ، وكان المعاصرون يشبهون العلائق بين انكلترة وفرنسة الى ما كان بين رومة وبين قرطجنة ، وكانت انكلترة دائبة في سهرها على ما يجري في ثغور فرنسة ومعاملها ودور صناعاتها ، تعمل على صد كل حركة تبدر منها ومقاومة الدسائس المتوقعة والمظاهرات المهددة .

وقد حاول لويس الخامس عشر بما بذله من جهود متناقضة في سياسته السرية ان يصلح ماافسدته سياسته العلنية، ولم يكن ذلك الانتيجة قلق ضائع لفكر متعب، يدل فيه الاضطراب على الضعف ، ويضحي كل ما اوتيته نفس من القدرة على ادراك الاشياء العظيمة او على تحقيقها، في سبيل العمل المضني المريب الذي تقوم عليه اساليب تلك السياسة الماكرة ، واصبحت فرنسة في رأي جمهور الموظفين في الشؤون الخارجية واثقبهم رأيا واكثرهم كرامة دولة لاشأن لها عند الشعوب ولا قوة ولا مادة ، قد تحول الحسد لها الى ازدراء، واضاعت وزارتها كل ثقة ، وبدلاً من ان تظل كما كانت في السابق مرجعاً للأعمال العظيمة ، اصبحت تشاهد ما يجري من الامور وهي هادئة ساكنة لايعبأبها ولا يقام وزن لرأيها .

وكان الشعب شاعراً بهذا الانحطاط ، شديد الغضب على الاساليب الجديدة التي تنقض جميع التقاليد السالفة ، التي كانت تعمل منذ دهر توجيه الافكار لمقاومة بيت النمسة ، وتعتبر ذلك من قواعد الدولة ومن الحقائق العلمية كفلسفة الضياء واصول الفن الروائي، وبعد ان تضاءل الاعجاب برشليو ومعاهدة وستفالية،

واسرفت فرنسة في محالفة النمسة وانحاز فردريك الى جانب انكلترة ، اخذ شعور الشعب يتحول شيئاً فشيئا ، واستيقظت في نفوس ابنائه تلك الذكريات الكبرى وحركت اشجانه تقاليد الخصومة القديمة ، ولا سيما بعد ان بذل ما بذله من الضحايا وتعرض لما تعرض له من الاخطار بغية الانتقام لماري ترز ، فكم انه غدر به واسيء الى مصالحه .

ولم تنقم فرنسة على ملك بروسية لانه كان محبوبا فيها ، وكان اعجابها عظيماً بعبقريته وفتوحاته وحكومته ، وتغلب الحقد الذي كانت تثيره النمسة على الضغينة التي تستحقها بروسية ، والفرنسيون يشتملون على عاطفة الحب والتقدير للذين ينجحون في اعمالهم ، وهم يبغضون البيت المالك في النمسة لانه يمتص دم الامة ، وكانت العاطفة عادلة والمعنى صحيحاً ، وقد فاض شعور الغضب بعد اقتسام بولونية ورأى الفرنسيون كانهم كانوا منقادين للنمسة ، التي استثمرتهم في الحرب وخدعتهم في السلم ، وانهم كانوا يقاتلون في سبيلها بنفس الشدة التي كانوا يقاتلونها بها ، وحاذروا هذا الحليف ، الكثير الطمع القليل التحرج ، ان ينتزع منهم احد اجزائهم وان يطالبهم بالالزاس واللورين او غير ذلك مما رغب فيه ، ولا سيما ان ماري ترز التي كانت مشهورة بالتقى وصداقة الجزويت وعداء الفلاسفة تعد خطايا القصر من صنائع النمسة ، فكل شيء يعمل على كره الرأي العام للتحالف مع النمسة الذي كان مبغوضاً في نفسه ، وفي الايام التي بدىء ان يسمى فيها انصار الآراء الحديثة وطنيين ، فقد جرت العادة ان يمزج في حزب النمسة جميع خصوم هذه الآراء .

غير ان العداء لمحالفة النمسة لم يكن يثير حماسة مريدي الفلاسفة والطبقة المهذبة من الشعب بقدرما كان يثير حاشية الملك واسرته ، فولي العهد على شدة تمسكه بالدين يحرص كل الحرص على تقاليد السياسة القديمة ، ويحاذر ان تعود النمسة فتنتقص بلاده من اطرافها ، كما جرى لها في الماضي ، وكذلك كان رأي رجال السياسة ورأي الوزراء الذين يفاخرون بمعرفة التقاليد ورأي دواوين

وزارة الخارجية التي تفاخر كذلك بالمحافظة على التقاليد القديمة كما يحافظ على النار المقدسة .

وكانت هذه العاطفة عامة كانها نداء وطني وبقيت حتى ايام الثورة ، وقد شاطر المهاجرون آراء الجمهوريين في هذا الشأن وعواطفهم ، حتى ان كاترين الثانية تلقت كتابا من احدهم جاء فيه ان النكبة التي اصابت الملكية منشأها التحالف المشؤوم الذي عقد سنة ١٧٥٦ ، فجمعت الاميرة السيئة الطالع حول رأسها جميع الاحقاد والريب التي توالت في اجيال من النضال والنزاع ، وجاءت الحوادث الاخيرة فزادت في الاثر المذموم ، واصبحت بمجيئها الى فرنسة متهمة في اعين الفرنسيين ، وعدت مجرمة بتمسكها بالتحالف الذي كان في الحقيقة سبب زواجها ويكفي ان يقاس عنف الاهواء التي ثارت على امها وعلى وطنها والتي تابعتها في فرنسة بالكلمة التي اختصرت كل ذلك ، واصبحت لماري انطوانيت حكم الاسقاط والموت وهي : النمسوية .

ولما جلس لويس السادس عشر على العرش كانت المملكة يومئذ اكثر انحطاطا في نظر اوربة منها في فرنسة ، وكانت الامور الخارجية مضطربة قلقة اكثر من الامور الداخلية ، وقد حاول لويس السادس ان يصلح هذه وتلك ، وان يتخذ لكلتيهما نفس الوسائل ، وعاد الى تقاليد التاج باذلاً جهده في التأليف بينها وبين ضرورات الزمان ، فاودع الى دي فرجن تدبير الامور الخارجية والى تورغو تدبير الامور الداخلية ، ولم يكن الاول عبقرياً كالثاني ، ولكنه كان على منزلة رفيعة من صدق الحس ، وتجربة الأمور ، وحب الوطن ، ورجاحة العقل ، وبعد النظر ، وصحة الرأي ، ووضوح المنهاج ، وايثار الفضيلة ، وكان يلام على تردده ، ومن الذي يستطيع ان لايتردد في السياسة الاوربية التي كانت مضطربة ذلك الاضطراب ، كانها تعصف بها الرياح الهوج من كل جانب ، وقد اتهم بالرياء والتقلب ، والتباين بين المبادىء التي كان يقول بها والاوامر التي يصدرها ، ولكن نسي متهموه انه كان يعيش في عالم من المنكرات والشكوك ، وكان عليه ان يجر الآخرين الى رأيه وان

يسمعهم كلمته ، ولا ريب في ان هذا العمل دقيق عسير ، فالمراقب وصاحب الاخلاق والسياسي والذي هو في بطانة الملك يعانون كثيراً بعضهم من بعض ، واذا اضفنا الى ذلك قليلا من التظاهر والاحتفال ، والرغبة في الفصاحة التي كانت في ذوق العصر ، وطلاءاً خفيفاً من التصنع والتكلف ، وجدنا بالمستطاع ان نعد فرجن في مقدمة الوزرآء الذين حكموا فرنسة منذ عهد طويل عقلاً وشرفاً ، وكان يريد ان يرد فرنسة الى خطة فرنسية بدلاً من محالفة النمسة التي قاد اليها ضعف لويس الخامس عشر وعجز وزرائه ، وقد نجح فرجن في مساعيه على حين ان تورغو فشل واخفق ، ولا يجوز ان يرد ذلك الى طبيعة العملين ، والى تعقد الشؤون الداخلية ، وبساطة الامور الخارجية بالنسبة اليها ، ولكن يجب قبل كل شيء ان يرد الى ما لقيه فرجن من تأييد الشعب وثقة البلاد .

وكان الرأي منقسما فيما يتعلق بتورغو ، وكانت المصالح الخاصة متضافرة عليه ومحبطة عمله ، وكان بعث فرنسة وانهاضها يتوقف على السير وراءه ، ولكن تأييد تورغو والنضال دونه يفتقر الى رأي سام وتفكير عال ، اما تقدير فرجن وتقبل سياسته فيكفيه شيء من صحة الحكم ، وسلامة الرأي ، ومعرفة المصالح الفرنسية في اوربة ، وكان لويس السادس موصوفا بذلك ، ولكن عقله الواني المتردد لم يكن ليتحمل تلك الامور المعقدة في السياسة الداخلية ، فاخلى منها ذرعه وترك القيام باعبائها على عاتق كبار موظفي الدولة ، اما الشؤون الخارجية فقد كانت في ذاتها عمل الملك وطبقته واسرته ، اذ هي شؤونه الخاصة التي انقطع اليها بدأبه وتوفر عليها بجهده ، فعرف تاريخ الاسرة التي ينتمي اليها وتاريخ الاسر المالكة في اوربة ، ولم يتعلم ذلك بالدرس والاغراق في الطلب ، ولكن بالحادثات والروايات ، وبنسق الحياة التي كان يقضيها امير مالك ، وقد رد مداركه ومعارفه في شؤون اوربة الى بعض المقترحات الاساسية التي كان عليها بها ، وكان يضيف اليها عاطفة رفيعة من مكانة الملك وحقه وواجبه ، فاعانته هذه النشأة على تلقي النصائح القيمة وابداء الآراء الحكيمة ، وزاد في حذره

خجله وريبته ، فكان يخشى تأثير الملكة في الشؤون الخارجية ، بينما كان يتحمله غالباً في الشؤون الداخلية لانه لم يكن بصيراً فيها ، ومنذ تسنم اريكة الملك برهن على انه يريد ان يدبر سياسة البلاد الخارجية على غير طريقة جده .

وقد كتب دي فرجن الى الملك سنة ١٧٨٢ يقول : تفضل يامولاي بتذكر ما كانت عليه فرنسة عندما استلمت جلالتكم مقاليد الامور ، فصلح سنة ١٧٦٣ القبيح ، واقتسام بولونية وغير ذلك من العوامل السيئة المنكودة اصابت مكانة تاجكم بابلغ اصابة ، وفرنسة التي كانت في الماضي مخيفة الدول محسودة اصبحت ينظر اليها بغير ذلك النظر ، وهي لاتكاد تعد من الدول الثانية بعد ان كانت اول دولة في اوربة ، فاذا اريدان تعاد اليها منزلتها القديمة فينبغي ان تحرر من سيادة انكلترة وان تتخلص من ربقة النمسة ، وقد سنحت هذه الفرص دفعة واحدة .

ولم تعد تهتم فرنسة بعد ذلك الا بتأييد السلم في اوربة ، على ان العمل لم يكن سهل المنال ، فاذا كان فردريك قد اصبح شيخاً كبيراً ومال الى الاكتفاء والدعة والتمتع باملاكه ، فان كاترين الثانية تلميذته الجريئه المتمردة ، والامبراطور يوسف الثاني الذي ينافسها في اغتنام الفرص واقتناصها ، قد وافقت هواهما حروب امريكة وحاولتا ان تتقاسما الدولة العثمانية ، ولكن الصلح الذي عقد بين فرنسة وانكلترة سنة ١٨٨٣ جاء في اوانه وصد هؤلآء الفاتحين عن قصدهم ، ومع ذلك فان روسية استطاعت استبقاء القريم من الميراث المنتظر ، وقد انذرت فرنسة فينة انها لاتريد ان تضحي لها الدولة العثمانية ، ومهما كانت قيمة التحالف مع النمسة ، فان الملك لم يكن يتردد بالعدول عنه اذا اضاع الامل باقناع حليفه ، واذا لم يلب الامبرطور طلبه ومضى في تحقيق خططه اضاع الحرمة التي نالها بسياسة حكيمة في مدة عشر سنين لم تصب فيها مصالح البلاد الحقيقية باذى ، ولما كان يوسف الثاني لايريد ان يتخلى عن مناهجه في الفتوحات ، اصبح التحالف مضطربا كل الاضطراب ومهدداً بزوال عاجل اوآجل ، وقد حاول يوسف الثاني ان يوجه عمله شطر هولندة فلم ينجح وحاول ان يستميل فرنسة بمنحها اللكسمبرغ فلم تصغ اليه ، وفضلا عن ان الملك لم يعده بمعونة يبذلها له ، فقد آزر تحالف الامراء الذي وضع فردريك اسسه لمقاومة عدوان بيت النمسة .

وحق للوزارة الفرنسية ان تغتبط بما نالته من النتائج فقد اعادت الى فرنسة النفوذ الذي ضمنتها لها معاهدة وستفالية ، واستمر لويس السادس عشر سائراً في طريقه حتى يصبح حكم السلم في اوربة ، وعاقد انكلترة وروسية وحافظ على هذه السياسة الحسنة، التي رفعت فرنسة الى المنزلة التي حطها عنها لويس الخامس عشر في سياسته ، المؤسسة على الاماني الغرارة والمطالب الكبيرة ، وكانت المملكة بالغة من الرقي والرخاء حداً لا يستطيع ان يتصور المرء معه الهوة التي تنقاد اليها بسرعة، مالم يؤت قدرة عجيبة على التنبوء ، وكان كل واحد في فرنسة يعتقد انه سائر الى الكمال ، بدون ان يعبأ بالعقبات وبدون ان يخشاها ، فخوراً بانه فرنسي وخاصة من فرنسيي القرن الثامن عشر ، الذي كانوا يعدونه العصر المختار الذي انزلته الفلسفة الحديثة على الارض ، وكان هذا العهد، عهد الاحلام الخائبة والمناهج السخيفة ،يشبه ذروة عالية وقف عليها رجل ، وقد دارت به الارض ، ولكن عرضت له خلال هذه الفترة مناظر خلابة وآفاق واسعة تسبق بوقت يسير اجل السقوط المخيف .

وكان هذا السقوط قريباً ، وقد بلغ الداء الذي يفتك بالعهد القديم غايته ،اما الرونق الذي ظهر فيه فلم يكن الا مسارعة في طريق الدمار ، وكان دي فرجن رجلاً سياسياً بارعاً لا رجل دولة ، ولم يكن له اثر في الحكومة الداخلية التي كان بمعزل عنها ، ولم ينهض في فرنسة رجل مثل رشليو يستطيع ان يقود البلاد في وسط الفتن والقلاقل وان يؤمن حاجتها المال الذي تواصل به الحرب وتستعدلها، وكانت وزارة فرجن قد جاءت في عهد الاضمحلال فصرفت الانظار هنيهة الى السياسة الخارجية ، وشغلتهم قليلاً عن الامور الداخلية ، وكانت الاضطرابات المالية تستوجب اصلاح الحكومة فزيدت الديون لتضليل الرأي العام ،وتفاقم الاضطراب واستفحل الخطر ، ونزلت فرنسة فجأة عما نالته من التفوق في اوربة ، ومات فرجن قبل ان يشهد ، والحزن ملء قلبه ، مصير السياسة التي رفع منارها وقضى لها بنجاحها .

الفصل الثالث

تليران
داهية السياسة

١ — اوربة والثورة الفرنسية

ان التخاذل الذي اصاب فرنسة في عهد لويس الخامس عشر لم يطمئن اعداءها الا مدة قصيرة من الزمن ، فهم مابرحوا يخشون ما تشتمل عليه من الاقدام على الامور الخطيرة ، وما يهزها من عاطفة قومية ، وما الرونق الذي تلألأ فجأة في سمائها عند جلوس لويس السادس عشر الانذير للذين كانوا يظنون بها الظنون ، ويعتقدون انها سائرة الى الاضمحلال وانهافي عرض انقراض عاجل، ولكن سرعان ما كانت تخيب آمال اعدائها الذين يتربصون بها الدوائر ، ويغالون في تقدير علائم ضعفها ومظاهر انحلالها ، فيرونها فجأة تختال في حللها الزاهية التي كانت تتهادى بها في ايام لويس الرابع عشر ، قد استأنفت نشاطها وعادت اليها الحياة ورجعت سيرتها الاولى ، وكانوا يتصورون انها تسير في سياستها على القواعد الآتية :

اولاً ، متابعة الحروب والتأهب لها ، واحراز الفتوحات ، واتخاذ الحجج للاستمرار على التجهز والتسلح ،

ثانياً ، التدخل بجميع الشؤون التي تقع في اليمين وفي الشمال ، والتحكم هنا وهناك بالقوة او بالفتنة ،

ثالثاً ، التمسك بمصلحة الدولة ، وعدم الاكتراث في سبيلها بالمعاهدات او بالرابطة الدينية او بالقرابة او بالمودة ،

رابعاً ، تحريض الدول الاجنبيــة حتى يشغل بعضهـا ببعض فتقودهـا الى التجزئة والتقاسم وممارسة الحروب .

وكل هذه القواعد هي قواعد الفاتحين، وعلائم خطة واسعة عميقة مدبرة منذ عهد طويل، وهكذا كان يصف فردريك الكبير فرنسة، ويظن نفسه قادراً على النيل منها ويشبهها بالغني المترف الذي يتمتع بهناء العيش ويحيط به اناس مسرفون بائسون .

اما النيات التي يعزونها الى فرنسة في اوربة فهي النيات القائمة على التقاليد ، وقد تتهم فرنسة بامور لايقول فرنسي بها ، وليس مما ينتقد عليها حرصها على ان تكون البحار وجبال الالب وجبال البرنات ونهر الرين حدوداً لهـا ، فان هذا العمل مما لا يأباه العقل ولا ينكره ، ولكن الافراط في الاطماع ، والتهالك على توسيع الحدود ، بحيث تصبح فرنسة الدولة الوحيدة في اوربة لا اكبر دولة فحسب ، واذا قادتها مطامعها الى هذا الحد ، واسرفت في الفتوح ، فان ذلك مما يثقل كاهلها ويثير حسد الدول الاخرى ، واذا صـادفهـا مرة نكد الطـــالع كما يصـادف الامبرطوريات كان بذلك فناؤها والقضاء عليها .

والمسألة التي كانت اســـاس الخلاف بين فرنســة واوربــة في ايام الثورة والامبرطورية ، هي ان ادراك فرنسة هذه الدرجة من السلطان والاحتفاظ به ، يحول الدولة الى معسكر محاط بخندق ، والى تسليم الجمهورية الى رؤساء الجيش فتصبح اوربة مغلوبة او مستسلمة ، وكانت انكلترة تريد بعقد الاتفـاقات ان تستعيد بالقوة ما احرزته القوة ، فتضطر فرنسة لاجل التغلب على هذه الخطط ، واستمالة حلفاء انكلترة ، والقضاء عليهم ان تعقد محالفـات منـاقضة ، وتعمل على تجزئات جديدة ، وتخوض غمرات الحروب لتقديم مخافرها الامامية ، والنضال بين الدولتين ادى الى الحصار البرى والى محاولة فتح الشاطىء الايسر من الرين .

فالاسلوب الذي يقود الى هذه النتائج المفرطة يضمحل بنفسه ، واذا سلمنا بانه يستطيع الوصول الى غايته ، وهي السيطرة على اوربة ، فان سـاعة نجاحه تكون

ساعة اضمحلاله ، وهذا ما ادركه الخصم الكبير الذي لقيته فرنسه واقيه نابليون : وليم بيت ، وهذا ما ادركه ايضاً مترنيخ الرجل الحول القلب ، ولم يكن للاثنين في النضال الذي ابتدأه الاول وفاخر بإتمامه الثاني الا هذا الدليل وهذه الحجة ، اما الفرنسيون الذينهم اولومهزة واولو عاطفة فقدطربوا للاحلام الكبيرة وساروا وراءها ، وبقي عزاؤهم وسلواهم ان حكمة رجال السياسة فيهم درأت عنهم الاخطار والنوائب التي حلت بهم والاوهام التي اضلتهم ، بعد ان سعى رجالهم الاكياس لشفائهم منها وتحذيرهم من عواقبها ، وقدكانت آراؤهم الصائبة متناسبة مع قوى الاشياء ، فانه بعد اثنتي وعشرين سنة من حرب لا انقطاع فيها ولا هوادة ، غلب فرنسة اعداؤها المتحالفون وانتزعوا منها فتوحها وانتقصوا اطرافها واغاروا عليها في عقر دارها ، فقبلت السلام الذي اكرهت عليه ولكن لم تهن في توقيعه ، وصالحت اوربة من غير ان تنزل عن مرتبتها التاريخية ، واستعادت عما قليل مكانتها، وسلكت الخطط التي وضع اسسها وزراؤها الحكماء قبل الثورة .

وفي التعاليم التي ارسلت سنة ١٨١٤ ، باسم لويس الثامن عشر ووحي تليران ، الى مندوبي فرنسة في مؤتمر فينة نجد هذه الجملة البديعة الموروثة عن دي فرجن ونظرائه : ان فرنسة تبلغ من العظمة درجة لا تطمئن اليها الدول الا عندما تسودها فكرة الاعتدال والقصد ، هذه الفكرة التي يزداد الحرص عليها بسبب ما توحي به من فكرة اعظم منها وهي فكرة الحق والعدل ، المقترنة بالنفع العام والوزن على سواء.

هذه هي التقاليد التي كان يجب ان تتمسك بها فرنسة ، ولكنها تجاوزتها بعد ذلك ، فاضلتها الاطماع وخدعتها الفرص وغررها المؤتمرون ، وهذا هو حظ اوربة المتصل بحظ فرنسة وتاريخها ، وما كان النزاع بينهما الا تبعاً لحوادث متفاعلة ، فقد اصيبت فرنسة في ذلك العهد بازمة شديدة ، شاطرتها اوربة محنها وتقلباتها .

٢ — السياسة الخارجية الجديدة

لم يشارف العهد القديم على زواله حتى زالت ممه قواعد سياسته الخارجية، ولا سيما التحالف بين فرنسة والنمسة الذي تضاءل حتى لم تبق منه الا رسوم، وقد احاطت اوربة خبراً بذلك، واخذ خصوم الخطة القديمة ومنابذوها يعملون على ان يقيموا في الدولة طريقة سياسية جديدة، كان في مقدمة الداعين اليها رجلان متفاوتان في الشهرة اليوم، ولكنهما كانا متعادلين في عصرهما : دكلو وفافيه . وكان كلاهما في مقام يعين على الاطلاع والمعرفة : الاول مؤرخ الملك، والثاني من مقدمي رجال السياسة السرية .

اما دكلو فلم تكن تهمه النظرات والآراء، وكان اديبا اكثر منه سياسياً، ولكن مذكراته التي نشرت في الملاء اراقي تاريخ حرب السنين السبع، اثارت النفوس على سلام سنة ١٧٦٣ المهين، وبثت الضغينة على النمسة وعلى التحالف معها الذي كان مصدر الشرور التي اصابت الدولة، وكانت تفيض اعجاباً بملك بروسية ورجاءاً لمودته وولائه، وقد حمل دكلو في هذه المذكرات حملة شديدة على ماري ترز وندد بسلوكها نحو فرنسة وتسامحها مع فردريك على الرغم من نكوصه وتخلفه .

وكانت هذه الرسائل المغلغلة تهز من افئدة المعاصرين وتقبح سياسة لويس الخامس عشر وتذكر بخطيئاتها، وما اقبلت سنة ١٧٩٠ حتى كانت بالغة حدها من الشهرة فتهافت عليها الجمهور واشتد بها اعجابه، وهيأ دكلو بما كتبه ورواه الرأي العام، وقام فافيه بارشاده وهدايته .

وكان فافيه قد بدأ عهده بتعاطي السياسة، فبرهن على براعة لم يشك بها احد ولكن اضطراب حياته وخشن لسانه، وشدة ميله الى الدسيسة والرشوة، ومجاراته اساليب الشرطة، كل ذلك كان سبباً في اخراجه من السلك السياسي واقصائه عن المراتب الرفيعة، فسقط في الاعمال الضئيلة المبهمة والحياة

البائسة ، وسافر في ارجاء الارض فافاده كثيراً ماشاهده وتعلمه ، وكان يضيف الى معارفه الواسعة البعيدة دهاءاً كبيراً وبياناً فصيحاً ، فيسبغ على افكاره من الصيغ الاعتقادية مايوافق رغبات اهل الزمان ويواتي ميولهم ، وكانت التفاصيل الفنية والبراهين التي تؤيد مذهبه تستميل النفوس وتحملها على القناعة . وكان شديد الوطنية ، شديد الحب لبلاده حريصاً على عظمتها ، يتأثر جد التأثر بالمطاعن التي توجه اليها ويستولي عليه الغضب .

وجملة القول ان فافيه كان رجلا عبقريا ، وسائساً داهياً ، وهو في ذلك مفكر بعيد الغور فسيح مجال الخيال جم الخطط كثير التدابير مخصب الاساليب ، مبتدع مخترع ، يعبث بعقول مريديه ويستفزهم كما شاء ، يعلمهم السياسة بمزج بين الميل الى المنطق وبين الولع بالاسرار ، وهو من رؤساء تلك الطبقة القلقة من السياسيين التي عرفت في بدء الثورة ، ونشأت في المنتديات والجرائد منتظرة ان تنتشر في اوربة ، وتسلك جميع الطرق الملتوية والمناهج المريبة .

وكانت خطة فافيه ترجع الى مقترح جوهري وهو اضعاف انكلترة ، فقد كانت العقبة الكبرى في سبيل اتساع فرنسة ، ونمو سلطانها في المستعمرات وفي البحار ، بل في اوربة نفسها ، فيجب محاصرتها في جزيرتها ومنعها من تضليل اوربة ولم تكن فرنسة تخشى الا انقياد النمسة لانكلترة ، فعليها ان تبدأ بالقضاء عليها ، وان تحالف بروسية لتحقيق اربها ، وهذا هو سر السياسة الجديدة التي تناقض القديمة ولكنها تحمل نفس عيوبها : منطق في الامور المجردة يطبق على اعمال الدولة وجهل باخلاق الرجال وضرورات السياسة ، وكان فافيه ينتقد محالفة النمسة لانها مغايرة لتقاليد السياسة الفرنسية في الشمال وفي الشرق ، وتضحية بالحلفاء والانصار القدماء في سبيل اطماع النمسة . واذا كان على حق في ذلك ، فقد ضل ضلالاً بعيداً فيما كان يأمله من فصل بروسية عن روسية ، والاتفاق مع السويد ومؤازرة الترك ، والدفاع عن بولونية ، وحماية الدول الصغرى في المانية والمحافظة

على التوازن بينها ، ومعنى ذلك تكاليف بروسية ما كلف به لويس الخامس عشر النمسة ، وهو الانقطاع عن البقاء بنفسها والاستقلال بامرها ، والدخول بسياسة غريبة ومذاهب متناقضة .

وكان هذا التناقض من طبيعة لزمان ، وحظه الوحيد اثارة الاهوآء والثقة بالتقاليد ، فقد كانت برندبورغ اداة اسياسة رشليو ، وكان ملك بروسية من الفلاسفة ، وكل انتصار له يعد انتصاراً للثورة وكان البروسيون النيرون يضمرون حقداً شديداً على النمسة ، وهم اميل الى فرنسة ، وكانت بروسية حايفة طبيعية ، وبتعززها تعزز فرنسة نفسها ، وتكون بذلك قد الفت بين قواعد السياسة وقواعد الفلسفة، على ان الرجل السياسي انما يفكر في مصالح بلاده وفي المحالفات التي توافقها بحسب الزمان وقوة الدول ، وخاصة بحسب عبقريات الذين يقودونها .

وقد انتشرت قواعد السياسة الجديدة في ايام الثورة ، واصبحت مزيجاً غريباً من الدعوة الي السلم والحض على الحرب ، ومن الشعور الانساني والحماسة للفتوح، حتى ان الثناء على رشليو كان يقصف فجأة خلال صحيفتين من الكلمات الخطابية المستعرة المتدفقة على السن الدمقراطيين المستبدين الذين تتألف منهم جماعات الثورة ، كانه لابد لبقاء الممالك من السلام والطمأنينة، ولا بد لبقاء الجمهوريات من القلق وحذر الاعداء، فرومة كانت بحاجة الى قرطجنة ، ومع ذلك فكان على قرطجنة ان تستسلم او ان تموت . وكان البغض شديداً لانكلترة وهي تخاطب بمثل هذه الاقوال : ملكتم فلم تسجحوا ، وظفرتم فاسأتم الظفر ، وهذه ساعة العدل اوساعة الانتقام ، لقد سئمت اوربة الظالمين واستردت حقوقها . هكذا كان يتكلم رشليو الذي يجب ان يبغضه المواطنون لانه كان سفاكا للدماء والذي اعمل السيف بجميع اعدائه حتى ينال مايشاء ، غير ان الامة والدولة ينبغي ان تكرما ذكراه كوزير ، لانه اول من اسمع فرنسة كلمة الكرامة ، واحلها في اوربة المقام الذي يليق بها ... وبرغم التعصب الذى كان يشتمل عليه اليعقوبيون فقد كانوا يسمعون اطراء لويس الرابع عشر الذي استطاع في مدة اربعين سنة ان يكون جديراً بعصره، وكان كبيراً

حتى فيما ارتكبه من الخطيئات ، ولم ينحط في السقوط وفي النكبة لاهو ولاشعبه.

وكانت فرنسة قد تخلت عن الفتوحات جهرة ، وحضت العالم على السلام والوئام واعلنت في ثورتها انه اذا كان الظلم قد فرق بين الشعوب فان الحرية ستجمع شملها ومادا يحسد بعضها بعضا عليه اذا عمتها السعادة . وظلت تنادي بمثل هذه الآراء حتى ظن فريق عندما نشبت الحرب انها ستعين على تحقيق هذه الاماني ، غير انه حدث ماهو اكثر انطباقا على طبيعة الاشياء وعلى اهواء الانسان ، فقد حبب النصر الحروب للثورة فابتدأت الحرب بالدفاع عن الاراضى الفرنسية ، واستمرت في البلاد المجاورة ، والبلاد التي فتحتها فرنسه لتحررها احتفظت بها لنفسها ، ولما لم يبق لدى ملوك اوربة الاقوى حكوماتهم التي توارثتها ، تغلب عليهم شعب كان يقاتل اولا في سبيل استقلاله ثم في سبيل مفاخره ،ولما تقدم للقتال شعوب اوربة انقلب الامر وتبدل ، واصبحت فرنسة لاتعتمد الا على وسائل الدولة وحاربت اوربه بسلاحها ، وقد وقعت في هذا التناقض ، فبعد ان اعلنت الحرب على الملوك واعلنت السلم للشعوب، تغلبت على الملوك وغلبتها الشعوب، فافسدت الثورة الفرنسية قواعدها لتعامل اوربة القديمة ، وتنازلت اوربة القديمة عن قواعدها لتعامل الثورة الفرنسية .

والمنطق وحده ليس من شأن السياسيين الذين يحكمون بحسب مصلحة الدولة، ولا من شأن الشعوب التي يحكمها الهوى والعاطفة ، ولكن للشعوب كما للدول تقاليد تسامي في قدمها تاريخها ،لانها تنشق مع التاريخ من نبعة واحدة وتتبع نفس المجرى ،وتأثيرها فطري جبري للنفوس ، وفي الازمات الشديدة التي تأخذ الرجال على حين غرة ، لايجدون مناصاً من الخضوع لسلطان القواعد المتبعة والاشياء المألوفة والاهواء المسيطرة عليهم او في مجتمعهم ، شاءوا ام ابوا وعرفوا ام جهلوا واذعنوا ام لم يذعنوا ...

وفي عنفوان الثورة الفرنسية القى دنتون خطابة شهيرة طالب فيها بضم البلجيك وايد سياسة الحدود الطبيعية بقوله : ان الطبيعة عينت الحدود وهي من جهات الافق الاربع ، من المحيط والرين والالب والبحر الابيض واليها يجب ان تمتد قواعد جمهوريتنا وسلطاننا . وكان من هذه الخطبة ومن القرارات التي تبعتها ان كتب تاريخ فرنسة كله الى سنة ١٨١٥ ، وابتدأ النضال العظيم مع اوربة وخاصة مع انكلترة لاجل تحقيق آمال فرنسة التي توارثتها منذ اجيال .

٣ — مشكلة الحدود والسياسة في ايام الثورة

مهما كان شأن المحالفات فما هي الا اداة السياسة ، والحدود هي الغاية الحقيقية ، وقد كادت فرنسة سنة ١٧٨٩ ان تنال الحدود التي تبتغيها منذ تأسست الاسرة المالكة ، ومنذ اخذت في عقد المحالفات ونقضها وخاضت غمرات الحرب والسلم في تاريخها الشجي ، ولكن الذي ينبغي ان يعبأ به ليست الحدود نفسها بل حالة الدول التي تجاورها ، وقد كان موقف فرنسة في هذه الناحية افضل من غيرها : دولة متجانسة قوية في اوربة ، والى جانبها دول مجاورة ضعيفة ، وكانت وراء الرين الامبراطورية منقسمة على نفسها وهي هيكل عظيم لاعصب فيه ولا نفس ، ترجوان تعيش بامان وسلامة ، وكانت النمسة وبروسية تقف كل واحدة في سبيل الاخرى وتصدها عن قصدها وتعرقل مساعيها وخططها ، وكانت فرنسة تستطيع ان تسود الدول الصغرى بشرط ان لاتغير عليها ، وكانت ايطالية تحكمها اسر متعادية ، وهي تستطيع بسياسة محكمة ان تضارع ذات يوم سلطة النمسة وكانت اسبانية مرتبطة بفرنسة باوثق معاهدة وابقى صلة مما لم يعقد مثله بين دولتين ، وكانت سويسرة محايدة خوفا وطمعا .

ففي مثل هذه الشروط كان يتساءل السياسيون اذا كان من الرأي ان يوضع في خطط المستقبل منهاج توسيع الدولة المستمر وتكبير مساحتها ، وقد اتضح انه

ليست في اوربة دولة قد بلغت من القوة مبلغاً تستطيع ان تقوم معه بفتوحات بدون شركاء ، وقد قام البرهان على ذلك في بولونية وهو برهان ساطع ، ولكن هؤلاء الشركاء لايكونون الا من اصحاب المطامع الذين تقع بينهم الخصومة ويشتد التنافس ، والربح لاينال الا على حساب الضعفاء الذين يضحى بهم في سبيل الاقوياء . واذا كان الامر كذلك الم يكن خير لفرنسة ان تبقى المملكة الكبرى بين الدول الاوربية الممزقة من ان تتقاسم مع الدول المتساوية حكم اوربة وتوزعها بين عدة سلطات عظمى ؟ او لاتكون ايضاً حدود غير ثابتة في انحاء مختلفة قائمة كما هي افضل لحماية الدولة من حدود تؤسس بطريقة علمية ، ولكن تكون وراءها ممالك منظمة اعظم تنظيم ، مستعدة لقتال فرنسة في كل يوم ؟

هذه اهم مشكلة عالجتها فرنسة ، ولم تكن بالجديدة عندها ، ففي عهد لويس الرابع عشر كان كبار قادته انفسهم لايرون ان يؤخذ بالحرب الاما يستطاع احرازه في السلم ، والفتوحات التي لاحزم فيها ولا بصيرة تجر على صاحبها عواقب وبيلة كانها سلاح بيد العدو ، فلا فائدة الا من الاوضاع القوية والاسس المتينة التي تصلح للدفاع عن الدولة ، وهذه هي السياسة الحكيمة والحدود الثابتة الصحيحة وقد اصبحت الحاجة امس الى تحديد الآمال ، لان الوضع الذي آلت اليه الدول جعل نموها واتساعها ابعد منالا واصعب مرتقى ، فحالتها الداخلية لم تعد تسوغ لها المخاطرات العظيمة والمحاولات الخطرة ، وقد انتهى زمن الفتوحات ، ويكفي لفرنسة مالديها من فتوحات وما نالته من مكانة ، وآن للفرنسيين ان يهتموا بحكم ماشغلهم كثيراً احرازه ، وبعدول فرنسة عن سياسة الفتوحات تحمل غيرها على العدول عنها ويكون تجردها سبب عظمتها ، فتجمع حولها الدول الثانية التي تتمتع بحمايتها ، والتي تبقى محافظة على محالفتها ماحافظت على مصالحها ، وتصبح بذلك رئيسة تحالف دفاعي قوي يصد جميع الطامعين ، ويحمل فرنسة الى الصف الاول ويعينها على البقاء فيه ، ويجعلها حكم السلام المسيطر ، والضامن للتوازن الذي يكون كل اخلال فيه مضراً بمصالحها وكانت الحكمة تنصح بهذه الخطة ،

والعدل يؤيدها والمصالح الحقيقة تأمر بها، وتكون فرنسة بذلك عاملة على خير نفسها ومؤيدة لسيادتها»، وكان يرى منتسكيو ان هنالك علاقة ضرورية بين عظمة الدول ووضعها، ولم تجعل الطبيعة الحدود بالانهار والجبال، ولكن جعلتها باخلاق السكان وحسن تدبير مصالحهم، وقد اوتيت فرنسة من الحظ ان اتساعها كان متناسباً مع سلطانها وعبقرية ابنائها؛ وينبغي ان يكون لدى الملوك من الحكمة ما يستعينون به على توسيع سلطانهم، وان يكون لديهم من الحذر مالا يقل عن ذلك حتى يحددوه، وكما انه ينبغي دفع المحذورات التي تنشأ من الصغر فكذلك ينبغي ان لا تغفل المحذورات التي تنشأ عن الكبر.

ولما حاول يوسف الثاني ان يحمل فرنسة على التخلي له عن اسبانية، وعلى ان تأخذ جزاء تغاضيها جزءاً من البلاد المنخفضة، ارسل اليه دو فرجن كتابا يقول فيه: «لاضرر يصيب فرنسة اعظم من ضرر هذه الخطة، وخاصة باثارتها الرأي العام واغضابه، وان تصير اوربة اذا تحقق - لاراد الله - مثل هذه الطريقة من الاقتسام والتعويض فستحل جميع الروابط السياسية وتصبح اوربة عما قليل مسرحاً للفتن والقلاقل.. ان فرنسة في الوضع الذي هي فيه يجب ان تحاذر التوسع لا ان تطمع به؛ ففي اتساع المملكة وترامي اطرافها مايثقل كاهل الدولة بالاعباء ويضعف مركزها، على حين ان لديها جميع العناصر التي تؤلف سلطة حقيقية: ارض خصبة، وخيرات كثيرة لا تستغني عنها سائر الشعوب؛ وامة متحمسة مطيعة شديدة الحرص على ماينفع اميرها ووطنها... وفرنسة في وسط اوربة يحق لها ان تؤثر في جميع الشؤون الكبرى، وملكها كقاض سام يتخذ عرشه لصيانة حقوق الملوك وحماية ممالكهم. واذا كانت جلالتكم تعمل بجد ونشاط لاعادة النظام الى نصابه في داخل بلاده، وتتبع في سياستها خطة تعمل بالرأي الذي يدعو الى السير في سبيل الامان والطمأنينة والعدل، وهو لايظمأ الى الغارات ولا تنطوي جوانحه على الأطماع، فحينئذ يكون مثلها ابلغ اثراً من سلاحها وحينئذ يسود الحق والسلام اوربة كلها؛ فتهتف في ارجائها الدانية والقاصية لهذا العمل المفيد، وتعترف بانها نالته على يد جلالتكم وحكمتها واناتها وفضيلتها.»

ولم يسبق للسياسة ان تكلمت بكلام في هذه المنزلة من السمو والنبل، ولا جاءت بمثل هذه المقترحات الشريفة لذي سلطان، وهذا فصل يعين به عهد الانتقال من الحق القديم، الذي كان سائراً في سبيل الاضمحلال باسرافه وتفريطه الى العهد الجديد الذي يراد انشاؤه، وانشاء عالم جديد فيه. ويكفي لمعرفة مقدار التبدل الذي حدث مقارنة العوامل التي كانت في الماضي تقود دول الشمال في مفاوضاتها المتعلقة ببولونية والعوامل التي قادت دوفرجن الى مثل هذه المقترحات، وكذلك المقارنة بينها وبين الاسباب التي تذكرها فرنسة نفسها لتمزيق مملكة النمسة، فقد انقضى العهد الذي تميز باستهتار فردريك وكاترين وخطط رشليو، واخذت المناظرات السياسية تقوم على البحث في مصلحة الجميع التي فيها مصلحة كل فريق ومالت النفوس الى استبدال الفكرة القائمة على مصلحة الدولة، واصبحت الاعتبارات الاخلاقية المحضة تصحح من الحقائق القاسية التي قررتها السياسة القديمة، ودخل في السياسة شيء من مبادىء روح القوانين. ودوفرجن الذي اقتبسنا من كتابه القواعد الرفيعة التي اسلفنا ذكرها كتب ايضاً في مقتبل عهد لويس السادس عشر يقول: لابد ان يخامر الملك الفاتح حزن واسف من حاله، ولكن الملك المواطن يرضيه ان يكون في ايام ملكه ظروف ملائمة لتنفيذ آرائه السلمية الفاضلة، وكذلك كانت قواعد السياسة الخارجية سنة ١٧٨٩، ولم تكن للجمعية التأسيسية خطة غيرها.

وقد تلقى ميرابو وتليران هذه المبادىء ونشأا في اجوائها، وكانت نافذة الى صميم قلوبهما عندما اخذا مكانهما من الجمعية، ولم يكن بد من السلام الخارجي لتحقيق الاصلاحات الكبرى، وكان يعتقد ميرابو ان فرنسة لم ينفد معين قوتها، واذا ترك لها الامر فانها تستعيد رونقها وبهاءها، والقوة الداخلية هي ركن السياسة الخارجية وستبقى شؤون فرنسة سيئة مادام وزير الخارجية فيها الوزير الاول، وكان يرى كل تجزئة جائرة فاضحة مؤذية، ويعتبر بروسية بالغة من القوة حداً يجعل من نقص الرأي ان تترك تنمو وتتسع، ويجب الاحتفاظ بالمانية كعنصر

اساسي في التوازن الذي يجعل السيادة لفرنسة ، وكان يميل الى محالفة انكلترة بالرغم من جميع الاوهام التي كانت غالبة ، فان في اتباع الشعبين اوضاعاً متشابهة مايجعل لهما نفس المصلحة في الدفاع عنها ، والمعاهدات التجارية تؤلف بين مصالحهما والتنازع يذهب بجهودهما ، وتحرير المستعمرات الاسبانية نتيجة تحرير المستعمرات الانكليزية وكلاهما يعود على تجارة فرنسة وانكلترة بالفوائد الجزيلة ويفتح لهما المنافذ العظيمة فيهدأ تزاحمهما في العالم الجديد ويتقاسمان خيراته والنفوذ فيه.

وكان تليران يهتدي في خطته بهذه الآراء ، وقد استنكر تقاسم بولونية ، ولكن افاده هذا التقاسم وانار سبيله ، وعنده ان فرنسة يجب عليها ان تعدل بعد الآن عن خططها القديمة في التسلط والتسود ، اذ لا تجتمع وسائل الغنى الحقيقية عن طريق الاغارة على ما يملكه الآخرون ولكن عن طريق الاستثمار لما تملكه ، وما عند فرنسة يجزئها لانشاء عظمتها ، واذا زاد على ذلك فلا يكون بدون خطر عليها وعلى السلم في اوربة ، وهذه المناهج الحكيمة تقوم عليها اسس السياسة التي يتبعها رجل البراعة والرأي الذي سيصبح في سنة ١٧٩٥ وزير خارجية الجمهورية ومفاوضها الكافي السديد الموفق .

وكانت فرنسة تستطيع ايام الثورة ان تؤسس السلم الذي كانت تفتقر اليه على قاعدة احترام الحقوق ، وان توفق بين مصالحها الدائمة في اوربة وبين ماتدعو اليه من مبادىء الحق العام الجديد ، ومن الصدف النادرة ان الرأي اتفق في نتيجته مع التجارب ، وان ما كانت توحي به في العهد الاقديم اسباب المنفعة الحقيقية والتبصر والتفكير كان العقل السليم كذلك يوحي به الى المشترعين رواد الحقائق ، واول مبدأ من مبادئهم الذي هو سيادة الامة كان من متمماته ان تقرر الشعوب مصيرها وتتصرف بشؤونها ؛ واذا طبق هذا المبدأ الذي هو من قواعد حقوق الدول سنة ١٧٨٩ فانه يحول دون جور الفتح واساءته ، ولكن كما تتبدل الغايات فان القواعد الحكيمة وسنن العرف والعادة لاتكون ضمانات مطلقة ، والدول

الكبرى بحاجة في سياستها الى قواعد بسيطة وعهود ثابتة ، وحق على مشرعي ١٧٨٩ ان يتخذوا من مقترحات فرجن اوامر رسمية وان يجعلوا الفتوح ملغاة في قواعد البلاد الاساسية .

ولكن السياسة المتبعة كانت مناقضة لذلك كل المناقضة ، فلا فرنسة ولا اوربة لم تكونا ممدتين لهذا الاصلاح الجوهري في الاخلاق السياسية ، وقد اثر روح الدعوة في الثورة ، واستمر روح الفتح يحكم اوربة ، وتبعث ذلك حرب ضروس فأنقذت وطنية الفرنسيين استقلال بلادهم ، وفتح انقسام اوربة الباب لفتوح الجمهورية وضمنتها لها حماستهم ، ولما اصبح السلم ممكناً سنة ١٨٠٥ لم يكن قد بقي احد من مؤسسي سنة ١٧٨٩ ، واضمحل كل اثر من آثارهم ، وخلا المكان من اولئك المتشرعين المفرطين ، المجهزين بالسلاح والحديد من احفاد فرسان القانون ، الذين كانوا يغوصون على اسرار سياسة رشليو ، ويتممون باسراف القواعد التي كان يطبقها اسلافهم في خدمة الملك . فيستنفرون الشعب للمجد ويدفعونه الى الحرب ، ويشيدون على شهواته السلطة التي ينفذونها باسمه ، وكذلك يعتمد شارحو حقوق الامة في كتاباتهم على المؤلفات التي وضعت في حقوق الملك ، وكذلك تخلف سياسة السلم والاعتدال سياسة الفتح والاكراه .

وقد سارت الثورة على منهاج لويس الرابع عشر في كثير من خططها السياسية وكانت واياه على وفاق من حيث الغاية ، وعلى خلاف من حيث الوسيلة ، فهو مثلاً كانت له سياسة في اسبانية يريد منها تعزيز ما كان يهتم به العهد القديم من اوضاع وغايات ملكية واستبدادية ، اما فرنسة الثائرة المجددة فانها تصرح برغبتها في خدمة اسبانية والانسانية ، ولكن الفرنسيين عندما احتلوا هذه الارجاء استمروا متأثرين بعاداتهم التي ورثوها من العهد القديم ، يعاملون الاسبان كشعب عاص محكوم عليه ان يكون في الدرجة الثانية ، وحاشية الملك ضعيفة خوارة تباع وتشرى . واهمل سياسيو باريز حساب الشعب واستهانوا به ، وسنوا سياستهم على ما يريدون من تجزئته وما يتوقعون من خضوعه ، ولكن هذه التقديرات التي لم

تعبأ بالعنصر الجوهري وهو خلق الاسبان خدعت مختلف اوضاع الثورة واضلتها، وقادت نابليون الى اعظم الكوارث، وطويت فيها الخطط التى خلقها العهد القديم للثورة .

وهؤلاء الاسبان الذين لم يبق لهم يومئذ في اوربة شأن الا في الابحاث الفلسفية ، وفي الامثلة الحية لانحطاط الشعوب ، عندما وطئهم الاجنبي بسنابك خيله ووجدوا انفسهم في خطر ثورة تجعل عاليهم سافلهم وتنتهك اخلاقهم وعاداتهم ، استيقظوا فجأة ، ودفعتهم حماسة التعصب المتاججة في صدورهم وشعور الوطنية المتقدة في قلوبهم ، فراع ذلك رجال السياسة في اوربة ، وتحققت كلمة رشليو التي قالها عن الاسبان : انهم يفوقون الفرنسيين في الثبات والعزم والغيرة والامانة وحب ملوكهم ووطنهم ، ووجدهم نابليون كما كانوا منذ حاربوا العرب تلك الحرب الضروس .

وقد انتقض الاسبان على الفرنسيين المغيرين ، والنقائص التى طالما اضعفتهم كانت لهم معين قوة ، وانقلبت الى فضائل يستمدون منها البأس والشدة ، وتوقد في نفوسهم نيران الحقد القاتل الذي كان يثيرهم على الفرنسيين ، فكان بؤسهم يجعلهم غير شاعرين بآلام الحرب ، وتعصبهم الديني يستثيرهم على منكري الدين واعدائه ، فشعور الحماسة الدينية ، وما ورثتهم اياه القرون الوسطى من صفات الاباء والانفة ، وهذه القسوة التي تمتزج مع دواعي الشرف الرفيع ، وحب الانتقام الذي يتحد بروح التضحية ، يجعلهم جنوداً ابطالاً ومقاتلين اشداء على المغيرين ، وكل ما كان يقصيهم في القرن الثامن عشر عن الحضارة الاوربية ، ويغلق ابوابهم دونها ، ويبقيهم في سباتهم الطويل كان يعين على جعلهم منيعين في جبالهم لا تصل اليهم الايدي ، وذلك عندما وجدوا كرامتهم التي ابعدتهم عن العالم مهانة ، واستقلالهم الوطني ، الذي ليس لديهم ما يستهويهم غيره مهدداً ، والثورة الفرنسية حتى في افضل احوالها لم تكن الا مؤذية في اغارتها عليهم ، تبعثهم على اليأس

والاستبسال في الذود عن حماهم ، وبقيت اسبانية الحاجز الذي وقفت عنده دعوة الثورة ، ولما اراد نابليون ازالته تكسر عليه سيفه ، فوجدت فتوح الامبرطور في طريقها نفس العقبات التي وجدتها رسالة الثورة وهي عواطف الوطنية المتأججة .

ويقال مثل ذلك عن اجزاء اوربية اخرى ، ونخص بالذكر هولندة التي كانت فرنسة تحميها لتبعد بيت النمسة عن مصب الاسكوت والرين وتضعف النفوذ الانكليزي في البلاد المنخفضة ، وبعد ان استعانت هولندة بفرنسة وشدت ازرها بها ، قاومتها مقاومة شديدة لانها ارادت ان تستعبدها بعدان اعانتها على تحررها ، فقام مقام الصداقة والمودة الحقد والضغينة ، والهولنديون لم يفكوا رقابهم من ربقة الاسبان حتى يتحملوا ربقة الفرنسيين ، وكانوا يعزون الى حب الظلم جميع الادعاآت الفرنسية التي لاتتفق مع مصالحهم كما ان الفرنسيين كانوا يرون من دلائل النكران كل مقاومة لادعاآتهم ، وقد كان في طاقة فرنسة ان تستصلح الهولنديين لو انها اثارت اهتمامهم بخططها وجعلتهم يرجون الفائدة منها ، ويطمئنون الى عواقبها ونتائجها ، ولكن هذه الاساليب تستلزم تنازلاً واعتدالاً ليس في ذوق سياستهم .

ويظهر ان الجهود العظيمة التي بذلها الهولنديون قد استنفدت قواهم واضعفت عزائمهم ، فانهم بعد ان قاتلوا بكل صبر وثبات في سبيل حريتهم ، ظنوا انها اصبحت في مأمن الى الأبد ، ولم يعودوا يفكرون الا بأن يعفوا آثار هذه الحروب الطويلة ، وكان حب الوطن يحملهم على ان يضحوا تجارتهم في سبيل استقلالهم فاصبحوا يضحون استقلالهم شيئاً فشيئاً في سبيل تجارتهم ، ولما صعد غليوم دورانج على عرش انكلترة ، اصبحت دولتهم في اول الامر شريكة لهذه الحليفة ، ثم صارت تابعة ، ولكنها بقيت منافسة لها في الحكم وفي المستعمرات ، فكانت في القرن الثامن عشر تفيض غنى وتجارة ورخاء ، ولكنها تتقهقر في سلطانها وفي كرامتها ، وكانت الدول الاوربية تعاملها كما يعامل العظماء الصيارفة في حاجتهم اليهم ، يجلونهم قبل العقد ويهينونهم بعده ، وكانوا يرون ان هولندة بلاد تجارة ، فيجب ان تستغني وتجبي

وتفسد وتخضع ، وقد انساق الفرنسيون الى تحرير هولندة بعد الثورة ، ثم الى فتحها ، ثم الى تجزئتها ، ثم الى افقارها ، ثم الى ازالتها من ديوان الشعوب الى ان كان بعثها واستقلالها سنة ١٨١٤ ، وما كادت الجيوش الفرنسية تولى اعقابها بانكسار نابليون حتى تداعى حكمها في تلك الانحاء ، ولكنه مع ذلك قد ابقى فيها اثراً عظيماً وهيأها لانشاء بنيان سياسي جديد يختلف عن الاوضاع السابقة والعادات القديمة التي كانت تجعل جميع السلطات السياسية في ايدي بعض الاسر او الجماعات المميزة، وتكره على تقلد دين الدولة من لم يكن يدين به ، وتؤيد بقاء طبقات متباينة لا تتساوى في عرف القانون وفي تطبيقه . ولما كان هذا النظام القديم الارسطقراطي طوى امره وقضى عليه ، فقد قامت مقامه جمعية دمقراطية وادارة حديثة متشابهة كونت البلاد المنخفضة للقرن التاسع عشر .

٤ — الحدود الطبيعية وتقاليد الفتوح

التاريخ ينشر التقاليد في الشعب ، والعقبات التي تعترض السياسيين لا تقف في سبيل العلماء والجهابذة ، ورجال الدولة مجبرون على ان يحسبوا حساب الوقائع ، اما العلماء فانهم يحتفظون بالحجج ويدافعون عن الحق ويحولون دون النسيان ، والتقاليد لا تمحى من نفس الشعب ، وقد اذيعت نشرة سنة ١٧٤٨ تلام فيها فرنسة لانها لم تلحق البلجيك بها ، فاجيب على ذلك بهذا القول : انه يستحيل ابقاء هذا الفتح الجميل برغم اوربة كلها التي كانت تحسد فرنسة قبل ذلك ، ولكن عامة الناس يتمنون هذه الاماني من غير ان يفكروا بما تنطوي عليه ، ولم تعدل الحكومة عن ذلك الا مرغمة ، فقد الحقت اللورين ، وما زالت ترمي ببصرها الى هولندة والبلجيك واللكسمبرغ ، وتتخذ ذلك اساساً مشتركاً لكل خطة سياسية.

وكانت الدروس تتعهد التقاليد ، والمؤرخون يحدودنها ، ورجال الادب يذيعونها وهي تلقى في المدارس العسكرية وتحفظ في سجلات الدواوين ، وتنتقل الى طبقتين من الرجال الذين ابقوا اثراً عظيما في سياسة الثورة الخارجية : المتشرعين والعسكريين ، فتلقوها واضحة مفصلة

بطريق التحليل الذي كان من صفات ذلك الزمان ، وهي قواعد بسيطة ليس فيها شيء من الجدل والمناقشة .فظلت خطة الفتح الرائمة قبلة الاحلام الوطنية اجيالا متتابعة ، لاتفترق فيها الامن حيث المنـاسبة والملاءمـة ، وكان كل فريق يأتي بالبراهين الواقعة ويعتمد على الأسباب القائمة ، فضرورات الدفاع والهجوم حجة رجال الجيش ، وضرورات الحكومة الداخلية حجة رجال الدولة ، وضرورات السلام الاوربي حجةرجال السياسة ،وهي بجملتها تؤلف عناصر البحث والمناقشة.

وقداتفق على الحدود النهائية،سافوا ونيس من جهة،والموزوالرين من جهة اخري اما احراز الشاطيء الايسر للرين فلم يكن غاية مباشرة ولا خطة سياسية محددة، بل هو الغاية العليا وامنية المستقبل وآخر حلقة في السلسلة ، واذا لم تقف فرنسة عند هذا الحد الذي عينته الجغرافية والتاريخ والسياسة ، فانها تعدو بدون شك طور الدولة التي يستلزمها توازن القوى في اوربة ، وتتعدى حدود الملك الذي تستطيع حكمه والدفاع عنه . وقـد ورد في احدى المذكرات السيـاسية القديمة في سنة ١٧٤٤ انه على فرنسة ان تكتفي بحدود الرين ، وان لاتفكر ابداً بتجاوزه والقيام باي فتح في المانية ، واذا اتخذت لنفسهـا قاعدة الوقوف عند الحدود التي عينتها الطبيعة من الغرب ومن الجنوب : البحر المحيط ، البرنات ، البحر المتوسط جبال الالب ، الموز ، الرين ، تصبح مسيطرة في اوربة قادرة على صيانة السلم بدلا من تكدير صفوه .

ولكن فرنسة اذا ارادت تحقيق خطط الفتح والاستيلاء العظيمـة وحمل اوربة على قبولها ؛ فانه ينبغي ان تغلب اوربة بأسرها ، وهذا من الامور المستحيلة او ان تسلك خطة التجزئة والتقاسم فيها ، ومعنى ذلك ان يقام في اوربة اصدقاء اوشركاء وان يستمان باسلاب المغلوبين لتأمين التعـاون وتسديد الديون ، فهناك عدو يجب ان يغلب وان يمزق هو النمسة ، وحليف يظهر انه دائماً على اهبة الانتفاع،لين لمغريات الفتوح ، سريع الى المساومة مهيأ لـكل نهب مقسم وهو بروسية، وكانت الاراضي التابعة للكنيسة في المانية تستخدم في مثل هذه الاحوال لتعزيز

الموقف والمحافظـة على التوازن ، واذا مست الحـاجة فهناك بولونيـة وهي بلاد لاصاحب لهـا ولا حدود ، تتصرف فيها روسية كما تشاء .

تلك هي قواعد سياسة الفتح التي شارك بالدعوة اليها قادة الجمهورية ورجالها المتشرعون بما كانوا يحملون من تقاليدها في المعسكرات والمجامع ، على حين ان هذا الجيل الذي يعيشون فيـه ، هو جيل فلاسفـة يستنكر الحروب وينتقد الفتوح ، ويدعوالى اقامة نظام الدولة وصلات الجماعة على اسس لاتتغير ولاتنتقص من سيادة الشعوب وحقوقها ، وهو يزهد بتلك الاتفاقات الواهية التي تعقدهـا الدسيسة وتنظمها المنفعة وتبرمها الملاءمة ، ويريد ان تؤسس الاتفاقات على اسس من الحق المطلق الشامل الصريح ، والسلم الذي يعقد لمصلحة الانسـان يجب ان يضمن له الخلود والبقاء ، ولم تعد تدرك العقول المعقدة الحساب البسيط الذي اقامته تجربة رشليو ، واخذ يتنصل اصحابها من اتباع السياسة المكيفلية وكانوا لايكتفون بالاحتجاج بالاعمال بل يريدون الاستشهاد بالحقوق ، ولا يكتفون بالحق التاريخي بل يضيفون اليه الحق الطبيعي ، ويقضي مذهبهم بالتأليف بين الملاءمة والعدل وبين حق الدولة والحق المجرد .

فالاحـكام التي قررتها الثورة الفرنسية تبنى على استشارة الشعوب ، بحيث لايضاف الى الدولة الا الذين يرغبون بالانضمام اليها ، وهذا مبدأ صحيح ولكن تطبيقه صعب ، فالشعوب ترفض والامراء الاجانب لايقبلون قاعدة تضر بسلطانهم ، واذا كان مبدأ السيادة جامعاً مطلقاً فان الى جانبه مبدأ آخر يراد ان تكون له الغلبة والسيادة ، هذا المبدأ الذي يقول اصحابه : انه جناية في محكمة الاخلاق أن يسـاوم ويعطى ابناء امة الى سلطة اجنبية ، وباي حق يتصرف امير بشعب لا يريد ان يبدل السيادة فيه ؟ وهل يجب ان تكون الشعوب كل شيء او ان لاتكون شيئاً ؟ او ليس على الملوك شيء للشعوب ؟ وما معنى حقوق الدول ؟ وما معنى حقوق الشعوب ؟ او ليست القاعدة التي لاتضل ابداً هي ان خير الشعب وسلامته هما القانون الاسمى الذي يتوقف عليه كل قانون سواه ، والذي ليس فوقه قانون .

غير ان هذا القانون مهما سما قدره لايبرح قانونا مبهما ، فمن الذي يضع القاعدة في هذه المادة الخطرة ويحدد حدودها ؟ أن فرنسة لاتستطيع ان تتجاوز الحدود التي ترسمها السلامة العامة ، فالسلام يتوقف عليها ، والواجب يقضي ان تكون ثابتة ، ولابد لتحديدها من اساس يعلو على اساليب السياسة القسرية ومواطآتها ، وعلى اطماع الفاتحين وانانيتهم ، وعلى جهل الشعوب بحقوقها وتضييعها اياها . وقد استخرج هذا المبدأ مؤلف العقد الاجتماعي روسو ، واستملاه كسائر مبادئه من الطبيعة التي هي مصدر كل حكمة وكل فضيلة ، فجبال اوربة وبحارها وانهارها تقرر حدود الشعوب الساكنة فيها ، وتحدد عدد الشعوب وسعتها ، ويجوز ان يقال ان النظام الاساسي في هذا الجزء من العالم هو في بعض معانيه عمل الطبيعة ، ولكن لايراد من ذلك ان جبال الالب والبرنات ومختلف البحار والانهار عقبات لاتنالها الاطماع بل ان هذه العقبات تستعين باخرى تقويها وتعززها ، وتعيد الدول الى حدودها التي تجاوزتها بجهود زائلة .

هذه هي القواعد التي قامت عليها الثورة فيما يتعلق بالحقوق العامة وتعيين الحدود ، وقد تجاوبت بها المحافل والمجامع ووسعها الخطباء والزعماء ، فحقوق الشعوب تشتق من الطبيعة ، وتنفيذ هذه الحقوق يتوقف على ما وضعته الطبيعة نفسها من الحدود ، والمذهب الذي اعتمد على الطبيعة في تقرير مبادىء الحقوق العامة لفرنسة الجمهورية يؤسس الحقوق الدولية على قواعد الحدود الطبيعية ، والحدود التي رسمتها الطبيعة هي بحق التي ذكرتها الاساطير ، وحددتها اجيال التاريخ ، واوحى بها درس السياسيين الماضي ودرس الفلاسفة المطلق ، والعادة المألوفة عند فريق تعود الى نفس النتائج التي يرشد اليها منطق الآخرين ، وهذه النتائج مابرحت منذ العصر الرابع عشر تستخرج على التوالي من شرائع طوائف الملوك وحقوق الرومان ومن العهود والعقود .

وفي سنة ١٧٨٩ كانت الخطط الكبرى تظهر من الخيالات الرفيعة ، ولكن هنالك تناقض بين السلام في نفسه وبين اقراره في العالم ، ومع هذا التناقض بين

السلام وبين اقرار السلام ، فكلاهما كان يلتئم مع حالة الزمن الروحية ، وهذا الرجل السياسي الذي عمر خاطره بالخيالات الكثيرة كان يحلم بان ينشيء اوربة على هواه ، ويؤلف فيها جمهوريات متشابهة كما هو الامر في الولايات المتحدة الاميركية فتعاد الدولة الرومانية ، ويكون السلم مؤسساً على الوجه الروماني ، اي على قاعدة اخضاع الشعوب القديمة لاحترام حقوقها ، غير ان هذه الثورة لاتتم الا بالفتح ، والفاتح السعيد او الفاتح العظيم هو الذي يمهد له كذلك سبيل غاياته .

وكان الكثيرون يبتغون ان تخرج المانية مما كانت فيه ، فتتخلص من الامبرطورية المقدسة ، ومن هؤلاء الامراء والرؤساء ، الذين كان يبلغ عددهم نحو ٢٠٠٠ يظلمونها في السلم ويجتاحونها في الحرب ، وكان بعض الفرنسيين يطمع ان يراها موحدة ، او يظن انها ستدخل تحت لواء البيتين المالكين في النمسة وبروسية ، وهكذا كان الامر في ايطالية والرغبة في تحويلها الى جمهوريات متحدة او دول . وانقاذها من ظالميها ، وانشاء عصبة فيها ذات مجلس عام ورئيس ، يكون ملك ساردنية ، وما هذه الا المانية ثانية تريد فرنسة ان تنشئها على ابوابها ، وقد كانت مهيأة من ايام الملكية ، فتقبلها الجمهوريون ولم يبق عليهم الا ان يغيروا فيها الاسماء .

ولكن ماهي الفائدة من احياء ايطالية واتخاذها حليفة اذا لم يكن فتح طريق الشرق لفرنسة هو الغاية ، وكان يرى ذلك جميع الخياليين وواضعي الخطط ، فقد كان منهم من يسعى لمقاتلة الترك وانتزاع مصر منهم والذين يدعون الى اقتسام الدولة العثمانية وتجزئتها ، واقامة ممالك نصرانية في اليونان ومكدونية ، والاستيلاء على فلسطين وسورية ومصر ، وكذلك الامر في بلاد البربر وفي مراكش ، ثم وصل بحر الشرق بالبحر الاحمر ، وقد استفادت كاترين بحملاتها الصليبية سنة ١٧٦٨ من انتشار هذه الآراء ، وكان فولتير نصيراً لقضية اليونان ، كما ان شينيي جعلها قضية جميع الشعراء .

وكانت مصر مهوى افئدة رجال السياسة ، وعندما كان يوسف الثاني وكاترين يعملان على اقتسام تركية ، كانا يرجوان ان تشاركهما فرنسة اذا منحت مصر ، ويروى ان مجلس الملك تذاكر في هذا الشأن، وان فرنسة لم يكن يرضيها ويعوض عليها ، اذا لم تستطع ان تحول دون تجزئة تركية ، الموره او كريد، ولكن مصر هي الشيء الوحيد الذي تقنع به ، فتبلغ الهند عن هذا الطريق وتعيد بواسطة السويس طريق التجـارة القديم ، وتبلـغ ما تريده من تعطيل طريق « الـكاب » ورأس الرجاء الصـالح .

وكان بنابرت تضطرب نفسه بهذه الاحلام عند دخوله ايطالية ، والشرق هو الذي يجتذبه من ورآء الجبال والبحار ، وقد كشف القناع عن حقيقية فكره بقوله : يجب احتلال مصر اذا اردنا ان نقضي على انكلتره ، ودفع فكره الى غايته المنطقية فرأى ان يسير الى القسطنطينية ، ويزيل الدولة العثمانية ، ويرجع بعد ذلك الى باريس عن طريق فينة بعد ان يقضي على بيت النمسة .

وفي الحق ان ماتم على يد نابليون تجاوز في مضمار الفخار كل مايعرض في خيال خارق العادة منذ عهد شرلمان ، فحلم الامبرطور الشيخ اصبح حقيقة ، وعند تحققه تجاوز ما كانت تطمع الاحلام فيه ، ولو انه قيل في سنة ١٧٩٠ الى احد رجال الجمعية التأسيسية كتليران المأخوذ يومئذ بمبادىء الحرية العامة ، والمتخرج على طريقة فرجن الحكم المعتدل ، انه يعمل لاحياء عهد القياصرة في اوربة وامبرطوريتهم ، وانه سيكون الوزير الاكبر في هذه الغارات والفتوح ، لصاح بصوته مستنكراً ولكان احتج بالتاريخ وبنظام التوازن وبمقـاومة اوربة ، ولا ستنتج من عدم امـكان ذلك سخف هذه النبوءة ، ومع ذلك فان التناقض العجيب تغلب على الادراك العام ، ولم تكن هنالك معجزة في الحقيقة ، فالذي يعرف الماضي حق المعرفة وينعم النظر في التقاليد لايستنكر ولا يأخذه العجب .

والاسباب التي جعلت الثورة تنقلب في النظـام الداخلي الى فوضى ذميمة ، تقوم على الاستبداد ولاتنكره ، هي التي قادت هذا الاستبداد لينتشر في اوربة

ويرفع الوية فتوحه ويجد السبيل ممهدة له ، اما الحذرون واصحاب الآراء البعيدة الذين هم عندما شاهدوا الطوفان لاذوا باكناف الجبال او حبسوا انفسهم في الفلك وانتظر ان تهدأ العاصفة وان يغيض الماء . فقد انتقموا من المغامرين والجاهلين الذين حسبوا انفسهم قادرين على العاصفة فحملتهم في طريقها ودمرتهم تدميراً ، ولم يكن مخدوعاً من يظن ان مثل هذه القوة لابد ان تتداعى في العاجل او الآجل تحت ثقل اعبائها ، وعلى هذا الظن قاوم الذين قاوموا الثورة الفرنسية ، ولم يعدلوا مطلقاً عن العودة بفرنسة الى حدودها القديمة .

وقد دامت الحرب بين اوربة والثورة الفرنسية نحو ربع قرن فابتدأت في فالمي ولم تنته الا في واترلو، وانتصرت في آخر الامر اوربة المتحدة على الجيوش الفرنسية، ومع ذلك فلا يقال ان فرنسة خرجت منكسرة من النضال ، فقد خاضت المعارك مدافعة عن استقلالها وسلامة اراضيها ، وعما قامت به من الاصلاح في دستورها السياسي وفي قوانينها ، ولم يكلفها السلم الا اعادة البلاد التي انتزعتها من اهلها ، وعادت الى حدودها القديمة من غير ان يصاب جسم الامة بضير ، وسلمت القواعد الكبرى للثورة ، فاحتفظت فرنسة بالقانون المدني وبالحكم التمثيلي ، وفي ذلك الغاية ليكون عمل ١٧٨٩ ابعد من ان تناله عوامل الاذى، واقوى على ان يحمل الى الاجيال القادمة جميع ثمراته ، كزرع اخرج شطأه يعجب الزراع .

٥ — صفات تليران واخلاقه السياسية

لم يكن السياسيون في عرف الناس طبقة مستقلة ذات طابع معين ، ولكن طائفة مميزة باوصاف مسلكية وعادات مألوفة ، وحذر وحيطة وروية وتقدير وتلبيس ومخادعة ، وكان تليران احسن مثال لهذه الطبقة ، وقد بهر اهل زمانه بمقدرته السياسية ، فكانت احاديثها كالاساطير التي تتجاوز الحقائق . وكان اشهر سياسيي الامبراطورية ورجال الملكية المؤسسة بعد انكسار نابليون، حصيف الرأي هادىء النفس ، لا يحل له حبوة ، ولا تقرع له صفاة ، حفياً كريما ، طلي الحديث

ساحر الاسلوب ، بعيد الغور ، واضح الكلام موجزه ، حاضر الجواب عنيفه ، وكان كرجل متفرد بين النظرآء متفوق على الاقران ، يكتفي بان يحكم ويدبر ويستعين بكل انسان في مهات اموره بحسب ماعنده من غناء وكفاءة ومواهب ، يأبى ان يرضى لنفسه بما يرضاه لسواه من الرغائب الصغيرة والمكرمات المحدودة ، شديد المراقبة خفي الاسارير لايظهر شيء على ملامح وجهه ولا تدل ملامحه على شيء مما يجرى في خاطره ، مهما اشتدت العواصف واضطربت النفوس وبلغت القلوب الحناجر ، يسيطر على الرجال ، ويتغلب على الحوادث التي تملأ الجوانح خشية ، لانه يعرف كيف يتقبلها وكيف يخضع لها وكيف يتمكن من قياد نفسه ويقاوم اهواءها ، اما حياته العامة فهي اعمال جليلة ، تصدر عن هذا الرجل الذي عليه ميسم العز والسمو والرفعة ، والذي لم يكن يعبأ بفخار المولد وشرف المناقب ولا بالاطماع والرذائل ، وكل مايقع الآخرون تحت تأثيره وسلطانه يتخذه وسيلة لنيل مآربه وتحقيق اغراضه ، فيقوم بدسائسه قياما تزل عنه الآمال ، مستهتراً بجميع الوسائل ، لايبالي مايصنع في سبيل ادراك النجاح ، وقد عقد معاهدات كثيرة كان فيها المجلى السابق ، اما في مؤتمر فينة فقد تجاوز قدره وسما حتى على نفسه .

وقد ملأت السياسة حياة تليران ، فكان بصيراً بها ، خبيراً بحل مشكلاتها ، عارفاً مداخلها ومخارجها ، فلم يكن يعالج مشكلة ويترك فيها وشأنه الا ينفذ فيها الى الى ما يريد ، وقد اقتصر في اعماله على المهام الدولية التي عرفته الاجيال بها فانفق فيها مواهبه النادرة . وسخر للقيام باعبائها طريقته الجدية ، وكانت السياسة العليا جزءاً من نفسه وادراكه ، غير انه لم يكن يمتاز بصفات رجال الدولة لا من حيث الفكرة ولا من حيث الخطة ، وقد قيل انه نصف ميرابو ولكن لم يكن على شيء من ميرابو ، فقد كان هذا خطيباً ، على حين ان تليران اذا خاطب ثلاثة رجال وجد اثنين يستغني عنهما ، ويتجاوز ان الحد الذي لا يجوز تجاوزه في هذا الحديث ، وكان يكل الى غيره افهام الناس ما يريد عمله ، اما الفصاحة والاخلاق فلم يكونا في ذاتهما من غاياته.

والتغلب على هذه الجماعة او على تلك من اصحاب الاخلاق وخصومهم ليس من الامور التي تهم واضي السياسة ، وليس هو منهم ولايستحق ان يكون في عدادهم من همه ان يخترع كذبة لمخادعة الناس، اذا كان يستطيع وهو يستعين بالحقيقة ان يدرك نجاحا اعظم .

وفي السياسة احوال تكون فيها النواحي الاخلاقية عظيمة الفائدة ، واحوال تكون فيها النواحي الاخلاقية باعثة للضرر ، ولاسيما اذا كان الصدق فيها مصطنعاً ، واصحاب الاخلاق المتشددون ينتقدون السياسة دائماً رجالا واعمالاً وينازعونها ويشاركهم بذلك اصحاب العقائد ، ولكن مناقشة الامور السياسية من الناحية الاخلاقية غاية لاتنال ، والانسان يستطيع ان يبدل الاوضاع والمعاهد والاشياء ، ولكن الاوضاع والمعاهد والاشياء لاتغير الانسان في طبيعته وخلقه وحاجته ، وقد سار ذكر تليران من انه اقل رجال السياسة اكتراثا بالاخلاق ولكنه لايقال فيه على الاطلاق بانه ينطوي على طبيعة مجرمة ، واذا كان قليل الاكتراث فيما هو اقرب الى الفضيلة اوالى الرذيلة ، كما قال عنه احد مندوبي امريكة في ايام الثورة في فرنسة ، فان هذا الوصف ينطبق على تليران وعلى من سبقه ومن جاء بعده من كبار رجال السياسة ، الذين يظن بعضهم بعيدين عن الاخلاق اكثر مما هم في حقيقتهم، اما اصحاب الاخلاق فانهم يسيرون في دعواهم معتمدين على فكره طيبة تقوم عليها البشرية او ينبغي ان تقوم عليها .

وكان تليران يغير كثيراً من الاحزاب التي ينتمي اليها ، ولكن لايغير شيئاً من معتقده ، فقد بقي وفياً لمبادي سنة ١٧٨٩ في انشاء المملكة الدستورية كما بقي وفياً للتوازن الاوربي محافظاً لفرنسة على مقامها الاول ، ومنتهجاً مع انكلترة السياسة القائمة على التوازن ، وكان في مفاوضاته يواجه الامور بدون تردد ، ويفاتح عما في نفسه ويعرب عن رأيه بدون ان يذهب شتى المذاهب في محاولة اقامة البراهين والحجج ، والحرص على المغالبة والتنازع حتى قال بامرستن عنه : انه لم ير رجلاً مثله اقل ادعاءاً واكثر كرامة .

وسياسة التقارب بين فرنسة وانكلترة كانت من القواعد السياسية التي الفها تليران منذ نشأته الأولى ؛ وهو يعتقد ان اتحاد الدولتين في الدفاع عن الآراء الحرة اقوى اساس للسلم في اوربة

وكان ميرابو الذي يودع اليه اسراره يرى هذه الفكرة نيرة عبقرية ، حتى انه كتب اليه من برلين وهو يقوم بمهمة سياسية : « ليس من خطة واسعة تؤلف بين كل شيء وتنتهي من كل شيء مثل خطتك ، فهي تقضي على المنافسات التجارية ، وعلى الخصومات الخرقاء الدامية ، وتكل الى فرنسة وانكلترة امر الحرية في العالمين »

وهذه السياسة هي التي انارت فيما بعد سبيل تليران في ازمة البلجيك ونشوء هذه الدولة المستقلة ، وآزر يومئذ خطة عدم التدخل وقضى على عهد التحالف المقدس ، وكان هذا العمل الذي هو آخر عمل له دليلاً على بعد نظره وحرصه على السلم. وفي اثناء سفارته في انكلترة كان يكتب الى حكومته : ان انكلترة هي البلد الذي يجب على فرنسة ان تثبت معه احسن العلائق الودية ، وما اضاعته من المستعمرات ازال سبباً من اسباب التنافس بينهما ، واذا كانت الدول لا تزال تعتقد بحق الملوك الذي تستمده من العناية الالهية ، فهاتان الدولتان لا تشاركان بهذا الاعتقاد ، وقد قبلت الحكومتان مبدأ عدم التدخل في شؤون الآخرين ، كما انهما تعلنان حرصهما على السلم والدفاع عنه ، ونداؤهما لا يذهب ضياعاً . وكتب ايضاً : تذكروا حينما تبعثون بمقترحات الى الانكليز انكم تخاطبون شعباً هادىء القلب واسع الاناة ، ولذلك فانه يحسن في مخاطبته اجتناب اللغة التي تثير العواطف .

وكان يقول تليران : ارجو ان يبحث في مدى اجيال العمل الذي قمت به ، وماذا كنت فيه وماذا فكرت به وماذا اردت ان اصنعه ، وقد مر اكثر من عصر تحققت فيه امنية تليران الفخورة . ولا شك ان حياة كحياته مرت بها احداث عجيبة وتقلبات مدهشة ومناقضات عظيمة من رفيعات الامور ووضيعاتها ، لا بدع اذا ملأت نفوس الذين جرت بين ظهرانيهم ، ولا سيما عندما كانت فرنسة في ذلك الاضطراب الشامل واليأس القاتل والألم الكئيب الصامت ، فقد تهاوت كواكب

سعدها وتزلزت شرفات مجدها وشعرت انها بعد ذهاب نابليون قد اصبحت ارملة بعد قيصر . وما اكثر الذين سددوا طعناتهم النافذة الى داهية السياسة وامير السياسيين مثل شاتو بريان وفكتور هيكو ، وقد يكون ما كتبته جورج ساند في ايام شهرتها وفخارها اجرأ مما كتبه غيرها في شأنه ، ومن ذلك بعض ما قالته في مجلة العالمين :

لم يعرف هذا القلب ميزة الكرم والنبل ، ولم يحل في قلبه الاخلاص والولاء ، هو رجل لاشبيه له بين الرجال ، يتجاوز حتى طبيعة الانسان . . . وبعد ان وصفته باعظم مخادع في العالم ، استمرت في حديثها وتساؤلها عن اعماله السياسية قائلة : ماهو العمل النافع الذي قام به هذا السياسي الكبير ؟ وماهي الخدمات التي اداها ؟ وماهي الحروب الدامية والاضطرابات العامة التي حال دونها ؟ وما هي الضرورات التي جعلت ملوكنا من الفاتح المغرور الى التقي الغافل يحملوننا على الاذعان لعلو شأنه ؟ وماذا يخفي تحت رداء السياسة الزاهي من المخزيات المنديات . هذه هي صحائف الحساب التي يحملها الينا اولئك الذين توكل اليهم اموالنا ودماؤنا من غير ان نستشار في امرهم ، ان عجائب مخيفة تضطرب فوق رؤوسنا ولكنها نائية بعيدة بحيث لاتستطيع ابصارنا ان تصل اليها او تدركها ، ونحن لانزال غرضاً لسهام اللاعبين المجهولين ، اشباح صامتة تضحك هازئة ، وهي تسجل مقاديرنا ومصائرنا في صحائفها .

٦ — تليران ونابليون

كان لتليران من العمر خمس وثلاثون سنة عندما اعلنت الثورة ، فادرك بفطنته الدقيقة عظم شأن هذا الحادث ودخل فيه بجرأة وبراعة ، وقد ساقته الآراء التي يبديها والاعمال التي يقوم بها الى فضائح ومخازي ، فحرم من الدين واخرج من جماعة اهله ، وكشف القناع منذ تلك الايام عن سريرته ، وعرفت اوصاف وخلاله ، وجرت المقادير لمستقرها في تعيين مصيره ، ولكن لم تغير شيئاً من طبائعه التي عرف

بها : سيطرة شديدة على نفسه ، تكهن مدهش للحوادث معرفة بالغـة في الرجال لين ومرونة في العمل ، استهتار وعبث بالاخلاق ، تسلط على القلوب وسحر للعقول ثم استباحة لجميع الوسائل التي تضمن النجـاح .

وقد شعر بعظم الخطر عند دنو الارهاب ، واحس بما يهدده فيما اذا بقي في بلاده ، فغادرها الى امريـكة ، ولم يرجع الى باريس الا في زمن « الدوكتوار » ، فاستعان بمدام دوستايل لتولي الامور الخارجية ، وظهرت له اعلام العهد الجديد وسطوع نجم بنابرت ، فاسرع الى الدخول في خدمته ، والاكثـار من مداهنته ، والمبالغة في مديحه ، وكان اول من ذكر له الامبرطورية قائلاً انها كانت تقوم على العجائب ، اما الآن فهي تقوم على الحقائق ، واشترك في المغـامرة النابليونية ولكنه لم يشترك في عواقبها ولم يتحمل تبعاتها ، ولبس حلة الامبرطور ولكن ظل محتفظاً بارادته واستقلاله، واتخذ له خطتين في علائقه معه : الاولى اخلاص لاحد له ، والثانية خيانة بدون حياء .

ففي عهد القنصلية قام باعظم عمل يمكن ان يقوم به رجل سياسي ، فكان ينظر الى الحوادث نظرات بعيدة تسمو به الى ارفع منـازل السياسيين ، ويدعو الى القصد والروية واحترام ملك الآخرين وسلطانهم ، وذلك بضد الخطة التي كانت سـائدة في الثورة والاوهام التي كانت غالبة ، وقد كتب وهو في خدمة القنصل الاول : ان التفوق الصحيح الذي يأتلف مع الفائدة والمنطق، هو اكتفاء الرجل بان يكون سيداً في بيته لاان يأخذ به السخف فيدعي السيادة في بيت غيره ، وقد ادركت الدول كما ادرك الافراد ــ وان كان هذا الادراك جاء بعد وقته ــ ان احراز الثروة يكون باستثمار ماعنده لابالتسلط على ملك الآخرين . وكما كان يدعو الى الاتفاق مع انكلترة فقد كان كذلك يعتقد بان النمسة عنصر لابد منه ليقوم في اوربة نظام ثابت دائم ، والمصلحة تقضي باستمالة وزارة فينة ، لان الخصومة المتوالية للنمسة وانكلترة تعرض فرنسة لمحالفات عدائية وحروب لاينقطع اشتباكها ، ولكن هل كان في المستطاع كبح جماح نابليون الذي لم يكن لاطماعه حد تقف عنده ؟ لقد كانت

قوة عظيمة تقوده في مغامراته الخطيرة ، وكان يعرف ذلك من نفسه ويقول : لم اكن ابداً مسيطراً على ما اقوم بـه من الاعمـال ، وكنت منقـاداً للحوادث في كل ما آتيه .

وبرغم اخفاق تليران في محاولاته ، فكان يجد في حمل نابليون على السير في سياسة طبقاً لتقاليد الملكية القديمة ، ويثابر في اغتنام كل فرصة مواتيـة ليدعوه الى الاناة والقصد ، وقد اختار الساعة الخطيرة عندما كانت فينة على اهبة ان تفتح ابوابهـا له ليكتب اليه موصياً وهو في ستر سبورغ : لااجد في هذا البعد عن جلالتكم الا تعزية تحلو لي ، وفي الحقيقـة لا اجد الا تعزية واحدة ،وهي ان اكون قريباً منكم على سبيل الذكرى والاشتراك بتقدير الامور ، واضاف الى ذلك برنامجا ضافيا للسلم. وكان اساس هذا البرنامج انه لايجوز القضاء على النمسة ولا ان يصيبها من الذل اكثر مما يوافق مصالح اوربة نفسها ، لانه اذا كلفت ببذل ضحـايا عظيمة واذعنت في ساعات الضرورة ، فهي لاتنتظر الا فرصة الانتقام ،وان تلتحق بتحالف جديد لمحاربة فرنسة وحينئذ لايكون السلم الا هدنة ، ولايكون سفك الدماء الا امراً مؤجلا ، واذا مددنا الى النمسة يداً سمحاء فانها ستكون لنا اكبر عون في سياستنا الاوربية،ونفصلها عن انكلترة وبروسية وروسية ونستعين بها على دفع اعدائنا كلهم ، ونجعل اوربة في حالة حياد، وبذلك تكون قد سويت مشكلة السلم الذي يكون اكثر دواما وبقاءً بقدر مايؤمل العقل الانساني ويسمح به ، وكان تليران جريئاً غداة استرليتز بقوله : انه من العسير ان ندمر دولة آل هبسبورغ ونقضي عليها ، بل انه يجب علينا بدلا من ذلك ان نقويها ونعززهـا ، ونجعل لها مكاناً فسيحا في النظام الفرنسي ، لانه لابد من النمسة لسلامة الشعوب وبقاء حضارتها. لكن نابليون ظل متصاماً عن سماع هذه الدعوة الرشيدة التي تلخص تجارب عدة اجيال سياسية ، اذ لم تكن المعاهدات المبرمة الا هدناً موقتة .

وبعد تلسيت لم يبق عند تليران مجال للتوهم ولم يخف عليـه مصير البنيـان الامبرطوري ، وقد ايقظت الحوادث المتتابعة الحذر في نفسه وبدأت تخامره المخاوف

وتتراءى له العواقب والمكاره التي تخلفها الكارثة بعد وقوعها ، واخذ يتساءل ماذا يكون اذا مات الامبرطور وما نصنع اذا قتل غداً ؟ ولم يعد يستحسن عملاً من اعمال نابليون ولا امراً من سياسته، ولم يكن مزاجه التقليدي ولا منطقه الواضح الايجابي ليأتلفا مع اساليب قيصرية عظيمة ، فراح يعد عدته لمرحلة جديدة .

وقد استقال تليران من وزارة الامور الخارجية محتجاً بمرضه في آب سنة ١٨٠٧ ، فعهد اليه نابليون بمنصب شريف سام ، لانه كان يريد الاحتفاظ به في قربه لاجل ان يراقبه على الاقل ، فظل من كبار رجال الدولة يستشيره الامبرطور ويحيط به السفراء ويسجلون كل كلمة تصدر عنه ، فاخذ يتصل بالدول الاجنبية وينتقد نابليون في مجالس ثقاته ، وقد كتب عنه الكونت تولستوي السفير الروسي: ان تليران ليس له من النفوذ مايستطيع ان يحمل نابليون على العدول عن خططه، ولكن مطامعه الواسعة واخلاقه الضعيفة تجعله دائماً على اهبة القيام بما يكلف به من المهام ، اما مترنيخ فقد كان يرى ان سلطة تليران على الامبرطور ضئيلة جداً، غير انه على ما يظهر لايزال قوياً بمثابرة عمله كل يوم ومتابعة اساليبه الملتوية .

وعلى كل حال فقد زاد في توسيع مسافة الخلف بين نابليون وتليران وفرق بينهما الحرب التي قام بها الامبرطور في اسبانية ، فعارض تليران بذلك وذكر المضار والنتائج ، ولكنه كلف في آخر الامر ان ينزل في قصره امراء الاسرة المالكة الاسبانية الذين وقعوا في الاسر ، ودعاه الامبرطور ان يهيء لهم جميع الملذات وكان لايرى بأساً اذا احيطوا ببعض الحسان وعلقوا في حبائلهن .

وقد انتدب نابليون تليران لمفاوضة القيصر في تجزئة تركية وتقاسم الشرق والسير الى الفرات وايران والهند ، والقيام مرة اخرى بالامر الذي عجز عنه الاسكندر وتيمورلنك ، واخفاق هذين الفاتحين لايستلزم حتماً اخفاق غيرهما ولا سيما اذا كان التدبير احكم والاستعداد اكثر، وقد جرت محادثات بين القيصر وبين رسول نابليون ، كشف فيها تليران عن دخيلة نفسه وافضى بذات صدره .

وكان يتذكر هذه المحادثات التي بقيت سراً مكنوناً ويقول : كل ما كنت اظن انني بحاجة اليه من الحنكة والدهاء لم يكن بنافعي مع القيصر الحذر ، فقد ادرك غايتي من اول كلمة ، وفهم ما اريده حق الفهم .

فما هو الاتفاق الذي كان على اتمه بين القيصر اسكندر وتليران ؟ لقد كشفت القناع عن هذه الاسرار مذكرة افضى بها مترنيخ الى الامبرطور فرنسوا وقال فيها : ان هذه الرحلة التي ترمي الى حمل القيصر على اضمار الشر لنا والاستعانة به علينا يريد منها تليران غاية اخرى : ففي اليوم الاول بعد وصوله خاطب القيصر بهذه الكلمات المأثورة : ماذا تريد ياصاحب الجلالة من قدومك الى هذا المكان ؟ انه عليك ان تنقذ اوربة وانك لاتستطيع ذلك اذا لم تقاوم نابليون ، ان الشعب الفرنسي شعب متمدن ولكن رئيسه ليس كذلك ، وقيصر روسية متمدن ولكن شعبه ليس كذلك ، فقيصر روسية يستطيع اذن ان يكون حليف الشعب الفرنسي. وقد اطلعني تليران على نتيجة مفاوضاته عند عودته الى باريس ، وهي تتلخص بانه قانع منذ معركة استرليتز ان العلائق بين روسية وبين النمسة لم تكن ابداً حسنة ، وانه لايتوقف الا عليك ـ كما قال لي ـ ان تصبح العلائق مع روسية حسنة كما كانت في الماضي . وهذا ماينقذ البقية الباقية من استقلال اوربة . وختم مترنيخ كلامه بقوله : لقد اصبحنا في الزمن الذي نجد فيه مخالفين في داخل الامبرطورية الفرنسية نفسها .

وبقي تليران يواصل القيصر وهو في باريس عن طريق سفيره بجميع الانباء التي تفيده ، حتى انه ارسل اليه الخطة الحربية التي يريد نابليون اتباعها في روسية ونصح له ان يسرع بعقد الصلح مع الاتراك حتى يصبح اكثر قوة ، فقد دنت النهاية.

وقد علم نابليون في اثناء حربه في اسبانية ان تليران وفوشه قد عقدا بينهما حبل الالفة بعد تقاطعهما الطويل ، وان تليران سائر في خياناته ومؤآمراته ، فما كاد يرجع من حربه وتقع عليه عينه في مجلس مااتئم ، حتى القى عليه نظرات مستعرة ووجه اليه هذه الكلمات التي تضطرم بنيران غضبه ووقدات غيظه :

انك اص جبان ليس لك زاجر ولا وازع من عقيدة او ضمير ، لقد قضيت عمرك متخلفاً عن القيام بواجبك ، منهمكا باعمال غدرك ، ليس لديك ما تقدسه ، فلا تمتنع حتي عن بيع ابيك ، والآن عندما حدثتك نفسك ان الامور تسير سيراً سيئاً في اسبانية ، اخذت تعلن بدون حياء انك كنت غير راض عن عملي في هذه المملكة ، على انك انت الذي حببت الي هذا الفتح وسقتني اليه باصرار ، انه ليجدر بي ان اجعلك مثلا وان اكسرك كما يكسر الزجاج ، ولكن احتقاري لك هو اكثر من ان اتكلف هذا العناء .

فلم يتأثر تليران بما سمعه ، ومر به من غير ان يحرك صفاته ، ولكن هذا الممثل البارع عندما خرج من التويلري اطلق اسارير وجهه المنقبضة واخذ يهمس قائلا : وا أسفا لهذا الرجل الذي هو على عظم شأنه يكون في هذا القدر من قلة الادب . واشار تليران الى هذه الحادثة التي لم يستطع اغفالها لانها كانت مشهورة فقال في مذكراته : ان اطالة لسان نابليون واغلاظه القول لم يكن ليؤثر به ، اذ الخوف لايعرف سبيلا الى قلبه ، والحقد الذي يظهره نابليون كان يرجع اليه ضرره ، وقال كذلك انه لم ينقطع عن نابليون بعد اقصائه اياه ، وبقي في المكان الذي يطلع فيه على سير الامور ، ويساعده على متابعة اعماله الخفية ، مع التظاهر بالتقاعس وعدم الاكتراث ، حتى لا يتعرض بحال من الاحوال لشبهات نابليون الدائمة .

ولما جرت المقادير في اعنتها ودار الفلك دورته ، انقلب النصر المؤازر الى كارثة عظيمة ، واخذت تتوالى على فرنسة انباء الحرب التي تملأها خوفا وحزنا ورعبا، وكان تليران لا يظهر على وجهه دلائل الخشية والقلق ، حتى ان شفتيه قد انفرجتا عن هذه الكلمة : هذا بدء النهاية ... النهاية التي كان يتوقعها منذ عهد بعيد والتي كان من المتآمرين فيها .

٧ — تليران في خدمة فرنسة

مؤتمر فينة والعهد الجديد في السياسة الاوربية

عندما بدأت المفاوضات بين الدول المتحالفة وبين فرنسة افتتح تليران عهداً

جديدا في سياسته يفوق سائر عهوده ويشرف تاريخه وذكراه . فقد اخذ على عاتقه أن يقوم بعمل جليل الخطر وهو المفاوضة مع الغالبين ، ولم تكن معاهدة باريس التي عقدت في ٣٠ أيار سنة ١٨١٤ الا نسخة ثانية لعقد الهدنة ، فعادت فرنسة الى حدودها القديمة سنة ١٧٩٢ ، وشعرت بجرح كبريائها الوطنية ، ولكن انقذ ما يستطاع انقاذه في هذه النازلة الكبرى ، واعلن تليران ان ما تخلت عنه فرنسة هو في مصلحة الوطن لانه لا يقع صلح بدون ذلك بين فرنسة وأوربة ، وكان يقول : لقد انهيت السلم مع الدول الاربع واني مغتبط لما حدث ، فقد عقد الصلح على قاعدة التكافؤ وسر به جميع العالم ، وعندما افكر في معاهدات ١٨١٤ وبالمصاعب المختلفة التي كنت القاها ، وروح الانتقام التي كانت تملأ قلوب بعض المفاوضين الذين كنت اعالج معهم الامور ، كنت انتظر مطمئنا حكم الاجيال المقبلة... واذا اردنا ان نصف مفاوضات ذلك العهد ، فعلينا ان نتمثل في خواطرنا ماصارت اليه فرنسة بصنع نابليون وخطيئآته ، فقد استنفدت فيها الرجال والاموال ومصادر القوة وأغير عليها من جميع الانحاء مرة واحدة ، ولم تهاجمها الجيوش وحدها ، بل ان الشعوب كانت تضطرم بنيران الحقد عليها ، وتشعر بحس الانتقام منها ، بعد ان ارهقتها بالمغارم وصنوف الاذى التي دفعتها للثأر ، وماذا بقي لديها من وسائل المقاومة ؟ وماذا يصنع مندوبها في مثل تلك الاحوال وتحت سلطان هاتيك الحوادث ؟ لقد كان عليه ان يفاوض في عاصمة فرنسة المنكسرة التي وطئها الغالبون بسنابك خيولهم ، فحق له ان يفاخر بالشروط التي احرزها مهما كان فيها من الم وحطة .

ثم جاء بعد ذلك مؤتمر فينة ، فقلد تليران ايضاً مهمة مفاوضة الغالبين في هذا المؤتمر ، ومنحه لويس الثامن عشر جميع السلطات ليدافع عن عظمة فرنسة واستقلالها وكرامتها القومية ، ولم تكن مهمة اعظم خطرا من هذه المهمة ، ولا تبعة اثقل واشد تأثيرا على سفير من هذه التبعة ، ولكن كذلك لم ير الراؤون مفاوضا مثله ، يقوم مقامه في مؤتمر سياسي ، ويسد المكان الذي سده بنفوذه ،

فكان لغزا عجيبا ان يستطيع ممثل دولة مغلوبة وملك بدون مملكة ، ادراك هذا النجاح كله ، امام هذه المحكمة الدولية العليا التي يسود فيها الخصوم ، وان يقوم بمهمته الشاقة بحذق ودهاء وسعة صدر ورباطة جأش ، لم تذكر مدونات السياسة الا قليلا مما يماثله .

وكان تليران قد مهد السبيل لنفسه في باريس ، وعادت اليه ذكريات شبابه التي تدفعه الى التحالف مع انكلترة ، فاتصل برجالها واحكم العرى بينهم وبينه ، ولم يذهب الى فيينة الا وهو واثق بان فرنسة لن تكون وحدها في هذا المؤتمر ، ولا بمعزل عن اولئك المتعاقدين الذين يتظاهرون بتحالفهم حتى بعد توقيعهم على معاهدة السلم في باريس ، وكان اول ما قام به من الاعمال ان انكر بحزم مايراد من اقصاء فرنسة ، وما يدعى من التحالف الذي انتهى امده ، والذي اذا كان باقيا فلا فائدة من مجيئه الى فيينة . ولما قيل له انهم لم يستعملوا كلمة حلفاء الا للاختصار ، اجاب : ان الاختصار لا يجوز ان يكون عقبة في سبيل الايضاح ، واستمر على مطالعة سجل المذكرات وقال: اذا كانت هنالك دول تدعي لنفسها الميزة على سواها والسلطة المطلقة لها فانه يكتفي بشروط معاهدة باريس ولا يعترف لهذا الاجتماع باي سلطة عليا .

وقد قادت هذه الخطة الى ماريده تليران منذ اول اشتباك ، فاغتبط بهذا النجاح ، ولكنه اخذ بعد ذلك يسير على مهل وحذر ، فالطريق وعر ، وشراك الخصوم ومؤامراتهم منتشرة في كل جانب ، ولم يبرح يحتج بالمبادىء العامة والحقوق الشرعية ، ويرد على مناظريه بالبراهين الدامغة والاجوبة المسكتة القاطعة ، حتى اصبح ممثل فرنسة المغلوبة من اكبر اعضاء المؤتمر تأثيراً واعظمهم نفوذاً ، وحتى قال عنه القيصر اسكندر : انه يتكلم كوزير للويس الرابع عشر ، وطفق كلاهما ينظر شزراً لصاحبه .

وقيل له مرة وهو يدافع في المؤتمر عن الحق العام الذي اتخذه شعاره : ماذا يصنع الحق هنا ؟ فاجاب هو الذي جاء بكم ، وقيل له مرة اخرى : انه لا فائدة من

ذكر الحق العام لانه امر لا خلاف فيه ، فقال ان الخلاف يكون اقل اذاجيء على ذكره ، وبعد ان انتهى من خطة الدفاع اخذ بالمهاجمة ، وذلك بالدفاع عن حقوق الامراء الشرعيين لان فرنسة لاتطلب لنفسها شيئاً ولا تريد ان تعترف بان الفتح وحده يمنح حق السيادة ، والحاكم الذي تخضع بلاده لحق الفتح لا يزال حاكماً ما لم يكن قد تخلى عن حقه ، وكانت الناحية الثانية من خطته ان يعمد الى الايقاع بين الحلفاء الذين ظنوا انفسهم قد اصبحوا سادة اوربة ، وعليهم ان يقرروا مصائر شعوبها بحسب ماتفقوا عليه سراً ، ووضعوا له خطط التقسيم والتجزئة ، التي تلائم نظام التوازن الاوربي ، ولاجل تحقيق هذه الغاية اخذ تليران يتقرب من النمسة ويوثق صلاته مع بريطانية ، حتى استطاع في ٣ كانون الثاني سنة ١٨١٥ ان يعقد تحالفا سريا مع هاتين الدولتين ، وان يؤيد بذلك سياسة فرنسة ، ويمزق التحالف الذي عقد سنة ١٨١٣ لمحاربة نابليون ، وتأسيس بنيان اوربي يسيطر عليه .

وهذا ما وصف به تليران ابتداء عمل المؤتمر : ابلغني المفاوضون الانكليز ان غاية المؤتمر هو اطلاعكم على ما قررته الدول الاربع منذ اجتماعها ، ولما اطلعت على سجل المذكرات وعلى اطلاق الدول الاربع اسم الحلفاء عليها ، احتججت على هذه التسمية التي تجعل فرنسة بمعزل عن مجموعة الدول الكبرى ، وقلت : اين نحن اذن ؟ هل نعيش في سلم ، ام في حرب ؟ وكان يعيد قراءة المذكرات ويكرر القول انه لم يفهم ، ثم قال : انني اعرف تاريخين لم يقع شيء بينهما ، ٣٠ ايار حيث تقرر اجتماع المؤتمر ، واول تشرين الاول حيث كان ينبغي اجتماعه .

وقد طلب تليران افتتاح المؤتمر الذى وعد به الحلفاء ، وتأليف لجنة لاعداد قضايا المؤتمر الذي يحق له تقريرها ، فاجيب الى ما طلب ، وتألفت لجنة من الدول الاربع المتحالفة ، انكلترة والنمسة وروسية وبروسية ، ومن الدول الاخرى التي وقعت معاهدة باريس ، فرنسة واسبانية والبرتغال والسويد ، على ان المؤتمر لم يجتمع ابدا ، ولم تكن هنالك الا لجن فرعية للمفاوضين الذين وقعوا المعاهدات

الخاصة بين الدول ، وقد جمعت هذه المعاهدات في صك واحد سمي العقد النهائي لمؤتمر فينة .

وانتقد تيرس وغيره من الفرنسيين تليران لانه لم يستطع ان يحمل الحدود الفرنسية الى شاطيء الرين ، وكان الروس قد اقترحوا منح ملك الساكس ارضا على شاطيء الرين بحيث يصبح حليف فرنسة الطبيعي ، وتنقطع فرنسة من الاتصال ببروسية ، ولكن تليران لم يكن يستطيع ان يفعل اكثر مما فعل ، فان خطة انكلترة الثابتة ان تقيم الى جانب فرنسة تلك الجارة التي لاتعرف شبعا وريا ، وقد كتب اللورد كاستلريخ الى اللورد وللنغتن في سنة ١٨١٥ ، ان انكلترة لاتستطيع ان تعتمد في دفاعها على هولندة ، وكان المستر بيت على حق عندما اراد سنة ١٨٠٥ ان يمنح بروسية زيادة من الاراضي ، وان يقيمها على الشاطيء الشمالي من الرين ويجعلها باتصال عسكري مع فرنسة ، وكانت خطة تليران قائمة على ضرب الحلفاء بعضهم ببعض ، فدافع عن الملك الشرعي ، وقاوم مطامع بروسية ، وحالف انكلترة والنمسة . وكتب بذلك مفاخراً ومنتصرا الى الملك وقال : ان التحالف قد قضي عليه الى الابد .

وقد افتتح العهد الجديد في السياسة الأوربية بحادث عظيم وهو انكسار نابليون الاول الذي لم تسلم اي دولة من تأثيره ، سواء اكان ذلك بما احدثه من الاضطرابات في الشؤون الداخلية ام التحويل الذي احدثه في السياسة الخارجية . واخذت اوربة تتلمس شيئاً جديدا ، وهو الرجوع الى اساس قديم : اي التوازن الاوربي. فلما عاد نابليون وحاول استرجاع سلطانه قبل ان يوقع به وللنغتن وبلوخر في واترلو ، اعلن المتفاوضون ان نابليون بنابرت اخرج نفسه من الشرائع المدنية والاجتماعية واصبح عدوا للعالم مكدراً لصفوه ، والقى بنفسه في ايدي النقمة العامة ، وتعاهدوا جميعا على صيانة العهد الجديد الذي انشيء انشاءاً حسنا في اوربة كما انهم وعدوا ملك فرنسة وكل دولة مهددة بالتأييد والامداد . ولكن هذا العهد الجديد لم يكن الا رجوعا الى مبادىء سياسة القرن الثامن عشر القائمة على الفتح

والتوازن وسلطان القوة وتمثيل الحكومات لا تمثيل الشعوب ، والاستخفاف بآراء سكان البلاد ومنافعهم .

ورافق اعادة النظام الاوربي اعادة الحكومات القديمة ، على ان آراء الثورة التي انتشرت في اوربة جعلت فريقا من الرجال يعملون لتأييد الفكرة الحرة وينقمون على الوضع الجديد الذي نشأ في اوربة برغم ارادة السكان ورغائبهم ، ويستثيرون بذلك الشعور الوطني ، فتألف الاحرار من الفريق الاول ، والوطنيون من الفريق الثاني . وكثيرا ما اتحد الاحرار والوطنيون في حزب واحد هو حزب المعارضة ، الذي كان يدأب ويجد في نقض ما بناه السياسيون . وكانت الحكومات تشعر بحاجتها للتضامن تأييداً لما ابرمته ، كما ان احزاب المعارضة في كل مكان كانت تشعر بنفس الحاجة للتعاون مع سائر من يقول بقولها . وكانت النمسة اشد الجميع حرصا على الوضع الجديد ، وهي حصن المقاومة الذي يدافع عنه مترنيخ . فكان جميع المعارضين في نظره ثوريين ، وكان يرى ان غايتهم واحدة وهي قلب كل شيء قائم على الشرائع والقوانين ، فعلى الملوك ان يقابلوهم بضد ذلك اي بالمحافظة على كل شيء قائم على الشرائع والقوانين .

والى جانب العمل السياسي الذي قام به المؤتمر فقد ابقى اثرا خالدا عند الاجيال المتعاقبة بما جرى فيه من اللهو والعبث واطلاق عنان الشهوات . وقد سجلت يومئذ تقارير الشرطة في فينة التي نشرت فيما بعد فضائح واسرارا من حياة اولئك الرجال تدل على ما بلغوا من الانهماك والاستهتار . غير ان هذه النقائص الشخصية لا يجوز ان تعتبر صفتهم المميزة ، ولا سيما ان المصادر التي تعتمد عليها الشرطة لا يصح الاستناد اليها ، فهي باعتراف رجالها مدخولة مسموعة . على انه لم يكن هناك مجال للشك ان حياة اللهو واللعب اخذت قسطا كبيرا من اوقات المؤتمرين حتى قال تليران بخبثه المشهور في كتاب الى لويس الثامن عشر : ان قيصر روسية عاشق ، وملك الدنمرك متهتك ، وملك ورتمبرغ نهم ، وملك بروسية مفكر ، وملك بافارية ثرثار ، وملك النمسة مسرف ، قد انفق حتى الآن ٤٢ مليونا من

الفرنكات الذهبية . وقال البرنس دي ليني وهو يتكلم بفكاهة القرن الثامن عشر : ان نوتي يتمم مسليات المؤتمر ويجمع اسباب لهوه ، وهو فرصة حسنة للاحتفال بدفن فلدمرشال وامير من امراء الامبراطورية المقدسة . وهو القائل ايضا بعد ان شهد ما شهد من الحفلات والاجتماعات والطرب والعبث كلمته المشهورة : المؤتمر لا يمشي ولكنه يرقص .

٨ — تليران في اواخر ايامه

عندما احتفل تليران بعيد ميلاده في ٢ شباط سنة ١٨٣٧ وتذكر ايامه الخالية تحدث عن نفسه بهذا الحديث المشجي قائلا : هذه ثلاث وثمانون سنة من الماضي . واني لاجهل اذا حاسبت نفسي في هذه السنين التي انطوت هل اكون راضيا عنها وعن الاعمال التي قمت بها في اكثر المحاولات الضائعة والاضطرابات التي لم تجد فائدة ؟ وما اكثر التعقيدات المحزنة والتأثرات المبالغ فيها ؟ وما اكثر القوى التي امتهنت والمواهب التي بددت ؟ وما اكثر الاوهام الزائلة والآمال الخائبة والتقديرات الخاطئة ؟ واخيرا ما هي النتيجة ؟ هذه التي تنشأ عن التعب المادي والنفسي ، وعن اليأس من المستقبل والألم من الماضي . ان فريقا من الناس يتمتعون بمزية الجهل لانفسهم والعجز عن ادراك اقدارهم وينعمون بهما ، اما انا فسوء الطالع او علة التفوق جعلتني على ضد ذلك ، وهذا ما يزيد مع الجهد الذي يبعثه توالي السنين .

وقد يكون هذا الشعور بالألم ، وهذا الندم المستولي على القلب وعلى النفس هو الذي يفسر ما قاله في آخر كلمة القاها في حفلة عامة كانها وصية مودع . فقبل شهرين من وفاته ذهب الى مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية في مارس سنة ١٨٣٨ الذي كان عضوا فيه لتأبين الكونت رنهار احد معاونيه السابقين في وزارة الخارجية . فوصف المثل الاعلى لرجل السياسة وصفا ينطبق على كل زمان قال فيه : يجب ان يكون الرجل السياسي حائزا على نوع من الشعور الذي ينهاه وينذره ، ويمنعه كل مناقشة من شأنها ان تجعله في مركز حرج . وعليه ان يكون مقتدرا على الظهور بمظهر الرجل السهل المأخذ مع تحرزه وبعد مناله ، وان تكون

محادثاته كثيرة التنوع ، غير متكلفة ولا متنظرة ، سمحة عليها طابع السذاجة. ومهما كانت هذه الصفاة نادرة فليست بكافية اذا لم تمنح من صدق الطوية ضماناً هي بحاجة دائمة اليه . اما الفكرة الموهومة المنتشرة فعلي ان اشير اليها في هذا المكان للقضاء عليها واقول : كلا ان السياسة ليست علم الاحتيال والخديعة ،واذا كان الصدق محتما في بعض الاحيان فهو خاصة في العلائق السياسية لانه هو الذي يجعلها قوية ثابتة دائمة ، فلتكن كلمة الصدق نهاية قولنا ولنقف عندها .

وكانت دهشة سامعيه عظيمة عندما وصف السياسة بانها ليست علم الحيلة والدسيسة ، فتذكروا ما اسند اليه من اباحة وقعة الدوك دانجيان واسره وقتله، وحمله نابليون على خلع بوربون اسبانية وتآمره على مليكه وسيده.وان تعجب فعجب من هذه الجرأة التي يقدم صاحبها على الحض على مكارم الاخلاق وصدق النية في المعاملات الدولية ، وهو الذي لم يذكر عن رجل ماذكر عنه من الهزوء بالقواعد الاخلاقية والدينية ، والذي كان يباع ويشرى ولا يبالي بغدر او خيانة، والذي كان يتهالك على المال ، ويمد اليه يده حيثما كان ، فيؤول لنفسه كما يؤول لسواه ، ومن ذلك انه دافع عن ميرابو لانه قبض مالا من حاشية الملك جزاء خدمة اداها بقوله : انه لا يجوز ان يقال برغم هذه القضية المالية ان ميرابو باع نفسه من القصر ، فقد تناول المال ولكنه لم يضح ابداً عبادئه ، وكان يريد ان يخدم فرنسة والملك معاً ، فتايران يحتفظ لنفسه بحرية الفكر والعمل والوسيلة ولكن يتقيد من حيث النتيجة ... وحرصه على المال لم يكن لدفع حاجة ولكن لقضاء لبانته من الملذات والنفائس ، والفرق عظيم بين تليران وبين الخطيب العبقري الذي ما برح حتى في اسوأ ايام ضلته وتيهه تتقد جوانحه بجذوة من الخير والحماسة الصادقة ، وحب شديد للاخلاق الكريمة ، اما اذا اراد تليران ان يجد شبيهاً له بين رجال الثورة وخطبائها فهو دنتون ، ميرابو الطبقة العامة، الذي لم يكن يستر اطماعه واهواءه جلباب من الحياء . وكما كان يؤول اخذ المال فقد كان يعتذر عن التقلبات والخيانات ، وذلك بتفريقه بين الملوك والشعوب ، فهو يرى ان الوطن يبقى ، وان عليه تدبير امره والدفاع عن حقوقه ، وهذا الواجب هو غير مايترتب

عليه في خدمة الملوك ، والخطة التي اختارها لنفسه ان يخدم فرنسة كما هي وباي حالة كانت ، وقد اختصر اوصافه بقوله : اني وضعت نفسي في يد الحوادث وجعلتها رهينة الاقدار ... ولكن الكلمات التي يصوغها لا تغير وجه الحقائق ، فانه لا يستطيع ان يجد مايسوغ بيعه اسرار بلاده الى روسية والنمسة ، وليس في دعواه في اسباب تنكره لنابليون ما يبرر مواقفه .

وبعد ان انهى تليران حياته السياسية في تلك الخطبة التي تلاها في مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية بقي عليه ان ينهي حياة اخرى وان يسوى مشاكله مع الكنيسة ، وقد كان يرجيء ذلك ويماطل فيه برغم الحاح المخلصين من اصدقائه ، ولما حانت الساعة ولزمه ان يوقع الصك الذي يغسل به ادرانه ويمحو سيئاته ، طالعه فوجد فيه مايرضيه ، ولكنه لم يلبث ان طواه ووضعه في جيبه بدون توقيع ، لان كل عقد لم يوقع انما يعود بالفائدة على الذى يأخذ على عاتقه امراً ويبرم عهداً ، وابى ان يمضيه حتى بلغت روحه التراقي ... وكانت هذه المصالحة مع الكنيسة كسائر المصالحات التي عقدها ، تذرع فيها بوسائله المعروفة في الاخذ والرد والدفع والمطل والتأجيل والتسويف والحزم والصبر والمجاملة والمواربة .

الفصل الرابع

مترنيخ

في سحره وأساطير سياسته

١ — سياسة النمسة والثورة الفرنسية

كانت النمسة بيتاً مالكا قبل كل شيء ، وقوانين الارث هي التي كانت في آخر الامر تغير القوانين الاساسية ، ولم يكن في اوربة دولة مثلها متمسكة بنظام الاسرة ، مدافعة عن حقوقها ، عامله على تثبيتها ، والغريب في امر هذه الدوله ان زيادة عظمتها واتساع ملكها كان يزلزل بنيانها ويضعف قواعدها : فهي لا تبرح تنقص الدول من اطرافها ، او تستعين بالطامعين مثلها على تقاسم املاك الاخرى، بغية تأمين الاتصال بين اجزاء المملكة والدفاع عنها وتصحيح حدودها او البحث عن عروش لامرائهـا ، واذا اردنا ان نقارن بين تقاليد النمسة السياسية وبين التقـاليد التي اورثها هنري الرابع ورشليو آل بوربون وجدنا فروقاً عظيمة ومباينات كثيرة ، وان كان فيها اتفاق من حيث محاولة توحيد الدولة عن طريق استنفاد قوى الامراء بالحروب المتتابعة سعياً وراء الفتح والفخر به وكانت النمسة في الحروب الاوربية تقدم الرجال وحلفاؤها يبذلون الاموال كما صنعت فرنسة في حرب السنوات السبع وانكلترة في حرب الثورة.

وقد تقلبت خطط السياسة في النمسة، فبعد العداء التاريخي بينها وبين فرنسة ، حالفتها ماري ترز واستعانت بها على تحقيق خططها ، ولكن السيـاسة الفرنسية ادركت خطأها وعادت في ايام لويس السادس عشر الى سيرتها الاولى في الدفاع عن مصالحها ، واسترجاع المركز الذي كان لها في اوربة ، وكانت النمسة بعد ذلك

تخرج من فشل الى فشل ، وتحس في كل ماتلاقيه يد فرنسة واثرها ، وكان يوسف الثاني يلتمس سبيل الخلاص فتحول الى روسية منذ تقلد الحكم ، واتفقت مطامعه مع مطامع كاترين وعقدا محالفة في سنة ١٧٨١ ، وكانت الآراء التي تحملها النمسة وتدعو اليها في هذا التحالف تدير سياستها في ايام الثورة كلها .

والامبراطورية الالمانية هي غاية النمسة العليا التي لا تزال نصب عينها ، ولذلك فان روسية بقيت خصمها الذي لا يمكن دفعه ، فاذا ارادت ان تبسط سلطانها في المانية وجدت روسية حائلا في طريقها ، واذا ارادت ان تمتد الى تركية كانت روسية تهددها من ورائها ، فنجاح خططها السياسية يستدعي القضاء على روسية او على الاقل تجزئتها ، ولم تكن المودة بين هذين العدوين الا رياء لا بقاء له ، حتى ان رجال السياسة في النمسة كانوا يتوقعون زوال احدى الدولتين بحيث تصبح احداها تابعة للاخرى حتى يقوم بينهما اتحاد صادق واتفاق مشترك ، يقوم مقام تضارب المصالح التي لا ينفك بعضها يعترض سبيل بعض .

وكان يوسف الثاني يحاول التوسع في المانية ، ويفضل الاستيلاء على بافارية وعلى استعادة سلزية ، ويطمع في ايطالية ، ويرى ذلك حقاً اكثر مما يراه سهلا ، وكانت مطامعه كثيرة في بلاد الترك ، وكان يخشي ان يصلح امر الجمهورية البولونية وان تصبح خطراً على النمسة ، ويريد ان تبقى فيها الامور مضطربة وان تظل مهيأة للتقاسم حين الحاجة ، مع تعهد الفوضى فيها ، والاحتفاظ بالوسائل التي تعين على امتلاك بعض ولاياتها .

وكان من شأن هذه الخطط اقصاء النمسة عن فرنسة ، ولكن نجاحها يستلزم بقاء فرنسة محايدة لتستعين بها في دفع الدول الاخرى وتأمن جانبها ، وكما كان في فرنسة اعداء لمحالفة النمسة كذلك كان في النمسة اعداء لمحالفة فرنسة ، والخطة العمياء التي تبعتها فرنسة في اثناء حرب السنوات السبع كان يرجى ان تمحى اثر العداوة التاريخية الموروثة ، وكانت ماري تريز تعلن انها كانت متعلقة بالتحالف ، ولكنها كانت تخفي وراء هذا

العطف احتقاراً ممزوجاً بقلة الصبر . وكذلك كان يوسف الثاني واخوه ليوبلد ، يحفل رسائلهما بالشكوى من فرنسة ومن ريائها ومياها الى الاذى ، ومن خطتها القبيحة المتناقضة التي لا تجدر الا بها ، وهي لا تستخدم عنوان التحالف والقربى والمودة الا للخداع عن قرب ، والاساءة بدون ان تخشى مغبة ، اما النمسة في بضد ذلك صادقة وفية واثقة مخلصة ، على حين ان فرنسة لا تفتأ تمكر بها وتسوق الضرر اليها ، ولذلك فهما يضمران الشر لهذه الحليفة . وكان يقول يوسف الثاني انه لم يحن الوقت الذي يحسن فيه اظهار الحقد على فرنسة ، اذ لا يجوز ان ينسى ذلك ، ولا ان يغفل ما يقتضيه . ولكن بقدر ما يحتاج اليها يجب الصبر على اخلاقها ، واغماض العين عن مكنون امرها .

كذلك كان استعداد النمسة نحو فرنسة ، فكان رجالها يهيئون خطط الاعتداء على الترك ويؤملون ان يصلوا الى جميع غاياتهم في الشرق اذا اتفقوا مع الروس ، بعد ان فقدت فرنسة شأنها وعزمها ونشاطها ، وجاءت الثورة فزادت في ارتباك امورها . ولذلك فانهم كانوا يراقبون كل حركة من حركات الضعف في هذه الدولة ، ولا يكتمون ابتهاجهم بقيام الفتن فيها ، معتقدين ان روح الغرور والمكيدة لا تغلب فيها الا اذا عجزت وسائلها عن تنفيذ خططها وتحقيق اطماعها . واستمرت سياسة النمسة على هذا المنوال مضطربة معقدة في ظاهر امرها ، ولكنها من حيث الاساس منسجمة كل الانسجام مع تقاليدها .

ولما كانت الثورة الفرنسية تشل المملكة من غير ان تقضي عليها ، ولم تهدد اوربة بالدعوة التي يؤيدها السيف نظرت اليها النمسة بتسامح ، ولكنها عندما انقلبت الى فوضى ، واغارت على الدول المجاورة ، وظهرت انها خطر على اوربة قاتلتها النمسة قتالا لا هوادة فيه ، ولم تكن النمسة تريد بحال من الاحوال ان تقوم في فرنسة حكومة قوية ، بل ان تبقى محدودة ضعيفة واهنة ، اذ هي تعمل على احياء العرش وتسعى لتجزئة المملكة ، وفي الوقت الذى كانت تظهر فيه مؤيدة لقضية ملك فرنسة كانت تهتم باسترداد الولايات التي اضطرت الى التنازل عنها لفرنسة ، وهي الالزاس واللورين ، فلم تر في هذه الازمة الكبرى الا فرصة لتحقيق اطماعها وتنفيذ خططها وتوسيع حدودها .

ولكن ظفر الفرنسيين أفسد عليها ما رسمته من الخطط ، فلم تجد بدًا من الالتجاء الى سياسة التفاهم ، فعوضت خسائرها من بولونية التي لم تهاجمها ، ومن البندقية التي لم تبد حراكا ، ومن الامراء الاكليروس في المانية الذين كان عليها ان تحميهم فضاعت ما كانت تدعيه من سمة الشرف التي كان اولى لها ان تستبقيها ، وتآمرت مع الذين قلبوا اوربة رأساً على عقب وقضوا على العهد القديم ، وبعد ان حاولت ان تعبث بالجميع عبث بها الجميع ، وقضت عليها الاساليب التي كانت تتخذها ولا تقف عند حد فيها ، ولما عجزت عن التغلب على فرنسة حالفتها ليسهل عليها الغدر بها ، ثم بذلت للغالب الذي توجته الثورة احدى اميراتها لتخدعه وتذر الرماد في عينه.

وبعد ان غلبت في المعارك استطاعت بقوة الصبر والمرونة والمطاولة والمصانعة ان تهيء نفسها لتكون حكماً في اوربة الحديثة في اعظم ازمة عرفتها وخرجت منها اعظم قوة واعلى قدراً . فما صدق تقدير خصومها في اول القرن الثاني عشر الذين كانوا يقولون انه ينقصها دائماً جيش وفكر ، اذ كانت تجد ما تحتاج اليه من جيش وفكر ، وكانت النمسة تشكو من قلة الرجال الذين يفكرون والرجال الذين يعملون ، او الذين تنطوي ضلوعهم على حب شديد لخير الوطن ، ولم يكن العمال يبدون اي حرص على حسن سير امور الدولة ، ولا اي ارتباط باعمالهـا ، ولا يشتغلون الا بقدر مايخشون على اجورهم . وكان البرنس كونتز الذي بلغ ٧٨ عاما في سنة الثورة ، والذي ينتمي الى عصر منقض ينظر في اعمـال الدولة الى جانب الامبراطور ، ولم يكن افضل منه في تمثيل ذلك العصر الفاني ، شديد الغرور بنفسه وبعبقريته وعبـادته ، يتظاهر بمظهر ذي الرأي البعيد والمقصد الرفيع ، ويمتاز باستنتاج القواعد الجوفاء والاساليب السفسطائية ، ويبدي شيئاً من تزيين الامور معتمداً على العقل الصحيح ، ويجمع بين عجرفة الحاشية وادعاء المتنطعين ، ولم يكن ذلك بغريب في رجال السياسة ، وقد كان في جوهره شاكاً مرتابا الا في تقدير نفسه ، مهيئاً لكل الحيل السياسية ، مغروراً ، خفيف الحلم ، محدود الرأي ، منهوك القوة ، عاجزاً عن ادراك العهـد الجديد وفهم دخائله ، لا يفهم الامر الا عن طريق المنطق ، ولا يتكلم الا بالتفصيل والاسهاب ، وقد اصبحت فيه هذه العادة مملة على تجاوز السن ، وافسدت الثورة عليه اساليبه البـالية ، وهو لم يعرف الا

فرنسة التي يحكمها لويس الخامس عشر ، فظن انه امام بولونية ثانية وعمل بما يقتضيه ذلك ، وقد جرهذا الخطأ الى عواقب سيئة ، ولم يكن في تصرفه رجلا متفوقاً قادراً على ان تكون له آراء واضحة وارادة صحيحة وخطة متبعة ، فحرم بيت النمسة من النصحاء ولم يبق عنده الا امراؤه .

ولما مات يوسف الثاني كانت نفسه المضطربة القلقة سائرة في سبيل القضاء على كل شيء ، ولم يكن له اولاد فقام بالامر اخوه ليوبلد ، وكان المياً حازما فطنا دقيقا قادراً على اصلاح الفاسد ، فبادرته المنية وتوارى في رمسه في الزمن الذي اصبحت الحاجة اشد ماتكون اليه ، مخلفا ميراثه لابنه الفتى الناشيء ، الذي لم تسبق له تجربة ولا مزاولة الاعمال ، فمضت سنين على فرنسوا الثاني وتوالت محن كثيرة حتى استخلص صفته الغالبة وهي الصبر التي كانت اعظم مزية في الدولة .

واذا كان هذا الصبر كافيا لمدافعة الاخطار الشديدة التي كانت النمسة بعرض منها ، واذا ساعدها كذلك على انتظار الايام المساعفة والظروف الملائمة التي انتزع منها مترنيخ اعظم الفوائد ببراعته ، فقد كانت هذه الدولة تسير معاكسة طبيعة الاشياء ، وكانت محرومة المادة التي تكون فيها عناصر البقاء ، غير ان ماجعلها تتقهقر في اواخر العهد القديم هو الذي انقذها في ازمة الثورة .

٢ — مترنيخ والسياسة الاوربية

في بدء القرن التاسع ملأ مترنيخ ساحة العالم كما ملأها تليران ، وكان هذان السياسيان العظيمان في وقت متقارب ، اعداء احياناً واصدقاء احياناً . ويقال عن كل واحد منهما انه يدير سياسة عصره ، على ان بين الرجلين كثيراً من عوامل الاتفاق وعوامل الاختلاف ، وكلاهما كان عرضة للبغض والطعن والافتراء ، ولا يكفي لتقدير هذين الرجلين معرفة ما في نواحيهما الخلقية من ضعف ، بل ينبغي ان ينظر الى مجموع ما قاما به ، اما تليران فقدوهب توقع الحوادث المقبلة وكشف اسرارها ، وهي موهبة خطيرة ، فالانسان لا يريد ان ينذر او يحذر ، وكانت عيناه تنظران دائما الى الغد الذي يملي عليه خطته . واما مترنيخ فقدطاشت كواكب

سعده عندما تحول الزمان عن نابليون ، فاخذ ينفق في مخادعة الامبراطور كل ما اوتيه من دهاء وعبقرية ويستفيد من نفاد صبره وقلق نفسه ، وكان في اول امره يتظاهر بالحياد بينه وبين خصومه ليخفي استعداد بلاده للحرب ، حتى اذا وجد ان فرنسة نفدت قواها التي قناعه والتحق بالحلفاء . وقد خدم تليران جميع الاوضاع والعهود ، وكان يتنبأ عن موعد سقوطها قبل الجميع ، وينفذ برأي واضح سياسة قائمة على مبادىء معينة وان كان يتبع في الوصول الى غاياتها طرائق معوجة . وكان مترنيخ بضد ذلك منسجما كل الانسجام في خططه واساليبه في مدة سبع واربعين سنة قضاها بين سفارة ووزارة . وقد اتفق بانهما كانا يهتمان بمصير اوربة ومستقبلها. ولكن لم يكن لتليران مثل شأن مترنيخ في فينة حتى ينصرف ذهنه الى التوازن العام الذي امتاز فيه مترنيخ على سواه من اقطاب السياسة ، مثل رشليو وكافور وبسمرك ، الذين كان هم كل واحد منهم خدمة مصالح بلاده والحرص عليها قبل كل شيء .

وقد افتتح مترنيخ عهده في السياسة ولم يبلغ الثلاثين ، فعين مندوبا لفرنسوا الثاني في درسد سنة ١٨٠١ . وكانت معاهدة لونفيل قد اعادت السلم الى اورية . وما كاد الوزير المفوض الشاب يخوض غمار المعركة حتى برهن على ذكاء خارق وحدس باهر في تقدير الامور واستطلاع خفايا المستقبل ، فادرك بتكهنه وصدق ظنه ان الامبراطورية الالمانية مهددة بانحلال قريب وان الدولة العظيمة التي اسسها شرلمان ستذهب مثلا في الغابرين ، وان العالم ستعصف به اضطرابات عنيفة تسلبه الهدوء والسكينة الى اجل بعيد . ولا شك ان الذي يبتدىء عمله بمثل هذه النظرات الى المستقبل تذلل له العقبات وتمهد السبل وتفتح الابواب .

وكان يطمع مترنيخ بعد ان ذهب الى برلين وزيراً مفوضاً ان يضم روسية الى الاتفاق المعقود بين روسية والنمسة . ولكن معركة استرلتز لم تبق مجالا لتعبئة روسية ، وغيرت معاهدة برسبورغ تاريخ اوربة ووجهها . فدمرت الامبرطورية الالمانية وزعزعت سلطان النمسة ، فاستدعاه فرنسوا الثاني والكآبة آخذة منه كل مأخذ بعد وقوع الكارثة ، وكلفه ان يذهب الى باريس ليقوم فيها بمهمة خطيرة :

مهمة الوقوف في وجه الغالب المنتصر الذي هو حكم العالم .

وما كاد يصل السفير الجديد الى العاصمة الفرنسية حتى اخذ يستهوي القلوب بظرفه ولباقته وحسن تقاطيعه وجمال سمته ، وكان في اثناء عمله السياسي يحتاط لكل شيء ، ويظهر انقباضاً واناة ووقاراً ولا يبرح متمكناً من نفسه ومن لسانه ومن حركاته ، واذا تكلم فدليله المنطق ، وكان لديه على الدوام خطط ومناهج فلا يغلب على امره ، واذا جمعته المنتديات والمجامع فانه يظهر عابثاً فكها ، مرسلا نفسه على سجيتها ، ومتحدثاً باحاديث كأنها قطع السحر ، شديد الولوع بالآداب والفنون ، شديد التهالك على النساء ، اما الرجال فكانوا معجبين به ، ويعده منافسوه متصنعاً مدعيا مغروراً .

وكان السفير الذي لم يتجاوز عمره ثلاثة وثلاثين عاما يقلب حوله نظرات تنفذ الى بواطن الامور وتصيب كبد الحقائق ، فما لبث ان عرف مغامز تلك الامبراطورية ومواطن الضعف في ذلك السلطان الضخم ، وقد وجه بدأة ذي بدء جهوده الى نابليون لتعرف حقيقته وهتك حجابه ، فالم ذكاؤه الباهر بسر القائد الكبير الذي بسط في العالم ملكه ورفع لواءه ، وبدون ان يخطف بصره ذلك النور الساطع في عظمته ، فقد ميز جميع النقائص التي ستصير الى القضاء عليه ، وتبين هذه الحقيقة ان انتصارات نابليون مهما كانت تبهر الانظار وتملأ الاسماع فانها لم تكن وقائع حاسمة لا قيام بعدها لعدوه ، فبعد ريفولي وبعد مرانغو وبعد اولم وبعد استرليتز لم ينته شيء ، وعلى القائد ان ينهض في الغد لخوض معركة جديدة ، ولذلك فانه عندما كانت تأتيه انباء الانتصارات لم تكن تغير شيئاً من ملامحه ، لانه قد استقر على النهج الذي يسير عليه ، وعين الخطة التي ينبغي ان تسير عليها بلاده المهانة ، فكان يوصى بالصبر والانتظار واحناء الرأس اذا اقتضى الامر ، ويستعد في السر لليوم العظيم الذي يكون قريباً او بعيداً ، والذي لا بد ان تنتهي فيه ايام نابليون ، وقد اكدت له رأيه بعض محادثاته مع تليران وفوشه ، كما ان الحوادث ما عتمت ان حققت برهانه .

٣ — احباط خطط نابليون

أخذ السياسي يفت في عضد الفاتح ، وكان ما صنعه بنابرت في كمين بيون قد كشف القناع فجأة عما ينوي القيام به في اسبانية ، فكتب مترنيخ الى مليكه يقول : ان الكوارث التي يرادبها القضاء على عرش اسبانية هي في الحقيقة متجهة نحو انجاز السياسة المخادعة الهدامة المجرمة ، التي ما برح نابليون يتبعها منذ بدء عهده ، والتي شهدتها اوربة شهود المتفرج العابث ... ومع ذلك فانه لم تنتهك المبادىء بقدر ما انتهكت في الكمين الذي نصبه نابليون لرجل بائس من آل بوربون حتى ينتزعه من ملجأه المقدس . ويعدمه بالرصاص في غابة فنسان . وانتهى السفير الى قوله : انه لايمكن بعد الآن عقد سلم ثابت مع نابليون .

ثم لاحت لمترنيخ آفاق جديدة ، فكتب بعد ايام الى فينة : ان نابليون يريد القضاء علينا، وهو يتحرى ذلك ويتعمد القيام به ، لان بقاءنا لا يتناسب من حيث المبادىء ومن حيث اتساع الملك وما يرجوه من سلطة عالمية ، ولكن هل يحارب نابليون النمسة قبل اخضاعه اسبانية ؟ كلا فان هذا الخضوع سيكلفه عناءً كبيرا ، وهو لم يتوقع ان نيران الثورة ستشتعل حما في شبه الجزيرة كلها ، ولكن مقاومة اسبانية وشؤونها لا تعفينا من القتال في سبيل استقلالنا والدفاع عن انفسنا. فما كان من فرنسوا الاول ، هو فرنسوا الثاني قبل اجتماع الرين سنة ١٨٠٦، ومن مستشاريه ، الا ان وقفوا عندما رسم لهم مترنيخ من التأهب واعداد العدة في السر ، ولكن نابليون لم يلبث ان اتصلت به انباء ذلك ، فوجه ذات يوم لسفير النمسة كلمات قارصة على مشهد ومسمع من الهيئة السياسية كلها وقال له : وانت ايها السفير ! ماذا يريد سيدك الامبراطور ؟ ايريد ان ارجع ادراجي الى فينة ؟ فتلقى مترنيخ هذه الصدمة من غيران يخرج عن طوره ، وقد قص هذه القصة فقال : كلما طال الحديث كان يأخذ شكل مظاهرة عامة ، وكان نابليون يرفع صوته شيئاً فشيئاً كما هي عادته عندما يريد ايقاع الرعب في قلب مخاطبه او التأثير في سامعيه ، ولكني لم اخفض صوتي ، وكنت انقض بالتهكم حججه التي يأتي بها،

الى ان قطع الحديث فجأة ونكص على عاقبيه منصرفاً من غير ان يطوف على المجتمعين .

وقد اثارت هذه الحادثة المخاوف . وتدنت اسعار البورصة في اليوم الثاني ، وظن ان الحرب قادمة على الابواب ، ولكن مترنيخ ما زال يعتقد ان ساعة الخطر لم تدن بعد ، وان نابليون كان يريد ارهاب النمسة في الوقت الذي كان يشتد الخطر على جنوده في اسبانية ويضيق عليهم الخناق ، ثم تتابعت الانباء بالجلاء عن مدريد وغيرها ونزول والنغتن واضمحلال فيلقين من فيالق فرنسة ، فضاعف مترنيخ يقظته وسهره ، وحصل على مؤازرة تليران ومحالفته في السر ، وعرف منه ما كان من التقارب بين نابليون وبين اسكندر قيصر روسية ، وايقن ان هذا التقارب سيؤدي حتماً الى حوادث جديدة مخيفة ، سيكون في مقدمتها محاربة النمسة .

وبعد ان بلغ نابليون ذروة المجد في معركة واغرام ، واسرع جيش النمسة في تقهقره نحو مورافية ، استدعى فرنسوا الاول مترنيخ وولاه وزارة الخارجية ، فتحمل وهو في السادسة والثلاثين من عمره اعظم تبعة وادعاها لخوف ومشقة ، لان حياة بلاده اصبحت عرضة للخطر ، وقد بلغ القنوط حده من مصير آل هبسبورغ ، وتحقق لنابليون ما اراد من سيادة اوربة واصبح بحالة يستطيع معها اذا اراد ان يجعل مصير النمسة كمصير روسية واسبانية ، غير انه في هذه الايام المظلمة بقي مترنيخ وحده لا يستولي عليه اليأس ، ولا يبرح يعتقد ان بلاده لم تخسر رهانها ، وانها لابد ان تنهض من عثارها ، وسما في شعوره عن عدوى اليائسين والقانطين ، وكان له بذلك اعظم الفخر .

ولم تكن آراء مترنيخ هذه مستمدة من نفس كبيرة تأبى ان تنحني امام سوء المنقلب ، لانها لا تستطيع الا ان تعتقد ان حرية الانسان التي تناضل القوى الخارجية سينتهي امرها بالظفر ، ولان العوامل الاخلاقية الخالدة لابد من ان تتغلب على الذين لا يكترثون بها ، كما كان يقول في الساعات التي يبرر فيها تفاؤله ، ولكن يعتمد في عقيدته الراسخة على الاسباب الايجابية الراهنة التي يمحص بها الحقائق ، فيرى ببعد نظره ان صنع نابليون قريب الزوال ، وان بنيانه يوشك ان يتداعى وينهار ، وقد وصف ما كان يتردد في خاطره بقوله : ان نابليون بانقياده

الى رغبة الاستيلاء على اوربة تجاوز حدود الممكنات ، وليس لدي ادنى شك في ذلك ، واني ارى ان نابليون واعماله لاتنجو من اضمحلال مفاجيء ، ولكن متى يكون ذلك وكيف يكون فهما امران مجهولان عندي،غير ان وجداني قد رسم لي الطريق الذي ينبغي علي اتباعه حتى اعترض سير الحوادث ، والا احرم النمسة حظها من النهوض الذي تستمده من اعظم قوة : هي طبيعة الاشياء .

ولم يبق بعد ذلك لمترنيخ الا غاية واحـدة وهي القضاء على نابليون ، فبذل في سبيل ذلك كل ما اوتي من حزم لا مثال له وصبر لا نفاد فيه ، وقدرة على انتهاز الفرص لاينضب لها معين ، وكان أهم شيء لديه ان تصان النمسة من الزوال ، فلم يحجم عن توقيع معاهدة ١٨٠٩ التي كانت كارثة عظيمة ، ولكنه كان يريد قبل كل شيء ان يكتسب الزمن ويتحين الفرص ، وقد امكنته في اثنـاء ترقبه فرصة عجيبة غير منتظرة فاقتنصها عند سنوحها ، وذلك ان نابليون طلق جوزفين واصبح يطمع ان يتزوج باميرة روسية ، فاحجم القيصرعن اهداء شقيقته ، ولكن فرنسوا الاول لم يتأخر في بذل بنته ، وتم الزواج في تسعة ايام ، برغم الاستنكار العـام الذي اثارته هذه الحادثة ، وبرغم الذكرى المؤلمة الـتي مابرحت تؤذي آل هبسبورغ وتشجي خواطرهم من مصرع احدى اميراتهم : ماري انطوانت ، اذ سيجلس على عرش سيقت منه الى المقصلة اميرة اخرى من اميرات هذا البيت المالك ، ولكن مترنيخ لم يجد في هذه المصاهرة المستنكرة الا وسيلة ضرورية وموقتة ، ورداً تحتمي وراءه النمسة لتستجمع قواها وتنتظر ساعة اخذ الثأر من العدو الالد .

ودعا نابليون مترنيخ الى مرافقة ماري لويز في انتقالها الى العـاصمة الفرنسية حتى يكون مرشدا لها في خطواتها الاولى ، وحتى يؤكد التفاهم بين الامبرطوريتين ، وقد كتب مترنيخ الى مليكه يذكر له الحسنات التي نشأت عن هذه المصاهرة ، فانها غيرت وضع النمسة الذي كان باعثاً على القنوط ، وجعلها تتمتع بقسط من الراحة ، بعد ان اصابها ما اصابها من التضعضع في الداخل وفي الخـارج ، لذلك

يتحتم على الحكومة ان تغتنم هذه الفرصة المواتية ، وتبذل قصارى جهدها في اعادة تنظيم قواها التي سقطت سقوطاً هائلا في اثناء المصالحة الاخيرة وبعدها ، وان تمد هذه القوى لكل حادثة يمكن وقوعها ، ومن الخطأ الكبير ان يكون تقدير هذا المستقبل بحسب السنين الاولى التي مرت على امبرطور الفرنسيين ، فان زواجه من ارشيدوكة ضمانة للنمسة لا تعادلها ضمانة ، ومع ذلك فانه من الخطأ ان ينتظر من هذه المصاهرة ان تؤثر على خطط نابليون كلها وان تحدث تبدلا في آرائه جميعها ، ففي طبع نابليون هوى السيطرة على العالم ، وقد يدفع هذا الهوى ويحال دونه ، ولكن لا يستطاع استئصال جرثومته ، ولولا هذه المصاهرة لكانت النمسة قد اصابها الاضمحلال من الآن ، وفي الحق ايضاً ان يقال انه برغم هذه المصاهرة ، قد تنشأ امور تدعو الى تعبئة جميع قوانا حتى نقاوم الاستعباد ولا نقف مواقف الهوان .

ففي اثناء هذه المهمة الموثوقة التي قام بها مترنيخ الى جانب الامبراطورة الفتية ، كان يستفيد اعظم الفوائد من تتبعاته وملحوظاته ، وقد رأى ان الشعب الفرنسي يكنظ بالمفاخر ، ولم يبق له ما يرجوه الا الراحة والسلام ، ووجد ايضاً ان امراء الجيش وعظماء الدولة ملوا المغامرات التي لا تنتهي ، واصبحت اطماعهم تنحصر في التمتع بالحسنات التي ادركوها والثروات التي نالوها ، وقد نبهه تليران الى بوادر الخلاف بين حليفي تلسيت ، وسيكون عما قريب احدهما عدو الآخر ، فكتب الى الامبراطور ان الحرب ستنشب في الشمال سنة ١٩١٢ ، وقد فوجيء مترنيخ بانكسار نابليون وعودته ، ولكنه لم يدهش لهذه المفاجأة السعيدة ، وسرعان ما انتبه لها ، واحاط بنظرة واحدة في الموقف وفيما يجب ان يعمل ، وازفت ساعة النمسة التي تنقذ فيها اوربة من سلطة فرنسة وتصبح حكما في السلم العام .

ولكن ماذا يمكن تحقيقه ؟ اليست الخطة صعبة ؟ وها ان نابليون لم يفقد قواه بل انه تغلب على الروس وعلى البروسيين في معركتين متتابعتين ، فوضع مترنيخ خطة قائمة على سلسلة من الاعمال والاساليب التي تصل بالنمسة تكون وسيطة بين

المتحاربين ، واقتيد نابليون ببراعة متناهية في التضليل والابهام والوعود الخلابة الى مؤتمر براغ ، كانه شراك قد نصب له ، وقد دبرت الامور بحذق وكياسة لا حد لها ، وادبرت بدهاء وعبقرية فكانت تعبئة سياسية تفوق كل وصف .

وقد التقى مترنيخ وجهاً لوجه مع نابليون في درسند ، وقبل ان يصل اليه مرّ في جماعات من كبار القواد والضباط ورجال الحاشية الذين اثقلت صدورهم الاوسمة البراقة والشارات المذهبة ، وعلت محيا كل واحد سحابة من العناء والقلق والتعجب ، فتقدم اليه البرنس نوشاتل قائد الجيش الكبير وهمس في اذنه قائلا : لا تنس ان اوربة قد كرهت الحرب وكذلك فرنسة فهي لا تريد الا السلم ، واستمر مترنيخ في خطواته لاينبس ببنت شفة حتى فتحت له الابواب ودخل على نابليون ، وكانت بينهما هذه المقابلة التاريخية الخطيرة التي وصفها مترنيخ بقوله :

كان نابليون واقفاً في وسط غرفته .. فدلف الى متظاهراً بالهدوء وسألني عن صحة الامبراطور ، ثم لم يلبث ان انقبضت اسارير وجهه ووقف تجاهي وهو يقول : انكم تريدون الحرب وما هي عنكم ببعيد ، لقد انهكت الجيش البروسي وهزمت الروس ، وانتم تنتظرون يومكم ، وموعدنا في فينة ، الا ان الرجال لا يهدون الى الرشد ، وعظات الماضي لاتنفعهم ، فقد أعدت الامبراطور فرنسوا ثلاث مرات الى عرشه ، ووعدته ان ابقى مسالماً له ما بقيت حياً ، وتزوجت ابنته ، وكنت اقول في نفسي اني اركب متن الضلال ، ولكن هذا ماهو كائن اليوم واني نادم على ماصنعت ...

هذه المقدمة التي ادلى بها نابليون جعلتني اشعر بقوة موقفي ، وقد ادركت في هذه الساعة الحاسمة انني امثل اوربة باسرها وماذا اقول ايضاً ؟ ان نابليون كان يصغر في عيني ، وقد اجبته : الحرب والسلم في يد جلالتكم ، ومصير اوربة ومستقبلها ومستقبلكم ايضا كل ذلك رهين بما ترونه ، وانتم في هذا اليوم بوسعكم ان تعقدوا السلم ، اما غداً فقد يفوت الوقت . فقال لي فجأة : وماذا يراد مني؟ ايراد

ان ادنس شرفي بالعار ؟ كلا ! هذا لايكون ابداً ، انني اعرف سبيل الموت ، ولكن لا اتنازل عن شبر من الارض ، لقد ولد ملوككم على العرش ، فهم يغلبون عشرين مرة ثم يعودون الى عواصمهم ، اما انا فجندي باغ ما بلغ !

ومضت المحادثة ثماني ساعات على هذه الطريقة المؤثرة ، وكان نابليون يحاول ان يتعرف موقف النمسة وحقيقة قواها ، وكان مترنيخ يحتج بما تقاسيه اوربة من آلام ، ولا يحجم عن الاستدلال بنفاد قوى الشعب الفرنسي . فتأثر نابليون من هذه الكلمات وقال له : انك لست جندياً ولا تعرف مايجول في خاطر الجندي ، اما انا فقد نشأت في الحروب ، ولاتهمني حياة مليون من البشر ، وكان الاسى بالغاً منه مبلغه ، فرد عليه مترنيخ قائلاً : لماذا تفضي الى بين اربعة جدران بهذه التصريحات؟ لنفتح الابواب ، ولتندفع كلماتك هذه تدوى في اقصى فرنسة وفي ادناها وحينئذ لاتكون القضية التي ادافع عنها خاسرة .

ثم خيم الظلام وكاد المتحادثان لايعرف احدهما وجه صاحبه ، ولكن لايستطيع احد ان يدخل عليهما ويوقد لهما المصابيح ، فلما عاد الى نابليون هدوء نفسه وسكنت ثوائر جأشه ، خاطب مترنيخ بالطف لهجاته وهو يضع يده على الباب وقال له : اتعرف ماذا يقع ؟ انكم لن تحاربوا ! فاجابه الثاني بوقار وتمهل : لقد ولى امرك ياصاحب الجلالة ، وكنت اشعر بذلك قبل مجيئي الى هذا المكان ، اما الآن فقد تأكدته .

وبعد عشرين يوما انعقد مؤتمر براغ ، وكان مندوبو النمسة يتكلمون بلهجة الآمر ويقفون موقف السيد ، وقد رفض نابليون الانذار الذي وجه اليه ، فاعلنت النمسة عليه الحرب وتولت قيادة الجيوش المتحالفة .

ومضى مترنيخ في خطة لايفكر الا في غاية الدولة وحقها ، ولا يعبأ حتى باميرة آل هبسبورغ التي زوجها من نابليون ، ولا بما لابنها من حقوق في العرش ، ورأى من حسن التدبير ان يفصل بينها وبينه فوصاها بالذهاب الى اكس لبان ومنعها من

اللحاق بزوجها في جزيرة البه ، وارسل ملك رومـة الى فينة ليقيم فرخ النسر تحت جناح النسر الاسود، ولما كان يعرف مايعرف من نفس الارشيدوكة الامبرطورة فقد اسلمها الى نيبرغ، غيرمبال بالتهمة والظنة وتجاوز بذلك ، على ماقال احدمعاونيه، حتى خطط مكيفلي واساليبه ، وهو في الحقيقة لم يكن يبالي مايفعل في سبيل مآربه. ولم يكن يتردد في عنف او قسوة ولا بما يدعو الى خجل او ريبة .

٤ — اوربة في عهد اسكندر ومترنيخ

القيصر اسكندر والرئيس واسن

كانت السياسة الاوربية بعد انقضاء عهد نابليون متأثرة بسياسة رجلين: اسكندر الاول قيصر روسية ومترنيخ مستشار النمسة ، وكانت تتوقف على اتفاقهمـا واختلافهما سياسة الدول المعظمة في اوربة، وقد بحث في ذلك العهد بمشكلات اربع: فرنسة في نظامها الداخلي ومظهرها الخارجي ، التدخل في الشؤون الايطـالية والاسبانية ، المسألة الشرقية ، المستعمرات الاسبانية . واتفقت الدول على عقـد مؤتمرات موقوتة للمحـافظة على النظام الذي وضع ، والبحث في الأمور التي تهم الشعوب الاوربية وتضمن راحتها ورخاءها ودوام السلام فيها، ولما لم يكن قد حدد وقت معين لهذه المؤتمرات ، فقد كان مترنيخ يلجأ الى اساليبه حتى يحرز موافقة الدول المتحالفة على الاجتماع واتخاذ قرارات بالاجماع .

غير ان الاتفاق بين الدول العظمى لم يكن الا ظاهراً ، فقد كان يخفي نضالا وتنافساً بين اسكندر ومترنيخ اللذين كانا يرجع اليهما ويقرران سياسة اوربـة على هواهما ، وشتان بين الرجلين في الاخلاق والغاية والسياسة والمنهاج ، فقد كان القيصر كريم الهزة ، لين القلب ، شديد التعلق بواجباته كرئيس دولة ، متسع الذرع للمذاهب الانسانية ، وقد ساعد هو وانكلترة على اقامة نظـام دستوري في فرنسة وفي سويسرة ، وسن كذلك نظاماً دستورياً لبولونية ، وكان منشأه حرا وهو يميل الى الحـكم الدستوري الذي تغلب فيه سلطة الملك ، اما مترنيخ فقد كان

سياسياً من اصحاب الشكوك وقلة التحرج ، لايعني الا بالسياسة القائمة على المصالح ولا تعرف الانسانية سبيلاً الى قلبه ، وهو يرى ان مصلحة سيده في المحافظة على ما هو كائن ، وان اساس السياسة الاوربية في المحافظة على الراحة والدعة ، وكان عدوا لجميع الثورات متمسكا باساليب الحكم الارستقراطي المطلق ، وكل دستور في نظره سلاح في يد الثائرين ، وكان جوهر الخلاف بين القيصر والمستشار قائماً على الطريقة التي يؤسس فيها نظام دول اوربة الداخلي ، فكان الاول يؤيد الحكم الدستوري ويامر ممثليه بمؤازرته والانتصار له ، على حين ان الثاني كان يدعو الى ضد ذلك ويتهم سياسة القيصر في الامبرطورية العثمانية ويسميها سياسة فتح واستيلاء ، وعلى كل حال فان التنافس بين الرجلين افاد الاحرار في اوربة الذين كانوا يناوئون الحكم الاستبدادي المطلق .

وفي اثناء مؤتمر اكس لاشابل كان اسكندر قد بدأ في التحول عن سياسته لان اتساع نطاق الفتن قد اخافه ، فاغتنم الفرصة مترنيخ واستفاد من اتجاه القيصر الجديد ومن مخاوفه ، لمقاومة العناصر الثائرة والتعاون لقمع كل اخلال بالامن العام والنظام ، وقد اغتبط بهذا الفشل الذي اصاب اسكندر وحاشيته ، بعد ان كانوا يحتفلون بما سموه فكرة الزمان ويحدثون باقوالهم آمالا عظيمة عند المتطرفين واصحاب الميول الحديثه من كل فئة ، واصبح مترنيخ ينشط انصار الامن والنظام ويخيف انصار الفتن والقلاقل وقد قال ان اسعد ما ادركه من النتائج هو اطمئنانه الى انه لن يحدث تغير بعد الآن وهذا اكبر انتصار للمحافظين الذين لم يستحبوا الآراء الجديدة ولم يثقوا بها.

اما الحكومة البريطانية فقد رفضت ان تأخذ على عاتقها عهداً مطلقاً عاماً ، وعندما اقترح القيصر اسكندر عقد اتحاد اخوي بين الحلفاء المحافظة على كل الحقوق ، اجاب كاسلريغ مندوب انكلترة ان المعاهدات لا يمكن ان تقوم الا على اساس الواجبات السياسية المعتادة التي تلزم دولة امام الثانية ، ولم تكن معاهدات سنة ١٨١٥ ترمي الا لغايات آنية حاضرة ، هي موضوع تلك المعاهدات ، وليس بالمستطاع قبول تدخل دول في شؤون اخرى ، لاجل مقاومة تغيير شرعي او

غير شرعي ، اذ لاتستطيع ان تكون دولة اجنبية حكما في امور دولة غيرها مهما كان شأنها ، وقد ذهب الحلفاء مدى بعيداً باخذهم على عاتقهم مراقبة السلم في اوربة والمحافظة عليه وعلى تنفيذ المعاهدات ، فاذا كان هنالك تحالف ضمني ، فانه يخرج منه اجبار كل دولة على تأبيد الاخرى في نظام التوارث الملك وفي اوضاع الحكم والسلطة الداخلية ، وصيانتها من اعمال العنف والاضطراب ، وهذا مايفرض ان هنالك قوة عامة تستطيع ان تكره جميع الشعوب والملوك على اتباع نظام عادل في الداخل ، ولا شيء ابعد من الاخلاق كالاتجاه الى القوة للمحافظة على حكم قائم بدون اكتراث بالطريقة التي يمكن سلوكها واساءة العمل فيها . فسلكت بريطانية بذلك سياسة عدم التدخل وتابعتها فرنسة به ، وقادت النمسة سياسة التدخل وشاركتها فيها روسية وبروسية ، وبقي التحالف رسميا بين الدول الخمس ، غير انه بدأ يتمزق في معالجة قضيتين لم تحلا منذ سنة ١٨١٥ . ثورة المستعمرات الاسبانية والمسألة الشرقية .

ولكن تغير الاشخاص سبب تغير السياسة ، فقد انتحر وزير انكلترة الاول كاستلرغ ، وحل محله كاننغ الذي كان وزيراً الامور الخارجية فاعلن سنة ١٨٢٣ ان التحالف كان اتحاداً لتحرير جزء كبير من تسلط فرنسة العسكري ، ولم يكن في حين من الاحيان اتحاداً لحكومات العالم ، وتدبيراً لشؤونها الداخلية ، وقياما على امور الدول الصغرى ، وانكر كاننغ ايضا نظام الامن الاوربي وسياسة التدخل في اسبانية ، وقال : ان انكلترة تلح في تأبيد ماتريد الشعوب ان تقرره من الوضع الذي تختاره ، ولم يكتف برفض مبدأ عدم التدخل ولكنه طالب بحق المنع للتدخل السياسي في شؤون دول اخرى ، واستمر على معارضة الحلفاء ومقاومة سياسة مترنيخ .

وقد نظمت المستعمرات الاسبانية الثائرة امورها واسست اوضاعها ، في الوقت الذي كان شاتوبريان وزير خارجية فرنسة يقترح مبدأ التدخل في هذه المستعمرات ومؤازرة ملك اسبانية في اخضاعها ، وهذا معارض للسياسة الاولى التي كانت

فرنسة تشايع بها الخطة الانكليزية ، فالقى حينئذ كاننغ خطبة عظيمة وابلغ الدوك دو بولينياك سفير فرنسة ان كل تدخل لاحياء السلطة الاسبانية في امريكة تعتبره انكلترة سبب حرب ، اما الولايات المتحدة فقد اعترفت بالمستعمرات الاسبانية وقررت مبدأ مونرو في صيانة امريكة ومقاومة التدخل في امورها .

ثم كانت المسألة الشرقية واعترف كاننغ بحق المحارب لليونان ، وقال : ان هذا الحق لم يكن مبدءاً ولكن امراً وقعا ، وقد تردد القيصر اسكندر في معاضدة اليونان ، ولكن خلفه نقولا حارب الاتراك في سبيلهم ، ثم انتقلت قيادة الدول الاوربية الى انكلترة وفرنسة ، واخذت النمسة يتضاءل امرها في قضايا السياسة الاوربية ، وطوي نظام مترنيخ عهده ، كما زالت احلام اسكندر قيصر الروس ، وجر الزمان ذيول العفاء على خيالاته .

وكانت هذه الاحلام والخيالات شبيهة باحلام الرئيس ولسن وخيالاته في اعادة تنظيم الجماعة الدولية ، وانشاء عصبة الامم ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وميثاق العصبة ، والمواد الاربعة عشر ، ولكن المبادىء طالما غلبت على امرها واذيلت منها الحقائق السياسية والمعاملات الدولية .

وقد اتفق القيصر والرئيس ولسن في ان كليهما لم يعد نفسه محاربا في جملة المتحاربين ، ولكن حكما بين الفريقين ، حتى ان المفاوضين الالمان سنة ١٩١٥ ــ ١٩١٩ كانوا يلجأون الى الرئيس ولسن والى مبادئه ، كما ان المفاوضين الفرنسيين سنة ١٨١٤ كانوا يرجون في بادىء الامر معونة الامبرطور اسكندر وسخاءه ، وفي هذا التاريخ وذاك كان امر تنظيم اوربة وانشائها يحتاج الى مثل اعلى والى عوامل معنوية ، ففي مؤتمر فينة كان يدافع عن حقوق الملوك وفي مؤتمر فرساي كان يدافع عن حقوق الشعوب ، وفي مؤتمر فينة كان يراد انشاء نظام دولي للتعاون وهو تأمين السلم والمحافظة عليه وتحريم النخاسة وتنظيم العلائق الدولية والمواصلات والتجارة ، وفي مؤتمر فرساي وفي عصبة الامم كان العمل لهذه الغايات اوسع نطاقا ، وقد استمر اسكندر الاول في مدة اربع او خمس سنين

يعمل على تحقيق خطته العظمى في الاتفاق بين الدول وفي تحديد السلاح ، ولكنه بعد ذلك اصـابه السأم والضجر وذهب في سبيله .

ومهما كانت الفوارق من حيث الاساس ومن حيث النشأة ومن حيث الزمن بين اسكندر الاول وبين الرئيس ولسن فهنالك تشابه عظيم في موقفهما وفي ميولهما وفي خلاقهما ، وكما تخلى القيصر عن برنامجه ، فان المواد الاربعة عشرة التي ادخلت في المعاهدة حولت الى نصوص اصبح الرئيس نفسه يجهلها ، وقد كان في مكانه النائي يدعو الى مبادىء علوية ؛ فلما وصل الى باريس وخاض بنفسه غمار المفاوضات ، انحدر عن مستواه الرفيع واصبح يناقش مخاطبيه المجهزين بالاسلحة الماضية والبراهين القاطعة ، واذا كان قد سلم باكثر برنامجه وتنازل عنه ، فذلك لان همه الاكبر في انقاذ مابقي وهو انشاء عصبة الامم ؛ ويمكن المضي في التشبيه الى ابعد من ذلك ، فكلاهما يستمد حكمه من العناية ، احدهما بنعمة الله والاخر باسم الدستور ، وكلاهما يعتقد بامكان اصلاح النوع الانساني وينطوي على نفس تقية وتقدير لعظم المسؤولية ، وكلاهما يرى ان افضل طريقة للمحافظة على السلام توحيد الدول في عصبة واحدة ، وكلاهما استقبل بحماسة لاحدلها ؛ ولكن مالبث ان عارضه حلفاؤه وتنكرت له بلاده ، وسفهه سائر النـاس ، وقد انكرت الولايات المتحدة الرئيس ولسن ولكن اسكندر قد انكر نفسه وحياته بسبب جرأة متناهية وحب شديد للعدل والحرية وثقة بالرجال مفرطة .

٥ — الحاكم بامره في النمسة

بعد ان انقضى امر نابليون وعقد الصلح في باريس واجتمع مؤتمر فينة ، اخذ الامر في النمسة يرجع كله الى مترنيخ ، ولم يبق للامبرطور الامظاهر الملك وعناوينه ، وقد انتهج المستشار السياسي خطة عامة ، تابعها في مدة ثلاث وثلاثين سنة بجد وحذق ، وهذه الخطة تختصر بصيغة سهلة : اقامة السلم الخارجي بين الشعوب على اسـاس توازن الدول واتحاد العروش ، واقامة السلم الداخلي على اساس تعـاون القوى المحافظة وتضامن الحكومات المشروعة .

اما من الناحية الخارجية فقد كان النظام حكيما من حيث النظر ومجدياً من حيث العمل ، واما من الناحية الداخلية فلم يكن هذا النظام الا خيالا موهوما ورأياً سفسطائياً قد انتهى بفشل مريع ، وذلك لان حياة الشعوب لا يمكن دوامها على الخضوع والصمت والسكوت ولا يستطاع القضاء على الافكار الحرة بوسائل العنف والقوة ، والتبدل هو النظام العام للطبيعة ، والانسانية لاتبقى الا على التحول المستمر ، ولكن مترنيخ برغم ذكائه المتوقد لم يدرك هذه الحقيقة ، ولم يكن يفكر الابطريقة واحدة لمعالجة الاحداث وهي العناء الشديد والقمع العنيف ، وكان يحب ان يردد هذه الكلمة : اني صخرة النظام ، وكان بعد نظر مترنيخ يكدره في الغالب عيب كبير وهو الغرور الذي كان يزداد كلما بلغ من الكبر عتياً ، وكان شديد الاعجاب بنفسه حتى ليظن انه معصوم من الخطأ ، بل يظن ان الخطأ ابعد من ان يدنو من خاطره ، ويتحدث برسالة قدسية انزلت عليه ، على حين كانت السحب تجتمع في الآفاق ، والبروق تلمع في السماء ، والعاصفة تهب هذه المرة ايضاً من فرنسة ، ولكن مترنيخ الذي زادت حوله الاطماع والاهواء والشهوات لايعد للمقاومة عدتها ، ويعتقد ان النسمة الامبراطورية التي بورك حولها ستنجو من القلاقل التي تقع في جميع البلاد ، ولم يكن يكترث للدمقراطية المنتصرة لان شعور الرجعة مستول عليه ، وكان مع ذلك يتهالك على المال فيسرف ويتلف ، وقد كلف بلاده نفقات عظيمة في اعماله السياسية ، واقصاها عن الامم في تيهه وجبروته .

وبينما كان يتردد بلهجة واضحة آراءه في فلسفة السياسة ، حدثت ثورة فينة سنة ١٨٤٨ وقضت في ساعتين على حكمه ، فاعلن انسحابه قائلا انه قضى عمره وهو يخدم المملكة ، فاذا ظن بانه اصبح مهدداً لها اعتزل من تلقاء نفسه ، لانه لا يحب ان تسفك الدماء في سبيله ، وولى هاربا متنكراً ومعه زوجه ، لا يجد من يعطف عليه ولا من يسديه معونة ، يقضي ظلام ليله وبياض نهاره ، كانه عبد آبق من سوء مافعلت يداه ، وكان يحيى في حلم مخيف ، وقد شاءت الاقدار ان لا يجد ماوى يلوذ به الا البلاد التى اصابها وباء الحرية : بلاد كانتنغ وبلمرستن التي كان يتوقع

لها الدمار ، واني برهنت على ان لديها من القوى والينابيع والروح العامة ما يحميها من انقلابات في ذلك المحيط الاوربي الهائج المضطرب ، وكانت السنين التي قضاها بعد عظم جاهه واتساع سلطانه وبعد اثره شديدة الايلام له ، وكانوا يلومونه في البلاد التي لاذ بها على استسلامه للقيصر اسكندر في سياسته الشرقية لقاء ما كان يبذل له من المال ، وكانوا يرون انه لم يلحق الاعداء مجتمعون ضرراً بالنمسة بقدر ما الحق بها مترنيخ وحده ، وانه قاد النمسة الى اسوأ مصير بسبب اسرافاته وانفاق خزينة بلاده في سبيل تأييد الحكم المطلق ، وقد طلب النواب ان يحقق في الاموال التي يقال انه اخذها ، واستمر التحريض عليه حتى بعد جلوس فرنسوا يوسف على العرش ، وكان الناس يرون انه مسؤول عن الخلافات التي قامت في شعوب النمسة والقلاقل التي نشأت فيها ، ويعدون حكمه الاستبدادي قد ولد الريبة والنفرة ، وان يده الحديدية كانت تضطهد كل حياة قومية او ادارية ، وان سياسة التفريق التي سار عليها اثارت احقاد الشعوب على الالمان انفسهم الذين كانوا كذلك مضطهدين .

غير ان النفرة العامة اخذت تخف وطأتها ، وقد شهد سكان فينة من بوادر العهد الاستبدادي الجديد ، ماجعلهم يرون العهد الاستبدادي القديم اقل شدة وعنفا ، وبعد ان قضى مترنيخ ثلاث سنين ونصفا في منفاه عاد الى قصره ، ولكن كل شيء في اوربة كان قد تغير ، ومات سنة ١٨٥٩ وهو في السابعة والثمانين من عمره ، ولو انه عاش سبع سنين اخرى لشهد سقوط النمسة في سادوا وهبوط نجم آل هبسبورغ ، وعلو شأن بروسية وتعاظم خطر آل هوهنزللرن .

٦ — اوصاف مترنيخ والآراء فيه

ظهر مستشار النمسة وعلا شأنه في ايام القلاقل والاضطرابات ، فبلغ في قيادته وحزمه غاية بعيدة ، واستثار الاعجاب بحسن رأيه وصدق حدسه وقدرته على دفع الكوارث ، وصان فرنسة وحماها ، وكبح جماح بروسية الشديدة الطموح

لبسط سلطانها بغية الاحتفاظ بالتوازن والسلام في اوربة ، واذا كان قد اصاب شخصه ما اصاب من الكسوف فقد تحسن الرأي فيه وعاد المادحون الى ذكره ، وكثير من رجال السياسة يمرون بهذه المحن ، حتى ان بسمرك العظيم لم يسلم من ذلك بسبب الاتجاهات الحزبية والاجتهادات السياسية المتغلبة في اليمين وفي الشمال .

وقد تساءل الكثيرون اذا لم يكن مترنيخ رجلاً سياسياً اكثر من ان يكون رجل دولة ، فقد كان من ابرع اهل زمانه في السياسة وادهاهم في الشؤون الدولية ولكن كانت تنقصه الصفات التي يتكون منها رجل الدولة ، وهي الجرأة والعزيمة والجلد والقوة وتوقع الامور وعدم الاكتفاء بالمنافع الآنية ، بل كل ما هو فكرة مبدعة وبنيان صحيح ، وقد كان مترنيخ نفسه يميز بين رجل الدولة و بين رجل السياسة الذي لم يمنح بعد النظر ومعرفة مايكنه المستقبل . وكان يوصف بانه يصنع الحق باطلا والباطل حقاً على هواه ، وانه يبدأ بالكذب على النـاس ثم يكذب على نفسه ، وكان نابليون يقول عنه ان المسيو دو مترنيخ سائر في طريقه ليصبح رجل دولة لانه يحسن الكذب من الآن ، وكان يقول وهو يقصده : الناس جميعاً يكذبون في بعض الاحيان ، ولكن الكذب دائماً هو زيادة وافراط ، وكان تليران يشبهه بالكردنال مزران ويقول كان الكردنال يخدع دائماً ولايكذب ابداً ، واما مترنيخ فانه يكذب دائماً ولا يخدع ابداً .

وكان مترنيخ يتناقض في اقواله وفي اعماله فيقول عن نفسه: اني ارى خطر اليوم اعظم من خطر الغد ، فيجب ان نفتكر بمعالجته ، اما المستقبل فالزمان يكفينا امره ، ويقول ايضا : ان اليوم الذي يمر لاشأن له عندي الا باعتباره وقفة الغد الذي اناضل دائماً في سبيله ، ولا اعمل الا له ، اذ لايهمني سوى دفع الشرور المقبلة والقلاقل المهددة ، وكان كذلك يظهر احيانا شديد الاعجاب بتمثيل دور السيد المسيطر في الساعة التي هو فيها ، واحيانا دور رجل الدولة الذي يتوقع الحوادث ويحسب لكل شيء حسابه ويحاذر مايمكن ان تحمله وقائع الايام ، وكما كان يتناقض في اقواله وفي اعماله ، فقد كانت اقواله كثيراً ما تخالف اعماله حتى مزج بعض

المؤرخين بين هذه وتلك ، واراد ان يستخرج من النتائج مالايتفق وما شاهده معاصروه الذين ساد عندهم الرأي بانه لم يكن كبيراً الا في الدسيسة والحيلة والخديعة ، فاذا كان من يدعي انه سياسي بعيد الرأي لايذعن لغير المنطق والعقل فانه يجد من يرد عليه بانه لم يكن يذعن مطلقاً للمبادىء الفلسفية ولم يكن همه الا حكم الدولة التي وكل اليه تدبيرها لابحسب الرأي والعقل ، بل بحسب المقتضيات والضرورات ، حتى ان قرينة ولي العهد حكمت عليه حكماً عنيفاً بقولها انه مسؤول عن جميع المصائب ، لأنه شديد الغضب ، قليل التفكير ، عاجز عن النظر الى الامور اذا استعصى قيادها نظرة صائبة .

على ان الذين يريدون ان يجدوا له صفات ممتازة وآراءاً بعيدة كرجل دولة لاتدل على صحة نظرهم شواهد الكارثة التي نزلت به في اواخر ايامه ، وهم برغم كل ذلك يعقدون على رأسه عصائب النصر ، بسبب ذلك النضال الذي قاده في حرب نابليون وكان نفسه وروحه حتى تغلب عليه وانقذ اوربة منه ، وقد كثر المعجبون بخطته الباهرة وبراعته السياسة التي قادت الى الظفر في قتال الامبرطور ، ولكن الذين تحروا اوراق وزارة الخارجية في النمسة بعد مضي السنين الطويلة لم يجدوا انه كانت هناك خطة مدبرة محكمة ، فان النمسة كانت كلما وقعت في مشكلة او حدثت حادثة تجتهد بالخروج منها بقدر ما تستطيع ، وكان مترنيخ الذي استفاد من نجاحه السياسي الاول القائم على فن حسن الانتظار والاعتماد على طبيعة الأشياء ، يظن انه يستفيد من هذه القوة السحرية في جميع المواقف ، وقد بقي متمسكا بهذه الخطة التي هي خطه كل رجل محافظ ، ولكن لم يفكر بالجزء الثاني الذي يعين الحظ وهو العمل والانشاء .

وقد اديل مترنيخ من نابليون وكان يعده العنصر الهدام ، والبون شاسع بين ماخلفه كل واحد من مكانة في التاريخ ، فقد خلد الامبرطور آثاراً قيمة ليس لفرنسة وحدها ولكن للعالم باسره ، فوضع خاتمه على الاجيال المقبلة وسيطر على حياتها السياسية وآرائها العسكرية ومبادئها الاجتماعية وقواعدها التشريعية ،

وهو لم ينج من الضعف الانساني فارتكب خطيئات سياسية كبرى ، ومع ذلك فانه سيبقى في ذكريات الرجال الى الابد ، العبقرية الخالدة المضيئة ، ومثال الاقدام والعمل والجرأة ، وهو كالنسر الذي اتخذه شعاراً له يحلق في اجواز الفضاء ، وينشر اجنحته بين الارض والسماء ، اما مترنيخ فانه لم يستفد شيئاً من الانقلاب العظيم الذي حدث سنة ١٨٧٩ ولم ينس شيئا ، ولم يحفظ الا الخوف الذي احدثته الثورة في نفوس ارباب التيجان ، فاخذ يقتادهم على هواه ، وذلك بضد ما كانت تشعر به القلوب الكبيرة مثل غوته الذي كان يحض على الانتفاع بدروس الثورة وعبرها ، وينصح الملوك والامراء بان لايعارضوا روح الزمان ولا يقاوموا قوى الشعوب ، وعندما تثور الشعوب على حكوماتها فالحكومات السيئة هي المسؤولة ، والجيوش المعبأة والمراقبة الشديدة لاتستطيع ان تقف سداً دون تغلغل افكار الثورة ، والحكومة الصالحة فقط تستطيع ان تدافع عن نفسها وان تصدهـا .

والحرية التي كان يخشاها مترنيخ نشأت من الدول المستبدة بعد ان سقطت بعضها اثر بعض ، وما اعظم خطأه عندما كان يعتقد «ان ايطالية مستعبدة ممزقة ، وان المانية بدون اتحاد ولا حقوق ، وان بولونية قانطة من بعثها ونهوضها » هي حقائق ثابتة كفكرة الثورة التي لاترجع بعد الى الحياة ، فان شعور القومية وحب الحرية لاينفك احدهما عن الاخر ، والشعب الذي يشعر بكرامته يدافع عن نفسه اذا انتهكت حرمته ويقاوم بجميع قواه ، وقد دلنا التاريخ القديم ان وطنية اثينة لم تكن قائمة على القوى المحافظة ولكن على القوى المجددة المتحمسة ، والشعب الذي لاتكون لديه جرأة شعب انكلترة يظن رجاله وهما انهم يخدمون بلادهم في وقوفها بدون حراك .

وقد عرف جميع معاصري مترنيخ مواطن ضعفه ، فقد قال تميزو : ان الصفة التي تنقصه هي الجرأة ، واريد ان اقول الجرأة التي تظهر في الجد وفي الابتكار ، ولم يكن النضال محبباً اليه ولا مما يسره لانه كان يخشى الاخطار اكثر مما يهوى النجاح الذي قد ينتظره ، وكان كانننغ الوزير الانكليزي يصفه بانه اشد الناس ضعة واكثرهم كذبا ، وهو رجل لاشرف له والوزارة البريطانية واثقة انه سيخدعها

في كل قضية تعالجها واياه ، اما مترنيخ فقد كان يرى ان خصمه كاننغ لا يقام له وزن لانه لا يعمل بحسب المبادىء المطلقة ولكن بحسب الاعتبارات الزائلة ، وكاننغ يعلق بصره بمدى الافق على حين انه يمشي على الارض ، ويعيش في الطبقات التي لا يألفها البشر ، على حين انه ينظر الى الامور ويقارنها بمستوى الناس . فالخياليون مؤلفو الروايات ينتصرون لكاننغ ، والناثرون من محبي الحقائق العملية ينتصرون له ، ذلك لامع كالبرق ولكنه سريع الزوال ، اما هو فانه لا يبهر الابصار ولكنه ثابت البنيان .

وقد وصف ولهلم فون هومبلد الذي كان من اكبر ساسة عصره مترنيخ بقوله: ان الوزير الضعيف الذي لا ينفك في خلاف مع نفسه هو الذي يري في اسوأ الاحوال عندما ينقلب عليه الزمان ، وليست له آراء شخصية ولكنه يتلقى كل شيء كانه شخصي ، ولا يستطيع ان يفعل شيئاً في خصوم ضعاف ، كاذب ، غادر ، ينتهي امره الى نهاية تلبسه العار ، وقد استطاع ان يستولى مدة على القيصر اسكندر وان يقوده وهذا كل نجاحه ، ولم يكن تدبيره للأمور في المانية وايطالية الا بالأساليب الموقتة ، فما استطاع ان يأتي بعمل خطير ، وفي بادىء الامر كان كل شيء هينا عليه ، وكانت موارد النمسة طوع يديه ، وكان يظهر الخضوع للامبرطور فرنسوا ويعوده على ان يخضع الجميع له ، ولو كان رجلاً من ابناء الشعب وكان عليه ان يبلغ بجده لما ذهب بعيداً ، وقد سار على آثار فرنسوا وتقبل سياسته من بعده وان كان لم يبرح ينتقد اعماله .

وهذا ما وصفه به المؤرخ نوكوالد : من شر الامور انه كان ينظر الاشياء والرجال كما تتراءى له من خلال نور كاذب ، وهو ككثير من الناس الذين يتفردون في جماعة يحسبون انهم يستطيعون حل المشكلات كما يستطيعون الكلام او الكتابة ، وقد كانت ثقته بنفسه وعبادته لشخصه وغروره وكبرياؤه مما يتجاوز كل حد ، وكان ضعف اخلاقه وعجزه عن الأيداع يدفعانه عن المطامع الكبيرة والجهود العظيمة ، ولا يدعانه يهتم الا بالعلاجات المسكنة من غير مهاجمة الداء الكامن ، ولم يكن رجل

دولة مثله قليل الرغبة بالاصلاح ، وقاعدة صناعة الحكم وتدبير الامور عنده صناعة الدسائس والمكائد ، ولم يكن في معاصريه من لم يلمه على مكره وخبثه وسوء اخلاقه وقلة اخلاصه وكثرة تقلبه ، وقد دلت الوثائق والبينات على ان هذا الوصف ينطبق عليه كل الانطباق .

ولم يكن يظن ان مترنيخ يعمى بهذا القدر من رؤية الحقائق ويعجز بهذا القدر عن معالجة الامور ، ولا ان يغيب عنه ماعرفه الكثيرون من بسطاء العقول في فينة من انه لا يمكن مغالبة طبائع الاشياء، وقد اعترف بنفسه أن الزمان يضطرب بالرياح العاصفة وانه من المستحيل مقاومتها بعنف ، وقد قال : لقد وجدت في زمن مخيف ، ولعلي جئت في عهد كان ينبغي ان اسبقه او ان اتأخر عنه ، واني لأشعر الآن بالعجز عن القيام بامر صالح ، ولو انني جئت من قبل لتمتعت بخيرات العالم ، او انني جئت من بعد لنشأت في الوضع القائم ، ولكنني جئت في هذا الوقت الذي اقضي حياتي فيه بحماية القواعد التي هي على وشك ان تتداعى وتتصدع .

ولكن لماذا كان مترنيخ يقضي عمره في حماية المباني الواهنة والاوضاع المتزلزلة ؟ الم يكن اولى له ان يقوم بالاصلاح في الزمن المناسب وفي السنين المواتية؟ فقد كان يشعر بالاعباء التي تحملها الدولة بسبب كثرة الانفاق في التسلح ، حتى انه افضى بذلك الى القيصر اسكندر ، ولكنه لم يذهب هذا المذهب الا لمأرب في نفسه وغاية زائلة عنده .

وقد قيل انه هم مترنيخ البقاء في منصبه ، وقيل ان الحرص على المال وتناوله من كل مكان هو الغالب عليه ، حتى تغاضى عن معاونيه الذين اقتدوا به وفعلوا مثل مافعل ، وقيل كذلك ان انانيته قد ساقته الى الغدر بمصالح بلاده ، ولكن سواء اكان ذلك صحيحا ام لم يكن ، فان الحقد الذي بعثه في شعوب النمسة ، والمصاعب التي توالت فيها ، والاذى الذي سببه لسلطة الدولة ومبدأ الحكم ، والنوازل التي اخذ بعضها برقاب بعض الى ان جاءت الساعة التي اشتدت فيها النكبات والكوارث ، واجتمعت

القوى المختلفة والمشكلات العديدة ، التي كانت تدفع بطريقة صنعية ، واعادت الكرة على اوربة ، فكانت وبالاً عليها وعلى النمسة ، وبذلك هوى النظام الذي طالما سعى له مترنيخ وفاخر بتشييد اركانه .

وكيفما كان الرأي في مترنيخ فان تاريخه بين مادحيه وقادحيه يكاد يخرج عن الحقيقة ، وهو بحاجة الى ان يكتب مرة اخرى ، بعيداً عن النواحي الشخصية التي تفسد الحقائق ، وتشوه الوقائع ، وذلك بالرجوع الى المأثور من سيرته والصحيح من اخباره .

الفصل الخامس

كافور

قطب الوحدة الايطاليّة

١ — القواعد الاساسية لانشاء الامم والشعوب

من اشهر الآراء التي اصبحت تقليداً ومذهباً في تكوين الأمم ماكتبه الفيلسوف رنان في هــذا الشأن ، وقد ذكر في بحثه الممتع الدقيق ان السياسة التركية القائمة على تفريق العناصر والجنسيات بحسب الاديان قادت الى نتائج خطيرة وأدت الى خراب المشرق ، والأمة في معناها الحديث نتيجة تاريخية لسلسلة من الحوادث التي تتجه نحو غاية واحدة ، جل ما فيهـا ان يشترك جميع ابنائها في أمور كثيرة وان يتفقوا على نسيان امور كثيرة ، ثم تساءل عن الاساس الذي يقوم عليه الحق الوطني والعمل الذي يشتق منه فقال ماخلاصته :

يعتمد بعضهم في الأصل على العرق ، ولكن الاصول والأجناس ليس لهـا الأثر الكافي في تكوين الأمم الحديثة ، اذ لايوجد عرق نقي ، كما ان الأعتماد في السياسة على القواعد الجنسية هو وهم وباطل ، اما اللغة فانها تدعو الى الاجتماع ولكن لاتضطر اليه ، ومن الخطأ ان يظن انها عنوان الاجناس والاعراق ، فالانسان قبل ان يتكلم بتلك اللغة او ينتمي الى هذا الجنس هو متأثر بثقافة معينة ، وقبل ان يتأثر بثقافة هذه الأمة او تلك هو متأثر بالثقافة الانسانية الجامعة.

والمعتقدات ليست كذلك اساساً كافياً لانشاء أمة في هذا العصر ، فمعتقدات الجمـاعة غـير متشابهة ، ولكل انسان مايعتقد به ، واذا كانت العقيدة في بعض الأحيان عاملا كبيراً في تكوين بعض الدول فقد خرج هذا العامل الآن من الأسباب التي يعتمد عليها في التمييز بين الشعوب .

اما اتحاد المصالح فلا ينكر اثره في توثيق العرى وأحكام الصلات ، وهو يصنع ماتصنعه المعاهدات التجارية ، ولكن ناحية العاطفة التي لها مقامها وأثرها في تكوين الأمم معدومة هنا والوطن جسم وروح يتحدان في انشائه .

وفي الحق ان الحدود الطبيعية لها شأن كبير في تقسيم الشعوب والفصل بينها ، والجغرافية هي عامل كبير في التاريخ ، والجبال والانهار تؤثر تأثيرات متعارضة في نشوء الأمم وانتشارها ، فالأولى تفرق والثانية تجمع ، واذا كان العرق لاينشيء أمة ، فأنى للارض وحدها ان تنشئه ، والانسان هو قوام هذا الشيء المقدس الذي يسمى شعباً ، ولا تكفي المادة وحدها ، والأمة هي مبدأ علوي وضعه التاريخ في تقلباته واضطرابه ، وهي أسرة روحية لاجماعة محدودة خاضعة لاوضاع الأرض واشكالها . ولكن اذا لم يكن العرق ولا اللغة ولا الدين ولاالمصالح ولاالجغرافية وقواعدالدفاع تكون الأمم فماهي العوامل اذن في تكوينها؟

ان الأمة تتألف من عنصرين هما في الحقيقة عنصر واحد : الماضي والمستقبل ، احدهما حوزة مشتركة لميراث عظيم من الذكريات ، وثانيهما موافقة الشاهدين ورغبتهم في أن يحيوا معاً ، وارادتهم في ان يستمروا على اجلال ماتوارثوه والاحتفاظ به ، فالماضي الحافل بالذكريات العظيمة ، هو القاعدة الاجتماعية التي تقوم عليها الفكرة الوطنية ، والمفاخر المشتركة السالفة ، وهي من الشروط الكبرى لانشاء شعب وتكوينه بما توحي للنفوس من التمثل بها والسير على منهاجها ، اما الضحايا الذاهبة والآلام المبرحة فانها تبقى عزيزة مكرمة ، والألم المشترك يجمع أكثر مما يجمع السرور ، والأحزان في ذكريات الوطن ابلغ اثراً من حوادث الظفر ، لانها تستحث على القيام بالواجب وعلى بذل الجهود .

فالشعب اذن هو تضامن كبير بين شعور التضحية التي بذلت من قبل وشعور الاستعداد لبذل مثلها من بعد ، وهو يعتمد على الماضي ويعرب من الرغبة في استمرار الحياة المشتركة ، وحياة شعب من الشعوب هي استفتاء دائم ، كما ان حياة الفرد هي بقاؤه ودوامه ، ولكن الشعوب ليست مخالدة ، فهي تبدأ

وتنتهي ، ورغباتها تتجدد وتتغير ، ولكن اي شيء في هذه الدنيا لا يتغير ، والشعوب في تباينها واختلافها تعين على عمل الحضارة المشترك ، وكل يحمل ما لديه الى هذه المجموعة العظمى .

وجملة القول ان المرء ليس بأسير امرقه ولا للغته ولا لمذهبه ولا لمجاري الانهار ولا لسلاسل الجبال ، وكل جماعة كبرى من الناس صحيحة الفكر ، سليمة القلب ، تكون وجداناً معنوياً هو الامة ، وبقدر ما يقيم هذا الوجدان المعنوي البرهان على قوته بما يتطلبه من بذل ، وما يقتضيه من خضوع الفرد للجماعة وخضوع العقل للهوى ، بقدر ما يكون له حق البقاء ووجوبه ، واذا قامت الشكوك في شأن الحدود التي يحيى في داخلها ، فالشعوب المعرضة للخلاف ان تستفتى فيها وان تدلي بما عندها من رأي في تعيينها .

والى جانب الفيلسوف رنان ورأيه فان كثيراً من المؤلفين ، وجمهورهم من ايطالية ، يريدون ان يجعلوا مبدأ العلائق بين الدول قائماً على الجنسيات ، وقد اتبع هذا المذهب وبولغ فيه ، على حين أن اصحابه لم يكونوا يريدون الا قيام الاجناس والشعوب الى جانب بعضها بعضا ، وحق كل جنس ان يؤسس دولة هو حق كل شعب بحريته الشخصية ، وتنظيم الدول على اساس القوميات ضمان للحق في العلائق بين الشعوب وبين الدول ، وقبول هذا المبدأ هو افضل الوسائل لتخفيف الخصومات والمنازعات بين الدول وتثبيت قواعد السلم بين الشعوب ، حتى ان بعض رجال السياسة مثل نابليون الثالث ارادوا ان يجعلوا هذه القاعدة اساساً لسياستهم ، كما ان شعور القومية هو الذي دفع اليونان للقيام على الترك ، والبلجيك الى الانفصال عن هولندة ، وايطالية الى جمع دولها الصغيرة في مملكة واحدة ، والمانية الى تنظيم الامبراطورية والقضاء على مختلف انواع التجزئة السياسية ، وكان هذا التطبيق للمبدأ القومي احتجاجاً على العقود السياسية التي حكمت مستبدة بتمزيق الشعوب ، على انه مهما كانت الاسباب التي اتخذت في ايطالية وفي المانية لبلوغ الغاية من حيث قربها او بعدها من مبادىء الشرف ، فالواقع هو ما نشهده ، ولكن هل يبرهن ذلك على صحة مبدأ القائلين بهذا الرأي ؟

كلا ! فقد اخرج المؤلفون الايطاليون القصة عن وضعها الصحيح ، وارادوا تأليف الدول بحسب القواعد العامة والاساليب العلمية المختصة ، وليس بالمستطاع ان تقوم على هذا المبدأ وحده العلائق بين الدول ، ولو انه اتخذ اساساً لاضطربت اوربة الاضطراب كله ، وتغيرت فيها معالم كل شيء ، واتبدل اتجاه التاريخ في تكوين الشعوب الذي هو وليد الحوادث والصدف والاطماع السياسية ، ولا حاجة للتذكير بان دولاً مغتبطة بوضعها مثل بلجيكة وسويسره . لما كان لها اذا طبق هذا المبدأ حق في البقاء ، وكان كل اتجاه ينبغي ان يؤدي الى تأليف ثلاث او أربع دول كبيرة بحيث ان النتيجة المنطقية تكون انشاء الجامعة الالمانية والصقلبية او انشاء دول صغرى لاتستطيع ان تحيى بنفسها وان يكون لها شأن .

فمذهب القائلين بالقومية اذن لايقوم على قواعد عمليـة ولا متشابهة ، وهو مبهم وغير مستقر في تطوره ، واذا اريد تطبيقه في مبادئه بحذافيره فانه يصير الى نتائج متناقضة ، ولكنه مـع ذلك لايزال من اعظم القوى النفسية في التاريخ الحديث ، وهو يرجع في مصادره الى امرين : الأول الفلسفة المنطقية التي انتشرت في القرن السابع عشر والثامن عشر والباحثة عن اساس وضع الدولة وعناصر حياتها ومقوماتها الشرعية ، والثاني مبدأ تحرير الشعوب الذي اخذ بالانتشار منذ عصر النهضة وانار نفوس الشعوب واوحى اليها بشعور الكرامة وشعور التراث والبقاء والتصميم ، فهي تأخذ بيدها تدبير شؤونها ومصائرها ، وهذان الامران يلتقيان ويؤثر احدهما بالآخر ، وليس المذهب الذي يشتق منهما الا تبرير للاتجاهات الجديدة التي يوصي بهـا اصحاب الرأي للشعوب الناهضة .

وقد استقر هذا المبدأ في قراره بعـد حرب الاستقلال في امريكة وحروب الثورة ، ونادى مونرو بدعوته المشهورة ورفع صوته في سبيل امريكة اللاتينية ، ولكنه لم يقرر في المبدأ الذي وضعه خطة مطلقة لهذه المستعمرات وقتالهـا في سبيل الحريـة ، على ان فكرة رئيس الولايات المتحدة تفرض على الأقل ان الثائرين على حق في نهضتهم ومطالبتهم بالانفصال والاستقلال ، وقد آزر الرأي العام في اوربة اليونان وأيدهم في نهضتهم ؛ وتحمس الناس لهم بروحهم وجسمهم بعـد ان اشربت القلوب فكرة تحرير الشعوب المضطهدة ، اما نهضة البلجيك فقد كانت

متأثرة بمنافع الدول المجاورة ، بحيث لم يكن هنالك مجال للحماسة لها كمبدأ سام ومثل عال ، وحوادث سنة ١٨٤٨ تتصل بذلك المبدأ الذي اتخذه نابليون الثالث قاعدة لخطته ، فكان يرى ان السياسة يجب ان تسمو الى مستوى ارفع من الاوهام الضعيفة المزدراة التي ورثتها عصور سابقة ، ولا يجوز ان تتوقف عظمة شعب على ضعف الشعوب التي تحيط به ، والتوازن الصحيح في رأيه لا يتم الا بتحقيق اماني الشعوب الاوربية ، وكان نابليون الثالث يتأثر في هذه الآراء بمعتقدات قديمة وتقاليد موروثة ، فنابليون بنابرت لم يكن غريباً عنها ، بل كان يتوقع حدوث التبدلات التي حدثت في اوربة ، وقد وضع حجر الزاوية للقوميات الحديثة بانشاء المملكة الايطالية وبازالة مئة وثلاث وخمسين دولة مستقلة في المانية . وكان نابليون الثالث يفاخر بأنه حامل لواء القوميات ، ولم يكن في ايام فشله اقل منه انتصاراً لهذا المبدأ وتنبأ له ودفاعاً عن قواعده .

ولم يكتف لامارتين وهو وزير الخارجية سنة ١٨٤٨ بتبرير الفكرة القومية واعتبارها حقاً ، بل انه وعد بمؤازرة فرنسة لكل شعب يريد ان يناضل في سبيلها ، وقد اقترب بذلك من اسلافه رجال الثورة وقال : اذا كانت الساعة قد دنت لنهضة بعض الشعوب في اوربة او في غيرها ، واذا كانت سويسرة حليفتنا الأمينة قد اكرهت او هددت ، واذا كانت الدول المستقلة في ايطالية قد اغير عليها او اقيمت العثرات التي تحول دون تطورها ووضعت العقبات في سبيلها ، او لجيء الى القوة لحرمانها من الحق في ان تتحالف بعضها مع بعض وتثبت وطناً ايطالياً وتؤسسه وتنشئه ، فالجمهورية الفرنسية حينئذ ترى ان لها الحق في حمل السلاح للدفاع عن هذه الأعمال الشرعية والقتال دون نمو الشعوب ورغبتها في انشاء قومياتها .

٢ — مبشرات النهضة في ايطالية

في اواخر القرن الثامن عشر كانت تتجاوب في ايطالية مبشرات النهضة ، وكان الايطاليون قد استيقظوا للآداب والعلوم والفنون والسياسة ، فتذكروا ايامهم السالفة ، وساروا في نهضتهم ويقظتهم تحدو بهم الاحلام لانشاء وطنهم

واحياء مادرس من معاهده ، وكانوا يتسمون بالأسماء التي تعيد اليهم ذكرى ذلك الماضي الزاهر ، ومابرحوا ينشرون محاسن بلادهم وآثارها حتى اصبح اسمها يملأ الخافقين ، ويجب ان يقال ، وفي ذلك مفخرة لهم ، انه مهما كانت بلادهم مضطهدة فانهم لن يدعوا مطلقاً حقوقهم تزول وتنسى ، ولم يكن في القرن الثامن عشر سياسة وطنية في ايطالية ولكن لغة ووطن وآداب وشعراء ، وكانت القصائد والقصص والمقالات تدعوهم الى الاستقتال في سبيل المجد ، وتذكرهم بالوطنية الرومانية وعهدها القديم ، وتعمل على ان تعيد ذكريات تلك الأيام ، وتعتمد على التاريخ لتكوين وجدان قومي ، فكانت الدولة الايطالية المبعوثة المجددة تظهر للرائي في الآفاق البعيدة التي اكتشفتها الانسانية .

وكانت ايطالية ممزقة الاجزاء ، وكان بنوها يرون في تجزئتها قضاءً على حياتها الفكرية على حين انهم يمتون الى اصول واحدة ويتصفون باخلاق واحدة ويحكمون بقوانين مدنية واحدة ، وكذلك كانوا في ايام رومة وشرلمان ، وقد اظهروا في جمهورياتهم وفي ايام النهضة انهم مازالوا حافظين لذكرياتها . فكان الوطنيون منهم يتداعون ليكون لهم نظام واحد في التقدم والعلوم والفنون ، وان يكون حب الوطن يعني حب الخير العام للشعب ، كالشمس التي يضيئهم سناؤها ، ويقولون : لنكن جميعاً ايطاليين اذا لم نرد ان نحرم من ان نكون رجالاً .

ويذكر انه تقدم رجل ذات مرة في ميلان الى شركة لايعرف فيها ، فقيل له هل انت ميلاني ؟ قال : لا ، فقيل له : هل انت اجنبي ؟ قال : لا ، فعم حينئذ الاستغراب واعيد السؤال ؛ فقال : انا ايطالي والايطالي ليس أجنبياً في ايطالية ، كما ان الفرنسي ليس غريباً في فرنسة ، والهولندي في هولنده ، ثم اندفع الرجل في حديثه باحثاً عما يصيب ايطالية في انقسامها ، وكيف يقضي على كل حياة فكرية فيها ؛ فوجد السامعون الرجل يحسن الكلام ، وانه مهذب عاقل وطني مفكر ، واقبل بعضهم على بعض يتحدثون بنكبات الزمان التي تمنع الايطالي ان يكون مواطناً لايطالي مثله ، لأن الصدفة جعلت مولد هذا هنا ومولد ذاك هناك .

كان الايطاليون يقولون ذلك واوربة تعرفه ، وكانوا برغم تجزئة بلادهم تحتفظ لهم هذه الآداب وهذه الفنون بنفوس متحدة ، تبقى حيثما يوجد اناس حريصون على المعرفة ، لهم خيالات مولعة بالجمال ، ملء قلوبهم ذكرى ماض كبير وشعور مستقبل قريب ، وكان كل شيء حتى هذا الاقليم البديع والارض الرائعة يعين على ان ينشر في العالم تقاليد وطن ينتشر معه هذا الاسم الحافل بالضياء ، وكانت عناوين حضارتها عناوين الحضارة الاوربية ، ولا أحد يجهل ذلك ، وكانت كاترين الكبرى تقول : ايطالية تنتظر وتؤمل ، وحقا ان الايطاليين كانوا ينتظرون ويؤملون ، ويرون انه سيعاد ذكرهم ويعلو شأنهم ، ولكن بحسب ماضيهم وبحسب مستقبلهم لا يحسب ماهم فيه .

اما الأمراء فلم يكونوا في ايطالية الا رؤوساً متوجة ، لاتنظر اليهم الشعوب الا من نواحي الادارة التي يقومون بها حسنة او قبيحة ، وكان الايطاليون يعدون العدة الى الثورة ، التي تستفز ما كان يخامرهم من العواطف ، فتقلب اوضاعاً واسراً لم يكن احد متعلقا بها ، وجاءت الثورة الفرنسية تعلن الاصلاحات الحديثة التي كانت الأماني الشاملة لجمهور الأمة ، وتقرر مبدأ استقلال الشعوب والعمل على تحريرها وجمعها ، فتقرب الرجال بالقوانين وتوحدها بالوطنية ، ولم يكن للايطاليين الا ان يستقبلوها بالهتاف ، وليس لدى حكومة من حكوماتهم وسيلة من وسائل الدفاع لمقاومتها ماعدا حكومة بيمون الوطنيــة ، وكان مصير ايطالية كمصير سائر البلاد المجاورة لفرنسة ، فقلبت رأسا على عقب بغارات الجيوش الفرنسية وهدم نظامها القديم ، وقسمت ثلاثة أقسام خاضعة لحكومات فرنسية ، ولجأت بعض اسرها الى سردينية او صقلية .

ولم يمنح الاحتلال الفرنسي الايطاليين الاستقلال القومي ولكنه احيى اسم ايطالية ، واوجدت ايطالية جيشاً وعلماً مثلث الألوان يقوم فيه الاصفر مقام الازرق الفرنسي ، وتهيأت ، بما اسس فيها من مساواة شرعية وحرية دينية ووحدة تشريعية واوضاع ادارية ونظم عسكرية ومدنية ، الوحدة السياسية التي تنشدها ،

ولكن الحلفاء بعد زوال نابليون لم يبقوا شيئاً من نظامه ، فعادت ايطالية الى نحو ما كانت عليه قبل الثورة ، مجزأة الى اربعة عشر جزءاً .

وكان امراء هذه الدول جميعها حكاماً مطلقين ليس بينهم صلة ولا علاقة ، وأهمها مملكة سردينية ، حتى ان مترنيخ رفض في مؤتمر فينة انشاء لجنة للشؤون الايطالية كاللجنة التي انشئت لالمانية ، قائلا : ان المانية تؤلف جسم دولة ، اما ايطالية فانها لا تؤلف الا دولا متحدة مستقلة ، تجتمع فقط في وضع جغرافي . وظلت التجزئة هي الشرط الرسمي لايطالية ونظامها التقليدي ، وسادت النمسة في اجزاء مختلفة فيها ، وتمسكت ببقاء حالتها الراهنة ، حتى انها تعاقدت مع فرنسة في ايام لويس فليب على محافظة ذلك ، فاصبحت صفات ايطالية المميزة ثلاثاً : التجزئة والاستبداد والخضوع للنمسة ، ولكن هذه الاوضاع المكروهة اثارت نقمة الجميع ، فالتجزئة تؤذي الوطنيين الذين يشعرون بالتضامن ويريدون وحدة ايطالية ؛ والاستبداد يغضب الاحرار الذين يطالبون بالدستور وبحقوق الانتخاب والغاء المراقبة ، وحكم النمسة يثير الحفائظ على الالمان ويستفز الشعور لاخراج الاجنبي وطرده.

اما جمهور السكان فغير مثقف ، وهو بمعزل عن جميع الشؤون العامة ، متمسك بالدين ، خاضع للرؤساء وللسلطات المطلقة ، غير مكترث بالسياسة التي لم تكن تهم الا عدداً قليلا من الرجال كبعض الاشراف المتعلمين ، ورجال الصناعات الحرة ، والتلاميذ المتفرقين في اربع وعشرين جامعة ، محروم اكثرها من الحياة الفكرية ؛ واصبح حب الوطن الايطالي يتجدد على افواه الشعراء واقلام الكتاب ، وبدأت تتألف الجمعيات السرية التي يعد بعضها من الاساطير ، لمقاومة الفرنسيين من قبل والنمسيين من بعد ، ولاعادة الوحدة الايطالية وتأسيس نظام دستوري ، وكان الثائرون الايطاليون يقلدون خطط الاجانب ؛ ويستعيرون مناهجهم واساليبهم ، غير ان الثورات العديدة لم تؤد الى العقبى المرجوة ، وبقي الاحرار عرضة للمراقبة والاضطهاد بعد الاخفاقات المتوالية التي نزلت بهم .

٣ — مزيني وكافور

يقترن ذكر الوحدة الايطالية باسم رجلين متفاوتين في الشهرة مختلفين في الطريقة متفقين في الغاية ، مزيني الذي امتاز باساليب الثورة وبث الدعوة ، وكافور الذي فاق النظراء بحسن التدبير ودهاء السياسة ، وابقى الاثنان في تاريخ ايطالية الحديثة اثراً لا يمحى .

اما مزيني فقد كان يعمل لايطالية ويسعى للجمهورية ، وقد أسس سنة ١٨٣١ ايطالية الفتاة التي لم يقبل فيها الا رجالا دون الاربعين ، ثم وسع برنامجه وأسس اوربة الفتاه ، وكان في كل سنة يؤسس فرعاً لأمة ، نحو فرنسة الفتاة والمانية الفتاة وهلم جرا ، وكان للجميع لجنة مركزية ترمي الى تحرير الشعوب من الحكومات الملكية ، وكل شعب يعيش في ظلال جمهورية يربطها الاخاء بسواها ، وكان مزيني في بادىء الأمر قد ارسل كتابا الى ملك سردينية يذكره فيه بالدعوة الى جمع المتفرقين من ابناء ايطالية التي تعيش في ذكريات عظيمة من مفاخر عشرين قرنا ، وحض الملك على الاصغاء لصوت ايطالية كلها ، التي لا تنتظر الا كلمة واحدة لتكون له . وقال : قم على رأس الشعب ، واكتب على اعلامك ، الاتحاد والحرية والاستقلال ... وحرر ايطالية من البرابرة ... فكان جواب الملك ان أمر بالقاء القبض عليه . . ولكن مزيني نقل مركز عمله الى البلاد الاجنبية وأخذ يجد ويدأب فيها لادراك غايته .

وقد كان مزيني عدواً للكنيسة ولكنه متأله ومعتقد ، وشعاره : حرية ، مساواة ، انسانية ، اله واحد ، حاكم واحد ، شريعة الله . وكان جميلا ، فصيحاً ، كريماً ، حازما ، يعيش عيشة تقشف وتجرد ، ويؤثر في الشباب الذين يلتفون حوله والمريدين الذين يؤمونه ، فيبعث في قلوبهم نوراً من الاخلاص ، بحماسته لرأيه وفصاحة بيانه ، وسحر طلعته الوقورة ، التي تضيء احيانا بابتسامة عذبة ، وقضى مزيني حياته بالمؤامرات ولكنه لم ينجح في اي محاولة من محاولاته ، وبعد ان قضى نحبه اخذ الجيل الذي تلاه يعده حواري الوحدة الايطالية ، الداعي لها والمبشر بها ،

وكانت ذكرى ميلاده سنة ١٩٠٨ فاحتفلت ايطالية بعزيني وأقامت الاعياد والمواسم، واجلت به الحكومة الايطالية رجل المثل الأعلى للوطن الايطالي .

واستمرت النهضة الوطنية في ايطاليـة تتآزر هي والميول الحرة ، وكان البابا « بي » التاسع مشرباً بمبادىء الحرية القومية ، فنشط الماملون في زمانه ، واغضب ذلك النمسة حتى ان مترنيخ قال : ان «بابا» يميل للافكار الحرة هو نكبة للعصر، وعمت الحركة الملوك والأمراء حتى رجال الدين ، واتجهت النفوس نحو الاصلاح الدستوري والتحرير القومي ، وعم البـلاد العلم المثلث الالوان ، والم لم يومئذ عنوان الوحدة ، وقامت الثورة في الانحاء التابعة للنمسة سنة ١٨٤٨ ، كما ثـارت فينة نفسها واصبحت النمسة عاجزة مستضعفة ، وما عتمت الثورة ان انقلبت الى مكافحة الشعب للاجنبي ، وقامت الحكومات على الاثر .

وقد نشأ في ذلك الحين كافور الذي هو من رجال الدولة العبقريين الدهاة ، الذين لايستطيع الدهر ان يجر عليهم ذيول النسيان ، والذين عملوا اعمالاً عظيمة في تاريخ السياسة وابقوا في اذهان الجماعات تأثيراً كأنه السحر ، وكيف يطوى ذكر رجل مثل كافور ! مؤسس الوحدة الايطالية وصاحب الخطط التي لم تتغير، المعروف بلينه وصبره ورباطة جأشه عند الانكسار ، ووقاره وهدوءه في ساعات النصر ، ذلك الرجل الذي كان يطمح ابداً الى تحرير امته وجمع كلمتها ، وقـد وصفه السياسي الايطالي الجنرال (دولامارموره) بقوله : لاأعرف رجلا نظيره ، شديد التهالك في الحب ، يندفع بسهولة غريبة وراء الذين يستهوونه ، فيرفعهم الى السماء ، ويخلع عليهم برود المديح والثناء ، ثم ينقلب عليهم بشدة ، فتراه يعبث كالاطفال ، كأنه يريد ان ينتقم منهم لانه خدع بقوتهم ، وكأنه يريد ان يعاقبهم لأنه اسرف في تقديرهم باكثر مما يستحقون في ساعة من ساعات حياته .

وقد عرف القرن التاسع عشر رجلين لانظير لهما ثابرا على تدمير مابـقي من مؤتمر فينة : كافور وبسمرك ، ولم يكن ابداً صبر أكثر ونبوغ اعظم ، وجرأة وحذر لاحد لهما ، حتى قام هذان الرجلان بما قاما به ، وقد أعان كافور على تحقيق

اغراضه (نيغرا) مندوبه في باريس الذي كان على جانب عظيم من الحنكة السياسية وبراعة الاساليب .

٤ – الحرب والسياسة في تكوين الدولة الايطالية

كتب كافور في آذار سنة ١٨٤٨ يقول : نحن الرجال الذين نفكر تفكيراً صحيحاً هادئاً ، والذين قد الفنا ان نصغي لقيادة العقل اكثر من حركة القلب ، نعلن جهرة انه لم يبق للشعب والحكومة والملك الا الحرب ، والحرب بدون تأخير ، فقرر الملك الحرب وظهر للجماهير في تورين على شرفة قصره ومعه مندوب الثائرين في ميلان ، وتناول الشعار الملون الذي كان الى جانبه وهزه بيده ، ونشر بياناً خاطب فيه سكان لمباردية والبندقية وقال : ان جيوش بيمونت ستحمل اليهم في معارك المستقبل العون الذي ينتظره الأخ من أخيه ... وظهر الايطاليون باسرهم مظهر المتحد في قتال الاجنبي بقيادة ملك سردينية ، وكانوا يرفعون اصواتهم بالنشيد القومي : ايطالية تدعو فلننضو الى لواء واحد .

غير ان الأمراء لم يقاتلوا النمسة الا مكرهين ، ولم يكن البابا يريد ان يتقلد رئاسة تحالف دمقراطي ، وكان يهمه ان يهدىء عواطف رؤساء الدين من الالمان ، حتى قال في خطبة له في نيسان سنة ١٨٤٨ انه كان دائماً يحض رعاياه على الطاعة ومحبة جميع الشعوب على سواء . وكان مصير ايطالية يتوقف على الحرب ، وقد غلب شارل البر الذي كان جريئا صامتا ، فلم يستثر حماسة جنوده ، وكان هياج الشعب عظيما بعد الفشل ، فاشتبك مع الجنود التي بذلت جهدها في مدافعته ، وقد اعانت انكلترة وفرنسة يومئذ على تقرير الهدنة مع النمسة .

وكان في نهضة ايطالية موطنا ضعف ، الأول : ان الايطاليين لم يكن لديهم قوة عسكرية كافية لاخراج الاجانب ، الثاني : انهم كانوا منقسمين على نوع الحكم الذي يريدونه ، فمنهم الدستوري والاستبدادي والملكي والجمهوري ، وقد اصبح ينظر الى الملوك بنظر الكره اما بسبب فشلهم او بسبب نكوصهم ، غير ان الجمهوريين لم يكونوا اسعد حظاً ولا انجح مسعى ، واعتزل شارل البر فخلفه فكتور عمانويل

وكان من اشياع المبادىء الحرة ، فنشأت في ظلاله مملكة سردينية الدستورية ، وفتحت بلادها للرجال الاحرار ، وكان كافور الذي هو من نبلاء بيمونت غير شعبي لانه بعد ان ايد الثورة سنة ١٨٣٠ حتى اخرج من الجيش ، قاوم في سنة ١٨٤٧ الدمقراطيين في بلاده ودافع عن مذهبه في الملكية الحرة ، ولكنه في اثناء الرجعة اظهر تمسكه بالدستور والحرية في جميع مظاهرها ولاسيما حرية الصحف ، فانفصل عن المحافظين وتقرب من احزاب الشمال ، وحكم عليه البابا لانه اقر الزواج المدني .

ولكن هذه المغامز لم تكن لتفت في عضد الجمعيات الوطنية ، التي وجهت قواها لدفع الايطاليين الى سياسة مشتركة بقيادة ملك سردينية ، وكان الجمهوريون انفسهم لايرون في ايطالية الا قوتين : الرأي العام وجيش سردينية ، وكانت جمعية الاتحاد الوطني سرية شعارها : الوحدة والاستقلال وفكتور عمانويل ملك ، وكانت هذه الجمعية تسعى بالاساليب السلمية وتستنكر المؤامرات والقلاقل ، وقد اختلفت هي ومزيني الرئيس الجمهوري الذي لم يكن يرغب الا في تحالف موقت مع الملكيين ، واتصل كافور بجمعية الاتحاد الوطني ، وقال لسكرتيرها لافارينا ذات يوم : اصنعوا ماتريدون ، اما انا فسأنكركم امام العالم مثلما أنكر بطرس الحواري السيد المسيح .

ولم يكن كافور يعتقد ان ايطالية قادرة وحدها على ان تدرك استقلالها ، فاخذ يسعى لعقد المحالفات بعد ان اصبح وزيراً للخارجية حتى ينقطع لمقاتلة النمسة ويعزز قوى البلاد ، وكان معجباً بانكلترة ونظمها العسكرية والادارية والاقتصادية ، فحالف انكلترة وفرنسة على روسية سنة ١٨٥٥ ، برغم سكان جنوى الذين خافوا مايصيب تجارتهم من الخسران بسبب محاربة روسية ، ولم تفد هذه الحروب ايطالية فائدة مباشرة ، ولكنها سوغت لكافور ان يشترك في مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ ، وان يقدم مذكرة له ، وهو على وشك ان يختم اعماله ، يبحث فيها حالة البلاد الايطالية ، فساعده المندوبون الفرنسيون وايدوا مطالبه ، ولم

يكن الموقف المبهم الذي وقفته النمسة في حرب القرم ليمكنها من رفع صوتها عاليا ، وكانت الجلسات الاخيرة نجاحا كبيراً للكونت كافور الذي ابتسم له ثغر الزمان ، واصبح من عظماء الرجال . وكان نابليون الثالث قد وجه سؤالا مشهوراً قال فيه : ماذا يمكن ان يصنع لايطالية ؟ فأثار كافور قضية بلاده في وجه اوربة ، وانتقد المناقشات التي جرت في مؤتمر باريس ، واكد ان حالة ايطالية والشروط التي تعيش فيها تعرض السلم الاوربي للخطر .

واشتد البغض للنمسة برغم محاولاتها تعديل موقفها ، وكان نجاح النهضة الايطالية متوقفاً على رغبة نابليون الثالث الذي اقسم في ايام شبابه ان يعمل للوحدة الايطالية ، وكان قد ارسل طبيبه ليدعو كافور الى اجتماع سري خاص بهما ، فعقد الاتفاق بين الفريقين ، ووعد نابليون بتحرير لمباردية والبندقية الى بحر الادرياتيك ، ووعدت سردينية بالتخلي عن سافوا ونيس ، على ان تنشأ مملكة في ايطالية العليا ، واتحاد دولي في سائرها ، وكذلك كان نابليون الثالث هو الحليف القوي الذي ينشده كافور .

وقد شبت بعد ذلك الحرب بين فرنسة وسردينية من جهة وبين النمسة من جهة اخرى ، فانكسرت هذه الدولة وتخلت لفرنسة عن لمباردية ، فتنازلت عنها لسردينية ، والحقت بها نيس وسافوا بعد استفتاء سكانها ، ولم تكن انكلترة راضية عن هذه الحرب ، وطلبت الى كافور ان يبين رغبات بلاده وامانيها ، وذلك لان انكلترة كانت يومئذ متقاربة في سياستها مع النمسة ، ولان كل ماجرى في ايطالية مما يستوقف نظر رجال سياستها الذين يفكرون قبل كل شيء وبعد كل شيء بمصالحهم ، كما قال كافور في ذكر اسباب كره انكلترة لهذه الحرب .

وقد ارسلت انكلترة سفيرها في باريس اللورد كولي ليوافيها بالانباء بعد معركة سولفرينو الدامية وعقد الهدنة واجتماع نابليون الثالث وفرنسوا يوسف في فيلافرانكا ، وقد وصف السفير ببرقية طويلة اجتماع الامبرطورين وهذا بعض ما قال فيها : لقد التقى الامبرطوران باعظم مظهر ودي ، وتصافحا كأن لم يكن

جرى بينهما شيء ، وعندما خلا احدهما بصاحبه ، بدأ فرنسوا جوزيف الكلام واعلن استعداده ان يتنازل للامبرطور الفرنسي عن البلاد التي احتلتها جنوده حباً باعادة السلام الى نصابه ، ولكنه لايستطيع ان يفعل اكثر من ذلك ، فاجابه الامبرطور نابليون : ان موقف فرنسة والبيانات التي اذاعتها تجعلها تطالب بشيء اكثر لان الحرب قد اعلنت لتحرير ايطالية ، ولا يستطيع ان يبرر عمله عند الفرنسيين اذا لم يضمن السلم تحقيق هذه الغاية .

وفي اثناء المحادثة بين الملكين اكد فرنسوايوسف لنابليون رغبته الصادقة في استقرار اسرته وتثبيتها على عرش فرنسة ، قال ان جلالة (نابليون) يتبع طريقاً غريباً لتحقيق غايته ، وحذره من الجماعات التي يركن اليها ، فان الأسر المالكة لاتؤسس بمثلها . ويظهر ان نابليون — على رأى السفير — قد تقبل هذه التضحية ، حتى انه ادلى ببعض القدر قائلا : انه لذلك يسأل الامبرطور انيساعده على انهاء الحرب الايطالية والقضاء بذلك على روح الثورة التي ولدتها هذهالحرب ، ثم افترقا الامبرطوران بنفس الطريقة التي التقيا بها .

وقد كتب اللورد جوهن روسل الى الملكة فكتوريا بعد معاهدة فيلا فرانكا يقول: لاشك ان موقف الامبراطور نابليون جد قوي ، وقد نال هذه المنزلة لانه اخلى له المجال ليكون وحده بطل القضية الايطالية ، ولكن هذا الأمر لايكون سبباً لاثارة النزاع مع فرنسة ، وقد يتسرب الشك للنفوس في كون الخطب التي القيت في مجلس اللوردات ، واظهر فيها ضعفنا وقلقنا ، هي متفقة في اتجاهها وفي غايتها مع مصالح الوطن ، وافضل سياسة في رأيي وابسطها واوثقها واشرفها ، هي اننكون على أتم استعدادفي السلاح ، وان نعدل فيحق جميع الدول المجاورةلنا .

واعربتالملكة فكتورياعن رأيها بهذه الكلمة : ان كتاب اللورد كولي يفصح باجلى بيان عن الخطر الشديد الذي نتعرض له ، اذا بذلنا عهداً في امر ايطالية او شاركنا الامبرطور في عمل ، فقد يكون قد اخذ على نفسه عهوداً كثيرة لاشأن لنا بها ولا علم ، وقد يكون يرمي الى غايات لانستطيع معرفتها ولا تقتصر

على ايطالية بل تتجاوز ذلك الى توسيع بلاده على حساب اوربة وخسرانها .

وقبل احتلال رومة وانشاء الوحدة الايطاليـة ، كانت الدسائس السياسية تصنع صنعها في تلك الربوع ، ولم يكن في وسع خصوم السياسة الفرنسية ان يقاوموا جهرة نابليون ، ولا ان يعارضوا التقاليد السياسية الفرنسية ، وكانت سردينية تعمل للوحـدة عملين متناقضين ، فهي في العلن تحجم عن كل تشجيع للثورة ، وفي السر تمالىء الثائرين وتؤازرهم ، وكانت سياسة الايطاليين ترمي الى جعل نابليون امام امر واقع ، فكانوا يمنعونه من كل تدخل بسبب المبادىء التي قررها والمظاهر التي ظهر بها والاعمال التي سعي لها ، وقد انهى الأمر باقناعه باستلحاق ايطالية الوسطى ، والتنازل له بمقابل ذلك عما اتفق عليه : نيس وسافوا.

وكان غضب غريبلدي عظيما بسبب استيلاء فرنسة على وطنه ، فهم بالاعتزال ، وحينئذ كتب اليه كافور : نيس ام صقلية ؟ ولكن هذا الكتاب قد انكر ، وامد كافور غريبلدي بالمدد والذخائر ، وكان يكتب في الوقت نفسه الى الدول معربا عن أسفه ، حتى ان الاميرال برساتو قال : انه تلقى من كافور بطاقة يقول فيها : احرص على ان تقف بين غريبلدى وبين الطرادات النابلية ، واحسب انك قد ادركت ماأريد : فاجابه الاميرال : اظن اني ادركت ماتريد ، وبوسعك ان ترسلني اذا اقتضى الامر الى الاعتقال ، واراد غريبلدى اثارة الثورة في رومة واحتلالها ، فعارض بذلك كافور وقال له انك ستكون في رومة ذات يوم ، ولكن محاولة هذا الامر الآن طائف من الجنون ، وبعد ان قام غريبلدى باعماله فيارجاء ايطالية المختلفة ارسل اللورد روسل يقول في برقيته : يصعب ان نعتقد بعد ان تقع هذه الاحداث العظيمة التي نشهدها في هذه الاحيان ان البابا وملك صقلية يملكان قلوب رعاياهما .

وقد برهن كافور فيما قام به من الاعمال ان اساليبه وجهوده هي اعظم دليل على عبقريته ونبوغه ، وقد قضى نحبه قبل ان تحل قضية البندقية ورومة ، فحرمت ايطالية من مواهبه العظيمة لمتابعة جهودها وتحقيق بقية آمالها ، وقد ابدى كافور

قبل مماته رأيه في قضية رومة واعلن ان الرأي العام مصمم على ان تكون عاصمة له ، واذا لم تنجح الحلول السلمية فلا مناص من القوة ، وقد اعتمدت ايطاليـة في بادىء الأمر على فرنسة التي كانت برغم الخطة التي سار عليها نابليون تتمسك ببقاء ايطالية مجزأة كالمانية ،حتى انه بقيت في رومة حامية فرنسية منذ سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٦٦ ، ثم استعانت بعد ذلك ببروسية فالحقت بها البندقيـة ، وحققت مبتغاها بمؤآزرة هاتين الدولتين الواحدة بعد الأخرى ، وكما جمعت شملها بمؤآزرة الحزبين الجمهوري والملكي الدستوري ، فقد استفادت من الاوضاع الخارجيـــة وادركت بمعونة غيرها ما كانت وحدهـا عاجزة عن ادراكه بقوتها ، وسدت بسياسة الاتفاق والتحالف مواطن الضعف التي كانت ظاهرة فيها ، غير انها لم تحتل رومة الا سنة ١٨٧٠ ولم تتم وحدتها الا بعد حرب ١٩١٤ .

اما موقف الكنيسة الكاثوليكية من اعمال دعاة الوحدة الايطالية ، فقد كان البابا (بي) التاسع يصف الحاق دول الكنيسة بانه من اعمال العصابات ، وكان يعتبر القضاء على السلطة الزمنية ثورة وان كان قد صدر عن مملكة منظمة ، وقد رفض البابا ان يعترف بدولة ايطالية وزاد احتلال رومة في الخصومة والعداوة ، حتى ان الحكومة الايطالية سنت قانون الضمانة ، واخذت على عاتقها ان تحافظ على وضع البابا وعلى استقلاله وعلى سيادته في نصره ، وان تمنح تعويضاً له ، ولكن البابا اعلن انه لايزال اسيراً من جهة معنوية وانقطع عن كل مفاوضة مع حكومة رومة ، وكان يقول : انه لايريد الطواف في المدينة حتى لاتقع عينه على الثائرين والبروتستان الذين يظهرون آراءهم من غير خشية .

واستمر الخلاف في زمن ليون الثالث عشر الذي ما برح يطالب بالسلطة الزمنية وينكر كل دعوة للاتفـاق مع ايطالية . اما (بي) العاشر فقد دخل في نزاع دائم مع فرنسة واظهر ميله للتحـالف الثلاثي ، ولم ينفك عن المطالبة بحق الكرسي المقدس ، ولكنه اصبح اكثر مجاراو نشأ في جو الوحدة الايطالية فكان اكثر تقبلا لها .

وبقي الخلاف بين كرسي البابا والحكومة الايطالية الى ان عقد اتفاق لاتران سنة ١٩٢٩ الذي اعيد فيه للبابا جزؤ من سلطته الزمنية ، وقد دفع له ما يعادل ١٥٠٠ مليون ليرة نقداً وسندات ، تسوية للمطالب والحقوق .

ولكن هل يقال ان القضية الرومانية قد انهيت حقيقة ؟ ان مسألة الكرسي المقدس هي ذات وجوه لا تشابه مسائل الدول الاخرى ، وفي رأي الكونت سفورزا ان الاتفاق الذي تم بين البابا (بي) الحادي عشر وبين موسوليني ناشيء عن عداء مشترك للحرية ، على حين ان جميع محذورات الحرية مفضلة على تنازل شعب عن حريته وتسليمها لسواه ، وقد كان مكيفلي نفسه لا يحب الذين يرفعون عقيرتهم بالشكوى من جرائر الحرية ويقول : ان سر عظمة رومة كان قائماً على الاختلاف في الرأي والتباين في الاجتهاد .

الفصل السادس

بلمرستن

وأساليب السياسة البريطانية

١ — المصالح والسياسة في القرن الثامن عشر

انكلترة جزيرة متاجرة ، وكل سياستها قائمة على هذه القاعدة ، والانكليز لاينمون ولا يكبرون الا بالمستعمرات ، وهم ينتجون اكثر مما يستهلكون ، فعليهم ان يبحثوا عن منافذ لتجارتهم ، وبحريتهم هي اداة ثروتهم فعليهم ان يجدوا ويدأبوا لاحراز سيادة البحار ، وهم يتميزون بصفات التجارة التي تعرضهم للحسد ، وصفات الوطنية ومزايا الشعوب الفاتحة التي تورثهم الشمم والاستئثار ، والعزلة البحرية التي كانت تعنمهم في هذه الجزيرة الشماء — كما قال اندره شنيه — بما يتكسر عليها من الأمواج ، وغيرها من العوامل التي تجتمع فيهم ، تجعل سياستهم تتهادى في اذيال الكبر والخيلاء ، وتجعل اوربة كلها تخشى بأسهم وتحاول منافستهم ، وهم يطبعون الحكومة القائمة فيهم ، والعاملة على خدمــة مصالحهم ومتاجرهم ، بطابع العنف والعجب ، مثلما كان يصنع لويس الرابع عشر في الحكومة القائمة لخدمــة اسرته والعناية بمصالحها ، والاقتصاد السياسي الذي يتبعون قواعده هو عنوان الدولة وسر المملكة ، ولذلك كانت انكلترة تحرص على احتكار مستعمراتها ، وتدعى لنفسهـا الحق كله بالمتاجرة مع مستعمرات غــيرها ، وتنظم التهريب الذي تعاقب عليه في بلادها بمنتهى الحزم ، وهي لاتتسامح في هذا الشأن مع سائر الدول ، فتظلم الضعفاء وتزدريهم ، وتقاتل الاقوياء وتضع من كبريائهم .

وما كانت انكلترة لتقبل مطلقاً ان تشاطرها فرنسة سيادة البحار وسلطان المستعمرات وتجارة العالم ، ولهذا فقد كانت تعارض معارضة لا هوادة فيهـا في

امتداد شواطيء فرنسة في اوربة وافتتاح منافذ لها في الاقيانس ، ولا تتساهل في احتلال الفرنسيين انفرس ، وتصدهم عن البلاد المنخفضة ، وتدفعهم عن الاتحاد مع بلجيكة او الاستيلاء على العدوة الثانية من الرين ، وبقيت هذه العواطف بكل مافيهامن شدة وولوع فيسني الثورة ، ولم يكن الانتقام الذي نالته فرنسة فيامريكة ليخفف من حدتها ، بل انه مابرح يومئذ من القضايا المسلمة التي يدرك كنهها كل انكليزي من اصغر رجال الطبقة الوسطى الى اكبر مستشاري التاج ، ومن خطط السياسة الثابتة واساليبها الدائمة اضعاف فرنسة والاحاطة بها واسقاطها في كل حال وحبسها في القارة الاوربية . ولما كان الانكليز لايستطيعون ادراك ذلك بأنفسهم ، لانه لم يكن لديهم جيش ، كانوا يلجأون للمحالفات ويبذلون لها الأموال ، وهذا سر اتفاقهم مع فينة الذي دام عهداً طويلا ، فكانت النمسة تتناول المال من انكلترة لتقاتل فرنسة التي تنافسها ، وتدافع عن البلاد المنخفضة التي هي لها .

اما روسية فان السياسة المستقلة التي اتبعتها في اثناء الحرب الامريكية افسد ما بينها وبين انكلترة ، وبعد ان ظل الفريقان مدى من الزمن يعتبران منافعهما مشتركة ، اخذ الانكليز ينظرون الى الفوارق التي تحول بينهما ، فاستقرارهم في الهند واستفحال امر الروس على شاطيء البحر الأسود ، غير من حال الائتلاف والصلات بين الدولتين اللتين كانتا متحالفتين في الماضي ، ومنذ تعاظم شأن انكلترة في آسية قامت تناوىء روسية ، واشتد بها القلق على مصير الدولة العثمانية ، لانها لم تكن ترضى ان تصل دولة تنافسها هذه المنافسة الى شواطىء البحر الابيض ، ولم يكن يكترث البريطانيون ببولونية لان تجارتهم معها اقل من ان تذكر ، وهكذا فان سياستهم ومحالفاتهم كانت تؤدي الى هذه النتيجة المضاعفة : توسيع امبرطوريتهم البحرية والتضييق على الامبرطورية الفرنسية .

والانكليز لايحاربون الا للتجارة ، والحرب تعطل التجارة و تعرقلها ، ولا يقاتلون الا عندما تكون مصالحهم مهددة حقيقة ، وحينئذ يخوضون غمرات القتال لانهم مضطرون له ، ويتهالكون فيه ، ويحملون اليه كل ماعندهم من صبر وثبات،

ولا سيما ان السبب يرجع الى ماعرفوا به من اثرة وانانية ، وتاريخهم حافل بهذه النقائض والغرائب التي توحي الاعتقاد باضمحلالهم ، وبذلك الاقدام العجيب الذي ينهك قوى خصومهم ، فطوراً تجدهم قد خلوا اوربة وشأنها ، وطوراً تجدهم قد اخذوا على عاتقهم قيادها ، وبينما تراهم يهملون المسائل العظمى في اوربة ، اذا بهم يزعمون انهم يدبرون امرها في صغيره وكبيره وحقيره وجليله ، وبذلك ينتقلون من السلم كل السلم الى الحرب كل الحرب .

واذا غلبوا بعد القتال عملوا على تلافي امرهم واستقالة عثرتهم ، واذا غلبوا عملوا على حسن الاستفادة من النصر ، وفي كلتى الحالتين يطالبون بمالهم ويقومون بوفاءما عليهم ، وثروتهم العظيمة تعينهم على عقد ديون كبرى ، غير ان الغنى الذي ينعمون به يجعلهم يستثقلون العبء ولا يتحملون الاضطراب في شؤونهم المالية ، وذلك علاوة على رغبتهم السائدة في الاحتفاظ بحرياتهم التي تتضاءل في اثناء الحرب ، وقد رجعوا الى انفسهم بعد انتصارهم في حروب السنوات السبع وانكسارهم في حروب امريكة ، فاعملوا الفكرة في تدبير امورهم ، وانقطعوا الى اصلاح شؤونهم ، وعلى هذا النحو يجتازون الازمات ويستفيدون من التجارب ، ويعانون في سبيل الحرية بعد ان ادركوها ، ولكن قبل ان تألفها اخلاقهم وتحسن مراسها نفوسهم ، فهم لاينتهون من نضال الاجانب حتى يبدأوا بنضال انفسهم ، وقد ملأ هذا النضال القرن الثامن عشر .

وكان على رجال الدولة في اوربة ان يقولوا ان هذه الازمة لم تكن الاولى في انكلترة ، فقد علمهم التاريخ بان هذه المملكة ، برغم ما كانت تتخبط فيه من الافراط احياناً والاهمال احياناً ، مابرحت تظهر في العالم بمظهر باهر ، ومع ذلك فقد اضاعت ثقة الدول بها بعد ان تسامحت في تقسيم بولونية وفي احتلال اقرم من لدن روسية ، وفي تحرير الولايات المتحدة ، فاخذت تتقهقر في جزيرتها وقد اثقلت الاعباء كاهلها .

اما الشعب فقد كان يحكم عليه بانه في طبيعته لايذعن لسلطان ، وان دستوره مفسد لكل سلطة ، ورجال الدولة ليس لديهم متابعة للامور ، ولا ثبات في السياسة

ولا تحالف يوثق به ، حتى ان دوفرجن كتب في سنة ١٧٨٣ انه لا توجد سياسة متقلبة كسياسة وزارة سان جمس ، ولا اكثر منها خضوعا للاساليب الموقتة التي تمنعها تبدلاتها اليومية من ان تكون لها سياسة ثابتة في القارة الاوربية.

وقد بلغ الامر ببعض السياسيين انهم كانوا يشبهون انكلتره ببولونية ، الا أنها غنية مفكرة مجتمعة على نفسها ، وهي ليست باقية الا بحكم الصدفة التي جعلتها بمعزل عن سواها ، حتى كان يقال ان الاجانب لايرون في انكلتره الا اساطيل عظيمة ومخازن كبيرة ، فتؤثر هذه المظاهر في النفوس ، وكان قليل من الرجال يظنون ان شيئاً قليلا وضوضاء كاذبة وجرأة للعدو تذهب الثقة وتبعث الفوضى والاضطراب في هذه الآلة المعقدة ، وتكشف القناع عن ضعف لايعرفه الا اولو العلاقة واصحاب الشأن انفسهم ، حتى ان كاترين الكبرى كانت ترى ان الانكليز تخونهم اعصابهم ، وكانوا في نظر فردريك أغنياء مترفين يباعون ويشرون ، وعند يوسف الثاني ان دولتهم العظيمة آذنت بالاضمحلال ، وقد تدخل في دائرة النفوذ الروسية كما هي الحال في السويد والدنمرك .

وكذلك كان يتنبأ لها الفلاسفة والحكماء ، وذلك بسبب اتساع سلطانها وكثرة ديونها ، ومحاولة ارلندة ان تتخلص من ربقتها كما هو شأن مستعمراتها ، وما يهددها من خطر الافلاس العاجل ، وما يثقل كاهلها من عبء الضرائب الفادح ، وكان يرى خاصة في باريس ان السلطة الانكليزية ليست الا ظاهراً مصطنعاً من القوة ، وانها على وشك الاضمحلال ، وكانوا يفكرون في فرنسة قبيل الثورة بارسال الجيوش الى انكلتره والقضاء عليها ، ويرون هذه الفكرة المنتشرة امراً من الامور البسيطة العادية ، ومن المناقضات الغريبة التي تكون مع غرابتها مألوفة عند الناس هذه الآراء السطحية المندفعة التي يحكم بها بعض الشعوب على بعض ، تجعل خشية الاجانب في الحد الاقصى المبالغ فيه في الايام الحاضرة ، وتجعل احتمال القضاء عليها من السهولة التي لاتصدق في الايام المقبلة .

وهذه الآراء في تعقدها وتناقضها هي التي كانت تقود رجال الثورة ، فحرب ١٧٩٣ والحصار البري قاما على مناهج ملتبسة وخطط مبهمة ، ومنها نشأ خطأ

نابليون الذي كان يخيل اليه ان الامبراطورية البريطـانية ليست الا وهماً باطلاً وظلا زائلاً ، وانه يستطيع ان يزلزل بنيانها ويسير على اعقابها الى الهند ، ولكن ثلوج روسية وقفت في سبيله ، وتحطم ذلك الجهاز الذي كان يعده الفرنسيون لمقاتلة انكلترة منذ سنة ١٧٩٣ وهلك الجيش معه .

اما منتسكيو فلم يكن يجاري معاصريه ، بل يدعوهم الى التماس الصداقة البريطانية ، ومحاذرة بغضاء هذه الدولة ، واجتناب الظن القائل باضطراب شؤونها وتقلب امورها ، فقد شاءت الاقدار ان تكون السلطة التنفيذية في هذه الدولة قلقة في الداخل ، عزيزة في الخارج ، بحيث اذا تعرضت لها دولة أجنبية وجعلت ثروتها اوفخارها مهدداً بالخطر ، انحنت المنافع الصغرى للمنافع الكبرى واقبل الجميع يدافعون عن السلطة التنفيذية ، وهذا ماحدث عندما حاولت اوربة ان تقاتل فرنسة التي هبت فيها عواصف ثورة لامثال لهـا ، يقودها اعظم رجال الحرب في العصور الحديثة ، وكانت تخضع المنافع الكبرى للمنافع الصغرى في الممالك القديمة ، وتحبط دسائس القصر ومنافسات رجال الحرب مساعي الدولة وتشل اعمالهـا ، وكانت الحكومات التقليدية تعترض سبيلها عقبة لاتذلل من انظمتها التي كانت بسيطة المظاهر .

وبعد ان ارتبك الجميـع وغدروا على التوالي بالقضيـة العـامة ، خرجت انكلتره من عدم اكتراثها المألوف وكانت وحدها قادرة على جمع الدول وقيادتها فما حسدتها بعد الآن على غناها وثرائها لانها جميعاً كانت تستمد منها ، وبرهنت على رقابة للنظام وطاعة في الحرب اكثر من بروسية ، وعلى متابعة الامور اكثر من روسية وعلى صبر اكثر من النمسة ، وبذلت من صفات القدرة ماتجاوز كل ما كانت تطمع به هذه الدول الثلاث ، ولم يستطـع وزراء فينة وبطرسبرغ وبرلين بتحالفها جميعاً ان يكون لديها من القوة والعزيمة ما يقارن ما كان لدى حكومة وليم بيت من المضاء والذكاء والثبات ، على حين ان انكلترة كان يرى الراؤون شعبها في يأس مظلم قاتل لم يسبق له مثـال في تاريخها ، نبرلمـانها مخذول مستنكر ، وملكها كاره للسلطة الضعيفة الزائلة ، والحكم تتداوله الايدي بالرشوة

والافساد ، والاضطرابات السياسية قد افسدت كل شيء حتى الاسرة ، والاحزاب قد مزقت الشعب ، والعرش قد اضعفته المطاعن ، والمجلس قد كرهه الناس واهانوه ، فما اعظم التناقض واشد التفاوت بين تلك القوة وهذا الضعف !

٢ — وليم بيت والثورة

تقلد وليم بيت الحكم وعمره اربع وعشرون سنة وذلك عام ١٧٨٣ ، فما انقضت اشهر حتى اتى بالبرهان الساطع على مقدرته وكفايته ، وكان اعظم وزير عرفته انكلترة حتى ذلك الزمن ، وقد ادهش رجال السياسة في اوربة ايام الثورة الفرنسية وبهرهم بمبادئه الكبيرة ، ولم يكن في رجال الدولة الانكليزية مثله ، مقتصد في اعماله ، متأن في اساليبه ، بعيد عن المغامرات التي يثيرها في النفوس حب الاشياء العظيمة ، يجهل الشؤون الاوربية ولا يكترث لامرها ، ولا يعبأ باساليبها السياسية ، وهو يختلف بذلك عن اولئك السياسيين الذين لا يعرفون شيئاً عن بلادهم ولكن يعرفون كل شيء عن بلاد سواهم ، ويدبرون شؤونهم الداخلية بما يؤثر فيها من الشؤون الخارجية ، وكان يحكم في بلاده باقصى حد من القوة واقصى حد من فكرة المتابعة ، وتستند سياسته في الخارج استناداً لا يتزلزل الى السلطة الكبرى التي يتمتع بها في الداخل ، وهذه هي ميزته على رجال السياسة من معاصريه.

وهو كما قال غيزو لم يكن يتحرى في الخارج المسائل الخطيرة ، ولا يثير الخصومات ، ولا يتدخل في شؤون سواه ، ولكنه كان يتقبل الاحداث العظمى بدون تردد عندما يجد انه لا مناص منها ويكره على الاشتباك فيها ، ولم يكن يسعى اي سعي لهذه الامور الاضطرارية ، ولا يبعثها من مكامنها طمعاً بتحقيق آمال وادراك رغائب وتنفيذ خطط ومناهج ، ولم يكن توسيع الامبراطورية بالحرب والسياسة الرغبة السائدة عنده ، ولكن شؤون البلاد الداخلية ورخاء سكانها ونمو اوضاعها وانتشار العدل الشامل فيها كان الشغل الشاغل له ... فهمه قبل كل شيء صلاح الحكومة في الداخل ودوام السلم في الخارج ، وكان يعتقد ان الاصلاح الداخلي يؤدي عند

سنوح الفرصة الى عظمة الوطن في الخارج ، وكانت عبقريته مصوغة من الثبات، وهذا الثبات يستند الى عقيدة لاتتغير في انتصار العقل السليم والرأي الصحيح .

وكان التشريع والادارة من الامور التي تأتي في الدرجة الثانية عنده ، وكانت نفسه تنصرف الى غاية هي فوق انشاء القوانين ومفاوضات المعاهدات وتنظيم الاساطيل وتعبئة الجيوش وتجريد العساكر ، الى الامور البعيدة عندما يقتضي اقناع المجلس وتسييره ، فقد كانت تثب جميع قواه للعمل ، ويصبح حينئذ اعظم رئيس عرفته انكلترة ، متمكنا من جميع عناصر الحكم في النظام البرلماني .

ولما تولى مقاليد الحكم كانت تعصف ببلاده ازمة شديدة : سلم مخزية ، دين ثقيل ، خزينة متضعضعة ، ضريبة مهلكة ، شعب منقسم ، برلمان مضطرب ، معارضة قوية تسعى للاستيلاء على الحكم ، يقودها خطباء ماهرون وبرلمانيون من الطبقة الاولى . واذا نظرنا الى ظاهر الامر وجدنا مشابهة لموقف فرنسة عندما تسلم الاريكة لويس السادس عشر قبل تسع سنين ، غير ان القلاقل في فرنسة كانت ناشئة عن انحلال الدولة وانحطاط المملكة ، اما في انكلترة فقد كانت الازمة شديدة بدون شك ، ولكنها طبيعية وحيوية ، ناشئة عن نمو الأمة وتكون الدولة ، وكانت في انكلترة ، اوضاع تستطيع ان تعززها ، مؤتلفة مع الزمان جامعة للرغائب الوطنية ، وكان النضال في هذا الشأن متمماً للنزاع القديم الذي انشأ اخلاق الامة واستجمع عزائمها ، غير ان هذا النضال كان بين احزاب لابين طبقات ، وكل حزب كان يرمي الى حكم الدولة ، ولم يكن هناك حزب يطمع في ان يدغم الدولة فيه ولا ان يفكر في اوضاعها . وكان يحكم بيت بلاده بالوسائل الشرعية والاوضاع الدستورية ، ولم يكن فيها من يضارعه ، مسيطراً كل السيطرة في وزارته محبوباً كل الحب من سلطانه ومن برلمانه ومن امته ، ولم يسبق في انكلترة من تمتع بمثل سلطته ، وقد اصبح بحق اقوى رجل في اوربة .

وكانت قلوب الانكليز تضطرم حقداً على فرنسة ، وقد ظهر ماتكنه من حزازات في اثناء مناقشة المعاهدة التجارية سنة ١٧٨٦ ، على حين ان شروط هذه

المعاهدة كانت ملاءمة لوجهة النظر الانكليزية ، وكانت في جملتها من الاعمال الرفيعة، وقد قرر فيها ان تدفع فرنسة الى انكلترة نفقات حرب امريكة ، ولكن الوطنيين الانكليز لم يكفهم ذلك ، حتى ان فوكس الذي سيدعو عما قليل الى الاتفاق مع فرنسة وبحث عليه بجلال وروعة كان من المحرضين على سياسة النزاع والخصومة ، وقد نادى باعلى صوته : ان فرنسة هي عدو انكلترة السياسي ، ولكنه لايذهب الى حدا التأكيد بانها ينبغي ان تبقى كذلك عدواً لايلتئم مع بريطانية العظمى، وانها لا تستطيع ان تشعر بحاجة تخامرها الى مصافاة هذه المملكة ، فاذا كان هذا الامر غير محتمل الآن فماهو بمستحيل ، فاجابه بيت قائلاً : ان عقلي ليأبى هذا التأكيد ولا يعد احتمال الاتفاق شيئاً غريباً ومستحيلاً ، فمن الضعف ومن الطفولة ان يعد شعب عدو الآخر الى الأبد . غير ان هذين الخصمين في نضالهما الحماسي كان كلاهما بعيداً عن العمل الذي يهيأ للقيام به في حروب الثورة الفرنسية ، على انهما في الحقيقة اذا كانا قد غيرا لغتهما بعد ذلك فانهما لم يغيرا شيئاً من اخلاقهما فما زال فوكس خطيباً ومازال بيت رجل دولة ، وكانت الاغلبية في جانبه ، ولكنه اضحى غرضاً للشتائم التي كانت تجرحه وتؤذيه اكثر من كل شيء .

وفي اثناء قيام بيت باعباء السلطة لم يكن له في بادىء الامر النفوذ الكافي ، وكان في جملة مايهم به مجالأة فرنسة ، فهو لايستطيع ان ينال مايريده الا باحراز انتصار ينتقم به من هذه الدولة ، ويرضى كبرياء الانكليز وضغينتهم ، فسنحت له فرصة الثورة الهولندية سنة ١٧٨٧ وكانت فرنسة تشد يومئذ ازر الوطنيين وتحاول اكراه السلطات على التسليم، فتحالفت انكلترة سنة ١٧٨٨ مع هولندة وبروسية ، واتمت هذا العمل بنظام دفاعي مخيف يجعل لها القول الفصل في شؤون اوربة متى ارادت ذلك .

وبفضل هذا النجاح استطاع بيت ان يجتاز اشد المحن التي مرت بحكومته ، فقد اصيب الملك بالجنون ، وظن الاحرار اصدقاء ولي العهد انهم سينتزعون السلطة من الملك الذي كان حراً في نزعته واصوله ومبادئه وان حكم مع المحافظين ، فوقف

يت بجرأة في سبيل مباجيه ، وثبت لحملاتهم وقاد البرلمان الى تحديد سلطة مجلس الوصاية ، ولما افاق الملك مما اصابه في بدء سنة ١٧٨٩ شمل الناس السرور والابتهاج، فاستقرت السلطة المالكة في قرارها واعتدلت في نصابها وتمكنت من قلب الامة ، وزاد حب الشعب لبيت اكثر من قبل ، واهدت انكلترة الى اوربة هذا الرجل القوي الكبير على رأس حكومة تتمتع بمكانة عظيمة ، وتستمد قوتها الخطيرة من طرائقها الحرة ومناهجها الوطنية وعناصرها القومية .

وقد نهضت انكلترة واصلحت من امرها في الوقت الذي كان كل شيء يتمزق في فرنسة ، ولم يكن يظهر ان فيها دواءً لاصلاح الحالة الا الثورة العامة ، على حين ان انكلترة كانت تنشأ من نفسها وتستمر في طريقها ، سائرة بالنمو المعتاد والتقدم المألوف، متطورة في اوضاعها ومؤسساتها ، وهذا التناقض بين المملكتين يرجع الى بدء تاريخها ، وقد اصبح قانوناً لها على وجه التقريب ، فالانكليز يمتازون بفكرة سياسية تنقص الفرنسيين ، ولديهم دستور وتقاليد ، وقد اوجد العهد القديم في فرنسة طبقة من النبلاء وفي انكلترة طبقة من الأشراف يحفظون مميزاتهم بحسب مايؤدونه من الخدمات لبلادهم ، ويبذلونه في سبيل امتهم .

وتألف في انكلترة حزب من الدمقراطيين ، جم النشاط دائب الحركة ، ولكن هذا الحزب كان ينظر اليه في انكلترة كما ينظر الى فئة مزدراة لاسلاح عندها ولا مال ولا انظام ولا قيادة ولا رئاسة ، ولم ينتشر هذا الحزب كثيراً في انكلترة ، ولكنه خدع عدداً كبيراً من الفرنسيين بما ظنوه من انه ستقوم ثورة في انكلترة تشابه الثورة الفرنسية ، التي كانت في اول امرها موضع اعجاب الأحرار وعطفهم، غير ان الاغلبية نبذت فرنسة نبذاً عاما بعد تطور الامور فيها ، وظهر الفرق بين الانكليز وبين الفرنسيين ، فالاولون اصحاب مبادىء وقواعد ، اما الآخرون فانهم يضعون القاعدة ويحاولون ان يخضعوا لها الحوادث ، والانكليز يسخرون جميع مداركهم للتأليف بين النظر وبين العمل وايجاد فلسفة موافقة للوقائع ، ولذلك فقد كان الادب الواحد والمذهب الواحد يبعثان في هذه العدوة من البحر هدامين متحمسين وفي تلك العدوة محافظين متشددين .

وكان النضال السياسي في القرون الوسطى قد ائتلف بين الأشراف والشعب في انكلترة لمقاومة خصائص الملك واستبداده ؛ فكذلك كان امر العوام والأشراف في مقاومة الثائرين الذين كانوا يهددون العهد (الشرط) والملكية ، وعقائلة الانكليز الثورة كانوا يعيدون ذكرى تقاليدهم التاريخية ؛ فكانت حرب المقاومة حرباً وطنية ، وكانت انكلترة خصم الثورة العنيد لانها وحدها ناضلتها بمثل عدتها ، بالمبادىء الوطنية والعواطف الشعبية ؛ واذا كانت ظهرت في اثناء الثورة بذلك المظهر الجليل ، وظهرت القارة الاوروبية بهذا المظهر من الهوان والصغار ، فلأن الشعب البريطاني – كما قال منتسكيو فيه – هو الشعب الذي عرف اكثر من كل شعب ان يقدر حق قدرها هذه القواعد الكبرى في العالم : الدين ، التجارة ، الحرية .

٣ – منشأ بامرستن ومميزاته

بعد حروب طويلة استعرت نيرانها بين فرنسة وبين بريطانية . استقرت السياسة البريطانية على اساسين عظيمين : الاول : سيادة البحار ، والثاني توازن الدول ، ويشتق من هذين الاساسين امران آخران : الاكتفاء بجيش بري قليل ، وتأمين سبل التجارة وحريتها ، وهو ما تقوم به السياسة البريطانية ، على ان يكون الاسد البريطاني ناظراً بعينين اثنتين : احداهما شطر اوربة واخراهما شطر العالم ، وبذلك تكون علائقها مع الجميع دائمة وتبعاتها متشابهة متماثلة .

وهذه القواعد السياسية هي التي اوحت للورد كاستلرغ ان يقول : ليس همه في معاهدة فينة ان يعود والويته معقودة بالنصر ؛ ولكن ان يعمل على توجيه اوربة في طريق السلم ، وكان كاستلرغ محافظاً في السياسة الداخلية ، ولكنه يجتنب التدخل في شؤون الدول الاخرى واوضاعها ويشارك بذلك رأي مواطنيه ، وكان كانتغ خلف كاستلرغ في الامور الخارجية يصرح بان انكلترة ليس لديها اي دافع للتدخل في شؤون الدول المستقلة ، ولذلك فانه اسرع بالاعتراف بالمستعمرات الاسبانية التي اعلنت استقلالها في امريكة الجنوبية ، وقال في ذلك

كلمة تاريخية في انه دعا الى البقاء عالما حديثا حتى يقيم التوازن مع العالم القديم.. لكنه ارسل بعد قليل جنوده الى البرتغال لمؤازرة الدستوريين ودفع العدوان الخارجي.

وقد انحل تعاون الدول الاوربية الكبرى بعد القضاء على نابليون، وكان يرى مترنيخ ان هذا الانحلال ناشيء عن خطأ «الثائر» كاننغ ولكن رأى اكثر الانكليز ان انقضاء تعاون الدول الاوربية يرجع الى خروجه عن قواعده الاصلية وغاياته التي انشئ لأجلها اذ اصبح وسيلة للرجعي العقيمة، اما كاننغ فقد كان من ابعد وزراء الخارجية البريطانية اثراً واعظمهم خطراً، وكانت له المساعي الجلى في تحرير اليونان، وهو محافظ في السياسة الداخلية حر في السياسة الخارجية، حتى انه ليعتبر واضع تقاليد السياسة التي اتبعت من بعده.

وعندما ابتدأ بالمرستن عهده الطويل في وزارة الخارجية البريطانية كان قد طوى امر التحالف المقدس والتعاون الاوربي ولم يبق منهما الا الذكرى، وقد تقوض الاتفاق بين روسية والنمسة على اثر تحرير اليونان، واضمحلت روح الرجعي التي سادت بعد الحروب الطويلة، واخذ الزمان يساير المبدأين الجديدين: القومية والديمقراطية. ولم يكن بالمرستن من اصحاب الخيالات، ولا من اصحاب العواطف ولا من دعاة الافراط في الاصلاح والتغيير والتبديل في الشؤون الداخلية، ولكنه كان محافظاً في اول امره، ثم انضم الى الاحرار، يشاطر الانكليزي المتوسط رأيه في كره الظلم والاضطهاد، ويدير الامور بحسب تقاليد كاننغ.

وقد اختلفت الآراء فيه، فمن قائل انه كان من اكبر وزراء الخارجية البريطانية، ومن قائل انه كان محرضاً جعل اوربة تعيش في جو عاصف، وعلى كل حال ففي اثناء العشرين سنة التي قضاها بالمرستن في الحكم والسياسة كان يتنازع سياسة الاحرار رجلان: احدهما روسل وهو زعيم الحزب الرسمي ومن اصحاب الآراء والمبادىء، كثير التورع، صعب الملاقة، وثانيهما بالمرستن الذي نحن في صدد ذكره والذي كان مشبعاً بالافكار الارستقراطية وحب التسلط، ولكنه مع ذلك

كان رقيق العشرة ، فكه الاخلاق ، لطيف النكتة ، يحسن ارضاء النواب ، ويتحبب اليهم باساليبه العنيفة التي لم تكن تصل الى الحرب ، فيستميل الرأي العام بجعل انكلترة في موقف المسيطر ، ويخاطب شعور الوطنية عند الانكليز ويستعمل مايسميه الرئيس روزفلت الآن بسياسة العصا الغليظة التي يصفق لها الجمهور الجاهل .

وكان اعظم فوز له في حياته السياسية المديدة ، خطبة قالها على اثر اعتداء جرى في اليونان على يهودي متجنس بالجنسية البريطانية ، وفيها هذه الجملة الشهيرة: كان الروماني يصيح بملء فيه ان رومة تحميه من كل اهانة ، فكذلك البريطاني حيثما وجد يشمران عين بريطانية اليقظة تطالعه، وان ساعدها الطويل يحميه من كل اعتداء ، وقد اصاب بلمرستن اخفاق بعد هذا النجاح فقد نقمت الملكة منه استئثاره احيانا في السياسة ، ولاسيما موافقته على عمل نابليون الثالث في فرنسة من غير مشاورة الوزراء ، فاخرج من وزارة الخارجية ولكنه عاد بعد قليل لرئاسة الوزارة .

واذا كان اسم كاستلرغ مقرونا بمعاهدة فينة ، واسم كانتغ مقرونا بتحرير اليونان ، فاسم بلمرستن يذكر قبل كل شيء بانشاء بلجيكة . فقد كانت الثورة البلجيكية وتسنم بلمرستن مركزه في سنة واحدة ، فساعد على ادراك بلجيكة حيادها واستقلالها وعلى ابرام معاهدات سنة ١٨٣٩ ، وكان يعتقد بحق بلجيكة الكاثوليكية فيما تريده من التخلص من حكم ملك هولنده البروتستاني ، والتحرر من القيد الذي وضعته في عنقها معاهدة فينة من غير ارادة شعبها ولا موافقته ، وكان يخشى ان يجر نقض هذا الشرط من معاهدة فينة الى حرب اوربية .

وكانت المعضلة الشرقية تهم احرار الانكليز وتثير هواجسهم ، اذ لم يبق خلاف بين بريطانية وبين تركية بعد تحرير اليونان ، فاقدم بلمرستن على شد ازر العثمانيين في قتال محمد علي ، ولم يكترث بتأييد فرنسة ولويس فليب للخديوي ، ولا بتخاوف بعض زملائه من عواقب هذه السياسة وكذلك اظهر بلمرستن ميله لمساعدة الاحرار في جميع الممالك الاوربية ، حتى ان خلافا حدث يومئذ بين الملكة فكتوريا وبين

وزرائها ، فكان الوزراء يرون ان الملكة التي تعمل بمقتضى الدستور ليس لها الا ان تطلع وتعلم ، وكان الملك جورج الثالث آخر ملك في انكلترة راقب سياستها الخارجية ، وعلى هذه الطريقة فقد شجعت انكلترة وفرنسة معها تركية على مقاومة روسية والنمسة وحماية اللاجئين اليها .

وفي العهد الذي مضى بين سقوط نابليون وبين سنة ١٩١٤ لم تدخل انكلترة في نزاع دولي الا مرة واحدة وهي في حرب القرم ، ويرى الانكليز ان هذه الحرب كانت سيئة الطالع ، واذا كانت الغاية التي ترمي اليها من مقاومة الروس حسنة ، فان السياسة البريطانية لم تبد من البراعة في استثمار هذه الحرب والانتصار فيها ، بما كان يفيد العالم ويعود عليه بالرخاء .

واهم ماقام به بلمرستن في اثناء وزارته الاخيرة (١٨٥٩ – ١٨٦٥) حينما كان وزير الخارجية جوهن روسل رئيسه القديم ، مؤازرة ايطالية في تحقيق اتحادها بدون ان تخوض بلاده غمرات الحروب ، وذلك انه بعد ان استطاع غريبلدي ان يخرج من صقلية جيش نابلي رفضت انكلترة ان توافق فرنسة على منعه ومقاومته

وكانت الامة الانكليزية تعطف على الثائرين بضد القصر الملكي الذي كان يرى غير ذلك ، وقد اعرب اللورد روسل في برقية نطق فيها باسم الوزارة عن اتجاه البلاد فقال : الايطاليون انفسهم افضل حكم في مصالحهم الخاصة ، والشعب القاطن في جنوبي ايطالية له الحق ان يقطع صلته برؤسائه السابقين ، وقال في ختام هذه البرقية بعد ان ذكر انه لايستطيع ان يرى سبباً كافياً لاجابة النمسة وبروسية وروسية الى ما يريدونه من استنكار اعمال فكتور عمانوئيل : ان حكومة صاحبة الجلالة تتوجه بابصارها الى الخطة المثلى التي استنها لنفسه شعب يريد ان يؤسس بيته على قواعد الحرية ، ويثبت اركان استقلاله في وسط عطف اوربة وامانيها الطيبة ، فكانت هذه البرقية مترجمة عن المبادىء الحرة ، كما كانت خطبة بلمرستن في التشبه بالرومان عنوان الدعوة للقوة والسيطرة .

غير ان سياسة الرجل القديم لم يكتب لها نفس النجاح في حرب الفصال الامريكية بل هددت بوقوع حرب بين الولايات المتحدة وبين انكلترة ، ولم يكتب لها النجاح ايضاً في الثورة البولونية ولا في قضية شلزويغ هولشتاين ، وكانت انكلترة عند موت بلمرستن في خلاف مع فرنسة وبروسية والولايات المتحدة .

ومميزات سياسة بلمرستن هي مميزات السياسة الخارجية الانكليزية ، وهي السياسة القائمة – كما قال دزرائيلي – على شؤون البريطانيين في الخارج ، وهذه السياسة تتمثل في طائفتين من رجال السياسة فطائفة من اشباه روبريل وغلادستن يقوم مذهبهم على بسط السيادة الانكليزية عن طريق الانتاج والصناعة ، ويحاذر هؤلاء في سياستهم توسيع الامبراطورية خشية من اثارة المشاكل والاشتباك مع الشعوب الاخرى ، واما الطائفة الثانية ورجالها امثال بلمرستن ودزرائيلي وسلسبوري (وان كان الاول اصبح في عداد الاحرار) فان سياستهم تقرر ان الانكليزي لا بأس به في بلاد غيره ، ولكنه افضل في بلاده ، وهم يتبعون سياسة لا تورع فيها ولا حذر ، ويؤيدونها بالسلاح حين الحاجة ، وهم يخاطبون الشعوب الضعيفة بلهجة قاسية عنيفة ، تبقى آثارها حتى في مخاطبة الشعوب القوية ، و في كل مكان تهدد فيه مصلحة من مصالحهم ، فانهم يدافعون عنها كأن هناك عهداً او ذماماً او حقاً مؤكدا يعتقد ، وهم باعمالهم يستفزون الشعوب ، يعرفون ذلك ويعدونه مفخرة لهم ، ويعتقدون ان شعبهم هو الشعب المختار ، والسيد المنتظر ، وحامي الضعفاء ، ويأبون التواطؤ مع الذين هم دونهم ، كما انهم لا يفرطون في الاشتباك والتعاقد مع اشباههم ، والعزلة الباهرة من جملة عاداتهم وطبائعهم ، والشعب الانكليزي لا يتسامح مع الضعيف ولا يكتفي بالنتائج ، ولكنه يطالب بالنصر الظاهر ويلح ويأمر ، ولا يبالي بالعقبات التي تعترض سبيله .

وحقوق الدول عند الانكليز واسطة لحماية مصالحهم ، وهم يعرفون قواهم ويريدون الاستئثار بها ، ويكفي ما يذكر في مؤاخذة رجالهم حادثة اطلاق القنابل المشهورة

على كوبنهاغ ، ومعاملتهم لليونان في قضية احد الرعايا البريطانيين ، وفي الانتخابات التي جرت سنة ١٨٥٧ اعاد الشعب البريطاني الى المجلس النيابي من ايد بلمرستن في خطته وتنكر الذين عارضوه ، وقد سقط بلمرستن في هذا المجلس الذى كان مرآته لانه طلب معاقبة الذين تآمروا على نابليون الثالث ، ولم يكن ذلك لانه اراد تغيير الوضع في حماية اللاجئين ولكن لأن في هذا العمل خضوعاً لما طلبته دولة اجنبية من انكلترة في تغيير نظامها المتعلق باللاجئين المتآمرين ، وهذا انكار لنفسه ومميزاته التي رفعت شأنه في بلاده ، فانقلب عليه المجلس الذي هتف باسمه واجتمع تحت لوائه . والشعب البريطاني يدعو الى التمسك بالمثل العليا ويحض عليها بقدر ماتستوجب ذلك اساليب سياسته ، وما تقتضيه مصالحه وغاياته ، وعلى هذه الشروط يقيم قسطاس المبادىء ويعتبر كل دولة عضواً في الاسرة الانسانية مكلفة بواجبات الشرف والنبل والصدق والولاء نحو الاخرين، واذا قامت بذلك فانه يعترف لها بحسن الصنيع واحياناً بالتجرد والكرم والفروسية ، ولكن لا يبقي اثر للعطف والشعور والصدق والوفاء والامانة والانسانية متى اصبحت قواعد الدولة ومقاصدها مهددة .

ولا يستنكرون في انكلترة تغيير رجال الدولة مذاهبهم وآراءهم واحزابهم اذا لم يغيروا ما بانفسهم من صفات ومزايا حببتهم الى الشعب الانكليزي وجعلته يسير وراءهم ، وفي مقدمة هذه الصفات مناضلة الخصوم والصبر في الشدائد والتجلد في الحوادث والنكبات ، وكثيراً مايحارب فريق من ساستهم خطط الفتوح والزيادة في اعباء المسؤوليات التي يتحملونها ، ولكنهم عندما تلقى اليهم مقاليد الأحكام لايبالون اذا كانت اعمالهم تخالف رغباتهم السابقة وآراءهم المعلنة ، كذلك كان شأنهم في مصر والكاب وارلندة والهند . ولما انتقد المستر مورلي الاعمال العنيفة في السودان واتهمه بالاثمة على اختلاف الوجدانين: وجدان الوطن الأم والوجدان الآخر لهذه البلاد الفسيحة التي لاتحيط بها ابصاركم. لم يكن في جواب بلفور الوزير الاول شيء من البحث عن الشفقة والانسانية واكتفى بأن قال : لقد قام كتشنر بما

يوحيه اليه ضميره ، واني لم آذن بشيء لايتفق ومصالح البلاد ، وقد تكون هنالك اعمال لاتتقبل بقبول حسن . وكان شمبرلن الكبير قد غامر في بعض الامور، فقال عنه مادحوه : لو كان النجاح حليفنا لوضع الناس على مفارقنا تيجان الفخر فلا يجوز لنا بعد ان اصابنا من الفشل ما اصابنا ان نقف في مواقف الضراعة . وقد اعجب الشعب كله بهذه الكلمات الفخورة وهتف لهـا .

واوحت حرب البوير الى الانكليز آراءاً سياسية قيمة ، فكان زعيم المحافظين اللورد سلسبوري وزعيم الاحرار وليم هاركو يتفقان في انتقاد اهل زمانهم وهذا التشابه بين آراء الاحرار والمحافظين من مألوف ساسة الانكليز ومأثور عاداتهم ، فقال الاول : اني واثق ان الرأي العام في هذه البلاد يتأثر بآراء رجعية تقصيه عن الآراء التي سبق لها ان سادت فيه منذ خمسين سنة ، فيظن انه من واجبنا ان نأخذ كل ما نستطيعه ، وان نقاتل جميع العالم وان يبدأ النزاع عند كل سنوح فرصة ، وهذا مذهب يحمل في طياته اخطاراً شديدة ، اذ يحرض علينا جميع الامم الاجنبية ، وليس هذا مما يجوز اهماله ، والسمعة التي لنا في اوربة الحاضرة ليست في حال من الاحوال مما ننتفع به او نغبط عليه ، ولكن هناك خطر اشد وهو اننا نحمل انفسنا عبئاً هو فوق طاقتنا ، ومهما كنا اقوياء رجالاً وشعباً ، فان هنالك مدى لانستطيع ان نتعداه ، واذا حاولنا ذلك فاننا ننقاد الى الدمار ، وكثيراً ماقضت مثل هذه الجرأة على دولة عظيمة تملك ما تملك من البأس والقوة .

اما زعيم الاحرار فقد اورد ما اورده اللورد سلسبوري في شؤون السياسة يومئذ وقال : هذه عبرة يجدر بنا جميعاً ان نتأملها ، وقد قيل لنا انه ينبغي ان نستفيد عبراً كثيرة من هذه الحروب في الامور العسكريـة والبحرية ، ولكن هناك عبرة اعظم واجل تفيد امن البلاد وسلامتهـا . وهي ان لانحمل على اليأس والقنوط من الذين نريد ان يكونوا اصدقاءنا بسبب غرورنا وجهلنا ، ولاننسى معاملة الذين يقعون تحت نفوذنا وتأثيرنا ونطمن فيهم ، بل نسوسهم بروية وحذر ومراقبة للنفس ، كما يليق بمكانة امبرطورية تشعر بعظمتها وقوتها .

٤ — النزاع بين انكلترة وفرنسة

استقلال البلجيك والمسألة الشرقية

كانت سياسة الدول نحو سنة ١٨٣٠ ليس فيها مايدل على التقارب ، وكانت كل دولة تتهم الاخرى بنيات سيئة نحوها ، ولم يكن احد يعرف مايفكر فيه رجال السياسة عند كل دولة ومايجري في خواطرهم وما يقدر من الاتفاق بين اقوالهم واعمالهم ، وقد اشتبكت السياسة الانكليزية مراراً عديدة في مشكلات شتى يأتي في مقدمتها استقلال البلجيك والمسألة الشرقية .

اما استقلال البلجيك فقد كان يهدد بالخطر العظيم العلائق بين انكلترة وبين فرنسة ، وذلك منذ انتقضت بلجيكة على هولندة وطالبت باستقلالها وقدنشأ الخلاف من ترشيح امير فرنسي ليملك في تلك البلاد التي ينعت اهلها في فرنسة كما ينعت البولونيون بفرنسيي الشمال ، فعدت انكلترة ذلك تحديا لها ، حتى ان الوزارة الانكليزية صممت على الحرب فيما اذا تم ذلك ، وفي اول كتاب ارسله بلمرستن سنة ١٨٣١ الى السفير غرنفيل قال له : لابأس من ان تبين في اول فرصة مناسبة اننا حريصون كل الحرص على توطيد العلائق الحسنة مع فرنسة ، وان نحيى واياها في احسن حال واهنأ بال ، ولكن على شرط ان تقنع بما تملكه من اجمل بلاد في اوربة ، ولا تعمل على ان تثير من جديد اسباب اعتداء او فتوح .

وقد عقد مؤتمر في لندرة لتسوية أمور البلجيك ، فعين لها فيه حدود لم ترضها ، كما ان حصتها التي قررت من الديون العامة لم توافق عليها ، حتى ان فرنسة رفضت الاتفاق تاييدا لفكرة البلجيكيين ، الذين كانت تعتقد انهم سيكونون معها جسما وروحا ، وانها ستضع يدها على الحصون المكتظة بالذخائر والتي كانت قد انشئت لمقاومتها ، وبلغ الامر بوزير الخارجية الفرنسية انه ارسل الى المؤتمر كتابا في الدفاع عن وجهة نظر البلجيك ، معلناً ان فرنسة لاتوافق على الشروط اذا لم تكن متفقة مع مصلحة الفريقين . وقد ذاع هذا الكتاب قبل ان يصل الى المؤتمر ، فكتب

بلمرستن الى سفيره غرنفيل ليحتج على ذلك ويطلب من الوزير الفرنسي ايضاحاً لما كتبه ، وقال : انه اذا ارادت حكومته ان تنكر اعمال مثلها يجب عليها ان تنبئ بذلك جميع اولي العلاقة الذين يجري التعاقد بينها وبينهم لا ان تبلغهم الأمر عن طريق اناس آخرين ، واضاف بلمرستن ان الحكومة البريطانية كان بوسعها ان تنهي عمل المؤتمر ، لولا انها تتوقع ان تصلها بيانات مرضية عما قريب ، وكان سباستياني وزير الخارجية الفرنسية حريصاً على السلم ولكنه شعر بالاهانة التي وجهت اليه فقال ان برسن الممثل الفرنسي لم يكن مأذونا بنشر الكتاب ولا بأن يطلع عليه غير نواب بروكسل ، وعلاوة على ذلك فان مؤتمر لندرة لا تتجاوز صلاحيته التوسط بين الفريقين ، وليس له ان يملي عليهم اوامره ، وليس باستطاعة فرنسة ان تكون عضواً في تحالف مقدس جديد يستبد بالحكم في العلائق بين الامم .

ولما علم اللورد غرنفيل بان انتخاب الدوك دي نمور ملكا للبلجيك اصبح امراً مقضيا ، وان وفداً قدم باريس ليحمل النبأ رسميا الى ابيه ملك فرنسا لويس فليب كتب الى حكومته قائلاً : لم ار ابداً تغييراً في الحالة النفسية والخلقية وفي اللغة مارأيت هذا اليوم من سباستياني وزير الخارجية الفرنسية ، ففي الساعة الواحدة كان شديد الحماسة يريد الحرب ويركب لها كل مركب ، وفي الساعة الخامسة ونصفاً جاء الي ليبلغني ماجرى من انتخاب الدوك دي نمور وليطلعني بصوت متناه في الهدوء والمودة ان الملك قد اجاب بالرفض . . ثم قال وقد بدت عليه علائم الجد : ان لنا بكم ثقة غير محدودة ، ولا نريد ان نكتمكم رأيا او نطوي دونكم امراً ، وسنعمل دائما بكل صراحة . وكان بعد ذلك ان اتهم سباستياني بلمرستن انه يدس الدسائس في البلجيك وانه يقول شيئا الى وزير بريطانية العظمى في بروكسل ويقول ضده الى تليران ، وكان الوزيران يبغض كل منهما صاحبه ويتربص به الدوائر .

فلما ابلغ غرنفيل ماقاله سباستياني الى بلمرستن ، ارسل كتاباً عن طريق وزارة الخارجية الفرنسية الى السفير اللورد غرنفيل يقول فيه : قد يكون من اللازم افهام سباستياني انه يجدر به ان يتعلم السيطرة على نفسه ، واذا لم ينجح في ذلك

فان عليه ان يصب غضبه على من شاء ولكن ليس على انكلترة ، وليس من عاداتنا ان نتهم باننا قد اصبحنا مخادعين ، فارجوك ان تبين له ان تاليران لم يحسن ادراك ما قلت له ، ويظهر انه قد بالغ فيما نقله . . . فقد سألني ان ادعو السفير الانكليزي ان ينقطع عن مؤازرة البرنس دوانج ، فاجبته باني سأوصيه بان يعمل بما قلت له دائما ان يعمله ، وهو ان لا يتحزب لاحد ، ولكني لم اقل لتليران او على الاقل لم ارد ان اقول له ان السفير الانكليزي سيعضد المرشح الفرنسي . فكتب غرنفيل جواباً يقول فيه : ارجو ان تكون العظة البليغة النافعة التي وعظت بها سباستياني قد علمته ان يتمكن من نفسه ، وهذه الطريقة التي اتبعتها كثيراً ما يلجأ اليها لاطلاع حكومة على امر قد لا يكون من المجاملة ان تبلغه مباشرة ، ولكن عرضا في كتب يعرف انها ستفتح وتقرأ . وقد طلب بلمرستن عزل برسن الممثل الفرنسي الذي اعتبره البلجيكيون انه غرر بهم فاستقال بعد ان تحرج موقفه ، وكان في آخر الامر ان انتخب ليوبلد دوساكس كوبورغ ملكا ، وتزوج بنت لويس فليب ارضاءً لفرنسة ، وهو القائل عن نفسه بسبب اطماع الدول المتضاربة : انه بين المطرقة والسندان .

هذا ما كان من استقلال البلجيك ، اما ما كان من المسألة الشرقية فان وزارة الخارجية البريطانية كانت تنظر بريبة الى مطامع فرنسة في مصر وفي سورية ، وكانت مغامرات بنابرت لا تزال مرددة في الخواطر ، وجاء فتح الجزائر فعده كثير من الفرنسيين خطوة في سبيل الاتجاه الصحيح ، وانه لو ترك بولنياك لعمل اعمالاً عظيمة في سبيل هذه الغاية ، وقد ارادت فرنسة ان تتوسط بين محمد علي وبين السلطان .. وكانت سلامة البلاد العثمانية يومئذ من المبادىء المقررة ، فان انكلترة مع انها كانت معارضة لتسلط فرنسة على مصر ، فقد كانت معها على وفاق في صد روسية ومنعها من التدخل . . .

وعندما اشتدت الازمة بين فرنسة وانكلترة بسبب استفحال خطر محمد علي ، كانت كلتا الدولتان تقيم العقبات الواحدة في سبيل الاخرى ، فكتب القائم باعمال

السفارة الانكليزية في فرنسة الى بلمرستن : انه يوجد في فرنسة ماهو ايجابي وماهو مبهم في آن واحد ، اما الايجابي فهو الامر الذي لا يراد ، واما المبهم فهو الامر الذي يستطاع ، وكذلك كتب غيزو الى تيرس عن موقف الحكومة البريطانية يقول : ان للحكومة البريطانية مصلحتين في المسألة الشرقية: احداهما اقصاء روسية عن القسطنطينية ، والثانية خشية النفوذ الفرنسي في مصر ، وبتأثير الحوادث الغربية فان روسية لاتأبى التنازل عن مدعياتها في ان تقوم وحدها بحماية السلطان ، وتبذل معونتها لانكلترة حتى تضعف باشا مصر ، على ان بريطانية العظمى لاتجهل ان تمسكها بسياستها قد يضر بحسن التفاهم مع فرنسة ، ولاجل الاحتفاظ بهذا التفاهم فقد تميل الى بعض التسامح والتساهل ولكني اعتقد انه ليس في نيتها ان تدع هذه الفرصة تمر بدون ان تصيب انكلترة مبتغاها في الشرق .

وقد افهم مندوبو فرنسة رجال القسطنطينية ان انكلترة ترمي الى مقاصد مكيفلية في حمل السلطان على محاربة محمد علي ، والقول بأن احتلال انكلترة لمصر افضل من بقائها بيد الوالي العاصي ، لأن ماتضع انكلترة يدها عليه تحتفظ به ، وكان مندوبو فرنسة يعملون في القاهرة ايضا على احباط السياسة البريطانية ، ولم تكن تجهل السفارة الانكليزية في باريس هذه المكائد والدسائس ، كما ان بلمرستن كان يعتقد بتعذر الاتفاق مع فرنسة ولا يرى مندوحة عن القطع النهائي ، ولو ان بريطانية تركت السلطان وشأنه لاصبحت الامبرطورية العثمانية منقسمة لى دولتين : احداهما تابعة للسياسة الفرنسية والثانية للسياسة الروسية ، اما انكلترة فانها لاتصبح بمعزل فحسب ، بل ان مقامها في الهند يعرض للخطر ، وكان يري بلمرستن انه يتخلى عن الوزارة بدلاً من الموافقة على ذلك ، وقد تردد زملاؤه بدأة ذي بدء ثم انقادوا الى خطته ، وآل الامر الى اتفاق انكلترة وروسية والنمسة وبروسية مع تركية وبقاء فرنسة وحدها تنادي بغدر بلمرستن وكيده .

وظلت السياسة تسير صامتة في طريقها ، بدون ان تكترث بعواطف فرنسة ، فاشتد هياج الفرنسيين على انكلترة ، وكتب حينئذ تيرس الى غيزو ان انكلترة

لاتقدر خطر العمل الذي اخذت على عاتقها القيام به ، والمشكلة التي وقعت بها ، فيجب افهام وزير خارجيتها هذه الحقيقة ، ويجب ان تعامل بلمرستن كما يعاملك وان توجه اليه الاسئلة بجرأة ، وان تعلم اذا كانت انكلترة تريد اثارة القلاقل في سورية ، وماذا تعمل اذا رفض باشا مصر مقترحات السلطان ، واحمله على الاعتراف بانه كان متهوراً في خطته ... ولكن عليك ان تعتني باسئلتك حتى لا يكون عدم الجواب عليها يسبب قطع العلائق . وكان لويس فليب يقول ايضا للقائم باعمال السفارة الانكليزية : ان انكلترة تريد ان تمطني، ولكن هذه المطة ستكون خطراً على العالم كله . غير ان بلمرستن كان حازما لا يؤخذ بتهديد او وعيد ، ولا يدع الرأي الذي يراه ، وليس في طاقة غيره ان يخرجه منه قيد اصبع ، مهما كان بارعا في الاقناع ، وقد سلكت فرنسة خطة جعلها في عزلة عن غيرها واضعفت من شأن ملكها ومن هيبة سلطانها ، حتى كتب بلمرستن الى سفيره في باريس يقول : اذا كانت اللغة التي تخاطب فيها مشتملة على التهديد والوعيد او كانت محفوفة بالحذر والحيطة ، فارجو ان تجيب بمثل اللغة التي تخاطب بها، وبالبراعة المأثورة عنك بتصاريف الكلام ، وجدير بك ان تبين بافضل طريقة ودية بسيطة ، انه اذا دعتنا فرنسة الى النزال فستجدنا امامها ، واذا خاضت غمار الحرب فستخسر سفنها ومستعمراتها وتجارتها قبل انتهاء الحرب ، وان جيشها في الجزائر لايبقى بعد الآن من بواعث قلقها ، واما محمد علي فسينتهي امره بان يلقى في النيل .

وبعد ان بلغت انكلترة ما ارادت واخرجت محمد علي من سورية ، كانت تشعر فرنسة من ملكها الى اصغر رجل في شعبها انها قد اهينت اهانة كبرى ، وان انكلترة تريد ان تجعلها دولة من الطبقة الثانية ، وكان غضب فرنسة بالغاً حده ـ كما هي في الساعة التي تغضب فيها ـ وقد كتبت الملكة فكتوريا كتابا يدل على رجاحة عقل الى ليوبلد وعمرها لايتجاوز عشرين عاما قالت فيه : ان فرنسة هي التي وضعت نفسها في هذا الموقف الحرج ... فقد ابت الا ان تسلك خطة منفردة ، وكانت تتردد بالاعتقاد بفائدة الوسائل مع موافقتها على المبدأ ، وعلى كل فما هي الاهانة التي

جرحت كرامتها ؟ ولماذا ترفع صوتها بالحرب ؟ لقد تجاوز الأمر على ما اظن ما كانت تريده الحكومة الفرنسية ، والآن يجب على فرنسة ان تصلح كل شيء ، وان تهدىء القلق والاضطراب ؟ وهو غير يسير ، ومع ان فرنسة تقع عليها تبعة الخطأ كله ، فيجب تهدئتها ، وينبغي ان تأخذ مكانها بين الدول الخمس ، وليس في ذلك اذنى صعوبة .

وكان يرى غرنفيل انه في حالة اشتداد الازمة لاتبقى فائدة للسياسـة ، وان كانت تبذل من الوسائل ادقها والطفها في مجتمع يضطرم بنيران الحقد والبغضاء ، واذا كان الشعب ولاسيما الرجال الذين يقومون باعمال الدولة لايستلهمون خططهم من العواطف الودية ، فان براعة رجال السيـاسة لاتكفي مطلقـاً في الوصول الى تعـاون حقيقي .

اما بلمرستن فقد كان يحاذر ان يقود الاذعان لفرنسة الى محاولة بسط سلطانها على اوربة ، حتى لايعرف جهلها على سواها حداً ، فتضطر انكلترة الى مقاتلتها بعد قليل ، بسبب تعرضهـا الأمور التي تتصل بشرف الدولتين ومصـالحهما ، والتي لايستطيع احد الفريقين ان يتخلى عنها من غير ان يدنس شرفه ، وقد اعرب عن رأيه في موقف فرنسة بكتاب ارسله الى الملكة وقال فيه : يمكن لجلالتك ان تطمئن ، فان في فرنسة جمهوراً من الناس يعيشون رغدا بخيرات ارضهم ويعملون في مصانعهم ، وهم يرغبون عن القتال اذا لم تكن هنالك دواع له ، بل انهم يلجأون الى الثورة ليحولوا دونه ، واذا لم يكن هؤلاء الاشخاص في المقام الاول الان فسيعلو صوتهم في امر السلم وامر الحرب التي لاسبب يسوغها عند ماينافش في امرها .

ولم تقتصر سياسة لويس فليب ورجال حكومته على المشاكل التي اثارتها في قضية بلجيكة والمسألة الشرقية ، بل تجاوزت ذلك الى التدخل بشؤون اسبـانية حتى قضت على دولة آل اورلئان ، وقد قال نورمنبي السفير الانكليزي في ذلك العهد : ان ملك فرنسة اطاق المصائب من عقالها على اسرته وعلى فرنسة وعلى اوربة ، وقد كان بمقدور حكومة دستورية معتدلة ، قائمة على اساس التنازل عن جميـع

الخطط التي تفتح ابواب المطامع للأسرة المالكة في الخارج، ان تعين على تشييد اسس سلم ثابت من النظام والحرية في اوربة، ولكن الحيلة والانانية تهدمان كل مايبنيه الاخلاص والحكمة.

وقد كانت انكلترة هي الدولة الوحيدة في اوربة التي لم تشترك في حفلات زواج الدوك دومنبانسيه بالاميرة الاسبانية، ولكنها كانت ملجأ الاسرة المالكة بعد نكبتها، وكذلك كان مصير الرجال الذين قاموا بثورة سنة ١٨٤٨ الذين لم يجدوا غيرها من يلوذون به ويحتمون بحماه، على ان فيهم من رفع صوته بكره انكلترة التي تغتبط بنكبات فرنسة، وفيهم من حرض على غزوها في عقر دارها، ولم يكن هذان الحادثان فريدين في تاريخ انكلترة وفي معاملتها لاعدائها، ولاسيما بعد ان تدال منهم او تعثر جدودهم.

وكان اضطراب علائق الدولتين، يؤثر احيانا في الصلات بين السفراء البريطانيين ووزراء الخارجية في باريس، ومن ذلك ان السفير نورمنبي كان بينه وبين الوزير غيزو جفاء فدعاه مرة الى حفلة فقال غيزو ان السفير تلقى امراً بذلك، فقال لا بل انه دعاه خطأ، واتسعت هذه الحادثة حتى كتب بلمرستن الى السفير يذكره بانه كان يجب ان يقول، وان دعاه خطأ، انما دعاه طبقاً للتقاليد المتبعة، وان عليه بعد الان ان يدعو الوزراء الى حفلاته اجابوا الدعوة ام لم يجيبوها.

ولما شاع ان السفير قد استقال وكانت الشائعة غير صحيحة، كتب اليه بلمرستن ايضاً ان عليه ان يذود عن مقامه وان لا يتنحى عنه ولا يفر منه، لان غيزو خصمه لا يستبعد ان يقول انه هو الذي اخرجه، واذا اراد اصدقاؤه الدفاع عنه بانه ذهب مغاضباً او ذهب ليظهر غضب حكومته، ولم يفعل غيزو شيئاً ولم يعتذر مما بدر منه بعد ان اثار القضية في المجلس فحينئذ يكون رجوعه صعباً الى مقر عمله ... على ان الخطأ الذي ارتكبه نورمنبي في هذه القضية لا يناسب ما كان عليه من ذكاء وادب وتمييز، وهو الذي يصف الشعب الفرنسي بهذه الكلمة: لا استطيع ان امسك نفسي من الاعتقاد بغرور الشعب الفرنسي المفرط، كما اعتقد بشدة ابائه،

فالجمهور في فرنسة لايبيح لكاتب ان يصف له حقيقة امره ولكن يريد ان يكثر من مدحه ومداهنته ، وجميع الذين يقتربون منه يجب عليهم ان يحملوا اليه تكريمهم وتبجيلهم ، والمؤرخ والفيلسوف كلاهما لا بد له ان يقول كلمة او جملة يطرى فيها الشعب العظيم ، والمؤلف يجب ان ينظم له عقود الثناء ، والروائي يجب ان يشيد بذكر محاسنه ، والناقد الذي يقدم على تقريظ شكسبير لايجوز له ان يغيب عن خاطره ذكر راسين ، ونحن في انفتنا وعزلتنا ، لانسيغ ذلك ولا نجد شيئاً مثله بعيداً عن الحرية .

٥ — السياسة الانكليزية ونابليون الثالث

ابتدأ نابليون عهده في فرنسة بعد ان تقلد الرئاسة باحداث انقلاب سنة ١٨٥١ ، وقد سبب هذا الانقلاب ازمة سياسية في انكلترة ، وذلك ان السفير الانكليزي نورمنبي ذهب الى وزارة الخارجية مبيناً لها انه تلقى امر صاحبة الجلالة الملكة بان لايبدل شيئاً في سياسته نحو فرنسة واعتذر عن التأخر ، فاجيب ان السفير الفرنسي في لندرة تلقى من بلمرستن موافقته على الانقلاب الذي حدث فليس هناك اي تأخر ، فقال السفير انه لايعلم شيئاً من ذلك ، ولكنه يعرف انه مهما كان شكل الحكومة في فرنسة فهو يبذل كل اهتمامه لتكون الصلات بينها وبين انكلترة على احسن حال . ويظهر ان بلمرستن كان يعتقد انه لو لم يضرب نابليون ضربته لكان عرضة للقضاء عليه ، وقد كتب الى السفير نورمنبي كتابا ذكر في مقدمته انه في اثناء الازمات وفي الشؤون الخطيرة تصبح الصراحة واجبة على الرجال الذي يشترك بعضهم مع بعض في اعمال الدولة ، ولذلك ارى انه لا مندوحة لي عن القول ان برقياتك تسبب لي قلقا عظيما ، ثم بحث عن حوادث باريس وعن واجب السفير بحيث لايظن انه معاد للحكم الجديد ، ولا يتخلف عن غيره من السفراء اجتنابا للمحذورات التي قد تنشأ ، وان كان لايلزم بان يعلن موافقة بلاده على الاعمال التي جرت كاغلاق المجلس عنوة ، او ان يظهر رياءاً كثيراً . وللكتاب على هذا النحو من عنف اللهجة ، وكأن بلمرستن اراد فيما كتبه ان يخاصم السفير .

وقد علمت الملكة بالحادث فكتبت الى اللورد جون روسل تبدي امتعاضها من تصرف بلمرستن اذا كان حقاً قد اعلن للسفير بانه تقبل ماحدث بقبول حسن على حين ان الامر الذي اتفق عليه هو اجتناب اي تغيير في السياسة المتبعة نحو فرنسة ، وذكرت انه اذا صح ما اسند الى اللورد بلمرستن فانه يحط من شأن المملكة والحكومة في العالم بأسره .

وحاول بلمرستن التخلص من الموقف الحرج بحمل السفير نورمني على ان يكذب او ان يستقيل فارسل اليه كتابا جاء فيه : لقد مضى علي اسبوع ولم يردني منكم تصحيح لما اسند اليكم في تقرير سفير فرنسة ، فالواجب علي ان استخرج من ذلك صحة ماورد فيه ... على ان وظيفتي الحاضرة لاتسمح لي بان ابدي اي ملاحظة على اعمالكم الا اذا كانت تؤثر في موقفي نفسه ، وفي هذه الحدود فاني ارى مع كل مايلزمني من الاحترام لكم ، انه عندما تتكلمون بصفة كونكم وزير الخارجية في قضية دقيقة كهذه القضية ، وعندما تأمرون ان يكون لي موقف معارض ، اي ان اجتنب كل تدخل في شؤون فرنسة الداخلية ، اجد نفسي في حالة ضيقة حرجة واكون قد تعرضت للخطر واصبحت موضع الريبة اذا اقتصرت في عملي على تنفيذ الاوامر التي اتلقاها من جلالة الملكة عن طريقكم . فاجابه بلمرستن قائلا انه لم يكلفه القيام باي امر يناقض تعاليمه التي لاتخرج عن ان خطة الرئيس نابليون يجب ان يحكم عليها الشعب الفرنسي ويرى رأيه فيها ، وعندي ان هذه الخطة انما ترمي الى تثبيت الوضع الاجتماعي فيها . ولما اطلع اللورد روسل على هذا الرأي كتب الى بلمرستن بجفاء انه مضطر ان يسأل جلالة الملكة ان تعين خلفاً له في وزارة الخارجية .

وكان ابتهاج الملكة عظيما بهذه النتيجة التي كانت تتوقعها ولكن ليس بمثل هذه السرعة ، وذلك بسبب تمسك بلمرستن باساليبه العنيفة، وخططه المعقدة ، وطرائقه القائمة على عدم الاكتراث بالقواعد والتقاليد ، وقد ابلغ الوزير الاول في انكلترة السفير الفرنسي ان سياسة انكلترة لاتنطبق كل الانطباق على ما كان يظنه ، فهي

مؤسسة على احترام الوضع في فرنسة ؛ واجتناب التعرض له سواء اكان جمهوريا ام ملكياً ... على ان لايكون جمهورياً اشتراكيا ؛ وكتب اللورد غرنفيل الذي قام باعمال وزارة الخارجية بعد بلمرستن الى السفير الانكليزي قائلا : ان كتبه عظيمة الفائدة ولكنها تشابه الكتب التي نجدها في خزانة قديمة ، وهي تبحث في امور لاعلاقة لها بالعصر الذي يعاش فيه، واني اعتقد ان سياستنا ينبغي ان تكون حسنة مع الرئيس طالما يقبض بيده على قيادةالبلاد ، ولكن بدون اي موافقة على اعماله الاخيرة .

واخذت العلائق بعد ذلك تتحسن شيئاً فشيئاً بين الملكةفكتوريا والامبرطور نابليون الثالث ، فمرت بطور الاحترام ثم بطور التقدير ثم اصبحت قائمةعلى اسس المودة ، وكانت حرب القرم التي اشترك فيها جنود الفريقين السبب الاكبر في ذلك ، فجرى بينهما التزاور ، وكان نابليون يستهوي القلوب اذا اراد استمالتها ، فابدى افانين سحره للملكة فكتوريا كما دلت عليه كتبها ، حتى انها كانت تشعر بالاسف للمصاعب التي تقف في وجهه ، وترغب ان تبذل انكلترة جهدها ليبقى في طريق الصواب ، ويصان من خفة شعبه وشدة تقلبه بل قلة اخلاص عماله وقد حبذ الملك ليوبلد رأي الملكة في ان تكون العلائق على اتمها بينهما وبين الامبرطور . اما الشعب الفرنسي فانه لم يكن يحب الشعب الانكليزي وان كان يخفض جناحه للملكة ويعاملها بالرقة والمجاملة ، وليس تبادل المطاعن القبيحة هو الذي كان يهم انكلترة ، ولكن همها ان يكون سلاحها البحري متفوقاً على السلاح الفرنسي .

اما بلمرستن فلم يكن يشاطر الملكة رأيها في نابليون وكان يقول : انه لاحظ امبرطور الفرنسيين وتأمل اخلاقه وسيرته ... فهو يعتقد ان العداء كانشديداً في قلبه لانكلترة وأنه ينفذ رغبته في اسقاطها ومعاقبتها والانتقام منها اذا استطاع الى ذلك سبيلا بسبب الاهانات البحرية والعسكرية التي الحقتها بفرنسة في بدء هذا العصر ، وبلاده متجهزة باحسن جهاز عسكري ، ولاتبرح تبذل جهدها في السر وتثابر على

تنظيم قواها البحرية، ومتى بلغت ما تريد من الأهبة فانها ستكشف القناع وتزيل الحجاب ويكون بيننا وبينهـا ما لا نحبه .

وقد وقعت حادثة كادت تقضي على حسن التفاهم ، وذلك محاولة اورسيني ان يغتال الامبرطور ، فهاج الشعب الفرنسي واستنكر ذلك ، واخذ الرجال الرسميون يوجهون اللوم الى انكلترة لانها تفسح المجال للذين يعتمدون القتل وتؤويهم ، حتى ان الضباط الفرنسيين كانوا ينشرون شكاويهم في الجريدة الرسمية ، طالبين شن الغارة على انكلترة (عش القتلة وقاطعي الطريق) ، وكان من المحتمل ان تذهب الأمور الى مدى ابعد ومصير اسوأ ، لولا ان السفير الانكليزي اللورد كولي عمل على ازالة آثار هذه الحملة المضرة بهدوء وسكينة ، وقال وهو يقوم بمهمة طلب الترضية : انه لم يكن مكلفاً بتقديم بلاغ رسمي ، ولكن اذن له بالتعاليم الخاصة التي تلقاها من وزارة الخارجية ان يشرح للحكومة الفرنسية رأي حكومته بصورة اتم واكثر ارضاءاً منها اذا اخذت صبغة رسمية .

وكان هذا السفير متقدما في صناعته متمكنا من نفسه، وقد جرت له حادثه عنيفة مع نابليون الثالث دلت على ان المفاجآت لا تفسد عليه امره ولا يغلب فيها على رأيه . فقد دنا الامبرطور من السفير في حفلة ووجه اليه الكلام بلهجة لم يألفها، وانتقد مظاهر الخصومة التي يتعاون عليها البرلمان والصحافة الانكليزية ، فاعرب له السفير عن اسفه محاولاً اجتناب المناقشة واكتفى بان قال له : ان الغضب شديد ايضاً في هذه الناحية من المانش ؛ فقال له الامبرطور بلهجة حادة : هل هناك مجال للتعجب بعد التهم التي توجه اليه والى الشعب الفرنسي وهل هناك الا رد لهذه الحملات الظالمة ، وذكر انه بذل كل ما في طاقته للمحافظة على العلائق الحسنة مع انكلترة ، ولكن كل ذلك ذهب ضياعاً فموقف انكلتره قد جعل الأمر لا يطاق ثم قال : ماذا يهم انكلترة من امر السافوا ولماذا لا تكتفي ببياناته التي صرح بها للسفير من انه لا يريد ضم السافوا الى فرنسة بدون ان ينال موافقة الدول المعظمة، فقال له السفير : ليسمح لي صاحب الجلالة ان اقاطعه، ان هذا القول لم يسبق سماعه منكم، ولو اذنتم لي ان انقل هذا التأكيد لحكومة صاحبة

الجلالة لوجدتم ان كل استيضاح في البرلمان كان ينقطع منذ زمن بعيد ، فالحكومة والبلاد كانتا تنتظران ماتقرره الدول العظمى في ذلك ، فاجابه الامبرطور ولكن اقول لك انني ساستشير الدول العظمى ، فاجابه السفير نعم ياصاحب الجلالة ، ولكن لم تضف الى ذلك انك ستأخذ بما تقرره .

وكان الامبرطور يخاطب السفير ويشرك في الحديث زملاءه حتى انه التفت الى سفير روسية الذي كان في جانبه وقال : ان خطة انكلترة لامبرر لها، ولقد حاولت بجهدي ان احافظ على العلائق الطيبة معها ، ولكن لم يعد ذلك في وسعي بعد الآن مالانكلترة وسافوا ؟ وماذا كانت النتائج لو انني عندما استاحقت بريطانية جزيرة بريم لصيانة شواطئها الشرقية وسلامتها ، ابديت نفس الاعتراضات التي تبديها الآن في الحاق سافوا الذي تمليه حاجة فرنسة وسلامتها .

قال السفير : عرضت في خاطري آراء كثيرة في اثناء هذه المناقشة ، وفكرت ان اقضي الليلة باحثاً عن العمل الذي يجب ان اقوم به ، ولكني رأيت ان الموقف يستلزم جواباً سريعاً ، لاسيما وقد اتسعت الحلقة وعاد الي الامبرطور مرة اخرى وابتدأ بنفس اللهجة ، فقاطعت حينئذ جلالته ، وقلت له اني اسوغ لنفسي ان اوجه نظره الى الطريقة التي لم يسبق لها مثال في محادثته ، وهي انتقاد سياسة انكلترة امام سفير روسية ... وكتب بعد ذلك الى رئيس الوزارة البريطانية يصف الموقف ويذكر انه كلما انعم النظر وجد انه كان على حق في مقاطعة الامبرطور ، فاللهجة والحركة كانتا غير مرضيتين ، ولو انها صبر عليها لكان من المحتمل التكرار مرة ثانية ، ثم ذكر اعتذار الامبرطور واسف الامبرطورة لمابدر من زوجها . وقد ابلغ الرئيس الحادث الى الملكة فكتوريا ، وذكر ان موقف الامبرطور يشابه بعض مواقف نابليون الاول ، واستأذنها بالكتابة الى السفير بالموافقة على خطته وعلى كلامه .

وقد تولى السفارة الانكليزية في باريس في اواخر ايام الامبرطورية الثانية اللورد ليونس ، وكان محرراً نفسه للعمل السياسي ، حابساً له كل حياته ، ومع ذلك فلم يكن من رجال السياسة الاعاظم اشباه تليران ومترنيخ ، الا انه كان مجرداً

من الاساليب المصطنعة والمجادلات العقيمة وصناعة المداهنة ، ولم يكن لهاي براعة في منبر الخطابة او المجامع والمحافل والمنتديات ، ولكن دماغه الكبير بلغ من العظمة قدراً انه كان يسيطر على جميع الشؤون الوطنية ويعرضها في قالب اثار اعجاب رؤسائه في وزارة الخارجية ، وكانت عيونه الصغرى في وجهه الضخم تخيل للرائي انها تحيط بكل شيء ، فمن اصغر خطأ في النسخ الى اقل ناحية في زينة المرأة .

ولما بدأ القيام باعباء منصبه سنة ١٨٦٧ كان مظهر الامبرطورية عظيما ، ولكن الرجل المراقب لدقائق الامور وخفاياها يعرف ان نفوذ الامبرطور قد تضاءل في اوربة ، وقد نبه السفير الى انه يجب ان يوجه اكثر اهتمامه ليس الى الامبرطور ولكن الى الامبرطورة الذكية الطموحة التي كانت تستطيل شيئاً فشيئاً الى تدبير السياسة حتى الخارجية منها ، على ان نابليون لو كان انتهى امره سنة ١٨٦٢ ربما ابقى في التاريخ اسما كبيرا وذكراً حافلاً بالفوز ، ولكنه بعد هذا التاريخ كان كل شيء على مايظهر يصير من سيء الى اسوأ . فبولونيــة وحرب الدنمرك وحرب النمسة وبروسية برهنت على ان دعواه في مراقبة السياسة الاوربية كانت كلها عبثاً وباطلا ، والمحاولة الغريبة في مكسيكة انتهت بكارثة واهــانة ، وهذه الاهانات المريعة في السياسة الخارجية اضيفت الى النقمة العميقة في الداخل : ومع ماأصــاب نابليون الثالث من اضاعة المكانة والنفوذ ، فينبغي ان ينظر كذلك بل ان ينظر قبل كل شيء ، الى تقلب الرجال وحب التغيير عندهم ، فقد حكم ثمانية عشر عاما ومل الناس بقاء الشيء الواحد هذا الأمد الطويل وهم يريدون شيئاً جديداً .

وقد كان الامبرطور نفسه متأثراً من الوضع الذي صار اليه ، ومن عظم الفرق بين رونق اوله وتضاؤل آخره ، وبقي امامه حظ وحيد لتحسين حاله وتعزيز مركزه وهو ان يعين على تأسيس اوضاع حرة في فرنسة ، وان يتحد مع ايطالية لمقاومة البابا ، ولم يكن قادراً على صنع هذا او ذاك ، وكان تيرس يتكلم عن السلم دائماً ولكنه لاينقطع عن اثارة الحرب بالنداء بان فرنسة خاسرة مهانة ... ولما نشبت حرب السبعين كان الفرنسيون على اقصى درجات الحماسة والهياج ، وكانوا يظنون انهم

اكثر من البروسيين استعداداً واهبة ، وان سبب الحرب موافق لهم ، اذ ليس من شأنه ان يثير جميع الالمان ، وعلى كل حال فانه قريباً وبعيداً ينبغي تصفية هذا الحساب ودفع هذا الخطر ... فكانت العاقبة زوال الامبرطورية .

وقد كتب اللورد ليونس بعد نشوب المعارك : انه من المعجزات ان نبقى بهذا القدر اصدقاءاً للفرنسيين بعد مرور ستة اشهر على هذه الحرب السيئة الطالع ، ونحن بحاجة قصوى الى كثير من البراعة والحذر وفرط العناية بشعور الفرنسيين الرقيق حتى لايذهب ضياعا التحسن الذي حدث في علائق الشعبين وفي تطور عواطفها . ولذلك فانه لما شكت السفارة البروسية من اعمال البربرية الفرنسية في اثناء الحرب ، وطلبت الى الحكومة البريطانية ان تكلف سفيرها بالاحتجاج فكتب ليونس: اؤمل والقلق يساورني انكم لاتنوون كبريطانيين ان تتقبلوا جميع الشكاوي البروسية ، وان تكلفوني بان اكون معربا عنها ، وارجوا ان لاتنسوا ان السفارة الاميركية هي المكلفة بتمثيل المصالح البروسية في فرنسة ، واذا كنتم تريدون ان تكرهوني على هذا النوع من العمل بتقديم بلاغات بروسية الى فرنسة ، فانكم تجعلوني عرضة الى استنكارات استحقها ، وتنزلون من شأني ومقامي الى درجة انني لااستطيع القيام بشيء يذكر في حالة الضرورة ، والحوادث التي اشرتم اليها ليس من شأنها ان تكون موضوع احتجاجات سياسية ، بل يجب ان تناقش بين مندوبين من قبل قواد الجيش .

وبعد انكسار الجيش الفرنسي ومغادرة حكومة باريس ذهب هذا السفير الى تور وكان هو وبعض موظفي السفارة يقومون برحلة الى قصر أمبواز ، فقبض عليهم كجواسيس ، وبقي سر الحادثة مكتوما ثلاثين عاما ، وكان السفير قد امر بهذا الكتمان ، ولم يخرجه هذا العمل عن طوره ورأيه ، وقال لموظفيه : يجب ان لاتخرج كلمة من بين شفاهكم عن هذه الحادثة ، ولا ان تذكروها ابداً ، واعلموا ان هذا امر أخاطبكم به . ولم يطلق سراحهم الا بواسطة رئيس المدينة ، وكان السفير ومن معه يتمثلون ، والخوف مستول عليهم ، مايكون من اثر وصول النبأ

الى لندرة، ومايمكن ان يعقبه اذا تم ذلك ونشرت الصحف هذه العناوين : اهانة دولة ، سفير بريطانية يعتقل كجاسوس ،ويطاف به في المدينة كخائن ، اجتماع الوزارة ، إزمة .

٦ — شكوك فرنسة بالسياسة الانكليزية

من النزاع والشقاق الى التعاون والتحالف

كتب السفير ليونس سنة ١٨٧٨ : ان انكلترة محبوبة الآن في فرنسة ،وكانت زيارة البرنس دي غال عاملاً كبيرا. وليس في نية الفرنسيين ان يقاتلونا او يقاتلوا معنا ، وهم يؤازروننا فيما نؤكده من قدسية المعاهدات ومن صيانة الحالة الراهنة في البحر المتوسط الى الزمن، الذي تصبح فيه فرنسة اكثر قوة، ولكن لم تمض اشهر على هذا القول حتى كتب مرة اخرى انه من العبث اخفاء حالة الألم الشديد من انكلترة الذي يعم فرنسة ، وانه لم يحن بعد الوقت لمعرفة مايكون عليه اتجاه الرأى العام ، ولكننا في هذا الزمن يجب علينا ان لانغفل هذا الألم وتقدير تأثيره في علائقنا مع هذه البلاد .

وكذلك كانت تتقلب العلائق بين الدولتين منذ انكسار فرنسة في حرب السبعين الى اشتراكهما في حرب ١٩١٤ ، وكان تأثير الحوادث عظيما على التقارب اوالتباعد في سياستهما وصلاتهما ، اما الألم الذي اشار اليه السفير فقد اثاره خاصة الاتفاق الانكليزي التركي بعد حرب الروس والعثمانيين ، وهو لم يقتصر على فريق من الشعب ، بل عم جميع طبقاته من رؤسائه الى عامته ، اما المحافظون فقد كانت صحفهم تتخذه وسيلة لمقاومة الجمهورية ، وكانوا يشكون من تضاؤل فرنسة وانخداعها بحليفتها القديمة،واما المعارضون الجمهوريون الذين يقودهم غمبتا فكانوا يتهمون وزارة الخارجية بانها لاتخشى العار من الانحناء لانكلترة ، واستمر هذا الوضع سنين عديدة ، حتى ان اللورد روزبري عندما تولى وزارة الخارجية سنة ١٨٨٦ كتب الى السفير ان علائقنا مع فرنسة هي التي تسبب لنا كثيراً من العناء ، وهي تطالبنا بمالانستطيع منحه وحينئذ ترفع صوتها بالشكوى منا ، وكذلك كتب

اللورد سلسبوري في تلك الايام : ان الفرنسيين شعب غريب الأطوار ، وقد كان يظن ان فرنسة في وقتها الحاضر ليست بحاجة الى عدو جديد ، فلها من الاعداء الطبيعيين ما يكفيها ، ويظهر انها تريد ان ينفد صبرنا ... والآن وقد دخلنا واياها في مفاوضات سلمية فاذا بها تأمر بعمل ماوعدتنا ان لا تعمله قبل شهر ، ومن الصعب ان نمتنع من تمنى حرب فرنسية المانية جديدة حتى تنتهي من هذه الاساليب المؤذية التي لاتنقطع . واستمرت العلائق على هذا المنوال بين البلدين ولم تتحسن مطلقاً رغم الجهود الصادقة التي بذلها ليونس ، ولعله لم يكن السفير الموافق للجمهورية الثالثة ، فقد كان يشتد المه لعنف الاحزاب وقسوة اساليبهم وبعدهم عن الطرائق المألوفة ، وكانت مساعي السفراء في باريس بعيدة الاثر في تطور العلائق بين فرنسة وانكلترة في تلك الايام .

وقد خلف ليونس في السفارة ليتن ، وكان يناقضه في كثير من طبائعه ، ولكنه يضاهيه في براعة سياسته .

وتولى دوفرين السفارة سنة ١٨٩١ ، فابتدأته الصحف الفرنسية بتوجيه التهم اليه ، وقالت انه جاء ليفسد الضمائر ويشتري الرجال ويسخر الصحف بما زود به من المال الكثير لافساد العلائق بين فرنسة وروسية وتعطيل الاتفاق ، فوجد انه قد ازفت الساعة ليرفع صوته باحتجاج علني ، وخطب في باريس في اجتماع غرفة التجارة الانكليزية خطبة تجمع بين الدهاء السياسي وفكاهة الاسلوب ، تعرض فيها للتهم التي كان غرضاً لها ، مبرراً نفسه وذاكراً انها ناشئة من الجهل والبساطة اكثر مما هي ناشئة من الخبث ، وكان لهذه الخطبة اثر كبير .

ثم القى خطبة اخرى تعرض فيها للسياسة الدولية وبحث فيها عن العلائق بين فرنسة وبريطانية واحتكاك مصالحها في المستعمرات وتعارضها احيانا ، فقال : ماشأن هذه المصاعب التي تأتي بين حين وآخر ، ومابال هذه الاعتبارات المحلية اذا نظرنا الى المجرى العظيم الذي يقود الشعبين الفخورين ويدفع احدهما نحو صاحبه ،

واللذين هما منذ اطل فجر التاريخ يحملان لواء الحضارة ويرفعانه عالياً ! ان هي الا كالتموجات التي ينسجها الريح على وجه نهر كبير ، يستمر في طريقه بعظمة وجلال.

ولما حانت مغادرته فرنسة القى كذلك خطبة نفيسة ذكر بها التأويلات المغلوطة التي قوبل بها في بدء مهمته ، على حين انه بنفوذ بصره العميق الذي كان يدعوه الى اتمام واجبه باخلاص وسلام، كان يعتقد انه لا يوجد مثله من يقدر المزايا التي يتصف بها الشعب الفرنسي ، ثم بحث عن الاعمال الدبلوماسية وما فيها من محاسن ومحذورات، وذكر ان تطور الحضارة جعل المهمة التي يقوم بها الرجل السياسي كالموج الذي يملو المجرى لا كالقوة العظمى التي تجري به لمستقره ، وانتقل الى حالة اوربة السياسية في اواخر القرن التاسع عشر فوصف كيف انها اشبه بمعسكر يعج بالملايين من الرجال المسلحين كما تمتلىء البحار بالسفن والحديد ، حتى ان العالم بأسره اصبح مجموعة اعصاب تتأثر باي شيء يقع في اي مكان ... ويكفي ان بضعة رجال في العالم يقولون قولاً حتى تتغير الارض بمن عليها ، فعلى السياسي ان يهتم بمدافعة هذه الاخطار ، ومهما كان من ضعف السياسة فقد برهنت على انها افضل طريقة لبلوغ تلك الغاية ، وبهذه الطريقة المتواضعة قد وطدت اركان السلم بين فرنسة وبين البلاد التي نشأت فيها والتي يرتبط رغدها وهناؤها بمصالح الاولى ومنافعها.

وعندما انتخب بعده ادموند منسن الى السفارة البريطانية في باريس لم تكن هذه السفارة مهاداً وثيراً ، ولكنه قابل الموقف برجولة وحذر ورجاء ، وخاطب الرئيس الفرنسي بهذ العبارات : ن الملكة سيدتي المعظمة ، تفضلت ومنحتني شرف تمثيلها كسفير لدى حكومة الجمهورية ، فاتشرف بان اضع بين ايديكم رسالتها الملكية التي تعتمدني بها في هذه المهمة ، وبعد ان وجه كلمات الثناء على الرئيس قال : ان حكومة الملكة قائمة بمشاطرة حكومة الجمهورية لما تريده بصدق واخلاص من تثبيت العلائق الحسنة القائمة بين البلدين منذ عهد بعيد ، وبعد ان وقف هنيهة استأنف كلامه وقال : ان مصالحنا الحقيقية تتطلب تعزيز هذا الاتفاق الودي الذي يمنح الفريقين منافع الولاء والاخلاص ، ويعينها في الوقت نفسه على القيام بالمهمة التمدينية التي حملتها اياها الاقدار المتشابهة .

واشتدت بعد ذلك الازمة المصرية، وكانت هذه المشكلة ـ كما قال ادورد غراي ـ سبباً دائماً لاثارة حنق الفرنسيين وضجر البريطانيين، حتى كان يتوقع رجال السياسة انه لابد من استمرار الحرب بين الفريقين ، فعدم تأجيلها خير واولى ، وقد اعلنت الحكومة البريطانية يومئذ انها لاتأذن لاحد غيرها ان يحتل اي مكان في وادي النيل ، وانه تعد كل توغل فرنسي عملا عدائيا، واثيرت حادثة مرشان في حديث بين الوزير دلكاسه والسفير منسن ، فانكر الوزير في بادىء الامر ان تعترف فرنسة لانكلترة بمنطقة نفوذ في اعالي النيل ، وليس لمرشان مهمة سوى ماانتدبه اليه حاكم الكونغو الفرنسي الذي هو مرجعه ، وهو يقوم بمهمة تمدينية في بلد لايطالب به احد ، فقال له السفير حينئذ بصراحة : ان الموقف خطير في اعالي النيل ، وليس لنا اي رغبة باثارة اي نزاع ، ولكن بعد التحذير الذي اعلناه منذ عهد بعيد فانه لايجوز ان يستغرب امتعاض انكلترة وغضبها . وبعد ان اطلع سلسبوري على هذا الحديث كتب الى السفير قائلاً : سواء اكان المصريون أم الدراويش هم اصحاب الارض التي وجد فيها مرشان فانها لم تكن ابداً بدون مالك، وهذه التجريدة المؤلفة من مئة سنغالي ليس لها اقل اثر سياسي ولا يمكن ان يكون لها اي مغزى . واذا كانت لغة السياسيين هادئة منطقية فانها لم تكن كذلك لغة الصحفيين ولا لغة الجماهير ، واصبحت الحرب قاب قوسين، حتى ان اللورد آلدوين وزير المالية قال : انه شر كبير ان ندفع في الحرب بعد سلم ثمانين سنة ، ولكن يوجد من الشر ماهو اعظم من الحرب ، وانتهت الازمة باخلاء فاشودة .

وفي آخر السنة استعرض السفير منسن في خاطره الحوادث التي مرت ، وهم بالقاء خطبة يعرب فيها عما في نفسه، وخاف ان استأذن وزارة الخارجية ان لا تأذن له، فعزم على القاء خطبة كخطبة سلفه اللورد دوفرين تدوى لها ارجاء العالم ، وقد بدأ خطبته في البحث عن السياسة الجديدة ، ووصفها بامتياز منح لارضاء المتململين في آخر هذا العصر ، وارضاء الصحافة الجريئة ، التي تقر لها السياسة بكثير من الفضل، وخاصة لارضاء امريكة التي تريد القضاء على المذهب القديم قضاء مبرما ، ثم

استشهد بقول اللورد كلارندن : ان السياسة الانكليزية تقوم على اساس من الصدق يجمع بين الاخلاص وبين الامانة ، وبعد ان ذكر تمسك السياسة البريطانية بهذه المبادىء قال انه سيخرج من تقاليد السياسة القديمة التي كانت تكم الافواه ، وتمنع الكلام الا بالأمور التافهة ، وذكر ان اساليب السياسة الجديدة تجرئنا على ان نذكر مايعرض في خواطرنا مع التمسك بواجبات الكتمان والمجاملة والشعور الطيب.

وبحث بعد ذلك في قضية فاشودة واشار الى ان تعليق بعض الصحف البريطانية لايسر الفرنسيين، ولكن سواء اكان هذا التعليق في محله ام في غير محله، فانه يدل باجلى بيان على ان مايبدر من مستشاري التاج في الساعات الدقيقة لايعرب عن رأى حزب وحده ، فبريطانية العظمى مجمعة في هذا الشأن ، وليس هنالك مجال لأي شك، وليس من مهمة السفير المعتادة ولاسيما عندما ينطق في عاصمة البلاد التي هو معتمد فيها ان يحاول تبرير سياسة حكومته ، ولكن لااستطيع في هذه الفرصة الاستثنائية ان امتنع عن القول انه لايمكن منذ البدء اتخاذ غير هذه الخطة، ولم يكن يجوز لأحد ان يقع في نفسه ريب في ذلك ، فالصحفيون والناشرون والهازلون ، قد يكونون اثاروا اشراً كبيراً من حيث لم يريدوا، بل ان بعض الخطباء السياسيين لهم نصيبهم من الأمر ، واحسب انه قد تداعت في الساعة الحاضرة آراء الذين ظنوا اننا نقبل مايراد اكراهنا على قبوله، واننا نتنازل عما لاتسمح السياسة بالتنازل عنه ، وعلاوة على ذلك فان الضجة بنا مضرة بل هي غير حكيمة وبنا غير جديرة ، ولا شك ان انكلترة تذود بشدة عن مصالحها ، ولاتدع احداً يعتدى على حقها ، وكما هي بعيدة عن جميع المخاوف التي تخامر الدول الاوربية، فهي كذلك بعيدة عن كل خطة عدائية تبعث القلق في نفوس الذين يريدون ان يعاملوها بشرف وعدل ، وعسى ان تنقطع فرنسة عن الظن بان في انكلترة خططاً غير مرضية تدبر لها ، وان هنالك حنقاً عليها ، واني لااعتقد كذلك ان الشعب الفرنسي يشعر باى حنق على الانكليز ، ونحن نطلب ان تتفق فرنسة معنا وتلتقي وايانا في صعيد واحد ، حتى نسوي جميع المسائل المعلقة بعدل وانصاف، وبدون اي رغبة في احراز اى انتصار سياسي واجراء اي عقد لايفيد الا فريقاً واحداً .

ثم وجه بعد ذلك السفير كلمة نصح الى رجال السياسة والصحافة في فرنسة ، وناشدهم ان يستنكروا سياسة وخز الابر وان يكفوا عنها، فهي لاتستطيع ان تفيد الا فائدة زائله ، لوزارة قصيرة الأجل ، ولكن تثير في العدوة الثانية من المانش غضب شعب قوي في نفسه وفي اخلاقه ، ينتهي به الامر ان يرى في ذلك مالايطاق، فسألهم ملحاً ان يقفوا في سبيل الرغبة التي تحاول ان تعترض سبيل المساعي البريطانية ، وان لايستمروا في تحدي بريطانية فيخرجوها عن خطة التسامح والاعتدال في استثمار انتصاراتها الاخيرة، ويجعلوها تمضي في خطة يرضى عنها فريق لايستهان به من الشعب البريطاني ، وهي ليست على ماأظن الغاية التي يرمي اليها الرأي العام الفرنسي .

وقد صفق الانكليز الحاضرون بحماسة الى هذه الخطبة المعتدلة ، ولكن الفرنسيين استقبلوها بعنف وشدة ، فكتبت الصحف ، يتساءل بعضها اذا كانت هي اعلان حرب، ويرى بعضها ان فرنسة مهانة وان عليها ان ترد على انكلترة رداً قاسياً لاتنساه ، ويذكر بعضها انه لو تكلم سكرتير سفارة بمثل هذا الكلام لكان موضع غضب رؤسائه ولومهم الشديد ، فلافائدة من اشتعال رأس السفير شيباً حتى يرتكب في آخر حياته السياسية مثل هذا الخطأ ، ويتكلم بكلام يضعف مقامه في باريس التي عرفت في اسلافه براعة وحكمة وحسن سياسة واصالة رأي ، وكانوا دونه مجاملة ولكن فوقه صنيعاً ، وقيل الى دلكاسة ان عليه ان يسأل وزارة الخارجية البريطانية ، اذا كان هذا السفير يظن نفسه انه ليس مكلفاً بتمثيل وزارة الخارجية الانكليزية فحسب بل كذلك بادارة السياسة الخارجية في فرنسة.

وكان الرأي في انكلترة ان هذا الخروج عن القواعد المألوفة من افضل الاساليب السياسية ، فكتبت جريدة التيمس انه من التظاهر الكاذب في الاوقات الحاضرة ان نتجاهل ميل السياسة الفرنسية منذ عهد طويل الى مقاومة مانريد ان نعمله ، وليس ذلك لاجل ان تصون مصالح لها ولكن حباً بالحاق الاذية بنا ... اما وصف خطبة السفير بانها محاولة لاملاء سياستنا على وزارة الخارجية الفرنسية، فهو اغلاق الباب

لكل صراحة في اظهار الشعور الصادق الذي هو وحده يحول دون مايسببه سوء التفاهم من النكبات. ومع ذلك فقد اعلن اللورد سالسبوري انه غير راض عن هذا الانفجار، واقتضى فيما بعد ان نشرت السفارة الانكليزية بيانا ورد فيه ان السفير لم يرد مطلقاً التعرض لشؤون فرنسة وانه شديد الاعجاب بالفرنسيين ولا يريد ابداً ان يسيء اليهم، وهذا السفير هو نفسه الذي اعان بعد ذلك على عقد الاتفاق الذي كان يشك بنجاحه كثير من ساسة الانكليز، فلم تنته مهمته في باريس قبل ان اصبحت العلائق بين فرنسة وانكلترة على غاية من الاحكام.

وبرغم الاتفاق الودي الذي اصبح دعامة سياسة الدولتين، فمازال يتحدث الفرنسيون ولاسيما رجال سياستهم عما اذا كان بوسعهم ان يعتمدوا على مؤازرة بريطانية في حالة هجوم الماني، فقد اسمعهم الامبرطور في اثناء مؤتمر الجزيرة انهم اذا وقعت الواقعة لايستطيعون الاعتماد على تأييد انكلترة، حتى ان فريقاً من رجال السياسة البريطانية لم يكونوا يكتمون انهم غير مقيدين باي عقد يتجاوز المؤازرة السياسية، ولذلك ظل الفرنسيون على ريبتهم في السياسة الانكليزية، وبلغ الامر برجال منهم ان يظنوا ان هناك اتفاقا بين انكلترة والمانية، ولاسيما بعد محاولات اللورد هالدن وزيارته لالمانية.

وقد اظهر اللورد غراي في مذكراته ماكان في نفسه من التأثر بسبب الخفة والسهولة اللتين كان يظن فيها الفرنسيون ان البريطانيين لايشاطرونهم في اغراضهم ومراميهم، على انهم لم يعدوهم الا بمؤازرة سياسية، والصراحة التي ذكروا فيها السبب الذي دعا الى انهم لايسوغون لانفسهم منذ الآن الوعد بالمؤازرة العسكرية، كان يجب ان يمده الفرنسيون برهاناً على انهم ينفذون ماوعدوا به من التأييد السياسي، وكيف يمكن ان تقوم اصول متينة في هذه الرمال المتزعزعة والشكوك والشبهات ... واذا شوهدت الامور عن كثب وشوهدت الاخطار التي قد تقع، وتبين الميل الى الريبة والى الشبهات المتبادلة، ظهر انه كان من المعجزات بقاء الاتفاق الودي على مامر به.

وكانت حكومة انكلترة مضطرة ان تزن جميع اعمالها واقوالها وان تجتنب كل ماقد يمس الاتفاق ويسيء اليه ، وكان رجال سياستها لايكتمون اسفهم عندما يجدون بين الفرنسيين الراقين والمؤثرين من يعتقد بسوء نية انكلترة ، ولكن الريبة الموروثة عند الفرنسيين في السياسة البريطانية جعلت فريقاً من عمال المانية يحسنون استثمارها عندما كانوا يعملون على اثارة الخلاف بين فرنسة وانكلترة ،وقد وجد الفرنسيون مايرضيهم في الخطبة التي القاها المسترلويدجورج بعد حادثة اغادير ، وكان آخر رجل تنتظر منه المانية ان يخطب هذه الخطبة التي اثرت فيها اثراً بعيداً، وقد قال فيها : ارى انه لاشيء يسوغ احداث الاضطراب في الحالة الدولية التي تريدالنيات الخالصة تحسينها ، اذا لم تتعرض للخطر المسائل التي تتصل باهم الشؤون الوطنية،واذا كان هنالك موقف نضطر اليه،وكان غيرمستطاع ان يوطد السلم بدون ان تتخلى انكلترة عن مركزها العظيم الباهر،الذي احرزته بعد اجيال من العناء والبطولة، او ان تتساهل في الامور التي تهدد مصالحها الحيوية كانها لاتعد في مجالس الشعوب ، فاني اعلن بكل اباء ان السلم بهذه القيمة سيكون عاراً لاتطيق بلاد كبلادنا ان تتحمله

ولما اعلنت الحرب وترددت انكلترة في دخولها قبل احتلال البلجيك، اخذ الفرنسيون ينادون بغدر بريطانية،ولكن ما كادت تدخل الحرب حتى اخذ الهتاف لها ولممثليها يبلغ عنان السماء،فزالت تلك الشكوك التي كانت تساور الفرنسيين بالسياسة البريطانية ، ولكن اذا كانت فرنسة تشك بالسياسة الانكليزية ، فانكلترة كذلك كانت تشك بالسياسة الفرنسية ، وقد قال اللورد غراي : ان جميع الشعوب وجميع الحكومات تتأثر بسهولة وتشك بغيرها بسهولة ، وفرنسة ليست مستثناة من هذه القاعدة ، ولكنها سريعة الغضب سريعة الريبة ، وقد تكون هذه الصفة عند الفرنسيين اكثر من سواهم ، ولكن الذي يوحي اليهم بالثقة، وهذا مايعز ادراكه، فانهم يولونه اياها بدون حذر ولاتردد .

الفصل السابع

بسمرك

رجل الدولة العظيم

١ – المانية قبل الوحدة

القوى الكامنة والشعور الوطني

كانت الامبرطورية الرومانية الجرمنية المقدسة في القرن الثامن عشر تعد من وجه شرعية اتحاد دول على رأسه عظيم منتخب (امبرطور) ومجمع (ديت) بدون سلطة حقيقية ، وكان فيها نحو ٣٠٠ سيد بين ملك وامير ورئيس ديني، في جسم مضطرب متفكك، وفي وسط هذا الانقسام الذي كان يسود المانية كانت تشتمل النفوس على عاطفة مبهمة عامة ترمي الى تجديد ماض غير معروف ، وتحقيق آمال وطنية في مستقبل غير محدود، وشعور قومي كامن يميل الى الظهور، وكان جيران المانية عارفين بهذه القوى الكامنة ويخشون جانبها ، ولم يبق في ذلك الزمن من يجهل ان المانية تريد ان تتحد ، وان الالمان قد ملوا اعارة ايديهم ودمائهم الى عدوهم، الذي يريد ان يستعبد وطنهم ، وان سياسة التجزئة التي انشأها العدو في بلادهم يتداعى بنيانها ولا تقوم لها قائمة ، وكان القرن الثامن عشر ينوء باعباء الحروب الشديدة التي جرت فيه ، وشهد الفرنسيون ذلك الهيكل الالماني العظيم ، المؤلف من شعوب عديدة وامم مختلفة ، ينشر الويته ويرفع اعلامه ويتخطى حدوده ، فيضعفهم بالقوة بعد ان اخافهم بالكثرة .

وقد احتفظ الالمان باخلاقهم الفطرية في ظل سيادات مختلفة ، فلم يكونوا اقوياء في خارج بلادهم ولكن اقوياء في داخلها ، وكان الشعب دائماً يجد ويدأب

ويناضل ويحارب ، وكان ماطوي عليه من رقابة النظام والطاعة يعدهم اعداداً حسناً للخدمة العسكرية ، وكان ولوعهم بالحروب من صفاتهم الممتازة ، فيبذلون في سبيلها كل شيء حتى حريتهم ، ولا يترددون في ايجار انفسهم للقتال دون غيرهم تحت كل لواء وفي جميع الميادين ، ولكن هذا الشعب كان يذكر ابناؤه بعضهم بعضاً ، انهم كانوا فيما سلف من الايام يسفكون دماءهم في سبيل المانية لا في سبيل غيرها ، وينالون المجد والفخر ، ويحرزون الفتوحات الكبرى ، ويغنمون ويسلبون ، ويخيفون مجاوريهم ، ويملأون العالم بضجيج سلطانهم . اما المقام الضئيل الذي بقي لهم ، والشرف القليل الذي مابرح يتبع الاسم الالماني ، فانه لم يكن الا اثراً للرونق القديم وصدى للصوت البعيد ، وكان الديت عنوان ذلك الماضي ورسمه ، وكانت فرنكفورت التي يجتمع فيها هذا الديت نوعاً من الآثار العتيقة التاريخية الالمانية القديمة ، تتجدد فيها الذكريات عند تتويج الامبراطرة ، وتعرض لها بين حين وآخر خيالات تلك الايام السالفة .

وكان بعث المانية في القرن الثامن عشر . فاصبحت كلمة الوطن والوطنية تظهر في المراسلات السياسية وفي البيانات والخطب ، واخذ السياسيون يبحثون عن العاطفة الكامنة ويستثيرونها ، اما الذين كانوا يعملون على تجزئة المانية فقد كانوا يتظاهرون بحماية شعوبها والدفاع عن استقلالهم ، وكانت الوطنية تستبين خاصة بحسد الفرنسيين وعدائهم والارتياب بهم والحقد عليهم ، وكانت ماري ترز تقول عندما كانت تستثير الالمان على الفرنسيين المشتبكين في بوهيمية : الى متى ندع الاجنبي يطأ باقدامه الوطن الالماني العزيز ؟ الم تسنح الفرصة لتحرير الوطن من الظلم الذي توالت عليه الاجيال ، وكان فردريك يفاخر بانه وطني الماني صادق ، ولما خذل فرنسة كان يلتمس العذر لنفسه محتجاً بمصلحة المانية ونفعها ، ويقول للفرنسيين انهم في اليوم الذي يتجاوزون الرين يجدون اكثر الالمان متحدين ضدهم ، وهذا كما يقول « تورين » انه في اليوم الذي يتجاوز فيه الالمان الرين لا يجوز لرجل حرب في فرنسة ان يذوق طعم الراحة .

ومع تقدم الزمان كانت هذه الميول تتجدد في المانية وكان الامراء يستثمرونها، ولكن لم ينجح امير نجاح فردريك ، فبعد حرب السنوات السبع التي ضحت فيها فرنسة حمقاً بمفاخرها ومصالحها حتى ترد سلزية الى ماري تريز ، تصالح الاميران الالمانيان وتعاونا على فرنسة وارادا اذلالها بعد ان عبثا بها ، وتنافسا في اذكاء الحماسة الوطنية ، وكانت المانية باسرها مصغية الى هذا النداء .

وكان عجيباً هذا الحظ الذي قدر لبيت بروسية ، فان رئيس الدولة الأقل المانية ، والامير الغريب عنها بذوقه واخلاقه وتربيته وتقاليده، هو الذي اعان قبل كل انسان على احياء العزة القومية وافاضة شعور الاستقلال في المـانية ، وكان لبروسية أعداء كثيرون فانصرف قادتها وولاة امورها للبحث عن اصدقاء لها وانصار، وكان لشأن الملك الفيلسوف ونفوذه في اوربة ومايذيعه عنه اولو العقول يومئذ ، سبب في زيادة تحبيبها واعلاء مكانتها ، وكان غوته يقول : ان الانتقاد الذي وجهه في شبابه الى الرجل الفرد ، الرجل الذي كان يفوق جميع معاصريه ، جعله يفكر بانه كان جائراً في الحكم ، وقد خيل اليه ان فردريك بعد حرب السنوات السبع قد اصبح المرجع في اوربة وفي العالم ، وقد سارت هذه الشهرة في كل مكان وتجاوزت البحار وبلغت امريكة فاشربتها القلوب وتعشقتها النفوس ، وهذا هو الاساس لعظمة بروسية عند الالمان وجعلها حديث مفاخرهم وعنوان مكرماتهم ، وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين بروسية وسائر اجزاء المانية ، فقد اصبحت الفكرة الالمانية والحزب البروسي شيئاً واحداً ، وبقدر ما كانت المانية محتقرة عندما كانت مجزأة بصنع جيرانها الذين يثيرون الفتن فيها ، اصبحت مكرمة عزيزة واشتد الحرص على محالفتها ، واخذ الوطنيون الالمان ينكرون التجزئة ويتداعون الى الاتحاد ، ومشى على آثارهم المؤلفون المتشرعون، يريدون ان يصنع في بلادهم ماصنع في فرنسة من التوحيد ، ويطالبون بان يرد اليها ما اخذ منها ، وكان العلماء الذين يرجع اليهم لاتساع معارفهم لا لصحة حكمهم ونفوذ رأيهم ، يوهمون الالمان ان السلطان التركي والتاج الفرنسي هما العدو الموروث ، وغرسوا ذلك في نفوس الشباب حتى اصبح

مثلاً من الامثال ، وكان ملك النمسة يعمل على تمكين هذا الوهم الذي تصعب ازالته ، وكانت بروسية تستفيد من كل ذلك ، حتى اصبحت ـ كما قال ميرابو سنة ١٧٨٦ ـ القطب الذي تدور عليه في اوربة رحى الحرب والسلم ، والشغل الشاغل للباحثين المنهمكين في سياستها ومكانتها، فكان جميع الذين يمدون ابصارهم الى احراز المجد وادراك الفتوح يرون انه يحسن التحالف معها، والكتاب الحريصون على الاصلاح يشيدون بذكر هذه المملكة ، ويقترحون التشبه بهذه الاداة الكبرى الجميلة، التي توالى على تكوينها الصناع الحاذقون منذ اجيال . وقد ختم ميرابو كتابه عن بروسية بهذه الكلمة : اذا هلكت بروسية رجعت صناعة الحكم الى عهد الطفولة . ومع ذلك فقد كان هذا السقوط يظهر له قريباً فاكتشف اسراره وتنبأ عنه بقوله : لا يوجد دولة تؤذن باضمحلال سريع كهذه الدولة ، انها قد انشئت بطريقة لا تطيق ان تتحمل اي اضطراب ولا اي حكم ضعيف ، وهو مالا بد منه على طول الزمن ، وهذا التعارض هو اساس حكم جميع المعاصرين ، وعليه يقوم المدح والنقد ، والتاريخ في ابان الثورة الفرنسية يبرر ذلك .

وليس من الممكن تصور صفات دولة تختلف عن صفات النمسة كهذه الدولة، فقد كانت النمسة تعمل بجهدها على تأليف دولة غير متجانسة ، وحكومة لا تهتم الا بالسياسة ، اما بروسية فقد كانت القوى السياسية والاجتماعية تعمل فيها على تكوين شعب متحد في دولة متجانسة ، ولكنها تطبع كل شيء حولها بطابعها ، وكان بيت هوهنزلرن كبيت هبسبورغ حريصا طموحا مضطربا، ولكنه اقل شكا في مبادئه وايسر انقساما في رغباته، وكان يتابع باسلوب ادق وحزم اشد خططاً محددة معينة، وكانت بروسية تجتمع وتتعزز بقدر ما تضمحل النمسة وتتفكك ، وقد وجدت منذ البدء الشيء الذي فقدته النمسة وهو العنصر اللازم لتكوين الدولة ، وكان بيت هوهنزلرن يعتمد على تقاليد متأصلة وحقوق الهية في دولة جوهرها مدني ورؤساؤها من النبلاء الذين تشتمل نفوسهم على عقيدة الشرف العسكري والشعب المنظم تحت السلاح ، وقد ظهروا بمظهر الاداريين البارعين المخلصين لبلادهم والقائدين

لشعبهم الذي لامثال له في اوربة من حيث الانقياد والطاعة للحكام .

واستمر تاريخ الالمان كما بدأ ، ليس لهم حدود ، وكل جوار يحسن الاستفادة منه للتوسع ، ولكن يعسر الاحتفاظ بكل ما يؤخذ . ولذلك ساد فيهم العنصر العسكري ، وبما انهم حريصون واشداء فان الخطر ينقلب لمصلحتهم ، والسهول الفسيحة التي كانوا فيها مابرحت تدفعهم الى الغارات ، وتمهد لهم طريق الفتوح ، ولما كانت بولونية تشطر بلادهم شطرين فلم يكن لهم بد من الاستيلاء عليها ، فهم فاتحون بالضرورة وقد حافظوا على ذلك بالذوق والمزاج ، وكانت الحرب كما قال ميرابو صناعة بروسية الوطنية ، وقد وصف هذه المملكة بعده تايران في اثناء مؤتمر فينة فقال : ان طبيعة هذه المملكة تجعل من اطماعها نوعاً من الاضطرار ، فكل حجة حسنة ، وكل وسيلة سائغة ، ولا يهمها حذر ولا تذمم ، والحق عندها ما يوافق مصلحتها وهي تحسن تصريف الحجج ، وتسمو على غيرها بانتقاء افضلها واجدرها ، واكثرها رونقاً وبهاءً ، ولا يوجد اسرة مالكة استطاعت كأسرتها ان تمتاز بحسن التدبير واستثمار الحوادث بمجاراة الزمان. وقد نشأ ملوك بروسية في ايام الصليبيين وكبروا في عهد الاصلاح ، وكما انهم كانوا بارعين في اقتناص الوسائل ، فانهم لم يكونوا غافلين عن اغتنام الفرص ، وسمعتهم في هذا الشأن تلتقي بهم ، وتنشر اجنحتها فوقهم ، وباب المساومة عندهم مفتوح لا يغلق ابداً ، والدولة عندهم كل شيء ، لان كل شيء يأتي عن طريق الدولة ، حتى ان الكنيسة عليها ان تمتزج بالدولة او ان تخضع لها ، وكانت المصالح غير الدينية والمصالح الدينية مختلطة كل الاختلاط قبل الاصلاح وبعده .

وكانت فرنسة ترى اتحاد الامراء في المانية يوافق سياستها ، مادام الأمر فيها ينبغي ان يكون قائماً على اساس معاهدة وستفالية ، ولكن اذا ارادت فرنسة ان تحتل ارضاً المانية فان هذا الاتحاد يتحول الى تحالف خطر لمقاتلتها ، وقد تطورت سياسة هؤلاء الامراء تطوراً غريباً لم تكن تدرك فرنسة كنهه ، وقد اصاب سياستها خيبة امل شديدة باعتمادها على شكرانهم ، بعد ان عولت على حرصهم وتهالكهم ، واصبحت سياسة الامراء الالمان موضع تهكم فريق من الفرنسيين ، الذين يرونها قائمة على مخادعة

جميع الناس وعلى النكث بالعهود ، وقد سار الامراء الالمان في القرن التاسع عشر على سنة بروسية في خذل الحليف اذا لم تبق لهـا حاجة به ، فبعد ان طأطأوا رؤوسهم لفرنسة وهي قوية ، انقلبوا عليها عندما وجدوا قوتها متضائلة ، وكانوا حلفاءها عندما يريدون الفتح ، واعداءهـا للمحافظة على ما احرزوه ، وكانوا يجدون في حجة الوطنية مسوغاً لما يقومون به من الغدر .

اما الوطنية التي رفعت رأسها في المانية نحو سنة ١٨١٣ ، فلم تكن تلك الوطنية المضطربة التي تباع وتشرى وتستثمر للغايات والمقاصد ، ولكنها عاطفة اكثر بساطة واكثر قوة ، وطنية صحيحة ، صادقة ، عنيفة ، كسائر العواطف الفطرية ، وهذه الكلمة التي لم تكن في الماضي ذات شأن ، وكان يداخلها الشك والفساد اصبحت عامة نقية منزهة ، ورجعت الى معناها الحق ، واصبحت تعرب عن ضمير شعب كبير ، هذا الشعب الذي بدأ يخوض غمار المعركة ، وهو عنصر قوي لم يكن يكترث له في العهد القديم ، وسيبعث تدخله الى تغيير الأحوال السياسية الفرنسية في اوربة .

ومع ذلك فان فرنسة بنتيجة غريبة لثورتها هي التي تكاد تكون قد حرضته عليها ، فقد قوض الفرنسيون في غاراتهم بنيان عالم قديم ، ومهدوا لانشاء عالم جديد ، وقد زال الامبرطور وزال الديت وزال كل شيء مشترك في المانية ، وقضى نابليون على الحكومات الصغيرة ، فجمع وفرق ، واصبحت خارطة المانية اكثر بساطة واعظم قوة ، ولكن مازالت مجزأة في مجموعها ، موزعة الى دول شتى لم تبلغ الغاية من التقدم والتجدد ولم تتخلص من بقايا القديم ، وبعد ان خرج الفرنسيون منها مازالت آثارصنعهم . وتعاقد امراء المانية مع الغالبين سنة ١٨١٥ ، ونشأ الاتحاد الجرمني مرة اخرى ، ولكن بدون تحديد واضح ، وكان الى جانب النمسة وبروسية تقوم انكلترة (لأن ملكها ملك هانوفر) والبلاد المنخفضة (لعلاقتها باللكسمبرغ) والدنمرك (بسبب هولشتاين) ، وابى فرنسوا ان يلبس التاج الامبرطوري مرة اخرى .

وقد نشأت الاحزاب في المـانية ، وفيها انصـار الاستبداد ، وانصار الحقوق التاريخية الذين ينكرون حق الأمراء ، وينكرون الدساتير ، والحزب الدستوري

الذي كان على طرفي نقيض مع حزب الاستبداد ، ونشبت الخلافات السياسية بين سلطة الاتحاد وسلطة الامراء وبين الامراء انفسهم بسبب الوضع الغريب الذي كانوا فيه ، وظلت الحياة السياسية في المانية حتى سنة ١٨٤٨ منحصرة في الدول الصغرى ، وكانت تظهر في ثلاث مظاهر : الصحافة والجامعة والمجالس المنتخبة.

واثارت حرب التحرير حركة وطنية بين الطلاب، فأخذوا يعملون بوسائل صغيرة لاثارة الشعور الوطني واعداد الشعب للاتحاد والحكم الدستورى ، وكانوا يعقدون المؤتمرات ، ويحتفلون بالايام الوطنية ، وقد اغضب ذلك مترنيخ وعده من اعمال عناصر الثورة ، فاضطهدت الجامعة وانعقد مؤتمر الماني في فينة، حدد واجبات الدول الداخلة في التحالف ، واشترط بان يكون مجموع سلطة الدولة في قبضة رئيس الدولة ، ولم يستطع مترنيخ ان يطلب الغاء الدساتير وتحريم اعلان مناقشات المجالس ، ولكنه حمل المؤتمر على ان يقرر ان الحدود الشرعية لحق الاعراب عن حرية الرأى ، مقيدة بامن الدول وطمانينتها .

ولم تجد لجنة البحث والتنقيب التى الفت اثراً لاى مؤامرة ، ومع ذلك فان بعض التلاميذ ارسلوا الى المعتقلات لانهم حملوا لواء الوحدة (الاسود ــ الاحمر ــ الذهبي) وانشدوا الاناشيد الوطنية ، وكان موقف حكومات الجنوب انها عارضت في هذا الضغط واخذت على عاتقها حماية الحريات العامة ، فاغضب ذلك روسية والنمسة ، ولكن انصار الحرية في المانية هبوا لمقاومة الحكومتين المستبدتين ، وانتصروا للشعوب التي تدافع عن حرياتها ، وقد احكمت الروابط بين احرار الالمان واحرار الفرنسيين ، وغلب اهتمام الاولين بحرية البلاد على اهتمامهم بالوحدة الالمانية .

ولم ينشط الديت الذي هو الوضع الوحيد المشترك للعمل الا في الاضطرابات والقلاقل ، كانه لم يكن الا شرطة سياسية ، فكان ذلك سبباً لكره الالمان الكثيرين له ، وقد اخذ المؤلفون ينشرون فكرة اقامة حكومة وطنية اتحادية ، معتقدين ان الوطنية هي الشرط الأول للانسانية ، كما ان الجسم هو الشرط الاول للنفس ، وكان الكثيرون يخشون بروسية ويرتابون بها ، ولكنها مع ذلك اصبحت عند اولى الرأي ذات حق شرعي في التسلط على المانية وفي حمايتها .

وكانت تراود الفرنسيين فكرة احتلال شاطيء الرين الآخر ، فاتجه عداء الالمان لفرنسة ، ونطق به نشيدهم الوطني، وهو الرين الالماني، الذي اصبح نشيد الحرب بعد ثلاثين سنة في حرب السبعين ، ثم اصبح النشيد : المانية فوق الجميع . وانتشرت فكرة الجامعة والوحدة بين الامراء فاصبحوا يكرمون القائلين بها ويحيون عند سنوح كل فرصة الوطن المشترك ، ونشأت ثورة سنة ١٨٤٨ عن انتشار الآراء الوطنية في آن واحد مع الآراء الدمقراطية والدستورية . .

ولم تنجح محاولة تأسيس دولة متحدة عن طريق مجلس او مؤتمر ، فاتجه ملك بروسية نحو تحقيق ذلك بالاتفاق مع الامراء الذين حببت اليهم جميعاً هذه الفكرة، واخذوا عدتهم لها، حتى تم انشاء الدولة الالمانية العظمى .

اما السياسة الفرنسية فقد ثابرت على خطأها في الاعتماد على تفرق الممالك الالمانية ، حتى ان اوغست كوفان الكاتب الفرنسي الشهير في ادراك المسائل الدولية ، كتب ينتقد هذه الآراء التي مابرحت تنتشر في فرنسة قبل حرب السبعين وبعد حرب ١٩١٤ ، واستشهد بحجج التاريخ على اغلاط لويس فليب وتيرس ونابليون الثالث وخطل آراء بعض المتأخرين في هذه الايام، وذكر كيف ان المانية كانت تنتشر فيها دعوة العداء لفرنسة بسبب خطتها السياسية في معارضة وحدتها واقامة العقبات في سبيلها ، وقد كان ذلك قبل قيام بسمرك بعمله العظيم . وقال : لامجال للخطأ، فالشعوب الالمانية تنشد الوحدة برغم الاوهام التي كانت سائدة في فرنسة عن افتراق الالمان وتصدعهم، في عهد نابليون الثالث وفي ايام الجمهورية الثالثة ، ولم تكن الدول الالمانية تريد مهاجمة فرنسة ولكنها كانت على اهبة للتآزر، اذا هاجمت فرنسة احداها ، وكانت بافارية نفسها مشتملة على فكرة الاتحاد والتعاون ، حتى ان ملكها لويس دو بافارية كان اشد الجميع خصومة لفرنسة، فيذكرها بعنف ، ويطعن فيها بشدة . وقد روى عن مترنيخ قوله : ان سياسة تيرس ادت الى نتيجة لم يمكن ادراكها في سلم دامت خمسة وعشرين عاما ، وهي ازالة جميع الآراء المتباينة التي كانت في الاتحاد الجرمني، من حيث الوسائل التي ينبغي اتخاذها لحماية الوطن المشترك والدفاع عنه.

٢ — بوادر المستشار الحديدي

بسمرك وغليوم الاول ونابليون الثالث

كان بسمرك يعتقد في نفسه انه ولد حاكما بامره، لايدفعه عن ذلك ولاؤه للملك ولا مخافة الله، ولا حب الوطن، ولا الشعور بالمسؤولية نحو الجماعة، فهو يحس انه وحده، ويرى انه عظيم، ويشعر بانه مناضل بكل مالديه من صبر وعزيمة، وانه ثائر لاينفك ينتظر تبديلا وتغييراً، يبحث عن المغامرات ويحتقر الشيء المستقر، وهمته البعيدة ونفسه العصبية لاتبغى ادارة الامور ولكن قلبها وتحويلها، وهو يريد ان يعمل كما يفهم وكما يعلم، ولا يرضى بان تكون يد فوق يده .

فبعد حياة قلقة مضطربة، وبعد ان رفض بسمرك ان يدخل في خدمة الدولة لانها لم تكن ذات دستور، تهالك عند سنوح الفرصة لدخول البرلمان الاول الذي اجتمع في بروسية لتقرير دستورها سنة ١٨٤٨، وقد تمثلت في هذا البرلمان جميع الولايات من الرين الى ممل، فكان العنوان الاول للوحدة البروسية، ولكن العقول النيرة التي كانت في هذه القاعة لم تكن تهمها الفكرة البروسية ولكن كانت تهمها الفكرة الالمانية، وكل من كانت تحمل نفسه شيئاً من العبقرية او يلقي ببصره نظرة الى المستقبل، كان مولعاً بالاراء الحرة كما هو مولع بالقومية، اما الملك فقد كان على مايقال ورث عن ابيه فكرة الوحدة الالمانية التي يدعو لها جمهور الشعب الالماني، على حين ان اعوان العرش لم تكن لديهم الا فكرة بروسية، وكانت الاكثرية في المجلس محافظة .

وقد ادرك بسمرك انه في عزلة، لان رأيه في الملك يجعله بعيداً عن المحافظين ورأيه في الاحرار يقصيه عنهم، وكانت اول كلمة قالها انه يقاوم احزاب اليمين دفاعا عن الحكومة، ويقاوم احزاب الشمال دفاعا عن احزاب اليمين، فقضى هذا المنهاج عليه ان يتجه وجهتين مختلفتين ويسير بخطتين متباينتين، وقد كتب حينئذ في ازدراء هذا المجلس : انه من العجيب ان ترى هذه الجرأة التي يقيم عليها

الخطباء البرهان اذا ناظرنا بينها وبين كفاياتهم ، وكيف يقدمون على ان يحملوا جرماً كهذا الجمع العظيم على الاذعان لضعفهم وعجزهم ونقص مزاياهم ، ان الامر ليستفزني اكثر مما كنت اظن . فكان يريد ان يخوض المعركة وكان يشعر باحتقار الرجال الى هذه الساعة ، وكان هذا الاحتقار يظهر في كتبه التي يهزأ بها ، او في بعض المبارزات التي يتعرض لها ، ولم يكن شبيه لما فيه من قوة حية وجرأة وشجاعة : وكان كثير العجب بنفسه بحيث لايستطيع ان يكون موظفاً ومبالغاً في الاستقلال بحيث لايستطيع ان يكون جنديا ، فبقي رئيساً لبعض الحراثين ، وكبيراً لجماعة يسهل التغلب عليهم ، وبقيت روح بسمرك المناضلة لاتجد مايضرم فيها الحماسة ، اما الآن فقد وجد المنبر الذي يرتقيه ليناضل ذات اليمين وذات الشمال ، ولكن لافي سبيل الدفاع عن فكرة ، ولا لانجاز خطة سياسية او اقتصادية ، بل ارضاء لنفس تتحفز الوثوب ، وتستعد لقتال الرجال والجماعات ، فتمثيل الشعب عنده هو تجريد السيف .

وفي اول خطبة له في المجلس اثار غضب اصدقائه فضلا عن اعدائه ، وهي عادة العبقريات حين لقاء الجماهير ، وذلك على اثر خطبة القاها احد النبلاء المحافظين ، وذكر انه في سنة ١٨١٣ لم يكن الحقد على الفاتحين هو العامل الوحيد في اثارة الروس ، لان شعباً جريئاً كهذا الشعب لايعرف الحقد الوطني ، فان الشعب تقدم بنفسه لتحرير رقبته ، ولذلك فانه نال الحق بمشاطرة الحكم ، فوقف حينئذ بسمرك مجيباً : ان غضب الشعب سنة ١٨١٣ لا يجوز ان يعزى لشيء غير شعوره بالعار الذي لحقه ، من ان يكون الاجانب حاكمين في بلاده ، واني ارى انه من اسوأ الخدمات التي تقدم للوطن ان يقال ان الاهانة لم تكن كافية حتى يغلي دمه في عروقه ، وحتى يتغلب الحقد على كل عاطفة من عواطف الشرف عنده ، وان يحاول استثمار مافعله للدفاع عن نفسه ويصرف عنه لفائدة غيره .

وقد عين بسمرك ممثلاً لدولته في فرنكفورت ، فكان يشعر بملل شديد بسبب مايأكل نفسه من الحماسة وحب النضال ، وبما يشهده في المفاوضات السياسية من

اساليب الجفاوة والمجاملة فينظر الى اصحابها شزراً كما كان ينظر الى رفاقه في المجلس، فعقد النية على الاستعفاء من عمله حتى يتخلص من الملل الذي اصابه ، ولكنه كلف اصدقاءه ان يسعوا لتعيينه سفيراً وكان له ما اراد وهو ابن ست وثلاثين سنة ، مما لم يسبق له نظير لرجل لم ينتم الى السلك السياسي ، وكان تعيينه مناقضاً للعادات المألوفة، وكذلك فقد اخذ نجم بسمرك يتألق في سماء المعالي وسمت اليه المراتب الرفيعة، حتى كتب بعد سنة الى اهله يقول : انني الان كشعاع الشمس ، يتطلبني القصر ويمشي الي العظماء ويسألني الصغار اسداء المعونة او جميل العطف ، ولست بحاجة الى بذل الجهد حتى اتبين ان هذه المظاهر الخلابة قد تكون زائلة في الغد ، وان اشهد في حفلة من حفلات القصر وجوها تنصرف عني اكثر من الوجوه التي تقبل علي الآن .

ولما أوشكت ان تنشب حرب القرم، كان القيصر نقولا اعظم رجل في اوربة وكان يرمي الى احتلال القسطنطينية واقتسام بلاد « الرجل المريض »، وكان نابليون الثالث يتلظى غضباً لان القيصر يأبى مخاطبته بأخي ولكنه يخاطبه بابن عمي، وكان يريد ايضاً ان يثأر لعمه، فاصبحت مقادير اوربة مستهدفة للأخطار التي تبعثها اشباه هذه الصغائر، وجاءت سنة ١٨٥٤ والحرب على قاب قوسين اوادني ، والتحالف معقود بين انكلترة وفرنسة وتركية ، وكانت النمسة مصممة على الالتحاق بالتحالف ، لانها كانت تنظر بعين الخشية الى توسع الروس في البلقان ، وكانت القضية كذلك تهم بروسية وتدعوها الى التأمل في عواقبها ، وقد استدعى بسمرك الى برلين ليبدي رأيه ويكون حكما بين المنقسمين في هذا الشأن ، فكان رأيه صريحا وهو انه ليس لنا ان ندخل في الحرب ولا ان نجد مغنما فيها ، فهي لا تثمر لنا الا الخصومة ورغبة الانتقام التي تملأ قلب مغلوب يقيم على حدود بلادنا ، واذا اشتركنا في الحرب خشية من فرنسة وتزلفاً الى انكلترة ، نكون قد قمنا بدور احد امراء الهند الذي يتبع انكلترة ويقاتل معها .

فغضب البرنس غليوم عندما سمع هذا الرأي، وقال ان هذا الرجل يشتغل في السياسة كما يشتغل بها تلاميذ المدارس ، على ان هذه هي المرة الاولى التي كان فيها

رأي بسمرك مستمداً من عبقريته ؛ وكان شغله في السياسة شغل كبار الرجال ، وهو لم يكن يريد ان تكون بروسية سائرة على آثار النمسة التي يبغضها ، ويصفها بالخداع والرياء وقبح التدبير ، وهو يعتقد ان الازمات تهيء العواصف ، وبروسية تنتظر الفرص لتنمو وتكبر وتدبر الأمور تدبيراً يلائم مصالحها ومنافعها بدون ان تحاذر شيئاً ولا ان تكترث بشيء ، وعلى كل حال فالنجدة التي ترسلها بروسية ينبغي ان تعود عليها بما يزيد في عظمتها ، وان تتخلى النمسة بمقابلها عن دعوى السيادة في المانية ، فاصبح بسمرك في حرب القرم رجل السياسة الاوربية ، ولكن الملك مع ذلك لم يكن يعرف ماذا يصنع ، فانقاد الى عقد اتفاق عسكري مع النمسة يرمي الى غايات دفاعية وهجومية ، ولكنه لم يلبث ان تخلى عن دعاة هذه السياسة ، اما بسمرك فقد زادت مسافة الخلف بينه وبين القصر ، وتباعد في سياسته عن الملك ، وسافر بعد ذلك الى فرنسة فالتقي بالامبرطور نابليون الثالث والامبرطورة اوجيني اللذين اعجبا به .

وقد افضى اليه الامبرطور بحديث غريب عن نياته السياسية ، ورغباته في نمو بروسية واتساع ملكها بما تنتزعه من جيرانها ، فتحتل هولشتاين وشلزويغ وهانوفر ، وتصبح دولة بحرية من الدرجة الثانية ، حتى تستطيع مقاومة انكلترة بمعونة فرنسة ، والامبرطور يريد ان يعتمد بمقابل ذلك على هدوء بروسية اذا تعقدت الأمور بين فرنسة والنمسة بسبب الايطاليين ، وسأله عما يكون رأي الملك في ذلك ؟ فاجابه بسمرك : انا سعيد بهذا الحديث ، لانه اولا دليل الثقة ، وثانياً لانه السياسي الوحيد الذي لا يذيع سره ، ولا يطلع عليه احداً في بروسية ، حتى ولا الملك لأنه لا يوافق على ذلك ، وكل حديث في هذا الشأن ربما يؤدي الى اباحة للسر تسيء الى العلائق الحسنة بين فرنسة والمانية ، فقال له نابليون ليست هذه اباحة ولكن خيانة ، فاجابه بسمرك انها كذلك تجعلكم في موقف حرج ، فقبل هذه الكلمة وسجل عليه وعده .

وما اكثر ما في هذا الحديث من دهاء وبراعة ، وهو يدل على طول باع بسمرك

في السياسة الاوربية ، فانه لم يقل كما يقول سواه ليس لدي تعاليم في ذلك وسأكتب الى مرجعي ، ولكنه وجد من سعة رأيه وحضور ذهنه ، ومن الجرأة وتحمل المسؤولية، مايفسد خطط العدو الذي يريد ان يتدخل في شؤون المانية ، ولم تلمع في ناظره بروق الاطماع، فوطئ على النار بقدمه حتى أخمد نورها قبل ان يراها احد، على حين انه عدو النمسة الذي لاتخمد مراجل ضغنه ، واقدر من يستطع ان ينصح بالاتفاق مع الامبراطور، ولكن بدلاً من ذلك قال له قولاً حكيما سما فيه حتى بلغ ارفع الدرجات في حسن الاسلوب : انك تضع نفسك في موقف مبهم مستغرب . وعجيب ان يقدم الذكاء الفرنسي على مثل هذه الاقتراحات التي لامسوغ لهـا ، وهل اراد الامبراطور ان يستطلع خفايا هذا البروسي ويتعرف خططه ، وحاول ان يقتنص الصراحة بالصراحة ، ومخبآت الاسرار بمظاهر الثقة ؟

غير ان هذا التقدير هو فاضح ، لان بسمرك انما يكون صريحاً عندما يريد ان يخيف ويخدع ، وهو لايكون صريحاً عندما يستسلم الآخر بالثقة ولاتبقى له فائدة من الصراحة ، اما جوابه فقد كان يريد منه احراز الثقة والزيادة في حسن الظن به ، وقد بلغ من ذلك ماأراد ، وهو لم يبحث هذا الأمر في تقريره وكتمه الى حين عودته ، واقترح ان يدعى نابليون الى زيارة براين ، وقد كان في هذا الرأي مخالفاً لسياسة الملك ومستشاريه ، ولكن هذا الرجل المتمسك باهداب الحقائق لم يكن يأبه لهذه الاساليب ، وماذا كان يهمه ان يؤيد الملوك الذين توارثوا الملك وتناقلوه ! لقد خرج بسمرك على رأي سيده ورأى جماعته واصبح رجل الحزب في الماضي لايعرف الا انه رجل دولة ، وقد ادلى في رسالة بما كان يجول في نفسه فقـال :

الرجل (نابليون) ليس له شأن كبير عندي ، وقلما ينمو في نفسي شعور الاعجاب بالرجال ، وقد يكون من خطأ النظر لدي، اني ارى مواطن الضعف اكثر مما ارى مواطن الاحسان ، وهل تريدون ان تبحثوا عن القاعدة الشرعية الموافقة لفرنسة ؟ اما انا فاعترف بان وطنيتي بروسية محضة ، ولاتهمني فرنسة الا بقدر

مايؤثر موقفها في بلادي ، وبقدر ماتكون مفيدة في العمل الذي اخدم فيه مليكي وموطني ،واني بالنظر الى مايتحتم علي القيام به من الواجب في خدمة سياسة بلادي الخارجية لا اكترث الى الحب والبغض فيما يتعلق بالدول الاجنبية والاشخاص الأجانب، ولا فيما يتعلق بي او بغيري ،وان في قبول هذه الخطة اقتراف الخيانة للمليك والبلاد، وعندي ان الملك نفسه لايجوز ان تكون لديه عواطف حب او بغض للأجانب .

واني لأسألكم اذا كان في اوربة وزارة ترغب اكثر من وزارة فينة رغبة طبيعية في الوقوف دون نمو بروسية وعلو شأنها وتزايد نفوذها في المانية ؟ اما انا فلا اشعر بعطف نحو أي دولة اجنبية الا نحو انكلترة وعاداتها ، هذا اذا بقي احيانا لذلك اثر في نفسي ، ولكن الناس لا يريدون ان نحبهم ، واني ارى بعين الرضى ان يصلى جنودنا بنيرانهم الانكليز . والروس او الفرنسيين متى قام عندي البرهان ان هذا العمل هو سبيل سياسة محددة وفكرة مقررة ممحصة .

ولكن متى انقطعت هذه الدول عن ان تستمد اصولها من الثورة ؟ وما هي علامة ذلك ؟ فهل يقال اننا عفونا عن ميلادهم غير الشرعي متى انقطع تهديدهم لنا؟ وليس من دواعي الغضب ان يستمروا على اعلان اروماتهم ومنابتهم ، واذا اريد ان يبحث عن اصل للثورات فليس في فرنسة يجب تحري ذلك ، ولكن في انكلترة بل في عهود ابعد في التاريخ ، في رومة وفي جرمانية .وكم من حياة سياسية في هذا اليوم تمتد اصولها الى الثورة والتغلب ! خذوا مثلاً لذلك : البرتغال ، الجمهوريات الامريكية كلها ، السويد ، بلجيكة ، هولندة ، سويسرة ، اليونان ... انكلترة ، وكذلك الامر اذا اردنا ان ننظر الى الاراضي التي انتزعها الأمراء الالمان من الامبرطور ، والى ما اخذنا نحن ، وهل نستطيع ان نأتي ببراهين قاطعة على ان الحكم في بلادنا ليست له مصادر ثورية ؟ .

وقد اشتبك بسمرك مع غليوم باختلافات سياسية خطيرة وهو امير يقوم باعباء الدولة،ولما انتهت اليه مقاليد الأمور ولبس رداء الملك جرت بينهما مذاكرة مأثورة حول سياسة البلاد واداتها وتدبير امورها ، فزادت مابينهما من تباين الرأي ،

ولكن العجب الذي يقضيه المرء هو من طمانينة الرئيس الى مرؤوس لايجهله ، وتقلب المرؤوس في اساليب من الجرأة والحيلة والمنطق والمكر لبلوغ غايته وانجاح مقاصده .

وقد نشأ غليوم نشأة عسكرية وتأدب بآدابها ، وكان يحمل في قرارة نفسه جميع الصفات البروسية المتأصلة فيه ، وكان جلداً على العمل ، يجد ويدأب ، ويحافظ على النظام ، تقيا ، عادلا ، كريم الجانب ، متمسكا بحقه ، مراعيا الحق سواه ، ولكنه كان بسيط الخلق ، ضيق الذهن ، ولم يكن بسمرك يشابهه في شيء ، سريع الغضب شديد الحقد ، كثير الريبة ، حول قلب ، جريء محتقر ، مشكوك في عقيدته بربه وولائه لمليكه ، لايعفو ولايندم ، يتقيد طوراً بالاساليب الشرعية ، وطوراً لايبالي بالأنظمة ، ملتبس الأمر ، متناقض في الظاهر ، عجيب عبقري ، هو السياسة في صورة انسان ، يغلي دمه في عروقه ويثب قلبه في جوفه ، ويريد ان يقبض بيده على الفوضى السائدة في برلين ، ولكن لم يتبين المنهاج ولم يعرف الوسيلة ، وقد الف بين الرجلين اتحادهما في الجرأة والانفة واشتراكهما في الاباء والشجاعة : فكان ذلك سبب اتفاقهما على ان ماطبعا عليه من شمم كان يقضي بتباعدهما ، وكانت نفس غليوم نفس ملك منذ ميلاده ، عامر القلب بالتقوى ، يجل الرأي والاجتهاد ، ويشعر انه فوق سواه من غير ان يبالغ في تقدير ذكائه ، ولكن ما انطوى عليه من العناد الشديد ومن كرامة الشيخ الكبير لم يجعله يشعر ان وزيره كان يغلبه على امره ، لأن عزة الملك تأبي ذلك ، اما بسمرك فقد كان دائماً يندفع الى الامام بما تنطوي عليه نفسه من عزيمة ، وكان اباؤه يحمله على ان لايبرح مفكراً بما يصونه وينزهه ، وهو وان كان بعيداً عن مهاوي الغرور فانه لم يكن يعبأ بآراء معاصريه ، وكان همه المضاء والنفاذ ، وهم الملك ان يملك غير طامح الى توسيع بروسية ولارام ببصره الى المانية ، على حين ان بسمرك يطمع ان يري بروسية تقود المانية في منازل المجد ومراتب الشرف ، وكان الملك يشتد عناده في اشتداد الازمات ، ولم يكن بسمرك اهدأ نفساً ولا اوضح رأياً منه في اثناء وقوعها ، وعلى هذا النحو كان بسمرك يأخذ بيد الامبرطور الشيخ المطمئن في آثار سياسته ، ويستنفد مواهبه في خدمته .

وكان بسمرك يتظاهر بمودة نابليون الثالث ، وقد عين سفيراً في فرنسة، وكانت بينه وبين الامبرطور محادثة تساءل فيها نابليون عن رأي ملك بروسية في التحالف معه . فاجاب بسمرك ان الرأي العام يميل الى فرنسة ، ولكن المحالفات في الاوقات الحاضرة ليست مجدية الا اذا كانت ضرورية وقامت على سبب وغاية ، فقال له نابليون ليس هذا الرأي بصحيح دائماً ، فان الدول بينها خلافات متفاوتة في الصداقة ، واذا كان المستقبل غير مؤكد فيجب ان نرسم خطة قائمة على توجيه الثقة وتعزيزها ، واني لا اتكلم عن التحالف عفواً ، ولكن ارى بين بروسية وبين فرنسة من التشابه في المصالح ما يحملها على ان يكون بينهما اسباب اتفاق دائم صادق مادام ليست هنالك موانـع ، ومن الخطأ الكبير محاولة السيطرة على الحوادث وقيادتها، لانها تأتي منقادة طائعة من ذات نفسها، من غير ان ندرك مدى قوتها او ناحية اتجاهها ، ولذلك ينبغي ان نحسب حسابها قبل وقوعها ، وان نتخذ من الوسـائل ما نستعين به على دفعها .

٣ — شلزويغ-هولشتاين وحرب النمسة

وصف الكونت بروكش استن ممثل النمسة في مؤتمر الاتحاد الجرمني رفيقه بسمرك بهذه الكلمات، التي دلت على داهية السيـاسة دلالة واضحة ، اكدتها الحوادث الجسام التي اشترك فيها من بعد : « يدعى بسمرك ان بروسية هي مركز العالم . . وهو يتهالك رغبة في تمزيق الاتحاد وتفريق شمله ... ولو ان ملكا انحدر من السماء لما استقبله بغير الشعار البروسي . هو مثال مكيفلي في آرائه وقواعده، محكم الرمية كثير الحيلة بحيث لا يأتي بعمل من الاعمـال ناقصاً او يكتفي بنصفه ... وهو يسعى جاهداً من غير ان يعرف الونى ليفت في عضد الاتحاد ويفسده ويشله . . . مستعينا على ذلك كل الاستعانة ببروسية ، ولكنه يعرف كيف يلقي التبعة على عاتق النمسة ... وقد استولى عليه ميل بروسية ورغبتها استيلاء جعله يحدثني بالضرورة المبرمة القاضية بأن تتحد المانية بقيادة بروسية ... اما انا فلم اشهد في عمري رجلاً مثله لا يفرط ذرة فيما يعتقد ، ولا يشك لحظة فيما يعمل ».

كذلك كان الرجل العجيب الذي بعدان تولى وزارة الخارجية التي كلمته الشهيرة التي قال فيها : ان الخطب وقرارات الاكثرية لاتسوى مشكلات هذا العصر الخطيرة ولكن يسويها الحديد والدم . وكانت هذه الكلمة من اشهر كلماته ، فبقيت عنوانا له ، وعتب عليه بسببها الاصدقاء والخصوم ، ونقم منها الامبرطور نقمة شديدة وخشي عواقبها ، ولكن بسمرك استطاع بحزمه وجرأته ان يخرج منها وان كان قد اولها واظهر ندامته عليها .

ولما اخذ بسمرك يتأهب لاعماله العظمى ، بدأ اهتمامه بشلزويغ هولشتاين ، وكان غليوم يتساءل عن حقه في هذه الربوع فيجيبه متسائلاً مثله عن الحق الذى افتتح به فردريك سلزية ، ويضيف الى ذلك ان جميع آل هوهنزللرن زادوا في سعة دولتهم وضخامتها ، واخذ يعبث بالنمسة في هذه القضية حتى يجرها وراءه ويخرجها بعد ذلك من التحالف الجرمني ، وكان على هذه الطريقة يجوب آفاق السياسة الاوربية ، فيراقب باحدى عينيه سياسة الدول الكبيرة ، وينظر بالعين الثانية الى مليكه الذي لايستطيع اغفال امره حتى لاتضيع عليه خططه ، ولكن الحظ لايبرح متتبعا خطى الرجال البارعين ، وقد ابتسم له الحظ في جميع اموره ولاسيما في هذا الأمر الذي حاوله قبل غيره ، وسارت النمسة يداً بيد هي وبروسية التي كانت تنظر اليها شزراً والتي حرمت ساستها الراحة والهدوء ، وبعد ان عقدت للملكين الوية النصر على الدنمرك ، لم يكونا يعرفان ماذا يصنعان بالبلاد التي احتلاها باسم التحالف الجرمني ، وكانت النمسة تريد ان تجعل هذين البلدين جزءاً من التحالف ولكن بروسية كانت تريدها لنفسها ، واخذ بسمرك يضطرم غيظا ويحدث الوزراء بان الفرصة مواتية لقتال النمسة ... ولكن الوزراء تركوا الامر للملك ، اما بسمرك فقد استمر في خططه ينكر سياسة التردد ويعدها اقبح سياسة ، ولايكترث للمبادىء الحقوقية ومعارضة بعضها لبعض ، ويرى ان الواجب الوطني هو فوق كل علاقة ورابطة ، وانه اذا تعارضت المودة والوطنية فالشأن للثانية .

وكان هذا السياسي العظيم برغم الحالة النفسية في بلاده وبرغم رأي سيده، يهيء في نفسه حربا على اخوانه الالمان النمسة، ويعمل على دفع فرنسة الطموحة بوعود ظاهرة مستترة كان يمني بها الامبرطور نابليون في محادثاته معه واغراآته المتوالية، ومحاولة كل واحد ان يخدع صاحبه من غير ان يريد حربه، وقد بدأ خطته بتقاسم شلزويغ هولشتاين مع النمسة فأخذ لبلاده القسم الاوفى لاتصاله بها، وترك ما بقي للنمسة التي كانت مشغولة بشؤونها الداخلية محرومة من كل تحالف اجنبي، حتى انها تخلت عن الجزء الذي يخصها من شلزويغ ـ هولشتاين.

ومضى بعد ذلك بسمرك يتحدث كرجل الماني ويعلن جهرة انه يريد ان تكون المانية متحدة، وانه لا يخشى الحرب ولا يريد فقط شلزويغ ـ هولشتاين، ولكن يريد توحيد المانية الشمالية، واستمر في تحريضه على النمسة حتى انه كان يستثير المجريين للقيام على ملكهم الشرعي، ويستفز نبلاء الشك ويعدهم بالاستقلال كما يعد اولئك. والتنافس بين النمسة وبين بروسية يرجع الى عصرين سابقين، فكانت بروسية تريد التغلب على منافستها وتحاول ان تحل محلها، ولم يكن الخلاف الديني الذي قسم المانية واثار النزاع الدامي فيها بعيداً عن هذا النضال، فقد كان يخفى ويظهر حتى انه بلغ من العنف ما حمل فردريك غليوم الثاني ان يقول في وصيته السياسية : لا يجوز لبروسية ان تأذن بانتزاع الالزاس واللورين من فرنسة، لأن السياسة الفرنسية كانت تقاوم الامبرطورية الجرمنية وتحول دون استفحال خطرها، وهذا ما كانت تصنعه بروسية ولكن سياسة سنة ١٧٩٤ هي غير سياسة بسمرك وايامها غير ايامه، فالنضال الذي اشتد بين الدولتين الالمانيتين لم يكن الا تماديا في الخصومة التاريخية التي آن ان يفصل فيها بحد الحسام.

وبعد ان انذر بسمرك النمسة كان في منتصف ليلة الانذار يحادث سفير انكلترة، فقال له فجأة ان جنود بروسية تدخل في هذه الساعة هانوفر وهس، وقد تخسر بروسية المعركة، ولكنها على كل حال ستقاتل بجرأة وشجاعة. واذا غلبنا فلن ابقى حياً وسأقع قتيلاً في آخر هجوم، والمرء لا يموت الا مرة واحدة، وعند الانكسار

فالموت اولى بالمنكسر . وهذه الكلمة تدل على خلق بسمرك،فهو اليف المغامرات، وطالما كان يقول لمن يلومه على المخاطرة بنفسه ، انه لايبالي بشيء وان حمل بيده رأسه الى السيف .

ولما لاحت بعد اسبوعين شارات النصر في المانية ، اخذ الشعب يهتف للقائد الشجاع في ساحات السياسة ومعاركها ، فتجاوبت اوربة بانباء الحادث العظيم الذي كان له وقع شديد في المحافل والمجامع ، حتى ان سكرتير الدولة في الفاتيكان صرخ بملء فيه صرخة الاسف على العالم ، بعد ان اصبحت بروسية حليفة فكتور عمانويل امير العصاة الذي غلب هو واياها صاحب الجلالة الكاثولكية ، وارتكب بذلك احدى الكبائر .

اما بسمرك فقد افتتح بعد النصر عهد سياسة جديدة ، واصبح يحاسن النمسة بعد ان حاربها وتمكن منها ، وقد ذكر في خطبة العرش انهم سينشئون تحالفاً دولياً في الشمال الالماني . وهو الخطوة الاولى نحو الوحدة ، وعارض القادة الذين ارادوا مهاجمة فينة ودخولها عنوة واطلاق القنابل عليها ، وكان الملك يؤيده في خطته الجديدة حتى قال : لقد دخلت الحرب كارهاً ولكن قضي الأمر الآن ،فبقي علينا ان نجتنب في علائقنا المقبلة مع فينة كل ذكرى مؤلمة ، ودخول جيوش فاتحة يجرح كرامة شعب النمسة كما يجرحها اضاعة بعض ماتملكه من اجزاء الدولة ، لاننا سنضطر عما قريب ان ندافع عن فتوحاتنا التي احرزناها في ساحة الحرب ، اما فرنسة فسنشتبك في قتالها بعد قتال النمسة ، وهذا مايقضي به تسلسل الوقائع التاريخية ومنطقها . وكان بسمرك يتهكم على القواد في مجلس حرب عقده الملك قائلاً : اذا انسحب جيش العدو من فينة فينبغي ان نقتص آثاره الى هنغارية،ومتى اجزنا الدانوب ينبغي ان نبقي على ضفته اليمنى ، وافضل مانتبعه من الخطط واحكمه ان نسير بعد ذلك نحو القسطنطينية ونعيد تأسيس امبرطورية البزنطيين .

وقلما سمع هذا العبقري الرزين يتكلم مثل هذه المرة ، فهو الذي اوقد نار الحرب واذكى لظاها ، وبعد ان قضى منها وطره عزم على الكف عنها وفكر في

عواقب السياسة التي يتبعها ، وفي الغايات البعيدة التي يسعى لها ، واذا لم يكن قائداً وهو كذلك في نفسه ، فقد جملته السياسة صاحب الكلمة الأولى لأنه يرى في ثنايا الافق حرباً جديدة ، وهي حرب فرنسة التي لم يكن يريدها ولكنه لا يجد مندوحة عن خوض غمارها .

ومضى بسمرك يداري الملك العسكري المسالم ، الذي لم يكن يريد الحرب الا دفاعا ، ولكنه يأبى ان لا يقتطف قادته ثمار النصر ، واذا كان قلم بسمرك هو الذي قاد الى الحرب ، فانه ينكر على هذا القلم ان يضر بالنصر الذي ادركه السيف ، وقد اعرب غليوم عن شروط الصلح لنابليون الثالث الذي توسط في الأمر وهي : الحاق شلزويغ - هولشتاين وسيادة بروسية في المانية وغرامة حربية وانتزاع بلاد الامراء المعادين . وكان بسمرك يتعرف مايقع في باريس من صدى هذه المطالب ورجعها ، وقد صح رأيه على عقد الصلح بحسب الشروط التي طلبتها النمسة ، ولم يقصر في عناء يتطلبه اقناع الآخرين وحملهم طوعا او كرها على اتباع رأيه ، وكانت النمسة متضعضعة فلم يبق الا سلوك خطة الانشاء واجتناب الاحقاد ، ولاسيما ان النمسة لا يمكن ان تصبح ارضا بروسية تحكمها برلين ، فيجب توثيق العرى معها قبل ان تتحسن العلائق بينها وبين فرنسة ، ومن اللازم على بروسية ان تعمل على تعزيز نفوذها في المانية كلها ، وان تسعى لتعزيز الروح الوطنية وتقوية شعور الوحدة في البلاد الالمانية .

وكان الملك يخشى ان يعقب الفشل والاخفاق النصر والظفر ، ويرى ان السلم الذي يريده بسمرك لا فخر فيه بعد تلك الانتصارات الباهرة ، اما بسمرك فكان يبغي توحيد المانية بقيادة بروسية ، ويرى ان ذنب النمسة في منافستها اعظم من ذنبها ، ولكنه يحرص على توثيق الصلات بين الدولتين الجرمنيتين اللتين بينهما علائق محكمة وعوامل كثيرة ، وهو لذلك يريد سلماً لا الحاق فيه ولا غرامة ولا غنائم ، ولكن يريد مداواة الجروح فوراً حتى يلتئم في الحال ويندمل ، ويقوم على اثره تحالف صالح مرضي ، يتخلى فيه الغالب عن حق سيفه ، ويضع العقل والحكمة فوق الغلبة والقوة ، وهو يدنو بذلك

من آراء مفكري القرن العشرين،فيما يجب ان تكون عليه العلائق بين الدول التي تريد اقامة سلم ثابت الاركان .

وكان يفاخر بسمرك بانه بلغ اغراضه في حرب النمسة ، فابقى فرنسة على الحياد، واخذ عنيها البلجيك تارة ويعارض تارة اخرى اطماعها في اللكسمبرغ ، المنطقة الالمانية التي لايوافق الشعب على ان تكون في يد العدو الموروث . وبعد ظفر بسمرك واستفحال امر بروسية،حاول نابليون الثالث ان يعزز موقفه المضطرب عطالب اقليمية،وحينئذ صرح له بسمرك عن ناجذه ، وصدم مندوبه صدمة شديدة بقوله : اذا الحت فرنسة فيما تطالب به ، فستجد على شاطيء الرين ، جيش بروسية وجيش النمسة،متعاقدين متحالفين في سبيل الدفاع عن الوطن الالماني ورد عادية فرنسة .

وكان يتمنى بسمرك ان يحقق رغبته من الوحدة الالمانية بدون قتال ، وان يغلب فرنسة في ميدان السياسة لا في ميدان الحرب،تلك هي امنيته ومطمحه ، على حين ان طبيعته العنيفة كانت تقضي عليه بان ينظر الى الحرب كانها في خلقه ، وان لم يكن يعتقد ان الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتكوين شعب وانشاء امة ، وقد اثرت فيه مناظر حرب النمسة ودماء القتلى تأثيراً عظيما،ولكنه كان يشعر من اعماق قلبه بما تستوجبه صناعته ومهمته ،وبقدر ما كانت تزداد شهرته في اوربة وخارج اوربة ،كان يقل اكتراثه بقواد الجيوش،وقد امتاز بسمرك عن سائر الالمان بانه كان يجمع بين اصالة الرأي وقوة الجنان ، ولا يرى ان الحرب امر محتوم بل يرى انه لافائدة منها للغالب فضلاً عن المغلوب وكان منافسه الجديد نابليون الثالث يعرف مثله ما في السلام والثقة من مصلحة لهذين الشعبين اللذين ماخلقا ليقتتلا ، ولكن ليسيرا جنبا الى جنب في علائق الجوار الحسنة ، وفي طريق التقدم والحضارة ، وكان بسمرك يخفي خطته ، ويعرض على الفرنسيين ـ كما قال نابليون ـ ما لا يملكه ، ومع انه كان يحرص على مسالمة فرنسة ، فقد بدأ بعد ان اخذ الخلاف يشتد يحمل على جارة بروسية المريبة،ويقول : انه يجب مراقبتها والمسدس في الجيب والكف على الزناد،

وكان يتنبأ بقرب وقوع الحرب ، ويرى ان المانية اذا استولت على الالزاس فعليها ان تبقى في الحصون ، وان تظل مستلئمة في السلاح ، فان الفرنسيين سيجدون من يحالفهم ، وهذا هو الخطر ، وقد صح ما تنبأ به .

٤ — حرب فرنسة وتأسيس الامبرطورية

بسمرك في جلائل اعماله

طارت شهرة بسمرك في العالم ، واصبح اسمه يملأ الكتب والمذكرات التي تتبادلها العواصم ، وكان يقال انه اذا حدث هذا الشيء اوذاك او لم يحدث ، فلأن بسمرك اراد او انه لم يرد ، وكان ينظر اليه حينئذ كرجل تهمه الاعمال والنتائج ، والذين كانوا يرونه قليل الاكتراث بالمسائل الاخلاقية ، تستولي عليهم الدهشة بما يجدون عنده من مزيج الصراحة والحيلة ، وكان يقال انه خدع الفرنسيين اي خدعة في قضية اللكسمبرغ ، واذا كانت السياسة من اكثر الصناعات كذبا ، فان رجلاً مثل بسمرك يصنع ما يصنعه من الاساليب الخداعة الغرارة في سبيل بلاده ، لا يستطيع اي امرىء ان يمتنع عن الاعجاب به ، وكان يتناقل معاصروه كلماته المأثورة ، وقد روى عنه قوله : انه لا يريد الحاق النمسة ، ولكنه يريد الحاق هولنده ، ثم روى عنه بعد اشهر انه لا يريد هولندة ولكن يريد النمسة . اما الحقيقة فان بسمرك لم يكن يريد هذه ولا تلك ، ولكنه كان يريد ان يجعل القريب والبعيد في قلق وخوف دائمين ، وليست الحياة — كما قال — الا نضالاً بين جميع الكائنات ، اذهبوا من النبات الى الطيور ، ومروا بالحشرات فالنسور القشاعم ، انكم لا تجدون حياة بدون نضال .

هذا هو الرجل الذي وجده نابليون الثالث يعترض طريق سياسته ، ولم يكن الرجلان يريدان الحرب ، وقد ابتدأا علائقهما بصفاء ، ولكن السياسة كانت تفعل بهما افعالها ، فكان كل واحد يكيد لصاحبه ، واطمع بسمرك نابليون باحتلال البلجيك ليعوض عليه نمو بروسية وما حدث من اختلال في التوازن ، ولما جاءت قضية ميراث اسبانية وتعقدت الأمور ، اخذ الفريقان يعدان للحرب عدتها ، وسار بسمرك سيراً حثيثاً في التأهب لهـا ، وارسل دعاته ومحرضيه في كل مكان يحتاج

اليه لتمهيد السبيل لما يريده ، وكان يقوم بجميع اعماله وهو هادىء النفس رابط الجأش ، يدبر اموره بدقة ومهارة ، على حين ان رجال السياسة في فرنسة ، كانوا يجاهرون بالاستعداد للحرب ويناصبون المانية العداء، وقد استطاع سفير نابليون الثالث ان يتصل بالملك غليوم وان ينال موافقته على انسحاب مرشح آل هوهنزللرن، ثم عاد الى الملك كرة اخرى ، فسأله ان يأخذ على نفسه عهداً بان لا يرضى في حال من الأحوال عن ترشيح امير من هذه الاسرة، وان يعارض في ذلك ويأبى كل موافقة، فاستفز هذا الاسلوب الملك الابي، وابلغ ما حدث الى بسمرك، فتناول ما كتب اليه من وصف الحادثة واختصر ما اراد اختصاره، وحذف ما اراد حذفه، و نشر البرقية المشهورة في التاريخ ببرقية امس، وذكر فيما نشر ان الملك لن يستقبل السفير ، وابلغه عن طريق الحاجب انه ليس لديه بعد الآن ما يقول له ، ولم يزد بسمرك كلمة ولم يخترع شيئاً ، ولكنه طوى ما طوى ، وابقى ما ابقى ، بحيث ان القدر الذي اذيع يقضي على فرنسة قضاءً مبرماً بدخول الحرب ، حتى تغسل الهوان الذي يلحقها من هذه البرقية.

وقد تضاربت الآراء في عمل بسمرك ببرقية امس، فان ليكنخت الاشتراكي يقول: انها جريمة لا يعرف التاريخ شبيهاً لها ، ولكن الجريمة هي حقاً في اوضاع المجتمع البشري، التي يستطيع فيها رجلان او ثلاثة ان يوقدا نار الحرب، ويجعلوها لا مفر منها ، من غير ان يستشيروا الشعوب ، او يفكروا بما تجره عليها من العواقب الوخيمة ، اما البرنس دوبيلوف فقد بحث في مذكراته عن هذه البرقية وقال : انها اعظم عمل عبقري قام به اكبر رجال الدولة الذين انجبتهم المانية ، وليس في مقدور احد ان يستعيد ذكراها ، بدون ان يشعر بنفحة عظيمة تمر نسماتها به ... ففي ضربة واحدة ازال بسمرك اثر الضعف الذي ظهر على الملك الشيخ في مبالغته بالحفاوة بالسفير الفرنسي بندتي ، واعلا قضية الترشيح للعرش الاسباني عن الخلافات السياسية المألوفة ، واخرجها عن اشباهها ونظائرها، واظهر للأمة ان الامر يتعلق بشرف المانية الذي عهد الى بروسية بحراسته ، فاثار عواصف الحماسة في اقصى البلاد وفي ادناها.

وكان بسمرك يحب اجتناب قتال الشعب الفرنسي، ولو انه سلم لالمانية بان يكون لها

من الحق ما نالته فرنسة منذ عصور ، ولم يكن ليقاتل في سبيل الالزاس التي انتزعتها فرنسة من المانية في القرن السابع عشر ، ولكن الفرنسيين الذين كانوا يتمتعون بمحاسن الوحدة لا ينفكون عن اثارة الفوضى في المانية باسم حرية الاعتقاد ، وغرورهم وشهوة السيطرة المتأصلة في نفوسهم ، جعلا فرنسة والمانية بحاجة الى تحكيم السيف ، ولم يخض بسمرك الغمرات الا بعد ان مهد الأمور واعد العدة ، حتى لم تجد دولة من الدول سبيلاً الى التدخل ، وبذلك كانت في جانب المانية العوامل غير المقدرة التي هي اعظم من الوسائل المادية ، وكانت السياسة ابلغ اثراً من الحرب ، وهي التي قادت المانية الى ما احرزته من نصر ، اما فرنسة فقد اعلنت الحرب على المانية وكانت هي البادئة ، حتى ان رئيس وزارتها قال : اننا نحمل هذه التبعة العظمى بقلوب طافحة بالمرح ، وقد اثقلت هذه الكلمة عاتق فرنسة ، كما اثقلت كلمة بتمن هولوغ عاتق المانية ، عندما وصف الحياد البلجيكي وضمان الدول ، بقصاصة ورق سنة ١٩١٤ .

ولم يقتصر بسمرك على القاء تبعة الحرب على فرنسة ، بل اراد ان يجر عليها غضب بعض الدول ، فأذاع في جريدة التيمس مشروع معاهدة كانت تجري حولها المفاوضات ، وقد اقترح نصها السفير بندتي باسم نابليون الثالث والحكومة الفرنسية ، وفي مادتها الثالثة تطلق فرنسة يد بروسية في المانية ما عدا النمسة ، كما ان مادتها الرابعة تدع بروسية فرنسة وشأنها اذا ارادت احتلال البلجيك او الحاقها ، وهي تؤازرها بقواها البرية والبحرية اذا اعلنت عليها الحرب دولة اخرى .

وقد ارسل بسمرك بلاغاً عاماً الى جميع المندوبين السياسيين للتحالف الالماني في العواصم الأجنبية في تموز سنة ١٨٧٠ ، يذكر فيه القواعد الرئيسية لسياسته العامة وخططه وتدابيره التي تفيد كل رجل دولة فقال :

منذ سادوفا ما برحت فرنسة تعرض على بروسية مقترحات مشتهاة ، تساوم فيها على المانية وبلجيكة ، وقد ظهر لي دائماً أنه من المستحيل على درس هذه المقترحات . ولكني رأيت مما ينفع السلام ، ان ادع رجال الدولة في فرنسة ، يعيشون في اوهامهم

المدى الذي اقدر عليه من الزمن ، وكنت ارى ان مصلحة اوربة في المحافظة على السلم، وان هذا السلم يصبح في عرض من الاخطار اذا قضيت دفعة واحدة على احلام فرنسة كلها ، وكان فريق من رجال السياسة يشير بانه لا يجوز ان يشتري السلم من فرنسة باي ثمن كان ، لان حربها امر لا بد منه ، غير اني لم اكن اشارك هذا الفريق في رأيه ، بل كنت اعتقد بضده ، لأنه لا يستطيع احد، بدون ان يشك او يرتاب ، معرفة ماتحمله المقادير ، ويلوح لي ان حرباً ظافرة هي في نفسها شر دائم ، يجب على رجال الدولة ان يصونوا الشعوب من عواقبه ، وكذلك فانه من المحتمل ان يصيب السياسة والدستور في فرنسة من التبدل، مايحول دون وقوع الحرب ، ويعين على اتقائها بين الشعبين المتجاورين .

وقد اصاب بسمرك باذاعة خطة فرنسة ومطامعها في بلجيكة بجريدة انكليزية كبرى، وذلك ليكشف القناع عن اطماع نابليون في جارته، ولاسيما لأن حماية استقلال هذه الدولة من قواعد السياسة الكبرى عند رجال الدولة البريطانية ، ومن قضايا بلادهم الحيوية التي حاربت لأجلها نابليون مدة اثنتي عشر عاما ، وهذا الطمع الذي كان يشتمل عليه قلب الفاتح الذي لم يبلغ مناه ، كان ينبغي ان يفكر في عواقبه الذين حاولوا مثل محاولته ، واثاروا الاضطراب في حرب سنة ١٩١٤ لاجل الحاق ساحل الفلندر .

ولكن كيف استطاع بسمرك ان يحرز هذه الوثيقة التي كتبها بندتي ؟ هنا كذلك احدى لعب الداهية الالماني ، لقد كان هذا السفير — يقول دو بيلوف في مذكراته — وزيراً مفوضاً لفرنسة في تورين ، وشهد ان بيمونت تنازلت لفرنسة جزاءً لمؤازرتها اياها عن سافوا ونيس ، فظن ان بروسية تذكر لفرنسة جميل صنعها بتركها اياها تضم شملها وتجمع وحدتها، وتكافئها على ذلك ، فكان في اثناء محادثاته مع بسمرك يذكر البلجيك تعويضاً موافقاً ، وانتهى الأمر ببسمرك ان قال له : الموضوع يكون ايسر معالجة اذا تركتني افكر فيه ، واناقش الملك الشيخ ، وذلك بان تبعث الى بصيغة مكتوبة ، واغرى بندتي بما اطرى من كفايته في انشاء

الوثائق السياسية ، عندما كان سكرتير مؤتمر باريس ، فخدع بهذه المداهنة ، وارسل الى الوزير البروسي مشروع المعاهدة المقصودة، ولكن لم تنقض ساعات حتى كتب الى بسمرك يطلب اليه ردها ؛ لان موظفي السفارة يعارضون في بقاء وثيقة خطيرة كهذه الوثيقة السرية ، في يد اجنبي ، فاعادها اليه بسمرك فوراً ، بعد ان كان قد صورها ، وقد اعلن صورتها عندما اذاعتها جريدة التيمس .

ولم يقصد بسمرك من نشر هذه الوثيقة التأثير على الانكليز والبلجيك فحسب، بل اراد ايضاً ان يؤثر على الالمان الذين كانوا يظنون انهم بمأمن من فرنسة ، لأن في مشروع المعاهدة (الدفاعية ـ الهجومية) اجزاء تقتطع من بلادهم ؛ فمن الخيانة المثابرة على هذه الدعوى في الحقيقة الراهنة ، واذا كان بسمرك يلام على خداعه نابليون وبندتي افلا يكون اجدر باللوم اذا تركهما يخدعانه ؟ وفي سنة ١٨٧٠ كان التفوق السياسي والنظر البعيد والتصميم والحذر والصبر والعزيمة والمهارة في جانب المانية ، وذلك على نقيض سنة ١٩١٤ .

اما اوربة فقد كانت تخشى صولة فرنسة واتساع نفوذها وعظم مطامعها ، ولذلك فانها صدقت مانشره بسمرك عن مقاصد نابليون في بلجيكة ، كما انها صدقت ايضاً مانشره سفير فرنسة بندتي من ان بسمرك هو الذي اوحى بهذا المشروع والصقه به ، وكيف تستبعد اوربة ذلك عن هذا الرجل ، الذي لاتحصر اساليب سياسته ولامبتكرات دهائه ؟ ولكنه على كل حال اصاب الغرض الذي رمي اليه في نشر هذه الوثيقة .

وفي بدء الحرب بين بروسية وفرنسة كان يعلن بسمرك انه يريد سلماً لافتح فيه ولا ارغام ، وانه لا يريد الا معاقبة نابليون والمؤتمرين معه ؛ وكان ينعت الشعب الفرنسي بانه الشعب الكبير الذي يجاور الالمان ، وان البلدين كليهما يريدان ان يعيشا برخاء وان يتمتعا بخيرات السلام ، ولكن نابليون هاجم بروسية في البر والبحر ، من غير ان يستشير الشعب الفرنسي في خوض غمرات حرب دامية ، ولذلك فليس هنالك اي حقد على هذا الشعب ، ولكن عندما جاء جول فافر مندوبا عن

الحكومة الجديدة ، ومعلناً ان فرنسة خلعت امبرطور الحرب ، وانها تجنح للسلم ، وانها عازمة على تعويض الخسائر ، كان بسمرك في الوقت نفسه يحادث المفاوض المندوب من قبل الامبرطورة اوجيني ، ويجيب جول فافر بقوله :

لا يهمنا وضع حكومتكم ، واذا كان نابليون يظهر انه اقرب لمصالحنا فسنذهب به الى باريس ، ولو كنت واثقاً ان سياستكم ستكون سياسة فرنسة لدعوت الملك الى العودة من غير مطالبة بغرامة او ارض ، ولكنكم لا تمثلون الا اقلية ذاهبة ، وليس لدينا اي ضمان منكم ، ولا من الذين يأتون من بعدكم ، ويجب علينا ان نفكر بأماننا وطمأنينتنا ، ونحن نطالب بان تتخلوا عن الالزاس بأسرها وعن جزء من اللورين .

اما جول فافر فكان يقول : انهم لا يتنازلون عن حجر واحد ، ويصف بسمرك بانه مهيب عنيف ، بسيط ، سهل الأخذ والرد ، لا تكلف عنده ولا ايذاء لمخاطبه ، وقد استقبله بادب ووقار وباسطه في الحديث مباسطة لم يخرج عنها الى النهاية .

وكان بالمستطاع الاتفاق على ان تبقى الالزاس واللورين في حالة حياد ، حتى لا تنشأ من الحاقهما المضار التي لا بد منها بسبب وجود فريق من الفرنسيين لا يسهل ادغامهم وازالة ما في نفوسهم من شعور وعاطفة وتقاليد وذكرى ، ولكن حياد الالزاس واللورين يجعل فرنسة في امان على حدودها مع ما يقوم بينها وبين المانية من دول محايدة كالبلجيك وسويسرة ، اللتين تضاف اليهما الالزاس واللورين ، على حين ان المانية اقل من فرنسة قوة في البحر ، وانها بحاجة لتكون في مثل هذه الحال من الامان ان تقوم الى جانبها دول محايدة في بحر البلطيك والبحر الاسود ، الا ان الجيش كان مصراً على الالزاس مع ستراسبورغ واللورين مع متز ، وقد انحنى بسمرك لرغبة الملك ورغبة القواد حتى في بعض ما لا يعتقد انه ضروري للدفاع والأمان .

ولم يكن بسمرك في بادىء الأمر شديد الرغبة في انشاء المانية الكبرى ، ولكنه كان يتقبل شيئاً فشيئاً هذه الفكرة حتى استولت عليه ، واخذ يهيء لها اسبابها

بدقة وبراعة، ويستمد لذلك حتى برغم الملك نفسه، ولما جاء يوم النصر المبين في فرساي، أشاح الملك عنه بوجهه ولم يمد اليه يده، كانه آثم بعمله اوجان عليه، او انه اراد ان يختار للحكم الرجل الذي لايطيقه، فكان يحيط به الخصوم من الملك والأمراء والقادة والساسة وهو يتنقل في مراحل النصر .

وقد التقى بسمرك مرة اخرى بجول فافر فبادره بقوله : ليس الموقف الآن كما كان في ايلول، واذا كانت الغاية من هذا الحديث ان تقول انكم لاتتنازلون عن حجر لخصومكم، فمن العبث ان نتكلم، وكان مضى على حصار باريس ثلاثة اشهر، ثم قال له : لقد كثر بياض شعرك ياحضرة الوزير منذ آخر اجتماع، على ان مجيئك لافائدة منه، لانه لدي وراء الباب مندوب من لدن نابليون للمفاوضة، وفضلاً عن ذلك فانكم لاتمثلون الا طائفة من الثائرين، فلماذا امنح جمهوريتكم صبغة شرعية بمفاوضتي اياها، وما انتم في الحقيقة الا فئة ثائرة، واذا عاد امبرطوركم فانه يحكم عليكم جميعاً بالاعدام .

وعندما اجابه جول فافر ان فرنسة ستكون اذن فريسة للفوضى والحرب الأهلية، قال له : واي ضرر يلحق بالمانية من جراء ذلك ؟ ولما سأله جول فافر اذا كان لايخشى ان يبعث في الشعب الفرنسي روح القنوط واليأس الذي يبعث الاستماتة في المقاومة، قال له : تبحث عن المقاومة، اسمع ماقول لك : لايجوز لكم امام الله والناس، ان تقودوا مدينة يقطنها مليونان من السكان للمجاعة، ابتغاء مفخرة عسكرية ضئيلة، فقد قطعت السبل، واذا لم نمدها بعد ثمان واربعين ساعة فستخسرون في كل يوم مئة الف، فلاتذكر المقاومة، انها جريمة كبيرة، ثم قام يريد الباب الذي زعم ان وراءه مندوب نابليون، فقال له جول فافر : لاتسوقوا فرنسة بعد هذه المصائب الى تحمل عار نابليون . وجاء بعد ذلك تيير وتم الاتفاق على التسليم والغرامة والتنازل .

وقد يكون اعظم مدح تلقاه بسمرك ماقاله جول فافر عنه : انني اقر بانه رجل سياسي يتجاوز تجاوزاً بعيداً كل ما قد يظن برجل سياسي، وهو يظهر كأنه

لا يكترث إلا بالأمور الواقعة ولا يبحث الا عن الحلول العملية ، وتغلب عليه في بعض الاحيان عصبية وشدة ، وقد شهدت من تسامحه كما شهدت من تشدده مالا استطيع ادراك سببه ، وهو لم يخدعني قط ، وقد آذاني في كثير من الاحيان بقسوته وجفائه ، على انه كان شديد التقيد فى الامور الصغيرة والأمور الكبيرة بدون تمييز .

وقد تنبأ بسمرك وغيره بعاقبة هذا النصر ، ولو انه ساد الاعتدال فيه ، واقتصر الالمان على مايحتاجون اليه مما هو مفيد لهم عسكريا اوماهو مرتبط بهم تاريخياً ، لكانوا اجتنبوا اثارة حفيظة عدوهم حتى غسل عنه العار الذي لحقه ، على ان بسمرك كان يخشى تقلبات الأيام ، ولا يغفل عن مراقبة السياسة الفرنسية وسياسة سائر الدول ، شديد الحذر من تحالف الاعداء والخصوم ، حتى كتبت عنه جريدة فرنسية ان خوف المحالفات التي تعقدها الدول بينها لا يفارق خاطره ، فقال : ان هذا النوع من الحلم المخيف ، يجب ان لا يفارق مدة طويلة ، بل اقول ابداً ، مخيلة وزير الماني .

وما زال الباحثون ينظرون الى عمل بسمرك العظيم نظر الاعجاب ، من غير ان يثبط هممهم ما يجدون احيانا من مناقضاته ، وقد كان الرجل السياسي الذي يثير الاهتمام اكثر من كل رجل سواه ، وان كان يؤذي النفوس احيانا بما يرى من مخادعته الآخرين ، لأنه كان لا يبالي ما يفعل في سبيل الوصول الى غايته ، رجل فوق الرجال ... وهو على عنفه وشدته يضعف احياناً عن ايذاء بعوضة ، ويبعث في النفوس تقديرات غريبة ، ولا يستطيع احد ان لا يعجب به ، وهذا سر عظمته .

٥ — سياسة بسمرك الأوربية

مؤتمر برلين ودزرائيلي

كان بسمرك يرى سياسة الأمور الخارجية غاية الغايات ، فهو يتطلع اليها في كل شيء وقبل كل شيء ، وقد حافظ على السلم مدة عشرين سنة ، من غير ان يكون مدفوعاً الى ذلك بسائق الشعور الانساني ، ولا بسائق الخشية على شهرته ، ولكن ثقة منه بأن اوربة لا تقف متفرجة على ما يصدر منه وايديها مغلولة الى عنقها ، وكان راسخ القدم في صناعته بحيث لا يفرط في شد قوسه حتى ينقطع وتره اذا بلغ نهايته مداه ،

ولم يكن في معالجة الأمور الخارجية يتجاوز الغرض في رميته او يرمي دونه ، والشؤون الداخلية تأتي عنده في الدرجة الثانية . لأن عنايته بالأولى تجعلها في في منزلة يقف دونها كل فكر وجهد .

وكان يقول ان مصلحتنا تقضي بالاحتفاظ بالسلم،في الوقت الذي يريد جيراننا اذكاء نار الحرب،لان لديهم آمالا ورغائب خفية او علنية لاتتحقق الا بها،ونحن علينا ان نجتهد في اطفاء الاحقاد التي اثرناها حولنا بعد ان اصبحنا دولة عظيمة ، وذلك بأن لا نضع قوتنا في الميزان الا بالأسلوب الشريف الهادىء ، والامبرطورية الألمانية تستطيع بالسياسة التي تتبعها ان تجعل حقوق الدول الأخرى محترمة .. وهي لا حاجة لها بالنمو والتوسع اكثر مما هي عليه ، وقصارى ما اتمناه بعد ان وحدت البلاد في داخلها وامنت لها حدودها ، ان اجعل الدول العظمى تثق بالسياسة الالمانية وتعتمد عليها ، فهي بعد ان ازالت الجور الذي أصابها بتجزئة بلادها ، اصبحت سلمية عادلة ، والمسائل الدولية التي لاتسوى الا بالحرب بين الشعوب لااراها اكثر من مسائل الشرف التي يتبارز لاجلها الطلبة في المدارس .

وكان يردد على آذان المقربين منه بعد حرب السبعين،انه اوربي قبل كل شيء، وان قلبه لا يشتمل على شعور الوطنية الجاهلية العمياء ، ولا على ان شعبه هو الشعب الذي اختاره الله لحكم العالم،وكان يستطيع ان يضرب فرنسة ضربة ثانية سنة ١٨٧٥ ، بعد ان هاجت فيها عواصف الانتقام والتهديد والوعيد ، ولكنه كان يرى اثارة حرب كهذه الحرب على فرنسة ،قبل ان تنهض من عثارها وتتنفس مما اصابها ، يفسح المجال لانكلترة حتى تبحث عن الانسانية،وتشد عزائم روسية التي اصبحت تتساءل اذا كان في وسعها ان تصبر اكثر من ذلك ، وكان يقول عند اشتداد الازمة في البلقان انه لا يريد ان يتدخل في شأنها،فكل دولة ينتصر لها تنتصر فرنسة لعدوتها، فهو يدفع الأمور بعضها ببعض،ولا يشير على المانية ان تقوم بعمل من الاعمال في البلقان ، اذ ليس لها فيها ــ كما قال في كلمته المشهورة ــ مصلحة تعادل عظام جندي من بومرانية .

وكان لا يريد اشتباك روسية والنمسة ، لأن المانية لا تستطيع أن تبقى على الحياد ، اذ الحياد يذكي في قلب المغلوب نار الحقد والضغينة ، وكما انه لا يوافق المانية ان يقضي على النمسة، فانه اذا قضى عليها تضم اليها المانية الشعوب الجرمنية ، ولكن ماذا تصنع بالمجر والصقالبة ؟ وكان يريد في مؤتمر برلين ان يكون وسيطاً شريفاً ، - وهل يستطيع الوسيط ان يكون شريفاً ؟ - وقد التقى في هذا المؤتمر بخصمه غورشاكوف الروسي، ودزرائيلي السياسي الانكليزي القدير الذي كانت له المنزلة الأولى في نفس بسمرك ، وكان يقول عنه : لقد اجتمعت اليه مرات واطلعت على مكنون امره ، فالمناقشة معه سهلة ، وفي ربع ساعة تعرف ماذا يريد والحد الذي لا يتخطاه ، وكانت بين الرجلين صلة قديمة ، وقد تغيرت ملامح بسمرك ولكنه لم يزل على اسلوبه في البساطة والعمل والصراحة المدهشة، والصوت الضعيف الذي يخرج من هذا الجسم الضخم ، فأطلع دزرائيلي على رأيه بالاسراع في اعمال المؤتمر، والبدء بالمشكلات الخطيرة التي يخشى منها ان تبعث الحرب ، وسار المستشار الالماني في اعمال المؤتمر بما يشابه المفاجآت العسكرية .

وكانت قضية بسارابية التي منحت لروسية ودوبروجة الشمالية التي انتزعت من بلغارية ومنحت تعويضاً لرومانية، من القضايا الدقيقة التي عالجها المؤتمر ، لانها تتعلق بدولة اوربية كبرى : هي روسية التي لا يريد بسمرك ان تهان كرامتها .

وقد ناشد برتيانو وزير رومانية المجلس الاوربي الكبير ، ولاسيما الأعلام الذين كانوا يمثلون امبرطور روسية ، ويقدرون عند سنوح كل فرصة ان يظهروا ما اشتملوا عليه من نفس رفيعة وقلب كريم . ولكن خطبة برتيانو البليغة ومدائحه الجميلة ، لم تجد مساغاً الى قلوب مندوبي روسية ، حتى ان بسمرك اصر على ابقاء بسارابية في حوزة روسية ، واعرب عن امله بان دولة الدانوب الناشئة ، لا تنكر صنيع روسية بمؤازرتها على نيل استقلالها ، ثم قال : ان عمل المؤتمر لا يكون في رأيي وطيداً اذا بقيت فيه كرامة جريحة تشعر بها سياسة امبرطورية عظيمة ، ومهما كنت احمل في جوانحي من العطف على رومانية، التي يجلس على اريكتها ملك من

الأسرة الامبرطوربة الالمانية، لايجوز ان أستوحي رأيي الامن دواعي المصلحة العامة، التي تستلزم ضمانات جديدة للسلم في اوربة . وقد تأذت رومانية كثيراً بانتقاص بلادهـا وانتزاع بسارابية منها ، ولاسيما بعد الخدمات الجلى التي قام بها الجيش الروماني، بقيادة البرنس كارول العسكري الجريء البـارع ، في شدأزر الروس ومساندتهم في البلقان ، فـكان يرى اهلها في هذا العمل نكرانا للجميل ، وبقيت رومانية بعد ذلك وثيقة العرى بدول التحالف الثلاثي وخاصة بالمانية ، ولـكن اغلاطاً كبيرة ارتكبت سنة ١٩١٤، جعلت رومانية تنقلب على المانية ونقطع الصلات التي تربطها بها منذ سنين كثيرة .

واشتد الخلاف حول تقسيم بلغارية بين دزرائيلي وغورشاكوف الذي ركب متن العناد ، كما ان دزرائيلي اصر على رأيه ، وكتب الى الملكة فكتوريا انه لايخشى العاقبة ، وقد اطلع من يجب اطلاعه انه عزم على مغادرة المؤتمر اذا لم تقبل آراء انكلترة ووجوه نظرها ، وقد نجح في انذاره الذي كان جاداً فيـه ، ووافقت بطرسبرغ على خطة بريطانية التي رسمتها فيما يتعلق بحدود تركية في اوربة ، وقد رفعت هذه الحادثة قدر دزرائيلي في عين بسمرك وقال عنه : لله در هذا اليهودي الشيخ وياله من رجل ! واصبحا صديقين متواثقين بالمودة مرتبطين بالصناعة، يفضي احدهما لصاحبه بما يكن في صدره من آراء في البرلمان والأمراء والوزراء ،وكان بسمرك يرى انه اعلى مكانة ، لانه غير مقيد بشيء ولأنه اكثر صراحة وأقل مبالاة، على حين ان دزارائيلي فيه نواح ضعيفة ومغامز ظاهرة ، فتسهل مقاتلته بالوسائل التي تضعف فيها مقاومته ، وبسمرك يتأمل ماتشتمل عليه النفوس من عجب وخيلاء، ويسره ان تقاوم بعضها بعضاً وان يستثمر مافيها من ضعف وعجز، اما دزرائيلي فانه يحزر المقاصد البعيدة ويدرك كنهها ، وكان ذات مرة يحدث بسمرك عن رأيه في المستعمرات ويرى من حسن السياسة ان يذكر له معارضته اياها وكانت امام الرجلين خارطة للعالم فوضع دزرائيلي اصبعه على البلقان قائلاً : الا تعتقد انه يوجد هنا مكان صالح للاستعمار ؟ فنظر اليه بسمرك من غير ان يحير جوابا ، وكان يلذ لبسمرك ان يثير المشاكل وان يقوم بتسويتها .

وقد استقبل دزرائيلي عندعودته من مؤتمر برلين هو وسلسبوري استقبالاً لانظير له ، فاطل على الجماهير المزدحمة وقال : لقد حملنا اليكم على ما اظن السلم مقرونا بالشرف . وعندما اعلنت انكلترة اتفاقها مع تركية على احتلال قبرص، سكن الرأي العام الهائج بسبب ما احرزته روسية ، وظلت التقاليد حية في بريطانية ـ كما قالت يومئذ جريدة الديبا الفرنسية ـ في قلب امرأة ورجل دولة شيخ، باحتلال هذا المكان المنيع .

اما مؤتمر برلين فقد وصف غاياته اميل لدويغ في كتاب بسمرك بقوله : انه كان يرمي، علاوة على الكذبة المشهورة في حماية النصارى ، الى تحديد مناطق النفوذ للدول العظمى ، وكان القيصر يعتقد ان الوسيط الشريف قد تخلى عن روسية ، وان بسمرك خدع وكلاءه، وقاد اوربة في برلين الى مقاومة روسية والاعتصاب عليها ـ هذا المؤتمر الذي بذر القلاقل في البلقان وزرع الخلاف بين الدول، غير ان هم بسمرك كان في الحدود القائمة بينه وبين فرنسة ، لا في الامبرطورية التركية، فهناك ثم هناك تعمل سياسته ، وهو يسعى للمحافظة على العلائق الحسنة بين المانية وبين عدوتها ومنافستها ، بل انه ليرى اكثر من ذلك اذا اشتبكت حرب ثانية بين المانية وفرنسة وانتصرت الاولى ، فسيكون عدلاً متسامحا ، يعاملها كما عامل النمسة سنة ١٨٦٦ ، اذ لا سبيل الى القضاء على اربعين مليون اوربي اولي مدنية وحضارة وثقة بانفسهم ، وقد عجزت ثلاث امبرطوريات عن القضاء على بولونية مدة ثلاثة عصور ، فكيف بفرنسة التي لا نقاس بها وهي تقاوم المانية وحدها .

٦ — بسمرك والمحالفات الدولية

المواثيق السياسية المختلفة

حاول بسمرك محاولات عديدة ان يتقرب من انكلترة وان يتحالف واياها ، وكان ذلك غاية ما يتمناه ، حتى انه قال : ان له هوى في انكلترة ، ولكن الانكليز لا يريدون ان يحبهم الالمان . ولم يكن بسمرك يعتقد ان مستقبل المانية في البحر ،

ولا يريد ان يخاصم الانكليز وينافسهم في السياسة الاستعمارية التي يقضي بها وضعهم الجغرافي ، وكانت قاعدة سياسته الاكتفاء بما لدى المانية من الاراضي، والاستكثار مما يزيد في أمانها وطمأنينتها ، ولكن التحالف الذي اراده واقام عليه البراهين لم يبلغ منه غايته ولم يوافق سلسبوري عليه ، وكان يحتج بانه لايجوز لانكلترة ان تكون حائلاً دون احراز المانية بعض المستعمرات ، لاسيما وان الدولتين في تحالفهما وتعاونهما تستطيعان المحافظة على السلام وتدفعان الاخطار عنه .

واذا كانت مساعي بسمرك قد اخفقت في اجتذاب انكلترة الى المانية، فانها كانت اسعد وانجح في العقود التي ابرمتها مع النمسة وروسية ، وكانت المانية تسير في سياستها بين الدولتين على منهاج يختلف باختلاف الحوادث ومقتضياتها ، وكانت روسية تشجع النمسة احيانا وتنشط بسمرك احيانا ، على ان وزيرها غورشاكوف لم يكن راضيا عن السياسة البريطانية ، التي كان محافظوها يرون رأيا في القضية الايطالية ثم يأتي احرارها فيرون رأيا آخر ، وكان يتساءل عن اي انكلترة من هاتين الاثنتين ، يجب ان تقبل مبادئها ، واذا كان الآن يوافق على سياسة اللورد رسل في ايطالية فماذا يصنع اذا خلفتها حكومة محافظة ؟ وكانت سلطة غورشاكوف توازن احيانا سلطة بسمرك ، وهو رجل دولة مذكور ، ولكن فيه نواحي ضعف تخفض من شأنه ، فقد كان يفرط بالاهتمام بنفسه . وكان غروره ذائعاً مشهوراً ، وقد استفاد من ذلك صديقه ومنافسه بسمرك ، ولكن أثار حفيظته في مؤتمر برلين بحرمان روسية من جميع المزايا التي نالتها في معاهدة سان استفانو، فوضع اسس التقارب بين روسيه والدول الغربية ، برغم اهتمام بسمرك بان يجعل روسية محالفة لالمانية ، وبرغم المكانة التي مابرح يتمتع بها عند القيصر وحاشيته .

وقد سجلت معركة سادوفا اخراج دولة النمسة من المانية ، ووجهت سياستها نحو الشرق والجنوب ، فارتكبت بذلك اغلاطاً شتى كانت قاضية عليها ، وفي مقدمة هذه الاغلاط العهد الذي وضع سنة ١٨٦٧ ، وجعل الشعبين الالماني والهنغاري يسودان النمسة، مع معاملة متفاوتة لبعض العناصر الصقلبية الأخرى ، وكان تأثير

رجال الدولة المنفاريين عظيما في هذا الاتجاه، حتى يحتفظوا بالامتيازات التي انتزعوها من النمسة، ويحولوا دون عودتها الى صبغة المانية بحتة، كانوا يستثيرون الحقد الذي تحمله على روسية بعد انكسارها في سادوفا.

وكانت اسباب الافتراق بين روسية والنمسة كثيرة، فالاولى لاتطيق الثانية وخاصة بسبب بولونية والكثلكة والجامعة الصقلبية وقضايا البلقان، ومع ذلك فلم تكن تحجم عن الاتفاق معها لتأمين التوازن، اما التحالف الذي كان مزمعا عقده بين الامبراطرة الثلاثة سنة ١٨٧٣، فقد كانت ترى روسية ان فائدة النمسة منه اكثر من الجميع، لان كيانها المهدد يكون مضمونا به، ولكن تفاقم المشاكل في الشرق كان عقبة في سبيل هذا التحالف، ولم يتردد بسمرك في اختيار النمسة برغم معارضة الامبرطور غليوم، وقد سار في خطة الاتفاق معها منقاداً لاسباب نفسية واخرى سياسية: اما الاسباب النفسية فخصومته لغورشاكوف، ورغبة البلاد الالمانية الجنوبية التي هتفت لهذا الاتفاق وتقبلته بقبول حسن، واما الاسباب السياسية فقد كتب عنها في ذكرياته قائلاً: لقد انتصرنا في الحرب على دولتين عظيمتين في اوربة، فينبغي ان نقصي على الاقل احدى الدولتين عن الالتحاق بسواها حتى تنتقم وتثأر، ولانستطيع ان نتوجه برغبتنا نحو فرنسة، فكل من عرف الشعب الغالي وصفاته لايرى فائدة في ذلك. ثم ان الاتفاق مع النمسة التي هي اضعف من روسية يجعل المانية تسيطر عليها، وهذا ماتأباه روسية بل لايمكن تنفيذه فيها. وقد كان بسمرك في هذا الاتفاق اكثر تسامحاً مع الفريق المعاقد، فادخل فيه المرة الأولى شروطاً تتعلق بان تدافع المانية عن النمسة من غيران تعاهد النمسة على مثل ذلك فيما يتعلق بالالزاس، فلم تكن اللعبة السياسية متساوية بين الفريقين.

وقد اثار بسمرك في هذه المحالفة غضب روسية وحرك النفوس في فرنسة واحيى آمال بنيها في التماس الثأر، وبقي ثماني سنين يداوي الشر الذي بعثه من مرقده، ويتقرب من روسية لانه يخشى حربها اذا كان لها احلاف، ويعتقد ان نتائج الحرب الخطيرة هي اعظم من النصر حتى اذا كانت المانية منتصرة، على ان

اجتذاب بسمرك للنمسة كان موقفاً حاسماً مهما كانت التقلبات التي جرت من بعده ، ولم يكن امام بسمرك مجال للاختيار بعد ان اقصى روسية وحاول عبثا ان يتقرب من انكلترة ، على انه استفاد من هذا الاتفاق في بادىء عهده ، فلم تتفق انكلترة مع فرنسة ولا تساهلت مع روسية .

وعندما كانت السياسة الفرنسية ترمي ببصرها نحو روسية كان التحالف المعقود سنة ١٨٧٩ بين النمسة والمانية ،موجهاً في بادىء الأمر الى روسية ثم الى فرنسة ، وكان من الناحية العسكرية ضمانا للدولتين ، ومن الناحية السياسية مثبتاً لنتائج الانتصار الالماني سنة ١٨٧١ ، وكان بسمرك يريد ضم ايطالية الى التحالف ولكن بامتهان وازدراء ، ويدل على ذلك ما كتبه من ان الايطاليين كالغربان الذين يحومون في ساحات الوغى ليقعوا على اشلاء القتلى .وبانضمام ايطالية سنة ١٨٨٢ اصبحت الامبرطورية الالمانية على رأس تحالف عظيم يمتد من بحر الشمال الى البحر الابيض ويسيطر في اوربة الوسطى ، وكانت ايطالية راغبة في التحالف لتأمن بذلك الخلاف مع النمسة ، وكانت ايضاً علائقها غير متينة مع فرنسة ، وقد ساعدت قضية تونس على توثيق العرى بينها وبين المانية ، وكانت ايطالية حريصة على دخول بريطانية في التحالف كي تطمئن على شواطئها في البحر المتوسط اذا وقعت حرب ، وكان بسمرك يطمع بالتقرب من انكلترة عن طريق ايطالية ، ولكن الخلاف بينها وبين النمسة لم يكن لينقطع ، ولم يكن يجهل انها لن تمد حليفتها باية معونة ، حتى ان رجالاً في النمسة كانوا يفضلون نقض هذا التحالف مع ايطالية ، وقد اشتد النزاع حينما الحقت النمسة البوسنة والهرسك ، وعملت على تثبيت اقدامها في البلقان ، حيث وقفت العناصر الصقلبية ايضاً في وجهها وصدتها عن طريق سلانيك ، وكان بوسعها اجتناب الاخطار التي يهددها بها الصقالبة لوانها انشأت سنة ١٨٦٧ دولة ثلاثية ، ولكن الذي كان ممكننا في هذا التاريخ اصبح مستحيلاً سنة ١٩١٤ ؟ وظلت ايطالية تتقارب في سياستها من انكلترة وفرنسة ،برغم وجودها في التحالف الثلاثي التي كان يساء اليها فيه .

ومع ان بسمرك كان يجد في توثيق عرى هذا التحالف، فلم يكن يغفل امر روسية كاعمل باتفاق الامبراطرة الثلاثة وميثاق الضمانة المتبادلة ، وفي اثناء هذه المحاولات وافق روسية على مهاجمة البسفور والزحف من بلغارية ، على ان تحافظ على حيادها اذا نشبت حرب بين المانية وبين فرنسة ، اما مايتعلق بالنمسة ، فقد وعدت المانية بالمحافظة على التوازن في البلقان ، واذا كانت النمسة معتدية فان المانية لاتحرك ساكناً ولاتبدي حراكا.وهذا الاسلوب في وصف حرب الدفاع وحرب الهجوم الذي يكاد يكون في جميع المعاهدات السرية لافائدة منه ابداً ، لأن تمييز المعتدي وتحديد الاعتداء من الامور التي لايمكن ادراكها .

وقد تهيأ بسمرك لدفع غضب النمسة بقوله : اظن ان الامبرطور يرضى بالشرط الذي وضعته ، واذا خدعت ولم يكن راضياً ،فان عدم ثقة امبرطور النمسة اقل خطراً من عدم ثقة القيصر الروسي ، وفضلاً عن ذلك فالعلائق بيننا وبين النمسة تبلغ من المكنة والقوة مالا يتزلزل بريبة ملك شاك ، وما من ضرر يلحقنا اذا اشاعت روسية الامر،على اني لااكره ذلك ، ولااظن في هذا مايهم امبرطور النمسة،ونحن انما نريد ان نتخلص من الاتفاق الفرنسي الروسي لمدة ثلاث سنين .

وكان بسمرك استاذاً في هذه الطريقة المكيفلية ، وقد اقصى في هذه المعاهدة اربعة اخطار : فشغل روسية بالقسطنطينية عن الحدود الالمانية ، وجنب النمسة المغامرات البلقانية ، وفصل فرنسة عن روسية ، وجعل انكلترة قلقة تريد ان تتقرب من المانية ، اما الشعوب فكانت في هذه اللعبة كحجارة رقعة الشطرنج .

ولكن الوضع الاوربي الذي نشأ من انتصار المانية ، وسياسة مستشارها وخططه في عقد المحالفات ، حملت فرنسة على البحث عن حلفاء تستعين بهم ، كما كانت في الماضي تحالف تركية والسويد و بولونية وروسية لاتقاء خطر الامبرطورية الجرمنية، حتى ان بطرس الاكبر عندما زار فرنسة، عرض على فليب دورلئان القائم باعباء الملك التحالف مع روسية ،وقال له اني اقوم لكم مقام بولونية وتركية والسويد . وبعد عصر ونصف من هذا التاريخ ، وعلى اثر حرب القرم قال بسمرك : ان التحالف بين

روسية وفرنسة ناشيء عن طبيعة الاشياء ، وجقاً ان تحالفهما هو من عوامل التوازن في اوربة ومن اسباب الطمأنينة للدولتين .

ولأجل عقد هذا التحالف تحتم على الروس والفرنسيين ان يأتوا من بعيد ويلتقي بعضهم ببعض ، وقد تبين لرجال السياسة المختلفين في فرنسة بعد سنة ١٨١٥ مايجنونه من التحالف مع روسية ، حتى ان شارل العاشر الذي اعترضت انكلترة طريقه وعارضته في احتلال الجزائر ، استعان بروسية حتى تغلب على معارضة انكلترة وتهديدها ، وكان وللنغتن طلب من الحكومة الفرنسية ان لاتحتفظ بالاراضي الافريقية التي احتلتها ، فرفض بولونياك ان يأخذ على عاتقه اي عهد بذلك ، وفي ٢٠ تموز سنة ١٨٣٠ اعلنت فرنسة قرارها بجعل هذا الفتح نهائياً ، ولم يكترث شارل العاشر بمذكرة الحكومة البريطانية بل ردها اليها وكتب في حاشيتها : لم اعبأ عندما قمت بفتح الجزائر بشيء غير نفوذ فرنسة ، واني لااستشير غير مصلحتها في امر الاحتفاظ بهذا الفتح ولما هدد سفير انكلترة اللورد ستوارت وزير البحرية في فرنسة ، اجابه بعنف : ان فرنسة لاتهتم بانكلترة ، وهي ستعمل ماتريده بدون ان تخشى معارضة اومراقبة ، وكانت شكوى انكليترة من ذلك العهد شديدة فقد سبب لها في سنة من المشكلات مالم تسببه فرنسة الجمهورية ولافرنسة الامبرطورية ، حتى قال وللنغتن عن بولنياك : قد يظن انه رجل صادق الطوية ولكني اراه من اخبث الرجال واكثرهم مكراً .

أما روسية التي اتجهت اليها السياسة الفرنسية لمقاومة انكلترة فقد كان نابليون الثالث مخطئاً في اجتلابه عداءها في حرب القرم وبولونية ، ولم تجد روسية بعد ذلك في انكسار فرنسة في حرب السبعين الا وسيلة لتعديل بعض شروط معاهدة باريس ، فاعلنت روسية في تشرين الأول سنة ١٨٧١ ، ان القيصر لايرى انه مقيد بالشروط التي امليت عليه سنة ١٨٥٦ ، وحددت حقوق سيادته في البحر الاسود ، وهو لايقبل ان تكون سلامة روسية مرتبطة بامر موهوم ، لم يثبت على امتحان الزمان ، فاجابت انكلترة انه لاتستطيع دولة ان تجعل نفسها بحل وحدها من شروط

معاهدة، بدون ان تنال موافقة موقعيها . وقد استشارت حكومة بريطانية بسمرك فاجاب بتسوية الخلاف في مؤتمر ، وقبلت روسية المبدأ القائل بانه لا يجوز ان تنقض المعاهدة من جانبها فقط ، غير ان هذا التنازل لم يكن الا ظاهراً ، لأن مؤتمر لندرة الغى البنود التي كانت تقيد حرية روسية في البحر الأسود .

ولم يستطع تيير ان يظفر من روسية بتحالف او عهد، وظل غورشاكوف واثقا بپروسية الى ان عقد مؤتمر برلين . وميثاق الامبراطرة الثلاثة الذي كانوا يسمونه في المانية لم يكن الا ليزيد في عزلة فرنسة المغلوبة التي بقيت وحدها في اوربة ليس لها ما تعتمد عليه غير قوتها ، وقد كانت ظروف كثيرة تحول دون خروج فرنسة من هذه الأزمة ، وأن تؤمل الاتفاق مع روسية ، كاختلاف انظمة الحكم فيها والاتجاه الحر في السياسة الفرنسية والعطف على احرار الروس ، على ان مصالح الفريقين كانت تدفعها بعضها لبعض ، وقد حال بسمرك دون اتفاق الدولتين بوضع عقود التضامن مع روسية ، ولكن المسيو دو فلوران وزير خارجية فرنسة سنة ١٨٨٦ ؛ اخذ يستفيد من تطور الحوادث في الشرق للتقريب بين روسية وفرنسة وتعاونها ، وقد احتاجت روسية الى المال فوجدت عند الفرنسيين من اجابة طلبها ما جعلها تعترف لهم بالجميل ، واخذ التقرب يزداد حتى خرجت الدولتان عن عزلتها واعانتا على حدوث التوازن في اوربة فاصبح هنالك التحالف الثلاثي يقابله التحالف الثنائي ، حتى أن الكونت ويت قال سنة ١٩٠٥ بعد حرب اليابان والروس ، عن ميثاق ١٨٩١ المعقود بين فرنسة وروسية : ان روح العلائق بين فرنسة وروسية لم تتغير ، وسيبقى التحالف منطبقا على مصلحة الشعبين ، فلا يتغير فيه شيء ولا يجوز ان يتغير شيء .

واذا كان التحالف بين فرنسة وروسية يعد من طبيعة الاشياء ، فانه لم يكن اتفاقا غير منتظر، كالاتفاق الودي الذي تم سنة ١٩٠٤ ووضع حداً للنضال الموروث بين الدولتين ، ففي سنة ١٨٠١ جر الشعب الانكليزي عجلة الكولونل لورستون حاجب القنصل الأول الذي جاء لعقد السلم ، وبعد ذلك بقليل سارت انكلترة لحرب نابليون حتى قضت عليه في واترلو ، وعندما ذهب المرشال سولت الى انكلترة

سنة ١٨٣٨ للاحتفال بتتويج الملكة فكتوريا استقبله الشعب الانكليزي بحماسة زائدة ، ولكن سنة ١٨٤٠ كانت الحرب على الابواب بين الدولتين، وفي عهد نابليون الثالث كانت فكتوريا تحرض على فرنسة تحريضاً شديداً . وقد كتب البرسوول في جريدة الطان سنة ١٩٠٣، انه يمكن ان توضع بين انكلترة وفرنسة - وقد وضعت عهود يراد منها المحافظة على النظام الكائن، ولكن انكلترة ما كانت ابداً ولن تكون ابداً حليفة لفرنسة ما لم تعدل هذه عن سياسة التوسع وبسط السلطان . وذكر الاورد شتم مثل ذاك قبل عصر فقال : ان الشيء الوحيد الذي تخشاه انكلترة في هذا العالم هو ان تصبح فرنسة دولة بحرية استعمارية تجارية ، ومنذ سقوط آل ستوارت فان الحرب كانت القاعدة للعلائق الفرنسية الانكليزية ... وقد يتخلل هذه الحروب سلم قصير الاجل ، وهذا السلم القصير نفسه كان حاولا بالشك والريبة كما هي القاعدة المتبعة في الماضي ، لأن انكلترة كانت ترى فرنسة اشد اعدائها مراساً في اوربة وفي خارج اوربة ، فهي تدافع مايحتمل من انتصارها ، وتقاتل دون سيادتها البحرية التي هي شرط بقائها . وفي القرن الثامن عشر كذلك قال فافيه الذي هو من اشهر كتاب هذا العصر السياسيين : لقد اتخذت انكلترة لنفسها منهاج تتبع لخططنا واستطلاع لاعمالنا ، ووقوف على كل حركة من حركاتنا حتى لاتتأخر في دفعها ومقاومتها، بمخادعات ممزوجة بالترفع والكبرياء، ومظاهر ممزوجة بالتهديد والوعيد .

وهذا الشعور هو الذي جعل انكلترة تقرر المبدأ القاضي بان يكون اسطولها اكبر من اسطول دولتين مجتمعتين من اكبر دول اوربة البحرية ، ولكنها وجدت انه لامناص لها من الاستعانة بفرنسة في القرن التاسع عشر، من غير ان تمسك عن اقامة العقبات في سبيل التوسع الفرنسي ، حتى ان قناصلها في مختلف البلدان الافريقية كانوا يحرضون المسلحين على فرنسة كما فعلت المانية في مراكش سنة ١٩٠٥ ، وقد نشطت انكلترة فرنسة في مؤتمر برلين على احتلال تونس لتحملها على التسليم باحتلال قبرص، واخذت السياسة الانكليزية تضاعف جهودها لتقيم العقبات

في سبيل فرنسة ، فاكدت للسلطان عدم رضاها ، ورفضت ماطلبه الباي من معونتها ، ولكن اعلنت اسفها لأن فرنسة اثارت المسألة الشرقية وبعثتها من مرقدها لخدمة مصالحها ، وما اصبح النصر معقوداً للجيوش الفرنسية حتى استولى السخط على الصحافة الانكليزية ، واحتج سفير انكلترة في ١٤ مايس سنة ١٨٨١ على احتمال جعل بزرته قلعة محصنة ، وبلغ الخلاف اشده في قضية مصر ، فمنذ فتح قناة السويس تضاعفت مكانة طريق الهند في نظر انكلترة ، واشترى دزرائيلي سنة ١٨٧٩ اسهم الخديوي في القناة وارتكبت فرنسة ـ على قول المسيو تارديو ـ الخطأ السياسي في جعل انكلترة وحدهـا في وادي النيل .

فما هي اذن على الرغم من كل ذلك بواعث الاتفاق الودي ؟ انه ليس في انكلترة ولا في فرنسة يبحث عن اسباب هذا الاتفاق واسراره ، بل في المانية التي حملت انكلترة ، ملكها وحكومتها وشعبها ، على التقرب من فرنسة ، لأن العشرين سنة التي مرت على الامبرطورية ، ابقت للعلائق بينها وبين انكلترة مظاهر العناية والمجاملة ، وكان بسمرك يحاذر في سياسته ان يثير مخاوف وزارة الخارجية البريطانية في حال من الاحوال ، وقد عقدت بين الدولتين مواثيق عديدة ، ولكن عندما همت المانية ان تسير السفن في البحار ، وادركت في سنين قلائل غاية بعيدة ، بدأت المخاوف في انكلترة واتجه الرأي الى الاتفاق مع فرنسة لمقاومة السيـاسة الالمانية والتجارة الالمانية ودفع الاخطار التي يحتمل وقوعها .

وبعد مفاوضات في لندرة وفي باريس ، عقد الاتفاق بين انكلترة وفرنسة في نيسان سنة ١٩٠٤ ، وكان لتوقيعه اثر بعيد في اوربة ، وقد عد نجاحا لا يقدر للسياسة البريطانية التي اطمأنت الى ان فرنسة لا تعرقل سياستها في مصر ، كما ان انكلترة تطلق يدها في مراكش بعد ان كانت منافسة لهـا ، وتعاهد الفريقان على تبادل المعونة السياسية لانجاح ما اتفقا عليه .

وبانتهاء التنافس الاستعماري بين الدولتين ادخلت لندرة وباريس عنصراً جديداً في السياسة الاوربية ، فتحررتا بصورة متقابلة من مخاوفهما التي دامت امداً

طويلا ووجهتا قواهما شطراً آخر ؛ وقد تبادلتا ضمان حرية العمل الثمينة لهذا الفريق اوذاك ، وخاصة لاجل فرنسة التي لم تستطع ان تحول دون مغامرة روسية في منشورية ، وكانت عاقبتها انتصار اليابان عليها ، وقد سبق الاتفاق الودي اتفاق بين ايطالية وفرنسة ، وتلاه اتفاق بين اسبانية وفرنسة فاصبحت الجمهورية الفرنسية قبلة انظار رجال السياسة ، ونالت سلطة ادبية كبرى ، اذا كانت تسبب لهما بعض المشاكل فقد كانت تعينها على حلها .

فالخوف من المانية هو الذي قاد الى الاتفاق المثنى ، واغلاط المانية هي التي عززته وقوته ، ودلت التجارب على الاصابة فيه يومئذ من وجهة الدفع للاخطار ومن وجهة البراعة السياسية ، ولم تكن الغاية منه عند عقده الاسلبية غير أنه بسرعة خارقة اصبحت نتائجه ايجابية ، وكانت انكلترة ترغب دائماً ان تكون لها حليفة في اوربة تؤازرها في الشدائد ، واستمرت على ذلك في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، حتى قيل انها تدع الآخرين يقتتلون ، ولا تدخل في الصف الا في الساعة الاخيرة ، فالجيش الفرنسي ذو قيمة عظيمة اذا دخلت انكلترة في حرب ، وما ابطأ الزمان أن اثبت ذلك سنة ١٩١٦ .

اما المانية فقد كانت تلجأ — كما قال البرنس دو بيلوف — الى سياسة الضغط في انواعه المختلفة لعرقلة كل عمل يجري بدونها — وهي كاللاعبين الذين لعبوا كثيراً وربحوا كثيراً كانت تضع في اللعب جميع وسائلها فتهدد عندما يكون الزمن مساعفاً لها وتلزم جانب الحذر اذا كانت الامور غير مساعفة ، وكانت تتكلم عن الحرب من غير ان تعلنها وعن البارود الناشف والسيف المشحوذ طالما كانت تؤمل ان تبلغ غاياتها بالطرق السلمية .

وفي اثناء الحرب الروسية اليابانية وتضاؤل الروس كانت المانية تجدد مطالبها يوما اثر يوم ، فبعد استسلام بور آرثر سنة ١٩٠٥ احتج القائم باعمال المانية في مراكش على الاتفاق الانكليزي الفرنسي ، على حين ان البرنس دي بيلوف سبق له ان اعلن أنه ليس لديه مايعترض عليه من وجهة المصلحة الالمانية ، وبعد ان فشلت الجيوش

الروسية في مكدن اعلن غليوم الثاني سفره الى طنجة ، واشتد الخلاف حول مراكش، وانتهى الأمر باستقالة دلكاسه على اثر تهديد المانية ، ثم كان مؤتمر الجزيرة الذي ارادت المانية ان تثبت فيه ان الاتفاق الانكليزي الفرنسي عقيم لا شأن له ، حتى ارادت المانية ان تعترض عليه، وفي سنة ١٩١١ أثارت المانية قضية مراكش مرة اخرى ففاوضتها فرنسة وتنازلت لها عن جزء من الكونغو .

وبرغم هذا الضغط المستمر ، وبرغم النتائج اليسيرة التي احرزها ، فقد بقي الاتفاق بين فرنسة وروسية وبين فرنسة وانكلترة بعد الجزيرة وبعد ازمة ١٩١١، بل ان الضغط الالماني كان يجعل تطور الحوادث مغايراً لما تريده المانية في هذين الاتفاقين السابقين، وقد سهلت العلائق الحسنة بين فرنسة وانكلترة التقارب الروسي الانكليزي سنة ١٩٠٧ الذي كان من شأنه تأسيس التوازن على قواعد ثابتة في اوربة ، وعقد الاتفاق في الشرق الاقصى بين انكلترة واليابان وروسية وفرنسة على صيانة الاراضي الصينية وسلامتها ومحافظة استقلالها .

وكان التنافس الانكليزي الفرنسي احدى الوسائل التي اعتمد عليها بسمرك في سياسته الخارقة التي كان يقاوم بها فرنسة ، فاحبط مساعي تيير في سبيل حمل اوربة على الاهتمام بمصير بلاده ، ولكن الخشية العظمى التي اثارتها المانية بنموها وعظمتها جعلت المتنافسين يتقاربان، ولم يكن الاتفاق الودي في بدء امره معادياً لأحد ولكن الحلقات التي اتصل بعضها ببعض منذ ذلك التاريخ للوقوف في وجه المانية وتأييد الحرية الاوربية، انقلبت الى ضربة شديدة للنظام الذي أقامه بسمرك، والسيادة التي حاول غليوم ان يبسطها ، ودلت معاهدة الجزيرة والاحداث التي تلتها على ضعفها.

٦ — استقالة بسمرك وسياسته التقليدية

في سنة ١٨٨٩ تلك السنة الصعبة كان بسمرك يتنازعه عاملان: روسية والنمسة، فلا يبرح حريصا على محافظة التوازن الذي هو مبدأه القديم ، وكان يقول في خطبة له : ينبغي ان نكون اقوياء فان لدينا من الوسائل ما يجعل قوتنا فوق كل قوة ، ولا

يوجد شعب مثل شعبنا معرضاً لخطر التحالف عليه ، ويمكن ان نهاجم من جهات ثلاث ، فعلينا نحن الالمان جميعا ان نتعاون وان لايقبل بعضنا الافتراق عن بعض ، والجرأة هي من خصائص جميع الشعوب المتمدينة ، فالروس والفرنسيون يقاتلون الالمان ، ونحن مهددون من قبل الفريقين ، فيجب ان تبلغ وسائلنا العسكرية الغاية التي يصبح بها خصمنا مدافعا . ومع ذلك فان بسمرك كان يظهر ميله للروس ، لأن المعاهدة تنتهي في السنه القادمة ، وعند البحث في تجديدها فستثار امور كثيرة . اما الامبرطور غليوم الثاني الذي تسنم غارب العرش حديثا ، فانه كان يفضل على خطط بسمرك المعقدة واساليبه المتعارضة خطة ثابتة سهلة ، وكانت مظاهره تبعث على الظن بانه يريد الحرب ويرغب في مخاصمة الروس ، وقد اثر ذلك في العلائق بينه وبين القيصر .

ولما اشتد الجفاء بين الامبرطور والمستشار وآن تجديد المعاهدة ، ارسل القيصر رسولاً الى ألمانية يحمل نبأ رغبته في التجديد ، ويؤكد ثقته ببسمرك واعتماده عليه ، ولا سيما انه لم يجراي عقد بينه وبين فرنسة ، وكان هذا مايسعى له بسمرك منذ سنة ، ولكن الخصومة كانت قد بلغت حدها بينه وبين الامبرطور ، وبعد ان رفض الاستقالة اراد بسمرك ان يحمل الامبرطور تبعة مايعمله ، فأرسل اليه اخيراً كتاب استقالته الرائع الذي قال فيه :

لما كان اخلاصي في خدمة بيتكم المالك وفي خدمة جلالتكم ، ولما كانت الطريقة التي سرت عليها وتعودت ممارسة الاعمال فيها ، قد ظننت حتى الآن من الممكن المثابرة عليها ، فانه عزيز علي ان اتجنب الامور التي الفت مشاركة جلالتكم بتعهدها ، وكذلك ان اتنحى عن السياسة العامة التي تخص الامبرطورية وبروسية ، ولكنني بعد ان تبينت مقاصد جلالتكم التي كان يتحتم على ان اتبعها اذا بقيت في عملي ، لم استطع الا ان اتقدم بخضوع لجلالتكم ، حتى ترغب متفضلة بقبول استقالتي ، من منصب مستشار الامبرطورية ورئيس مجلس الوزراء في بروسية ووزير الخارجية ... واظن اني استطيع طلب السماح لي بان افرض باني احقق بذلك رغبات جلالتكم وبانكم ترتاحون الى تقديمها ، وقد كنت اسوغ لنفسي ان اقوم بذلك منذ زمن بعيد ، لولا

اني كنت اقدر ان جلالتكم لا تريد الاستغناء عن تجربة خادم امين لآبائكم من قبل وعما لديه من خبرة ، ولما تأكدت انه ليس لكم بذلك حاجة ، اقدمت على اعتزال الحياة السياسية بدون ان اخشى انتقاد الرأي العام لهذه النزعة ، وعده اياها عملاً قبل اوانه .

ولم تنقض ايام ثلاثة حتى هدم خلفاء بسمرك وحساده ، الاتفاق الروسي الذي كان ناحية كبرى من بنيانه الضخم ، وقد بقيت روسية الى سنة ١٨٩٠ محافظة على حياد موافق ، ولكن لم تأت سنة ١٨٩٦ حتى كانت فرنسة تحتفل في عاصمتها بالقيصر الروسي ، واخذ الرجال الرسميون يتهمون سياسة بسمرك بانها هي التي قادت الى هذه النتيجة ، فاذاع بيانا قال فيه : ان روسية كانت متأهبة لعقد الاتفاق وان كان قد ساءها بعد بسمرك عن ميدان السياسة ، وقد حال « كابرفي » دون تحقيق ذلك ، فكان اتفاقها مع فرنسة .

وبعد اعتزال بسمرك واقصائه ، سأله احد اخصائه عن رأيه في غليوم الثاني ، فصمت هنيهة كأنه كان في نزاع مع نفسه ، ثم نهض قليلاً ولم يقل الا هذه الكلمات ولكن بجلال وجهارة : لنشرب على ذكر الامبرطور الشيخ ، فهو الذي كان سيداً كريما ، وما كان ليشعر مطلقاً او يمر في خاطره ، بان احداً يريد ان يحط من سلطة تاجه ، فقد كنا جميعا عماله ، وهو في الذروة الرفيعة ، محلقا فوق الجميع ، ولو لم يكن كذلك في اعماله وشؤونه ، لأضاع من حوله من اولي الشرف ، كان ينظر الينا من عل ، فيغتبط ويبتهج اذا وجد خادما له مثلي قد اصبح عظيم الخطر .

ولم يكن بسمرك ليخفي وقدات غيظه عند سنوح كل فرصة فيقول : يجب ان اتكلم ، ان هذا الصمت لخيانة ، والوطن سائر بهذه السياسة الى الدمار المحتوم ، ويقول : قد يريد الله مرة اخرى ان تسقط المانية وان يصيبها الضعف والوهن ، ولكنها قد تنهض بعد ذلك من عثارها وتسير في مذاهب المجد ، وستكون الجمهورية اساس العهد الجديد . وقد اضاف الى ذلك احد الناقدين قوله : نعم لقد عاشت المانية بعد ان تخلى عنها الملوك والامراء في ساعة الخطر ، وقد صان الشعب

الذي لم يقدره بسمرك حق قدره الا في الساعة الاخيرة، عمله العظيم ووحدته الكبرى، وكان يقول: لقد اتبعت منذ سنة ١٨٤٧ المبدأ الملكي ورفعته عاليا كما رفع اللواء غير اني رأيت ملوكا ثلاثة في حقائقهم العارية ، ولم تكن رؤيتي لهم كما رأيتهم لتزيد في تقديري لهؤلاء الرجال العظام ، واذا قلت ذلك الى الناس كلهم اكون قد خالفت المبدأ ؛ واذا سكت خوفا وجبنا اوقلت ضده ، اكون قد عدلت عن الحق الى الباطل . ويقول: لقد كانت جهودي كلها منصرفة لتعزيز الشعور الملكي في الشعب ، وقد احتفل بي في القصور وفي المجامع الرسمية وبولغ في تقديرصنمي ، وكان الشعب يريدان يمزقني ، اما الآن فالشعب هو الذي يهتف لي ، والآخرون يتحاموني ويحذروني ، فهل اعتقد ان هذا مما يدعى بهزوء القدر ؟ ويقول: عندما ادنو من مكان القطار من المحطة على مهل ، اسمع الجماهير التي تنتظرني صارخة منشدة ؛ فيكاد قلبي يخرج من صدري اذ ارى ان المانية لم تنسني .

اما غليوم الثاني الذي حمل بسمرك على الاستقالة ، وقد كتب عنه في الفصل الأول من مذكراته التي نشرها بعد الحرب قائلاً : ان عظمة البرنس بسمرك السياسية والخدمات الباقية ذكراها التي اداها لبروسية والمانية ، هي من الاحداث التاريخية العظيمة بحيث لا يوجد رجل من اي فئة كان يستطيع ان يجادل فيها ، وهذا السبب وحده يجعل الادعاء بانكاري عبقرية بسمرك اسطورة سخيفة ، فاني بضد ذلك كنت اجله واقدسه ، ويكفي ان يذكر ان الجيل الذي نشأت فيه كان مولعاً ببسمرك هذا الرجل الذي اسس الامبراطورية ، وكان امين جدي ومقدم رجاله ، لقد كنا جميعاً نعتقد انه اعظم رجال الدولة في عصره ونفاخر بانه الماني ، فكان بسمرك الوثن المقدس في معبدي ، ولكن الملوك هم ايضاً من لحم وعظم ، وهم يتأثرون بالطريقة التي يتبعها الآخرون ، فمن السهل ان يدرك من وجهة انسانية ، ان البرنس بسمرك ، بسائق العداوة لي كسر بضربات شديدة الوثن الذي اتحدث عنه ، ولكن اجلالي لبسمرك ، رجل الدولة العظيم ، لم يصب باي نقص .

وذكر غليوم كيف ان جده ، كان ذات مرة يتلظى غضباً من بعض اعمال بسمرك المناقضة لرأيه ، فقال له رئيس دائرته العسكرية : اذا كان الأمر كذلك فعلى

الامبرطور ان يصرفه عن خدمته فاجابه الامبرطور : انه برغم اعجابه وشكرانه للمستشار العظيم ، قد فكر بالافتراق عنه لأن افتئات البرنس هو في الغالب لايطاق ، غير ان الامبرطور والبلاد هما بحاجة اليه . واضاف الى ذلك قائلاً : ان البرنس هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يلعب بخمس اكر ، اثنتين منها في الجو ، اما انا الامبرطور فلا اقوى على مثل ذلك .

وقال غليوم الثاني في هذا الفصل ايضاً ، انه عندما كان امير بروسية كان كثيراً مايقول في نفسه : ارجو ان يعيش المستشار العظيم امداً طويلاً ، فاني اشعر بالطمأنينة اذا ملكت وهو معي على رأس الحكم ، ولكن اجلالي له لم يكن ليحملني عندما اصبحت امبرطوراً على استحسان اعمال البرنس وخططه السياسية ، التي كنت اعدها من الاغلاط .

غير أن الاجيال التي تلت استقالة المستشار ، وشهدت عواقب المناهج التي سار عليها غليوم الثاني وسددتها اغلاط الداهية العبقري ، حكمت عليه حكمها الشديد ، وبقي بسمرك في ذروة المجد يأتم به ساسة الالمان ويتمسكون بتقاليده التي خلفها لهم ، ويتعلمون من اساليبه كيف تكون المداورة عند عدم القدرة ، وكيف تكون الضربات المتوالية المتقطعة عند القدرة ، وكيف سار بالنمسة بعد ان تقهقر امامها سنة ١٨٥٠ ، واجل موعد قتالها متفق الرأي مع وزير الحربية ، الى ان اخذت بروسية اهبتها واعدت قوتها وسلاحها ، وخاضت غمرات القتال عندما آن الأوان ، وكيف قارن نابليون الثالث وجاراه الى ان ضربه الضربة الشديدة ، بعد ان كان يقول وهو يدافع احياناً عن خططه السلمية البعيدة المدى : ان الاساس الوحيد والمنهاج الصحيح الذي تمتاز به الدولة الكبرى على الدولة الصغرى هو الانانية السياسية ، وليس الذوق التخيلي ، ولا يليق بدولة كبرى ان تحارب اذا لم تكن مصلحتها الخاصة تقضي عليها بالحرب ، ويالسوء حظ رجل الدولة الذي لايجد سبباً لدخول الحرب ، يبقى مسوغاً ومبرراً لها بعد انقضائها .

وقدادعي ترسم تقاليد بسمرك وخططه ساسة الاشتراكية الوطنية ، فتجاوزوها واربوا عليها ، وكان المستشار دوبيلوف قبل حرب ١٩١٤ يشيد بسياسة البرنس بسمرك ، ولايدع في المذكرات التي نشرها فرصة لاينسج فيها برود الثناء عليه ، وكان المستشار شترزمن الذي لم يمهله القدر طويلاً ، من اشياع تلك التقاليد، وقد سار في سياسة بلاده في اثناء الازمات الشداد بعد الحرب سيرة، عادت عليه بجميل الذكر وعظيم الفخر، فتغلب بحنكته ودهائه على ما كانت عليه من ضعف اورثها اياه الانكسار الذي الم بها، حتى ان رجال الدولة القدماء الذين عرفوا شترزمن ناشئاً في السياسة وشهدوا في اول امره مواهبه العظيمة وحماسته لوطنه ، ونشاطه ورقته وطموحه هنأوه على المنزلة التي احرزها في محافل السياسة الدولية وفي الوزارات الاجنبية المختلفة . على انه كان في اثناء الحرب من انصار اليد القوية والفتوحات العظيمة ، ولكن بعد ان تنكر لبلاده وجه الزمان وغلبت على امرها في الحرب ، وقف موقف الانتظار ، واستأنف عمله في الفرصة المناسبة لتسنم غارب الحكم ومعالجة سياسة الدولة الخارجية، حتى قال عنه بيلوف مقرظاً اياه : انه بدون ان يتنازل عن كرامة الشعب الالماني عرف ان ينتبذ مكانا قصياً ليقف في موقف آخر اقرب الى السداد واقوم في الخطة المثلى . وقد تمكنت من نفسه كلمة رائعة عميقة قالها رجل دولة كبير في فرنسة : ليون غمبتا، وهي تقضي بتصنيف القضايا الكبرى، والاعمال الكبرى، اذ لايمكن معالجتها جميعها دفعة واحدة ، ولكن ينبغي ان تعالج واحدة بعد اخرى ، وهو في قيامه بهذا العمل ، الذي لم يكن يدرك الرأي العام مصاعبه، كان قد اعين بمواهب نادرة في صناعة المفاوضة وفي رئاسة المؤتمرات ، ورجل دولة جامع لهذه المناقب جدير بالمانية ان تحرص عليه ... وان عدد المشكلات التي سويناها بعد سنة ١٨٧٠ ضئيل في جنب ماننتظر الآن تسويته .

وقد احتفلت المانية بمرور خمسين سنة على ميلاد شترزمن وهذه الاحتفالات تجري في الغالب عندما يطعن رجال السياسة في السن، ولكن قومه اسرعوا بالحفاوة به تقديراً لجلائل الاعمال التي قام بها ، وكانت المنية العجلى تحوم يومئذ حوله . فالقى

خطبة اطرى فيها المستشار العظيم الذي كان يقبض على السياسة الالمانية بيد من حديد، وقال : بسمرك هو اول من لجأ الى سياسة القوة ، معتمداً عليها في دعوة الشعوب الى حياة مشتركة وتنشيط العلائق الحسنة بينها ، وكان كلما تغلب عنوة على دولة كان يحدد الاحتمالات التي تهيئها مقدرة الدولة ، ويصرف الأمور على حالة تجعل تقدير التعاون ممكناً مع العدو ، وكان يرمي الى تسوية امور الاقليات بجرأة عظيمة وبعد نظر ... ولم يتبدل رأيه حتى في اثناء اعظم انتصار احرزه امام باريس ، وليس من المبالغة الادعاء بان بسمرك ، لو كان يجد من الدول العظمى بعد تأسيس الامبرطورية الالمانية قبولاً حسنا لمثل هذه الآراء ، لكان في المستطاع منذ ذلك العهد، الوصول الى تعاون سلمي بين الشعوب .

وقد عنيت روسية السوفيتية بنشر ترجمة ما كتبه بسمرك في آرائه وذكرياته، وقرظتها صحفها مستشهدة بآراء هذا السياسي العظيم، في وجوب اقلاع الدولتين عما كان بينهما من تنابذ ، ومشيدة بالمنافع التي تجنيانها من حسن التفاهم ، وعلقت على المقطعين الآتيين وذكرتها خاصة :

قال بسمرك في صدد استشارة غايوم الأول له في الموقف الذي ينبغي ان تقفه بروسية في حرب القرم : اوضحت للأمير انه ليس لدى بروسية سبب يدعوها الى محاربة روسية ، وليس لها مصلحة في المسألة الشرقية تسوغ مثل هذا الحرب وتضحي ما بيننا وبين روسية من علائق ترجع الى عهد بعيد ، بل اني اضفت الى ذلك ، ان كل نصر يدرك في قتال روسية بمعونتنا نحن جيرانها ، لا يبعث فقط شعور انتقام دائم في قلوب الكثيرين من الروس الذين نهاجمهم بدون مسوغ لنا في قتالهم، بل يحملنا على القيام بمهمة دقيقة في البحث عن تسوية نرضاها لقضية بولونية ، فمصالحنا اذن لا تجبرنا على القطع مع روسية بل تضطرنا بعكس ذلك الى اجتنابه. وقال : انه ليس من مصلحتنا، ولم يكن ابداً . منع روسية من استعمال ما يفيض من قواها في الشرق . وعلينا ان نغتبط باننا نتابع تطوراً تاريخياً في اوربة لا يجعلنا

نجدالى جانبنا دولاً نختلف واياها حتى الآن ، وهذه هى الحال بيننا وبين روسية، فلن يكون بيننا وبين فرنسة سلم ابداً ، وليس ثمة من حرب لابد منها مع روسية، الا اذا قادتنا الى ذلك سخافات الفكرة الحرة اوسوء تدبير الأسرة المالكة .

ولم تنقل الصحف الالمانية اطراء الروس لهذه المذكرات ، الذي جاء في ايام الاتفاق بين الدولتين سنة ١٩٤٠ .

الفصل الثامن

الرئيس وِلْسنْ والسياسة الأخلاقيّة

١ — الرؤساء الثلاثة

يتحلى ذلك العقد النظيم من رؤساء الولايات المتحدة بثلاثة رجال تفخر بهم الانسانية كلها لا الولايات المتحدة وحدها : وشنطن الذي يقترن اسمه بتحرير الولايات المتحدة وانشاء هذه الأمة الكبيرة . ولنكلن الذي صان بلاده من خطر الانحلال والتفكك، ومحا من جبينها وصمة العار التي ألصقها بها استعباد الانسان لأخيه الانسان. وولسن الذي سعى جاهداً لتكون سياسة الامم والشعوب قائمة على اساس اسمى من سلطان القوة والجبرية، وأقدس من مصلحة الدولة، وارفع من اتخاذ الشعوب بعضها لبعض خولاً وعبيداً . هؤلاء الثلاثة الذين نشأوا في العالم الجديد، بعيدين عن مزالق السياسة الأوربية ومنافسات الدول القديمة، كانوا يريدون ان يعلوا شأن البشرية ويجلوا كرامة الانسان .

وشنطن

كان وشنطن قائد الجيش الجمهوري في حرب التحرير ، وقد أجمع قومه على توليته هذه المهمة لأنهم وجدوا فيه الصفات التي يحتاجون اليها في قيادة حربهم، فقد كان جنديا باسلا يفوق نظراءه في الولايات المتحدة بكفايته العسكرية ، وهو موضع اعجاب القوم بأخلاقه ومميزاته ، وبعد ان اطفئت نار الحرب التي اليه بنو قومه

مقاليد الرئاسة ، فقام أحسن قيام باعباء العمل السلمي الخطير . واذا لم يكن يعد من قادة التاريخ العظام ، ولا في الرعيل الاول من رجال الدولة واقطاب السياسة ، ولا من كبار الخطباء الذين يستهوون النفوس بسحر بيانهم ، او يسترعون الأبصار ببهاء طلعتهم ، فان لعظمته سراً يستقر في أشرف عاطفة ينطوي عليها قلب الانسان ، وهي احترام السمو الأخلاقي . وقد كان أول مجده وآخره انه وطني كبير ، جماته الحرب والسياسة مؤسس دولة عظيمة ، فكان يزداد عظمة كلما ازدادت عظمة الأمة التي ترعرع فيها وشاطر في اقامة بنيانها ، وبذل في سبيل ذلك كل ما عرف به من صبر وصدق ووطنية واخلاص . وقد ظل كتاب التاريخ من مواطنيه نحو مائة سنة يصفون مواقف بطولته ، ويغالون فيها ، غير ان القرن العشرين وما نشر فيه من فصول تاريخية نقادة ، عرى هيكل وشنطن من تلك الأساطير التي أحيط بها اسمه ، ونزع عنه ماخلع عليه عباد البطولة من الصفات التي تفوت ذرع الرجال . ولكنه لم يخسر شيئاً بالعودة الى الطبقة الانسانية ، بل زاد الاعجاب به : رجلاً قلما يتأثر بعوامل الضعف التي تصيب الناس عامة ، ووطنياً تتقد في جوانحه جذوة الحماسة القومية والايمان القدسي بمستقبل بلاده ، ورئيساً بلغ ذروة المعالي وأسس لأمته تقاليد الدولة الناشئة ، وخلف لمعاصريه ومن جاء بعده مثلاً أعلى للمروءة ، وعنواناً للدمقراطية ومثالاً للشخصية الحرة . واذا لم تكن صفات وشنطن من تلك الصفات التي تضيء حيناً حتى تخطف بريقها الأبصار ، ولا يدع اصحابها وراءهم في الغالب الا معالم دراسة وأطلالاً بالية ، فان البنيان الذي أسسه لا يبرح ثابت الأركان قوي الدعائم .

وقد لبث ثماني سنين في اثناء الحرب مسيطراً على السلطة المدنية ، دون ان يجعل لنفسه من المزايا والحقوق ما لا تتقبله الشرائع والقوانين ، فله الفضل كله في ان اميركة لم تحكم حكماً استبدادياً . وله الفضل كله في انه قاتل بأيسر مايكون من رفد مادي وعون ادبي خصماً قوي الشكيمة كثير العدة حتى نهكه وأعياه ، وقد اصبحت بلاده مدينة له بوجودها ولكنه لم يكن عن عليها ، ولم يركب متن الغرور

عما احرزه من النصر المؤزر في حروبها ، ولم يشأ ان يعجل بالوقت الذي يتولى فيه التبعات العظمى، حتى انقادت له الأمور وأجمع مواطنوه على ان يكلوا اليه قيادة الجمهورية في خطواتها الاولى ، فأجاب الى تحمل هذه المهمة في السلم كما تحمل مهمات الحرب ، وحقق بعمله ما كان يظن الفلاسفة المجددون انه يتعذر في بلاد عظيمة ، وهو انشاء الحكم الجمهوري ، فاصبح الشعب يحكم نفسه بما يسمونه سلطان الأمة، ولكن الصفوة المختارة هي التي تحكمه بحزم وقوة . وقد استولى وشنطن على أعنة الحكم والسيادة واستعان على تدبير سائر الامور بأولي المقدرة والكفاية ، وابقى للحكومات الشعبية القادمة تقاليد السيد الرئيس الذي يطبق في حكم الجمهورية قول منتسكيو: « ان الفضيلة هي قوة الحكم الجمهوري » .

وكان وشنطن في جميع أعماله شريف الغاية ، بعيد النظر، عظيم الجرأة ، نافذ الكلمة ، ظاهر الوقار ، صادق الحس ، كأنه ينظر بلحظ الغيب ، شديد النضال في سبيل مايعتقد انه حق ، متجافياً عن كل بواعث الأثرة ، لم يعرف انه ارتكب خطأ كبيراً في ادرة الحرب اوفي سياسة الدولة . وكان في رئاسته ، لا ترقى اليه مطامع الاحزاب ومطامح الزعماء، كالصخرة العظيمة التي تزل عنها الاهواء .وكان أميل الى مناهج المحافظين ، ولكن بأسمى مافي هذه الكلمة من معنى لاجل المحافظة على الجمهورية الجديدة وحمايتها ، وكأنه خلق كما اريد ان يكون للعمل الذي قدر له القيام به ، فلو كان اكثر عبقرية لأمكن ان يسرف في سلطته، ولوكان اكثر ضعفاً لما استطاع النجاح في مهمته ، ولوكانت له براعة نابليون وأطماعه لأنشأ حكماً عسكريا اوسلطة مستبدة ، ولوكانت مواهبه ضئيلة لكان يشك في ان تنال الولايات المتحدة استقلالها لقد كان الرجل الذي يتطلبه الزمن، وقد أدى للانسانية أجل الخدمات فقدرت له صنيعه جميع العصور وجميع الشعوب ، حتى قال فيه المؤرخ الانكليزي غرين : لايوجد رجل أكثر منه نبلا بين الذين كان لهم مثل مواقفه في حياة وطنية ، واذا كان مظهره الخارجي لايدل على ماتنطوي عليه جوانحه من عظمة نفس ، فان وراء قناعه ناصية من نواصي التاريخ القديم ذات العظمة السمحة

التي هي فوق الأهواء الثائرة والعواطف المتأججة . وكان الرجال يتوجهون اليه بقلوبهم ويمجدونه تمجيداً لم تذهب ذكراه ، وسيبقى عزيزاً في عيون الذين يحبون حقوق الانسان ويقدسون حرياته .

وقد عقد النية على التخلي عن الرئاسة لما انتهت مدته الثانية ، ولم يكن ذلك رغبة منه في احداث تقليد متبع (أي ان لايجدد للرئيس مرة ثالثة) ، ولكنه أصابه السأم من الحياة السياسية ومعالجة الشؤون العامة ، وهو يريد ان يقضي مراحل حياته الاخيرة في الرياض والخمائل والغابات ، غير ان هنالك على مايظهر سبباً آخر ، وهو حملات الصحف المعارضة التي ضاق بها ذرعه ، وكان يشكو مر الشكوى من قلة الاخلاص للخير العام ، ومن تخلف المواطنين عن الطاعة ورقابة النظام، ومن استشراء المطامع وتناسي الآلام التي قاساها رجال في سبيل الوطن، من الذين لم يكونوا يجدون قوتاً يكفيهم ولا كساء يسترهم . ولو أراد ان ينتخب مرة ثالثة لكان له ذلك ولكن ليس باجماع المرتين السالفتين .

وقد ادركته المنية بعد ثلاث سنوات من تخليه عن الرئاسة ، وكان في مرضه الذي مات به كما كان في حياته كلها ، جلداً صبوراً لايتململ ولا يتشكى ، برغم مايعانيه من البرحاء ، وانقضت مائة واربعون سنة ونيف على وفاته، ولم ينل أميركي ما ناله من حب الأمة وتقديرها واجلالها ، على ان منزلته العظمى في بلاده قد أصابها ما يصيب عادة جميع رجال السياسة الاكابر من الانصراف عنهم قليلا او كثيراً ، ولكنه مازال يجري لمستقر له في ضوء باهر لمانه ، لاتستطيع الايام أن تضعفه او تخفف منه، وقد كان فيه جفاء وترفع وحدة تغلب احياناً على اناته حتى لا يملك نفسه ، ولم يعرف عنه انه ضحك ضحكا عالياً او اظهر سروراً وجذلاً الا مرات معدودات ، واذا لم يكن بدعي حب الجماهير ، فانه على مافيه من حشمة وانقباض، كان رقيق القلب كريم الهزة حفياً بالناس رءوفا بهم، وما سودته أمته ولا أحبته لرقة جانبه ولطف حديثه، ولكن لما تميز به من الاخلاص لواجبه وغايته النبيلة المجردة، التي جعلته فوق الاشباه والنظراء ، وقد تمثلت في نفسه حقوق الانسان التي سبقت

الولايات المتحدة الثورة الفرنسية الى اعلانها وأضافتها الى قواعد استقلالها، فقررت ان الرجال مستقلون بطبيعتهم ، متمتعون بحقوق لا يستطيعون التنازل عنها ، والحكومات مؤسسة لضمان هذه الحقوق ، وسلطتها مستمدة من المحكومين .

ولم يقتصر عمل وشنطن على تحرير بلاده ، بل ان القواعد التي دعا اليها تجاوزت حدود الولايات المتحدة وتجاوبت بها أرجاء أميركة اللاتينية ، فنهضت تحل من عقالها وتنزع ربقة الأسر من رقابها ، وفي خطبة الوداع التي القاها الرئيس أكد حياد بلاده وحماية نصف الكرة الأرضية من العدوان والاستعمار، وقد نشأ الرؤساء من بعده على تقاليده في استنكار المحالفات الخطرة ، والدفاع عن استقلال الدول الاميركية ، الى ان وضعت نظرية مونرو الشهيرة التي كانت بياناً خاطبت به الولايات المتحدة اوربة الحريصة على الاستعمار حتى لا تطمع في غير ما هي فيه من الأرجاء ، وحتى تعلم ان القارة الاميركية ليست أرض استعمار ، وكل محاولة من اوربة لبسط سلطانها فيها، او لقهر الدول اللاتينية التي اعلنت استقلالها ، تعده الولايات المتحدة خطراً على سلامتها وأمانها وعدوانا عليها ، وكان الولايات المتحدة قررت عدم تدخل اوربة في شؤون أميركة ماعدا المناطق التي كانت اوربة يومئذ مسيطرة عليها، كذلك لا تتدخل اميركة في شؤون اوربة . ولكن موقف اميركة — كما قال المستر هيوز سكرتير الدولة السابق ورئيس المجلس الأعلى — كان موقف استقلال لا موقف اعتزال ، وهي لا تريد الاشتراك في المنازعات السياسية الأوربية ، ولكنها لا تأبى أن تجيب كل نداء الى الواجب الذي تعتقد به ، من غير أن تكون مجبرة على ذلك او داخلة في تحالف ، وهي لا تقف الا في صف الشعوب التي تضاهيها في مثلها العليا، وفي غاياتها العامة التي ترمي الى تعزيز الروابط الاقتصادية والعلاقات التجارية وحماية المصالح المشتركة العادلة والمحافظة على السلام في العالم .

لنكلن

بعد ثمانين سنة ونيف مضت على نشأة هذه الامة الأميركية ، أصابتها أزمة شديدة تعرض بها الاتحاد لخطر التفكك والانحلال ، وذلك بسبب الخلاف الذي

نشب بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، فكان الرئيس لنكلن الرجل الذي ارسلته العناية لحماية الاتحاد وإنماء الرقيق ، وهو من اغرب شخصيات العالم ، نشأ في بيئة فقيرة ، وقضى سنيه الأولى في البؤس والحاجة . وكان من اول عمره شديد الاقبال على التعلم ، فقرأ بعناية وشغف بعض الكتب التي وقعت له ، وكان لاينفك عن مطالعة التوراة وشكسبير ، ويتطلع منذ صغره الى مايكون له من عظم الخطر في هذا العالم الفسيح ، الذي لم يكن يعرف شيئاً عنه ، ولم يكن يفارقه الغم والتردد حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره من غير أن يتخذ لنفسه طريقة في الحياة ، وكان الناس يحبونه حباً جماً ولاسيما رفاقه ، اذ كان حلو الحديث سائغ المورد لطيف المعاشرة كريم السجايا ، دون أن يخرج عن وقاره ورزانته ، ولعل الجد الذي في وجهه كان عنوان حياته الاولى وأثر الغابات العابسة والسهول المقفرة ، اما بشاشته فهي من تطلعه الى النور والتعلم وبروق الآمال ، وقلما عرف الرجال حتى اقربهم اليه ماتنطوي عليه نفسه من قوة وعزيمة وقدرة ، وقد وصفه دغلاس احد اعضاء مجلس الشيوخ ومعارض هذا الرجل المجهول بقوله : « ما اشد الجهد الذي ينبغي علي ان أبذله في لقائه ومنافسته ، هذا هو رجل حزبه الذي لاتلين له قناة ، ولا يفارقه ذهنه الحديد ، ولا يضاهى في معرفة التواريخ والوقائع ، افضل من يرتجل الكلام في هذا الغرب ، وهو شريف لا يَخدع واريب لا يُخدع » .

وكان اكبر هم لنكلن ان يصون الاتحاد ، والاتحاد عنده قبل الدستور ، لأن الدستور وضع ليجعل الاتحاد اكثر انسجاما ، فلا تستطيع دولة ان تخرج من الاتحاد وفاقاً لمشيئتها ، وكل قرار تصدره في هذا الشأن لاعبرة له من الوجهة الشرعية ، فالاتحاد لايمكن ان يتطرق اليه الوهن او ان يتعرض لخطر الحل ، ولما افتتح رئاسته الاولى سنة ١٨٦٠ ، خاطب مواطنيه الغضاب بقوله : « ان المكاره التي تحاذرونها هي في الحقيقة غير كائنة ، وتبعة الحرب الأهلية المخيفة لاتقع علي ، وانما تبعتها بين ايديكم ، انكم تحلفون الايمان على تقويض بنيان الحكومة ، وانا ارفع الصوت جهرة وانادي معلنا مشهداً ، انني سأحميها وادافع عنها واحافظ عليها . » وأكد نيته تطبيق قوانين

في جميع انحاء الدولة ، وابدي كثيراً من روح التساهل في هذه الخطبة حتى عد ذلك موطن ضعف ، ولكن يده الحديدية كانت — كما يقول الفرنجة — في قفاز من « القطيفة » ، وقد انقاد الى بعض الدواعي السياسية ، فارجأ قضية تحرير العبيد ، وصرف همه الى صيانة الاتحاد ، سواء أكان قد حرر العبيد أم لم يحرروا في اثناء هذا النضـال .

ولما استعرت نار الحرب عقد مجلس الأمة مؤتمراً استثنائياً فبعث اليه الرئيس برسالة لم يكن فيها لبس ولا غموض ، فوصف حالة البلاد وذكر ما للسلامة الاتحاد من شأن في نظر العالم ، وقال : على هذا النضال الذي تحمل اعباءه يتوقف امر هو اكثر من مصير الولايات المتحدة ، اذ ان الاسرة الانسانية الكبرى تشهد : أجمهورية دستورية دمقراطية تمثل حكومة الشعب قادرة على صيـانة حدودها وقمع الفتن الاهلية ؟ وهل يجب ان تكون الحكومة قوية جداً حتى تستطيع ان تدفـع عن حريات مواطنيها ، او ان تبلغ درجة من الضعف بحيث تعجز عن حماية نفسها ؟ وكان لنكلن قد وقف قانون الحرية الشخصية وتجاوز سلطته ، ودعا من ذات نفسه الى زيادة عدد الجيش في البر والبحر ، وفي ذلك خروج ظاهر على القانون ، غير ان الرئيس كان يرد على منتقديه بان السلامة العامة تتطلب تلك الوسائل الاستثنائية ، وقد اصدر مجلس الامة قراراً تجرد فيه من كل عاطفة غضب وحقد ، ولم يهتم الا بواجبه نحو البلاد كلها ، وهو عالم بان هذه الحرب ليس فيها روح اضطهاد اورغبة في فتح ، وما اوقدت نارها الا لحماية الاتحاد والمحافظة عليه والتساوي في الحقوق بين جميـع دوله . ومتى ادركت هذه الغاية فان الحرب واضعة اوزارها .

اما تحرير الرقيق فلم يعلن الا في سنة ١٨٦٣ ، فكان لاعلانه اثر كبير في مختلف اقطار الارض ، وكانت الشعوب قليلة الاهتمام ببقاء الاتحاد الأميركي او زواله ، ولكن اعلان لنكلن لتحرير العبيد أثار في العالم هزة اعجاب واكبار ، ولم يخل من ذلك حتى بعض الذين كانوا يتوقعون انتصار الجنوبيين . وقامت على الاثر دعوة تحرير العبيد ولاسيما في بريطانية العظمى .

ولم يكن الرئيس يقبل تسوية او هوادة في الامر الذي يقره. وقد لجأ الى وسائل العنف لقمع الفتن والثوائر التي كان يثيرها معارضو خططه ، فلمس موضع الداء باشارته الى عقاب الموت الذي يصيب الجندي عند فراره من الجيش ، وتساءل هل يدمي اطلاق النار على جندي مسكين جاهل لاذ بالفرار ، ولا يجوز ان تنزع شعرة من راس المهيج المحتال الذي حرضه ؟ وقد حاول مندوبو الجنوب في حديث طويل ان يقنعوه بعقد صلح مع الولايات الجنوبية ، واستشهدوا على ذلك بما فعله شارل ملك انكلترة بمفاوضة العاصين من رعاياه ، فأجابهم : ان بضاعتي مزجاة في علم التاريخ ، وانا ارجع في هذا الأمر الى امين سر الدولة ، وكل ما اذكره من هذه القصة ان شارل الاول قطع رأسه .

لقد تقلد كثير من الاميركيين السلاح لأنهم كانوا يحبون الاتحاد ويحرصون عليه ، ولا يحجمون عن بذل دمائهم في سبيل البلاد وصيانتها من التجزئة ، ولكن لنكلن قاده الى ذلك سبب اسمى وغاية ابعد ، فقد رأى ان مبدأ الدمقراطية وحكم البلاد نفسها بنفسها كان معرضاً للخطر ، وان سعادة الاسرة الانسانية بأسرها ذات علاقة بهذا الامر ، ولم يكن يطيق لنكلن ادراك هاتين الغايتين العظيمتين دون مؤازرة الشعب القادر المخلص ، وحق لأبنائه ان يشاطروه الفخر بهذا النصر . غير أنه احق بالنصيب الاوفى لانه كان ربان السفينة الذي يقودها في ساعة شديدة الحرج . ولا يشك أحد في ان لنكلن كان الرجل كل الرجل ، ولكن ليس من الهين تحديد الصفات التي تكون اسباب عظمته ، فدهاؤه لم يكن يبهر الاقربين اليه ، حتى ان وزارته أتى عليها بعض الزمن قبلما كشفت القناع عن أسراره وبعد ان سبقها الشعب ، ولم يعرف حق المعرفة الا بعد موته ، سمو آرائه التي دبر بها الامور في ذلك العهد الدقيق الخطر ، وكلما زاد تأمل الناس كلماته زاد شعور الاعجاب به ، وقد تكون اكبر فضائله القدرة على تبين الرأي العام ، وقلما تمتع رجل دولة بما تمتع به من الثقة ، اما تأثير صدقه فلم يكن يقتصر على الجماهير .

ولم يحاول احداث يستخرج كنه هذه العبقرية . ولم يذكر التاريخ خلقاً

عظيما فاجأ العالم بمثل هذه المفاجأة ، وقد وصفه غولدوين سمث المؤرخ الانكليزي بقوله : ولد في آخر طبقات المجتمع ، وتكون في بيئة النضـال والشقاء ، وسما في الحياة العامة حتى اصبح الأميركي الأول، وتقلد اعباء مهمته في الوقت الذي كانت قوى الحرية وقوى العبودية توشك ان تشتبك في قتال مميت ، فقبض على ازمة الحكم بيد قوية ، ولولا عبقريته الفذة لما سلم الاتحاد في رأي الكثيرين . وقد اودت رصاصة قاتل بهذا الرجل العظيم الذي هو من افضل تجار عرفته الانسانية الحرة، وكان الرزء به اعظم الأرزاء التي ألمت بالولايات المتحدة ، ومنذ غيب الثرى وجهه مابرح يعلو نجمه ويتألق كوكبه ، وهو لا يعد رئيساً عالي الصيت للولايات المتحدة بل يعد من اعظم رجال التاريخ ، وحسبه العملان العظيمان اللذان قام بهما لتخليد ذكره : الغاء الرق ، وصيانة الاتحاد .

وفي سيرة لنكلن الحافلة بالاعمال الجليلة، نجد كثيراً من المتناقضات التي هي عنوان عظمته ، فقد كان مظهره مظهر واثق بأصحابه مطمئن اليهم ، ولكن نفسه العجيبة كانت بعيدة الغور بحيث لا يدرك مكنونها، وكانت تلوح عليه مخايل الرجل المتلجلج المتلكىء المضطرب ، ولكن وجهه لم تفارقه قط روعته ، وكان حاضر الذهن فلا تفوته الكلمة النادرة او رواية بعض الحوادث الفكهة ، غير انه كان في قرارة النفس التي انطوت عليها جوانحه مجرى حزن واسى يملأ حياته ويظهر في جميع مواقفه ، وهو لم يكن راسخ القدم في فن الخطابة ، ولا طويل الباع في علوم الادب، ولكن كلامه في شؤون الرق من ابلغ ماتفجرت به عيون الفصاحة في ذلك الزمن ، ايجازاً ومتانة وقوة حجة ، وكانت خطبته في جتسبرغ على أثر الوقعة الكبرى المسماة بهذا المكان ، وخطبته في افتتاح عهده الثاني ، من درر الادب الرفيع .

فمن اقوال لنكلن التي كان ينطق بها عن فطرة ملهمة وملكة متأصلة كما هو شأن سائر قادة الشعوب : « ان من الامتهان لسكان بعض الولايات الانراهم جديرين بحكم انفسهم ، ولاجدال في ان مبدأ حكم الشعب لنفسه بنفسه صحيح ، وسيظل صحيحاً الى الأبد ، ولكن اذا كان الزنجي رجلاً الا ترى — بقدر مافي المبدأ من

صحة — اننا اذا حرمناه حكم نفسه انما نخرق بذلك مبدأ سيادة الشعب ، واذا حكم الرجل الأبيض نفسه كان ذلك تطبيقاً لمبدأ سيادة الشعب ، ولكنه اذا كان يحكم نفسه ويحكم رجلا غيره ، فذلك اكثر من سيادة الشعب : انه الاستبداد ، وليس في الناس من يتوافر لديه الخير ليحكم غيره بدون رضاه ، وما حياة امة نصفها حر ونصفها الآخر عبد. » وكان يقول في الرق : انه عقته لما ينطوي عليه في ذاته من جور قبيح ، وعقته لأنه يسلب النظام الجمهوري الذي نحمله الى العالم مثالا من اثر الحق في ايدينا ، وعقته لانه يدفع رجالا كثيرين من الاخيار الى محاربة المبادىء الاساسية للحرية المدنية ، فيصرون على دعواهم انه ليس ثمة من حق نستند اليه في اعمالنا ، وما هنالك الا المصلحة الشخصية .

اما خطبته بعد يوم جتسبرغ في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٦٣ فانها قد سارت كل مسير ، وتوراث الاميركيون مافيها من كلمات بليغة ، حتى أن الرئيس ولسن الذي كان معجباً بسلفه البعيد لنكلن اوردها بتمامها في كتابه تاريخ الشعب الاميركي وطبع على غرارها احدى جلائل خطبه ، وهي التي افتتح بها رئاسته الثانية ، وكان قد اجتمع الناس في ساحة الوقعة او على مقربة منها ، غداة ذلك اليوم الذي كان من أشد ايام الحرب الاهلية هولاً ليمجدوا ذكرى ضحاياها . وسألوا الرئيس ان يخطبهم في هذا الحفل المشهود ، فتكلم بكلام رقت له القلوب وذرفت العيون ، وكان مما قاله :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت انجب آباؤنا في هذه القارة أمة جديدة رضعت لبان الحرية ، ونذرت نفسها للدعوة بان جميع الناس ولدوا على سواء .

« ونحن الآن في حرب اهلية ضروس تمتحن فيها هذه الأمة ، لتعرف هل تستطيع الحياة والبقاء هي أو اية أمة غيرها نشأت نشأتها ونذرت نفسها مثلها . وفي هذه الساحة نلتقي في ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب ، وقد جئنا اليه لنجعل من بعضه مثوى خالداً لأولئك الذين جادوا بحياتهم لتحيا هذه الأمة ، وحق علينا كل ما نقوم به في سبيل ذلك .

«غير اننا ليس في وسعنا ان ننذر أو نقدس او نبارك هذه الارض ، اذ ليس في متناول طاقتنا ان نزيد في مكانتها او ان ننقصها بعد ان افاض عليها الابطال الذين ناضلوا احياءً فيها او أمواتاً ما فاضوا من حلل التقديس. والعالم لن ينظر الا قليلا وان يذكر الا قليلاً ماننطق به افواهنا في هذا المكان، ولكنه لايستطيع ان ينسى ابداً ماصنع فيه اولئك الابطال ، وجدير بنا ان ننذر نفوسنا ههنا للعمل الذي لم ينته والذي خطا به المقاتلون ههنا خطوات كريمة . وانه ليجدر بنا ان ننذر انفسنا في هذا الميدان المهمة العظمى التي يجب علينا ان نتمها ، وان نستمد من هؤلاء الموتى الامجاد ولاءً متزايداً لهذه القضية التي جادوا في سبيلها بأقصى غاية الاخلاص، وان نعقد العزيمة الصادقة على ان لايكون موت هؤلاء قد ذهب ضياعاً، وعلى ان تبعث هذه الامة التي تستظل بظل الله بعثا جديداً ، وان لاتضمحل على وجه هذه الارض حكومة من الشعب وبالشعب وللشعب » .

وقد تمتع الرئيس لنكان بسلطة عظيمة في مدة أربع سنين لم ينلها احد من قبله ولم يطلبها احد من بعده ، فلم يستبد ولم يستأثر ، ولم يغير شيئاً من اوضاع الدولة ومناهجها ماعدا علاقة السيد بعبده وتعزيز بنيان الاتحاد وتوثيق عراه ، فما تبدل شيء من الحريات العامة ، ولاتحولت طبيعة الامة الجوهرية من انها محبة للسلام . ولما انفضت الجيوش بعد ان اسدل قناع هذه الحرب الضروس ، عاد الجنود الى شؤونهم السلمية باندفاع كانه السحر ، وآخر عمل قام به الجيش هو عرضه الاخير الذي مشت فيه الصفوف تجري في اعطافها هزة النصر لتحيي قادتها ورؤساءها التحية الأخيرة ، ولكن غاب في هذا اليوم احق الرجال بفخر الظفر وازهدهم فيه ، الذي رمقه العالم بأسره وامتلأ قلبه بحب بلاده . طوته المنون قبل عشرة ايام في سجل العظماء الخالدين .

واذا كانت الحرب قد انتهت فانها قد جرت وراءها جرائر ، وكان ينبغي مواجهة مشكلات الانشاء والتعمير ومعاملة اهل الجنوب بعد ان اعادهم السيف الى حظيرة الوطن ، فكان بري فريق ، في طليعتهم الرئيس لنكلن وامين سر الدولة سوارد

والقائد غرانت، وهم الذين ابلوا احسن البلاء في اطفاء الفتنة وازالة التفرقة ، انه ينبغي العفو والصفح حتى تنقضي الحرب ولا احقاد ولا ضغائن . وقد قام في وجه الرئيس من يعارضه ، ويرى ان يصلى بنار الحرب جناتها ومثيرو نقعها ، وكانوا لايشاركون القائلين بالاكتفاء بعودة اهل الجنوب الى الوطن ومنحهم الحقوق والمزايا التي يتمتع بها سكان الشمال ، بل يرون معاملتهم بقوانين البلاد المفتوحة، جزاءً لما كسبت ايديهم . ولا ينظر اصحاب هذا الرأي لما يظهره هؤلاء من صدق واخلاص، فلولا انكسارهم لاصروا على بغيهم وتعنتهم ، ولكن الرئيس كان على عادته متمسكا بالخطة التي يمليها عليه عقله لاهواه ، فقد خاض غمرات الحرب بقلب لايكاد يطيعه، ولكن عزيمته لاتنثني ، فحارب مكرهاً اشد حرب لانه لم يجد عن الحرب مندوحة، حتى اذا وضعت اوزارها اقبل على مداواة ما خلفته من الشرور التي أخلت الديار وخربت الربوع وأوحشت المغاني ، فهل أدرك الذي فتكت يداه بالرئيس تعصباً لأهل الجنوب ، ماينطوي عليه ذلك القلب الكبير من رقة ورحمة ؟ .

٣ — ولسن

اذا كان مصرع لنكلن قد اشجى الولايات المتحدة وأمضها ، فان عاقبة ولسن كذلك لاتقل عنها فيما أبقته من شجو وحزن ، ولئن اغتال الاول متعصب اعمى لقد اغتالت الثاني المنازعات الحزبية والمنافسات السياسية ،وشيء آخر اراده ان يكون في العالم وهو رفعه الى مستوى اعلى ، ولكنه كان فوق حقيقته وفوق ما يستطيعه . وقد انتهت حياة الرئيس السياسية وطويت اخرى صحائفها سنة ١٩٢٠ لاسنة ١٩٢٤ حين وقع احد الاطباء وثيقة تحمل اسم وودرو ولسن وتثبت وفاته . فأية علامة تهكم مخيفة تقترن بسيرة هذا الرجل الذي ظهر في حين من الاحيان كانه بارقة امل الأنسانية باسرها ، وانه اقوى شخصية في تاريخ الولايات المتحدة وجمهوريتها، ولكن سرعان ما اختفى وراء الافق وسجل اسمه ذكرى اعظم الخفاق في تاريخ السياسة وما هذا الاخفاق الا نتيجة اجتماع عناصر مختلفة ادت الى تضاؤل حب شعب الولايات المتحدة له ، فقد اغضب الارلنديين لانه لم يؤيد قضيتهم التأييد الذي كانوا

يتوقعونه ، وأثار الالمان لأنه لم يرع عهده لوطنهم ولم يصر الاصرار كله على تنفيذ قواعده الشهيرة ، واحفظ الايطاليين لأنه لم يدع بلادهم تحقق كل ما تصبوا اليه من توسع، ولم يطمئن كذلك رغبات منافسيه السياسيين في بلاده فجعلهم يتربصون به الدوائر . وقد سألت جريدة نيويورك افننغ بوست الاميركية الجنرال سمطس، الذي اجتمع له من صفات القيادة العسكرية والبراعة السياسية مالم يجتمع لسواه ، رأيه في عمل الرئيس ولسن وماصار اليه امره، فأجابها بقوله : « لقد اضطر الرئيس ان يتسامح في كثير مما قرره من قواعده الاربعة عشرة ، وليس هو الذي اخفق بل الانسانية هي التي اخفقت، وسيبقى للمبادىء التي وضعها من الخلود مايحسد عليه ... ولن يفوت الاميركيين في مستقبل ايامهم ان يضموا ولسن الى جانب وشنطن ولنكلن ، وستفوقهما شهرته بشمولها وأثرها في جميع العالم . »

حقاً لقد غلب الرئيس على امره في اثناء مفاوضات الصلح ونزل عن عدة نواح من مبادئه العليا ، ولكن المعاهدة مع ذلك كانت مطبوعة بطابع الرغبة في الصلح والسلام ، وقد اصر ولسن على ان يكون السلم معقوداً في وضح النهار ومؤسساً على العدل المجرد عن الهوى، وكان يريد من عصبة الامم ان تكون ضماناً لصيانة السلم وان تستعين لادراك غاياتها بقوى العالم المتمدن المتحدة، غير ان اوربة كانت اميل لسياسة التوازن ومنافسات التحالف ، ومع ذلك استطاع الرئيس بما دعا اليه من المبادىء القويمة المؤسسة على الايثار ، ان يغير كثيراً من اساليب السياسة الاوربية القديمة التي تستمد من قواعد الفتح وخطط مكيفلي ، وكانت عصبة الامم الوسيلة الوحيدة لحماية الحضارة والدفاع عنها ، وهي فكرة عظيمة وطريقة محدثة في التاريخ العام ، لو استطاعت ان تسيطر على الدول بجملتها ، لا ان تخسر ثقة العالم بعجزها عن تحقيق مثلها العليا.

وقد اراد الرئيس في دعوته الى انشاء عصبة الأمم ان يجعل من قاعدة مونرو الاميركية قاعدة عالمية ، فقال في رسالته سنة ١٩١٧ : « اقترح ان تطبق هذه القاعدة في العالم كله ، بحيث لاتعمل دولة على اجبار امة اخرى او شعب آخر على الخضوع لسياستها الخاصة ، ولكن كل شعب تترك له الحرية في تحديد السياسة التي يريدها

والطريقة التي يختارها دون ان توضع العقبات في سبيله أو يعرض للتهديد والارهاب. والشعوب الصغيرة في ذلك كالشعوب الكبيرة او الشعوب العظيمة » . وقد انتقد الشيخ لودج الذي كان رأس معارضة ولسن هذا الرأي، وقال ان معنى اعلان تطبيق قاعدة مونرو في العالم بأسره أنه لم يبق لها مجال تطبيق او بقاء ، اذ هي في الحقيقة لم توضع الا لحماية نصف الكرة الأميركية . على حين ان هذا الشيخ نفسه كان يخطب في اثناء الحرب خطباً لاتخرج عن مبادىء الرئيس ولسن ومايدعو الناس اليه.

ولم يكن الرئيس ولسن يعد نفسه محارباً في جملة المتحاربين ولكن حكما بينهم ، وقد حاول في بادىء الأمر ان يحتفظ بحياد بلاده ، فالانكليز يعرقلون سير التجارة الاميركية والالمان ينسفون سفنها ، ولكن الاميركيين كانوا يخشون عاقبة انتصار المانية وبسط سيادتها على العالم ، وما يجر اليه ذلك من تهديد بلادهم وافساد المبادىء التي تحيا لأجلها وتحيا فيها ، وخسران مالهامن مصالح خاصة وعامة ، وهي لم تكن تخشى ان تستعبدها المانية اذا كتب لهـا النصر ، ولكنها لم تكن تشك ان سحق المانية للدول المتحالفة يعرض اميركة لأخطار عظيمة، ويحملها على ان تتبع في بلادها خططاً ومناهج عسكرية ، وان تكون دائماً مضطرة للتأهب والاستعداد ، فكان رأي جمهور هؤلاء الاميركيين انه يجب التدخل حتى يدفع هذا الخطر الداهم قبل ان يفوت الاوان ، وكانت حرب الغواصات التي اعلنت المانية عزمها على القيام بها دون هوادة سبباً في دخول اميركة الحرب ، وقد ارتكبت المانية اخطاءً كثيرة في الحرب الماضية ، فقد ظنت ان انكلترة لاتحارب في سبيل قصاصة ورق (حياد البلجيك) ، وحسبت ان باريس ستسقط قبل ان تكون روسية قد أتمت تعبئتها ، وان ايطالية ستكون في صفها او انها تبقى على الحياد . ولكن لم يرتكب شعب خطيئة سياسية تحمل بسببها اعباءً كثيرة كخطيئة الشعب الالماني ، عندما دفع الولايات المتحدة ورئيسها الذي يحب السلم الى خوض غمرات القتال ، فلم يقدر عواطف الامة الاميركية حق قدرها ولاحسب حساب وسائلها العظيمة وقدرتها بذلك على ان تنقلب دولة عسكرية قوية .

وقد كان الرئيس ولسن ـ كما وصفه هنري وليم استاذ التاريخ في جامعة نيويورك ـ على خلق عظيم وشرف رفيع ، ممتعاً بأرقى مواهب الفكر ، واثقاً بنفسه مستقلاً برأيه ، لايخلو من الحذر والحيطة ، ولا نرى فيه صفات الايناس والتحبب او الجاذبية الشخصية التي تعد سبباً جوهرياً من اسباب النجاح في صناعة السياسة ، وقد تلقى مبادئه وتعاليمه عن الاسس الدمقراطية الاميركية وتقاليدها ، ووجدها في النصوص التاريخية والقواعد الحرة ، حتى كأنه حاول ان يطبق اساليب بلاده في العالم كله . حقا انه كان ينتقد بشدة مناهج بعض الاميركيين في الاغراء والافساد والرشوة ، وكان يرجو ان يشفي عالما عليلا مضطربا ويجعله صالحاً شريفاً بتنفيذ الخطط التي تغلغلت في فؤاده . وكان في بعض كتبه ومؤلفاته يشرح الحرية الانكليزية ويتخذها مثالاً يحتذيه ، ويستحسن مايصنعه المصلحون من الانكليز الذين يعملون على انقاذ الامبرطورية دون ان يغيروا الدستور او يبطلوا قواعده او يغيروا جوهر الأمور وطبيعتها .

وكان الرئيس في مؤتمر فرساي يرسل نظراته الى العالم والى مايجري فيه من احداث خطيرة ، ويريد تغييره واصلاحه دون ان يزلزل بنيانه ويقوض اركانه ، بل يعمد الى تطبيق قواعد الحرية السائدة في اميركة وفي بريطانيـة العظمى بضمان عصبة الامم وتعهدها ، ولكن تقاليد الفتوح وضغائن الحروب التي احياها النصر في النفوس ، وبث المبادىء الوطنية المفرطة في صفوف الشعوب الكبرى والصغرى جعل ممثلي جميع هذه الشعوب يتهافتون على احراز ثمرات الانتصار ، فاصبح هذا الوضع منذراً منذ افتتاح المؤتمر ، واخذ الرئيس يحذر عواقب الطمع والحرص وما تجره من النكبات والكوارث ، وانكر الاعتماد على السلاح للاستيلاء على بعض البلدان ، في ذلك مافيه من نقص قيمة المطالب المنشودة واضعاف شأنهـا ، لأن تحكيم القوة يؤدي الى الاعتقاد بأن الذي يلجأ اليها يشك في عدل قضيته وصحة حجته ، ويريد ان يستحوذ على الربوع التي لايجد لديه من الحق مايكفي لتأييد دعواه فيها ، فيحل العنف والشدة محل الحق الذي يستند الى الجنس والتاريخ والشعب ،

ويثير الشبهات بعمله حول المستندات التي يعتمد عليها ، كما انه يؤكد عدم ثقته بمؤتمر السلم .

وفي الحق ان قوى عظيمة كانت تتهيأ لنضاله وهي قوى مخيفة متألبة . وكان ولسن يمني نفسه بالانتصار على النظام القديم ، لأن العالم كله كان يؤيده ويهتف له في ساعة من ساعات الحماسة وسمو النفوس ، ولكن هذا العالم كله كان يرتاب في نجاحه ويتجهمه ويحمل عليه ، وكان يعتقد باصلاح النوع الانساني ويقدر عظم التبعة وخطر المسؤولية . وقد قام بعمل من اعمال الدعاة والحكماء والفلاسفة ، فخاطب الشعوب وقرر المبادىء وحث على تطبيقها ، ولكنه لم يقارب بينها وبين حقائق الحياة كما هي ، وحقائق الشعوب كما هي . لا كما يريد ان تكون هذه وتلك ، فلم يلبث ان وجد المبادىء التي قررها يدال منها حتى انها حولت في المعاهدة الى نصوص اصبح الرئيس نفسه يجهل كثيراً منها . وقد خاض غمار مفاوضات سياسية عسيرة في باريس كانت أهبتهما اقل من اهبة مخاطبيه ومناظريه المجهزين بالاسلحة الماضية والبراهين القاطعة ، حتى ان بلاده تخلت عنه ، كما عارضه حلفاؤه وتنكروا له ، وبقي وحده يناضل في قتال عنيف ويعالج المصاعب الجسام ، وباح الرئيس بما يخامره من أسى في خطبة القاها بلهجة مؤثرة في جمعية الشرائع الدولية في باريس على اثر تقديم المعاهدة الى مندوبي الالمان قائلاً : لقد خيبت تجارب الحياة ما تطلعت اليه الشعوب من آمال حسان ، وخيل اليها ان الشمس لا تشرق بضيائها دفعة واحدة ، ولكن تسير على مهل فتشق اشعتها الدياجي رويداً رويداً حتى تملأ الكون بنورها الوضاء .

ان هذا الرئيس الذي شعر بمرارة الخيبة كان يعتقد بكوكب سعده الطالع ، وكأنه رأى بعينه فجر الحرية قد انشق جانبه وبزغ تاريخه ، فحاول ان يجعل من اماني الأمس حقائق الغد ، فيالها من ساعة عظيمة في التاريخ ، ويابؤس الذين اعترضوا مناهجه وقطعت بهم السبل دونه ! فقد كان في مصلحة الدول الاوربية بل في مصلحة العالم كله تنفيذ شروط الرئيس ولسن والتقيد بها ، فهذه الشروط اعانت الحلفاء عوناً كبيراً في سنة الحرب الأخيرة بما بعثته في النفوس من العقيدة التي اخذت

مجامع القلوب ، بعد ان اصبح كثير من المحاربين يتململون من القتال في سبيل غايات موهومة ، وقد انكر على ولسن شأنه مفاوضاً ورجل دولة ، ولكن هل ينكران قواعده هي الوثيقة الأولى التي احتكم اليها الفريقان المتقاتلان ، وان كلماته كان فيها من بعد الغور وعظمة الحقيقة مالا ينسى ابد الدهر ؟ وقد حسب الرئيس الاميركي عندما اعلن آراءه وقواعده انه اقتربت ساعة التقاليد السياسية القديمة وازيل الستار الذي كان يخفي وراءه الدول العظمى ، فاقبل الناس بعضهم على بعض يستبشرون بان رجلاً في هذه المنزلة ، وهذا المقام والسلطة من أمة عظيمة رفع صوته بذلك النداء الذي خرج من كل قلب ، ولكنه كان كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وطويت الفكرة الجديدة في اعلام الظفر المبين ، الذي ينشىء في النفوس سكرة غرور واقتدار هي أشد خطراً من السم .

اما الولايات المتحدة فقد نفد صبرها يومئذ من الرجل الذي لا يعرف الا قليلا عن حقيقة العالم ، والذي تكهن بوقوع الكارثة مرة اخرى اذا لم تعبيء امته قواها الحربية والاقتصادية لمقاومة معكري صفو السلام ومهددي بنيان الحضارة . وقد ضحك الناس من اقواله سنة ١٩١٩ ، ولكن لم تأت سنة ١٩٤١ حتى اصبح هذا الضحك أشبه بالبكاء ... واخذ الاميركيون يحيون ذكرى الرئيس الحكيم في البلد الذي ولد فيه وفي كل فرصة سانحة ، وقد بعثت نفخة الحرب عدداً لا يحصى من الموتى ، وبينهم وودرو ولسن الذي أشرق مجدداً في اذهان الأميركيين ، واخذت آراؤه وكلماته تتردد على الافواه والاقلام مستعيدة بهجتها ورونقها ، ورأى حتى الذين انكروه ما كان من بعد النظر في قوله : لا ينبغي ان يسود العالم توازن قوى بل مجموعة قوى موحدة ، ولا منافسات منظمة بل سلام عام منظم .

لقد نشأ ولسن في الولايات الجنوبية ، وكان عمره تسع سنوات لما وضعت الحرب الاهلية اوزارها . فشب في مناطق تبدو فيها الحياة اكثر مشقة وصعوبة ، ولاسيما بسبب الفقر الذي ضرب فيها بجرانه في السنوات الاولى بعد الحرب ، وما يعترض العمل من عقبات سياسية واجتماعية ، وبقيت آثار هذه النشأة مرتسمة على حياته ،

وزاول ولسن صناعة التعليم حيناً ، وكان استاذاً للتاريخ في جامعة برنستن ، وارتقى بعد ذلك منصب رئاسة الجامعة ، ثم انتخب حاكما لولاية نيو جرسي ، فكان شعاره في المهمتين اللتين تقلدهما الحزم والنضال ، وتوجهت الانظار الى شخصية هذا الرجل القوية ، حتى فاز بانتخاب الرئاسة سنة ١٩١٢ .

فلا جدال في ان الرئيس ولسن كان فيلسوفاً اجتماعياً ، ولا جدال في انه لم تكن تخفى عليه خافية من اوضاع الدولة في الولايات المتحدة ، واتم برهان على ذلك ماحواه برنامجه التشريعي الذي اعده في النصف الاول من مدة رئاسته ، واول شيء اقره هو ان الزعامة الحزبية من المهام الاولى التابعة للرئاسة ، وهي حقيقة أخذ بها وطبقها كل رئيس قوي ، لكنها لم تعلن صراحة من لدن احد قبله ، وخلال السنتين الاولين أحدث تغييرات في نظم الولايات المتحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي في الحقيقة اصلاحات عبقرية ... وكان عندما يجمع رأيه على شيء يعتقد فيه الصلاح يتشبث به ولا يتحول عنه قيد شعرة ، وكان ينفذ ببصره الى دقائق الأمور الادارية ويدهش بمعرفته أسرارها ، والمصلحة العامة هي رائده الوحيد ، ولا يبالي ماصنع في مقاومة خصومها ، وفي هذه الكلمة مايترجم عما تنطوي عليه نفسه : يجب علينا ان نرتاب بكل رجل يريد ان يتخذ جهود البلاد وحاجاتها وسيلة لمآربه وزيادة ثرائه ، وان نسهر حتى لاتكون فتنة ولاتبث مكيدة تفسد نظامنا وتضير شعبنا ، وان لاندع سبيلا للحيلة ولا للرشوة تنفذان منه الى حكمنا وادارتنا . وكذلك قوله : المصلحة لا تؤلف بين الرجال بل انها تفرقهم ، فمتى حدثت ثغرة في المصالح التي كانت متفقة ، فان عواطف الحسد تهب على الأثر وتجر من ورائها الجرائر ، اما الذي يجمع بين الناس ويؤلفهم فهو اخلاص مشترك لمبادىء الحق الكبرى ، وقد أخذ الرجال يبحثون منذ لاح فجر الحرية عن حقوقهم ، ومضت مئات السنين حتى اصبح الواجب العنصر الاول للحق ، والشرط الذي يدرك به الانسان حقه هو ان يقوم قبل كل شيء بواجبه .

لقد حالت حرب سنة ١٩١٤ دون تحقيق ما كان يريده لبلاده ، ولكن انقياده

لخوض غمراتها جمله يفكر في تطبيق قواعد الحق والواجب في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفي حماية السلم واجتناب كوارث الحرب ، ومن الخطأ ان يظن ان المنازعات الحزبية هي التي كانت السبب في معارضة امته لمناهجه ، فان الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب وهي اكثر مالاً ، واعز جانباً ، واختباراتها تدلها في مدى مئة سنة على انها ليست معرضة لخطر ، ولاتدفعها حاجة لاتخاذ التدابير لحماية السلام والطمأنينة في جميع اقطار الأرض ، وهي تعتقد ان قوتها كافية لسد حاجاتها ، وان اوربة ستظل مفتقرة اليها ، وقد اكتفت من الحرب بالظفر ، وخرجت تمرح في جلابيب الغبطة والتفاؤل ، لم تستقر في نفوسها تلك الحكم البالغة التي انشأتها مصائب الحرب ومخاوف المستقبل ، وكانت عصبة الامم في نظرها مثلاً اعلى لايستطاع تحقيقه وحل مشكلات العالم المقبلة بوسائله ؛ فأميركة تنشد النصر وهزيمة المانية الجبارة ولا تبالي مايجري بعد ذلك ، والرئيس ينشد النصر ويريد ان يربطه باقامة النظام الجديد . وكانت عصبة الأمم يمكن ان تصبح اداة الاصلاح لوانها امدت بالقوة الكافية ، وهذه القوة ما كانت لتجد تأييدها المعنوي عند قاض غير مكترث ، بل عند امة كالولايات المتحدة التي رفضت ان تشترك في العصبة ، ففقدت منذ تلك اللحظة ، نصيبها من النجاح . لقد اخفق ولسن في خطته لا لأنه كانت تنقصه الحكمة — كما ادعى بعضهم — ولا لأنه لم يستطع ان يغير نفسه ، بل لأن بلاده كانت في حال لايمكن تغييرها ، ولم تكن فيها الكفاية للاضطلاع بالعبء العظيم الذي القاه على عاتقها ، وهو لم يكن يستطيع ان يعمل اكثر مما عمل ، كالرجل القوي الذي ذكر في اساطير اليونان وقدر له ان يغالب القدر الذي لايغلب ، ولو كانت لديه من المقدرة في علم النفس بقدر ما كان عند الرئيسين تيودور روزفلت وفرنكلن روزفلت ، لبقي كذلك من المحتمل ان يكون معرضاً للخطأ والاخفاق ، لأن عجز الولايات المتحدة عن فهم ضرورة انشاء عصبة الامم كان شيئاً متأصلا فيها ، ولا يمكن ازالته مها يبذل الداعي الى ذلك من ضروب المهارة والحذق ، واذا كانت حجة ولسن اقل قوة وصلابة ، فان نفوذه المعنوي كان اعظم اثراً وابعد غاية ، واذا كان قد اخطأ فذلك لأنه كان يعرف الكتب

اكثر مما يعرف الرجال ، وكان كثير الاعتماد على حرية الفكر ، حتى انه اراد ان يجرد العقل من العاطفة ، وفي الحق ان كثيراً من العلماء يخطئون .

على ان كل مايقال في اغلاط الرئيس ولسن قدطوي معه في لحده ، ولا تستطيع ان تبعثه الصرخات المدوية المنبعثة من ارجاء العالم ، وليست الشخصية القلقة احيانا هي التي تخلد الآن في النفوس ، ولكن الرجل السياسي الذي كان يسمي ، كما قال ، لمواجهة الحقائق وحدها ويجتنب مظاهر المجاملة المزخرفة ، والذي اراد ان يخرج السياسة الدولية من اساليب التسلط والارهاب والدسيسة والخداع والاستئثار ، ويدخل في خططها وتقاليدها شيئا امنع من القوة واجل من المنفعة واثبت من سياسة التوازن وعقودها المزمة ، شيئا يفصل في الخصومات ويحمي حمى السلام ويصون حقوق الشعوب ويساوي بين الاقوياء والضعفاء : ذلك هو الحق العام الجديد الذي مازالت تحن اليه الانسانية كما تحن الى الخيالات والاحلام والأماني والذي لاتطلع شمسه فجأة — كما قال ولسن — ولكن تسير على مهل فتبدد الظلمات حتى تملأ الكون بضيائها .

٢ — حرب سنة ١٩١٤ ومسؤوليتها

عاشت اوربة قبل حرب ١٩١٤ في صلح مسلح ، ونشأ رجال سياسيون حديثون وتضاءل شأن الملوك في السياسة ، واستفحل امر الاحزاب ولاسيما الاشتراكية الثائرة على النظام والمعادية للحروب التي تشنها الحكومات ، وتحول الفن العسكري تحولاً عظيما انتجته الثورة الصناعية فخافت الدول عواقب الحرب وتنادت الى عقد المؤتمرات السلمية وابرام المحالفات العديدة ، ثم كانت سياسة ادورد السابع التي دعيت بسياسة التطويق لالمانية وجاءت على اثر سياسة التردد بين صداقة المانية ومعاداتها ، وبعد ان كان بعض وزراء بريطانية مثل شمبرلن الكبير يدعو الى عقد معاهدة بين الشعوب التي تنحدر من اصول جرمنية : انكلترة والمانية والولايات المتحدة ، جاءت محاولة غليوم الثاني في تشييد سياسة عالمية ، اساسها التحريض على انكلترة وعلى اسطولها البحري ، حتى ان الاميرال تربتز

الذي وصفوه بالرجل العجيب كان يدعو الله ان تمتد به الحياة حتى يرى خاتمة تسلط انكلترة على البحار ، وكان الاسطول الالماني الناشيء يريد ان يكتب في سجلات مفاخره معارك الانتصار على الاسطول البريطاني ، واصبح مستقبل المانية على سطح البحر ، وتغلبت سياسة الأسطول على كل سياسة ، حتى ان دوبيلوف كان يتململ في كتابه من تربتز الذي كان يمنع الامبرطور من الاصغاء الى السياسة التي ينبغي اتباعها نحو بريطانية ، فقد كان الامبرطور غليوم يعير سمعه الى كل شيء الا الى مايقال في شأن الاسطول وما يتصل به ، حتى ان حبه لسفنه ودوارعه دفعه عن الاستفادة منها في اثناء الحرب ، فاشجى بذلك قلب منشئه (تربتز) الذي وقف عليه مضاءه وجهده وحياته ، وكان الاساتذة الالمان ينتقدون الامبرطورية الانكليزية التي لم تؤسس على قواعد المنطق ولكن على فرص التاريخ ، ومع ان التوازن الدولي كان سائداً فقد كانت الخشية من التوسع الالماني عظيمة ، حتى ان رجلاً مثل بلفور كان يتحدث بمبادأة المانية القتال قبل تمادي خطرها ونمو اسطولها وازدياد تجارتها ، وهو يرى خوض غمرات الحرب ايسر على الشعب البريطاني ، من ان يقاوم المانية بالاكثار من العمل والحط من مستوى المعيشة والرغد .

وكانت فرنسة تعيش في ظلال الانتقام منذ سنة ١٨٧٠ ، وقد اعرب بول بورجه في ما كتبه سنة ١٩١٣ عن الآراء السائدة عند فريق من المفكرين لا عند العسكريين وحدهم فقال : ان جيلا مارس الحروب وخاض الغمرات يورث خلفاءه فضائل الذكاء العظيمة التي تنمي عادة الحزم والنظام في معالجة الامور الخطيرة والوقوف في وجه الموت ، والفن والأدب يأخذان من النظام ومن رقابة الطاعة هذا الجد ، وهذا الاندفاع ، وهذا التصميم ، وهذا الشعور بالحقائق – تلك الصفات العسكرية الممتازة التي اذا نقلت الى مجال الفكر كونت المنشئين الحقيقيين والمنشآت الصحيحة ... ويا بؤس الشعوب التي ليس لها تاريخ ، والتي تتمثل باقوال الجبناء ، فهي لا تعرف هزة البطولة في ساعة الخطر ، ولا دنت منها منذ عهد طويل ... وصغار الاحلام المخيفون الذين يدعون الى السلم – هؤلاء الخياليون الذين لا يشك بدعوتهم

الى انحطاط النفس وافساد الروح ـ هذه الرذيلة البزنطية التي نرجف عندما نظن انها ستنتشر في فرنسة ، وما اكثرما ترتاح نفوسنا وتطمئن صدورنا عندما نرى انه لن يكون شيء من ذلك ... فالحرب هي في الحقيقة ناشرة مقدسة ، وفكرتها وحدها كافية لأن تبعث في الشعوب النفس القومية بعثاً صحيحاً .

هكذا كانت اوربة عندما فاجأتها حادثة ولي عهد النمسة ، فاوقدت نار الحرب التي بقيت الوسيلة الوحيدة لحل القضايا الدولية ، وكان خرق حياد البلجيك هو السبب المباشر لاشتراكها في الحرب ، والمذكرة التي ارسلتها يومئذ المانية لبلجيكة من الوثائق التاريخية فقد ورد فيها ان الحكومة الالمانية تلقت انباءاً وثيقة عن استعداد فرنسة لاختراق البلجيك ومهاجمة المانية من هذه الانحاء ، ولا تشك الحكومة الالمانية بانه اذا لم تتلق البلجيك المؤازرة في حربها ، فانها لا تستطيع مهما حسنت نيتها ان تنجح بمقاومة الفرنسيين ولا ان تدفع عن المانية الخطر الذي يستهدفها ، والواجب المحتم على المانية هو ان تدافع عن كيانها وعن بقائها ، وان تدفع مايهددها من خطر هجوم العدو ... والحكومة الالمانية تأسف كل الاسف اذا كانت البلجيك ترى من العدوان عليها ان تتخذ المانية الوسائل التي اجبرها عليها اعداؤها الذين يريدون اجتياز حدود البلجيك ... ورغبة في ازالة كل وهم فالحكومة الالمانية تعلن انها لاتريد ان تقوم باي عمل عدائي في بلجيكة ، واذا وقفت هذه الدولة موقف الحياد الودي فانها تضمن لها سلامة اراضيها واستقلال بلادها وتنزح عنها عند عودة السلم ... واذا وقفت موقف العداء وارادت ان تحول دون تقدم جنودها وان تقاومهم بحصونها ، فهي آسفة لانها تضطر ان تتخذها عدوة . . . وهي بهذه الحال لاتستطيع ان تتعهد لها بشيء وتدع تنظيم العلائق بين الدولتين الى ما يكون عليه حكم السلاح ، والحكومة الالمانية تؤمل كل الأمل ان لايقع شيء من ذلك وان تبقى صلات المودة التي تربط الدولتين الجارتين على حالها .

وقد اجابت حكومة البلجيك ان هذه المذكرة قد اثارت لديها عجباً اليما عميقاً ، واضافت قائلة : ان مايعزى الى فرنسة يخالف تأكيداتها ، وهي اذا فعلت

غير ماينتظر فان بلجيكة ستقوم بجميع واجباتها الدولية ، وسيقاوم جيشها المغيرين اشد مقاومة ... وان بلجيكة التي ضمنت الدول استقلالها وحيادها ، مقيمة على الوفاء بماعاهدت عليه من عقودها وحسن الاداء لواجباتها ، وهي لاتقصر في عمل يصون استقلالها ويجعله محترما ... والتعرض لاستقلال بلجيكة وتهديد المانية اياه انتهاك صريح لحقوق الدول ، ولايوجد سبب عسكري يسوغ هذا الانتهاك واذا قبلت الحكومة البلجيكية المقترحات التي عرضت عليها فهي تضحي بشرف الامة وتغدر بواجباتها نحو اوربة ... وبلجيكة المطمئنة الى مابذلته في سبيل الحضارة منذ ثمانين سنة تابى ان تعتقد ان استقلالها لايحافظ عليه الا بانتهاك حرمة حيادها... واذا خاب ماتؤمله فان حكومة البلجيك مصممة كل التصميم على المقاومة بجميع مالديها من الوسائل لكل اعتداء على حقوقها .

اما ماذكر من احتمال اجتياز الجيوش الفرنسية حدود البلجيك فقد ثبت في بعض الوثائق التي نشرت بعد الحرب ، ان المسيو بوانكاره عندما كان في رئاسة الوزارة سنة ١٩١٢ كتب الى سفير فرنسة في لندرة بول كميون ، يذكر احتمال مهاجمة فرنسة لبلجيكة اذا نشبت حرب بينها وبين المانية واضطرت لمقاتلة جيوشها ... ويقول بوانكاره انه من المهم ان لاتبقى انكلترة محايدة بين فرنسة والمانية وان كنا البادئين ، ولأجل ان لانذكر الامثلا واحدا ، هل يمكن ان نعد من وجهة شرعية مسؤولين عن اعتداء ما ، اذا عبأت المانية جيشها في انحاء اكس لاشابل ، وحملتنا على حماية حدودنا الشمالية باختراق ارض البلجيك ... ومثل هذا الموضوع الخطير ما كان ينبغي ان يسجل في وثيقة سياسية بل ان حديثا بين الرئيس والسفير كان يقوم مقامها بدون ان يبقى له اثر .

وكانت ايطالية في اثناء محالفتها لالمانية لاترغب بان تغلب فرنسة مرة اخرى ، وتعد ذلك مضراً بالمصالح الايطالية وخطراً عليها ، واذا استطاعت المانية ان تسحق فرنسة في حرب جديدة فان ذلك يؤدي الى اوضاع مصطنعة مفرطة ، وهي تكون بسبب ذلك موقتة وزائلة ، كما كان يجري في عهد نابليون ، واذا تم مثل ذلك اختل

التوازن الذي كانت تحرص عليه ايطالية ، ولذلك لم تكن تقطع علائقها مع لندرة وباريس ، وهذا مالم يكن يرضي المانية التي كانت تريد من الحرية لخططها واساليبها ماتنكره على حليفتها ، حتى ان دلكاسه اعلن في مجلس النواب الفرنسي ان ايطالية مسالمة لاتشترك في اي اعتداء على فرنسة ، وكان موقف المندوبين الايطاليين في مؤتمر الجزيرة أقرب الى انكلترة وفرنسة ، وخلاصة مايقال في سياسة ايطالية قبل الحرب انها كانت تستعين بالتحالف المثلث لتحقيق خططها وتعزيز قواها ، وتعمل على مقاومة النمسة التي كانت تتضاءل بسبب نمو الفكرة القومية وتعاظم شأنها ، وقد كانت ايطالية ـ كما قال شاتوبريان في زمانه ـ برغم سلاسلها ناضجة للحرية . وكاد هذا التنازع بينها وبين النمسة يحمل هذه على قتالها في اثناء الحرب التركية بعد ان ذهبت فرصة الزلازل ، وقد عارض في ذلك الامبرطور فرنسوا جوزيف معارضة سلبية اكثر منها ايجابية ، كأنه وحده بين طبقته كان يرى المبادىء الاخلاقية ليست امراً لاقيمة له ، والايطاليون ينتحلون اعذاراً كثيرة لانقلابهم على حلفائهم ومحاربتهم في صفوف اعدائهم سنة ١٩١٥ ، ويقولون ان التحالف الثلاثي كانت غايته دفاعية وان المادة السابعة تنص على وجوب اتفاق النمسة وايطالية في شؤون البلقان ، على ان النمسة منذ سنة ١٩١٣ كانت تنوي الاعتداء على الصرب ، وقد عارضت بذلك رومة معارضة شديدة ، فلما اعلنت النمسة الحرب على صربية ابلغت ايطالية انكلترة وفرنسة حيادها كما ابلغت ذلك الى حليفتيها ، وهم يقولون ايضاً ان بسمرك كان عقد مع روسية ميثاق التضامن المتبادل في وقت كانت فيه الحرب محتملة الوقوع بين روسية والنمسة ، وقد زاد في خطر هذا الميثاق انه ابقي سراً مكتوما ، على حين ان التحالف الثلاثي كان يقضي باطلاع رومة وفينة على كل اتفاق من هذا القبيل ــ ولكن ايطالية وحدها مكيفلية ! .

اما مسؤولية الحرب ، فقد تضاربت الآراء فيها واراد الحلفاء ان يلقوا على المانية تبعتها وجعلوها تسلم بذلك كرها في معاهدة فرساي وقد اصرت بعد ذلك على التنصل منها ، وفي الحقيقة انه كان لكل دولة سبب في الحرب وكان الرؤساء

جميعهم مسؤولون في ايقاد نارها : وقد كان الجنرال شليفن يحادث البرنس دو بيلوف منذ سنة ١٩٠٤ ويقول له : ان الحل الوحيد من الوجهة العسكرية هو حرب عاجلة مع فرنسة ، فان انكلترة لاتزال ضعيفة بعد حرب البوير ، وروسية تقاتل في اليابان وفرنسة في عزلة ، وقد ثبت بعد ذلك ان الرجل السري العجيب هولشتاين هو الذي اوحى بهذه الفكرة للجنرال شليفن رئيس اركان الحرب في الجيش الالماني ، فاعترف بانه عندما زال الخطر من مشاطرة انكلترة للتحالف الروسي تغلبت عليه خطة كسر الدائرة قبل ان يتم اغلاقها ، وانه ينبغي كسرها باشد حزم واقوى ارادة لاتتراجعان امام اعظم الاخطار ، وهذا ماحمل القيصر على السفر الى طنجة ، وفي هذا الزمن ارتأى شليفن رأى الحرب ــ حرب الوقاية ، ولكن هولشتاين نفسه قال بعد ذلك انه قد ظهر له ان مثل هذه السياسة امر مستحيل ، لان الامبرطور لايستقر على حال .

وقد اجمع الرأي في المانية على ان تأثير هولشتاين كان مضراً في عهده الطويل المكتنف بالأسرار ، وكان له في فرنسة رجل غامض ينافسه ولكن بدون ان يكون مثله محفوفا بالأساليب العجيبة ، وهو دلكاسه الذي كانت الآراء منقسمة في شأنه ، ولكن مهما كان من أمره فاي فرنسي لايستحسن سياسته التي ادت الى توثيق العرى بين فرنسة وايطالية ، والى ابرام الاتفاق الودي مع انكلترة ، واذا كان قلب المحالفات وتغييرها مفخرة عظمى في عهد فردريك فلماذا لايكون ما قام به دلكاسه جديراً بالاعجاب ؟ نعم ان رجلين : بارر في رومة وبول كمبون في لندرة هما اللذان بلغا من هذه السياسة غايتها ، غير ان دلكاسه حقيق باعظم الفخر لأنه شد ازر معاونيه في افهام باريس ان الاتفاقات الخطيرة لاتتم بدون تضحية ، وهذا هو سر السياسيين المسلكيين الذين الفوا الصمت والذين لايهمهم من النجاح مايترك الدوي وراءه ، وقد الفوا العمل لغايات لايجهلون ان حكوماتهم هي التي تجني ثمراتها على حين ان اللوم والاستنكار انما يقع عليهم ، ومع ذلك فلا ينكر ان دلكاسه كان يبالغ في تقدير نفسه ، ويباهي بما يذكر من اسمه الكبير في اثناء تأليف الوزارات ، وقد اراد في ايامه الاولى ان يكون معاوناً في بعض القنصليات فاخفق ، ولكن كتب

له شأن كبير في مزاولة السياسة ، وقد مرت به مصاعب كثيرة وازمات عديدة فلم ينجح في ازمة فاشودا ، وبينما كاد يقود الى الحرب ببعض بياناته ، لم يحسن اغتنام الفرصة التي كان يريد فيها سلسبوري ان يخرج نهر الغزال من الخلاف الانكليزي الفرنسي ، ولم يستفد من هذا الاستعداد للتساهل ، وقد اخطأ كذلك خطأ آخر وهو عدم حمله روسية على اجتناب حرب اليابان ، فان كثيراً من كبار الروس يومئذ مثل الكونت ويت كانوا يعتقدون بان معارضة الحكومة الفرنسية كانت تحول دون الحرب ، ولكن نقولا قيصر روسية انقاد لتحريض غليوم الثاني على العرق الاصفر وتحذيره من خطره ، ولعل دلكاسه كان يتوقع انتصار الروس الذي من شأنه ان يعزز التحالف الروسي الفرنسي ويعلي كلمته .

وقد يكون دلكاسه مثل هولشتاين لم يخش من التخويف بالحرب لأجل دعم سياسته ، حتى انه خدع بمعارضه الانكليز في كتاب « لنسدن » الذي كان يرمي الى تسوية المشكلات المعلقة واجتناب الامور المعقدة ، فعد ذلك عرضاً للتحالف ، ولما هددت المانية واشتد الخلاف بين دلكاسه وبين رئيسه روفيه ، كان يظن ان المانية غير جادة في تهديدها بضد روفيه الذي كان يرى فيه الجد ، وبعد ان اضطر الى الانسحاب كان يتهم ذات اليمين وذات الشمال حتى انه اتهم روفيه وكامنمو بالخيانة ، ولكن المانية لم تحسن اغتنام الفرصة ولم تسهل مهمة خلف دلكاسه في وزارة الخارجية ، بل انها احرجته ولم تستفد من انتصارها السياسي الاستفادة المقرونة بالكرم والنبل ، واخذت تملق وتباهي به ، حتى قيل ان هولشتاين ذهب الى باريس ليقتطف ثمار انتصاره هو وبيلوف .

وكان بوانكاره قد قام برحلة الى روسية وعاد الى بلاده معجباً بما شهده من قوة الجيش الروسي ، وانكر على مالفي وزير الداخلية ما يخامره من ريبة بهذه المظاهر على ان روسية الفت ان تبهر الانظار بما تظهر به في بطرسبرغ ، حيث توجد على الدوام الفيالق المنتخبة ، ولو انه بحث في دخيلة الجيش الروسي وبما تستطيع روسية ان تقدمه ، ربما كانت النتيجة شبيهة بالبحث الذي قام به ملحق بريطاني ذات مرة

في دور صناعة البحر الاسود فوجدها خالية خاوية ... فمن الخطأ ان يعتقد بما يراه في تلك البلاد ، وقد نسوا في باريس انه قلما تكون القوة حيث يكون الظلم ، وقد كان ارتهال وزير النمسة ابعد نظراً فانه عندما رجع من سفارته في روسية كان واثقاً من ان قوة آل رومانوف موهومة ، وهذا سر نجاح سياسته الجريئة في البلقان .

وعلى كل حال فان فرنسة كانت تشعر بانها مهددة ، فلما اعلنت الحرب وسحب الجيش الفرنسي مدى عشرة كيلو مترات ابتسم الالمان لهذا العمل الذي لا يقدم ولا يؤخر في الحرب ، ولكن الشعب الفرنسي ايقن انه مهاجم في عقر داره : اما المانية فكانت تخشى سياسة التطويق ، وكان بتمن هولوغ يقول في وصف السياسة الانكليزية المعادية لالمانية : ان انكلترة تتبع سياستها التقليدية في مقاومة كل دولة يتعاظم خطرها في اوربة ، على حين ان سياسة المانية البحرية كانت تجعل العالم يشعر بان المانية تريد ان تبسط سيادتها في اقطار الارض ، اذ هي اقوى دولة عسكرية وتريد في الوقت نفسه ان تصبح اقوى دولة بحرية .

اما التبعة الملقاة على عاتق النمسة في الحرب فهي تبعة قصر النظر والعجز عن ادراك الآراء الجديدة ومسايرتها ، ولكنها على كل حال تبعة داخلية . وحرب سنة ١٩١٤ هي حرب ميراث النمسة ، وقد شاركتها المانية في هذه التبعة لأنها كانت تخشى ضياع النمسة ، على انه كان ينبغي ان تعلم ان النمسة قد قضي عليها ، وقد خسرت ماخسرته بسبب هذا الخطأ ، واذا اعتبرت سياسة بسمرك انها لم تخل من مسؤولية بسبب الرغبة في المحافظة على النمسة ، فان هذه السياسة كان لديها من الموارد والمصادر مايذلل لها الصعاب ويجنبها الاخطار ، فقد كان بسمرك يعلن ان المانية قانعة بما احرزته ، وانها تأبى مشاركة النمسة في اى سياسة اعتدائية في البلقان، وتحاذر ان تجعل روسية تعتقد بان المانية تصدها عن طريق القسطنطينية، ولكن الذين خلفو بسمرك ماعدا هوهنلوهه ساروا بضد رأيه ، في كل أمر من هذه الأمور .

وقد نشرت بعد الحرب وثائق كثيرة لايمكن الاستدلال بها على مسؤولية

دولة معينة ، حتى ان المستر لويد جورج قال في مذكراته ان الحرب لم يردها احد كما ثبت الآن ، واستثنى برختولد مستشار النمسة ووصفه بالاحمق الذي يحمل التبعة الكبرى فيما حدث ، وكان رجال الدولة في النمسة يريدون حرباً صغيرة تشن على شعب صغير فتعيد للنمسة نفوذها وكرامتها ، وذكر انه لو كان بسمرك في المانية وبلمرستن في انكلترة وتيودور روزفلت في امريكة وكلمنسو في فرنسة لأمكن اجتناب الحرب ، اما الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور مثل بتمن هولوغ وبوانكارة وفيفياني وبرختولد وسازونوف وغراي ، فقد كانوا ربانين بارعين لهم تجربة وصدق وحرمة ، ولكن لم يكن لديهم من القوة والمقدرة وبعد النظر وسعة الرأي ما يعين على انقاذ الموقف ، وقد زاد في اشتداد الازمة وحرجها وجود رجل في المانية ، عظيم ، ضعيف ، مغرور ، اناني ، فشلت المساعي التي كان يبذلها غراي لعقد مؤتمر اوللاستعانة على النمسة بألمانية ، وعلى روسية بفرنسة وعلى الصرب بروسية...واذا لم يكن احد يريد الحرب ، فان شعور العناصر العسكرية وخاصة في المانية كان له تأثير كبير ، ولم يكن في انكلترة حزب عسكري ، ولكن المخاوف من الحرب هي التي كانت تؤثر في نفس الشعب الذي كان مع ذلك يستنكر الكائنة استنكاراً عاما .

ولما بحث لويد جورج في مذكراته تلك عن دخول الحرب ، قال : يقبل الشعب بحماسة على كل حرب في بدءها ويهتف لها ، وقد قال والبول عندما اضطر الى زج بلاده في احدى الحروب : انهم يقرعون الاجراس الآن ولكنهم عما قليل سيقلبون الاكف . وكنا نتساءل بعد الانذار الذي وجهته بريطانية الى المانية اذا كانت تقدر ما يجره عليها من البلاء وقوف الامبرطورية البريطانية في جانب خصومها ، وما قدرناه حينئذ عرفناه اليوم حقيقة ، فكثير منا لم يكونوا يستطيعون ان يعتقدوا ان المسؤولين عن مصير المانية يقودهم الغرور حتى يثيروا هذه الامبرطورية وقواها التي لا تنفذ ، وعنادها الذي لاحد له متى اخذت عدتها وخاضت غمرات القتال .

٣ — تطور الآراء في اثناء الحرب

مقترحات الكنيسة والبلشفيك والولايات المتحدة

كانت اهوال الحرب ونكباتها داعية الى انتشار الآراء السلمية والمبادىء

الانسانية ، فاتجه الكثيرون الى المساعي التي تجعل الشعوب تؤمل ان تكون حرب سنة ١٩١٤ آخر الحروب ، وان تقوم في الناس قواعد سلم عادل دائم يعطى فيه كل شعب حقه في تقرير مصيره ، وكانت دعوة الكنيسة وثورة روسية ومقترحات الرئيس ولسن التي خطف بريقها الابصار في رهج الحرب ، وهذه المظاهر الثلاثة هي التي نبحث عنها في هذا التطور الفكري .

اما الكنيسة فقد كان يزعم انها تميل في اثناء الحرب الى انتصار دول اوربة الوسطى ، والحقيقة في ذلك انه اذا كانت الكنيسة قد مالت بعض الميل في بادىء الأمر لانتصار هذه الدول ، فانه لم يكن ذلك بغضاً بانكلترة البروتستانية وفرنسة الملمانية وايطالية الحرة ، ولكن خشية من التوسع الروسي الذي لم تكن تطيقه ، وهي لا ترضى عن وصوله المحتمل الى القسطنطينية ونفخه روحا جديدة في البطريركية المسكونية والمذهب الارثوذكسي الذي لم يزل منافساً للكاثوليكية منذ القرن الثالث عشر ، فانتصار القيصرية الروسية الارثوذكسية اشد خطراً في نظر الكنيسة من انتصار البروتستان والاييك والأحرار .

نعم ان البابا بنوا الخامس عشر اقترح سنة ١٩١٧ ان يعقد السلم على ان تقوم القوى المعنوية مقام القوى المادية في الصلات بين الدول ، وتحديد السلاح ، وحرية البحار ، والتحكيم ، والتنازل عن دفع كل غرامة ، الا احياء البلاد المحتلة ، وضمان استقلال بلجيكة واعادة المستعمرات الالمانية ، وتسوية المشكلات المعلقة بين النمسة وايطالية وبين المانية وفرنسة طبقاً لرغائب الأهلين ومصلحة السلام ، وتسوية القضايا الارمنية والبلقانية والبولونية طبقاً للقواعد السالفة ايضا ، وفي ذلك انقاذ اشرف الجميع : ولكن خيبة هذا المسعى كانت عظيمة ، فانكرته المانية ، وانتقدته فرنسة ، ورد عليه الرئيس ولسن بمذكرة قال فيها : انه يبقي كل شيء على ما كان عليه ولا يعين على تشييد صرح السلم على اسس قويمة عادلة . وكان يظن ان البابا على وفاق مع المانية فيما دعا اليه ، ولكن ظهر بعد ذلك ان النمسة لم تكن غريبة عنه ، وكان يراد التعويض على آل هبسبورغ بعرش بولونية ، اما اذا تخلت المانية

عن الالزاس فان بولونية تكون تعويضاً لها ... ولما كان يقال للبابا في اثناء الحرب انه يراد الاستفادة من نفوذه كان يهزأ بقوله : عجيب ان يبحث عن نفوذنا الذين يحاربون كل نفوذ لنا .

وكانت معاهدة برست لتوفسك بين المانية وحلفائها وروسية السوفيتية التجربة الاولى للنزاع بين الاسلوب القديم والحديث ، فقد اصر لنين على الاسراع بالمفاوضات السلمية بعد ان انتصرت الثورة الشيوعية ، ولكن تروتسكي كان يريد التأجيل والتسويف لاكتساب الوقت ، وقد ارسل في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ بيانا الى جميع المتحاربين يدعوهم فيه الى عقد السلم على اساس دمقراطي بدون الحاق ولا غرامة ، ولكن على اساس الاعتراف للشعوب بحقها في تقرير المصير ، ولم يكن لحكام روسية الحديثين اقل اهتمام بحلفائهم ولم يضعوا امام اعينهم الا البقاء في الحكم والاحتفاظ بسلطتهم المطلقة ، وكان يأمل تروتسكي عقد هدنة تكون وسيلة لاعلان الثورة في جميع الميادين ، ولما لم يجد عند الحلفاء ما يريده كسر خزائن وزارة الخارجية التي لم تسلم له مفاتيحها واخذ بنشر المعاهدات السرية والوثائق المخبأة ، واعلن هو ولنين بياناً الى العمال والجنود والفلاحين ذكروا فيه ان البلشفية اخذت على عاتقها ان تحمل لواء السلم وتدعو اليه امام طبقات العمال في العالم كله .

وفي ٢٢ تشرين الثاني عطلت جميع الاعمال العسكرية من البلطيك الى البحر الأسود ، وبعد ان انتظر البلشفيك طويلاً موافقة المانية على المبادىء الاساسية التي وضعوها للسلم ، واملوا ان تساعدهم الحالة الداخلية في المانية على ادراك ما يريدونه قال تروتسكي بعد ان كشف له القناع عن نيات هذه الدولة : ان فون كيلمن قانع بان المبادىء التي ننادي بها ليست الا خداعاً للجماهير ، واننا في حقيقة امرنا نسلم لالمانية بما تريد السيطرة عليه من بلاد وشعوب ... وعندما كان تروتسكي يجتاز الرسوم الدارسة لخطوط الجيش القديمة كان الجنود الذي ثملت نفوسهم بالثورة والفوضى ينادونه : اننا نريد السلم على كل حال ... ومهما كلف الأمر : وكانت ساعة مؤثرة للزعيم السوفيتي ، فبحث في قرارة نفسه عن كلمة تؤثر عنه ، وقال : ان العمال

والفلاحين والجنود لم يفكوا رقابهم من سلاسل القيصرية ، ليضعوا فيها سلاسل اخرى ــ هي سلاسل الجبروت الالماني .

ولما التقى الفريقان جماعة الثورة الروسية ودعاة السياسة العنيفة في الدول المركزية بقيادة الجنرال هوفمن وكهلمن وكزرنين وطلعت باشا ، ابتدأ الروس كلامهم كانهم الغالبون فاحتج هوفمن على هذه اللهجة التي تجاهل اصحابها وجود الجيوش الالمانية في البقاع الروسية وضرب بيده على المنضدة ، فوقف وكيل الشعب في وزارة الخارجية وعلى شفتيه ابتسامة الهزوء والسخرية وقال : نحن لا نريد ان نشترك في الحروب الاستعمارية ومعارك الفتوح التي تسفك فيها الدماء في سبيل مطامع الطبقات المالكة ، وانا نستقبل بنفس العناد دعاة الجبروت في المعسكرين ، منتظرين الساعة القريبة ــ وقلوبنا ملوءها الأمل ــ التي تقبض فيها الطبقات العاملة الدائبة المضطهدة على ازمة الحكم في جميع البلاد ، كما فعل الشعب العامل في روسية ، ونعلن الآن ان الشروط التي تقترحها علينا الحكومات الالمانية والنمسية والمجرية هي على طرفي نقيض مع منافع جميع الأمم ، ونرفض هذه الشروط الاستعمارية التي تكتب باطراف السيوف على اجسام الشعوب .

لقد دهش مندوبو الدول الوسطى لدى سماع هذا الكلام ، وقد عبث تروتسكي بدهشة مخاطبيه ، واحسن انتقاء التهكم الذي لم يسبق له مثال ولم يعرض في خاطر ، وكان اعجابه بما قاله بالغاً حده حتى انه كان ليعيده كلمة كلمة امام سوفيت بتروغراد ولكن لنين لم يكن من رأى تروتسكي في امر السلم ولا موافقاً على هذه الأساليب الكلامية ، وقال : ان سياسة رفض السلم التي تقترح علينا قد تكون مفيدة للرجل الذي يريد ان يسطع نجمه من غير ان يهتم بنسبة القوى بعضها الى بعض بين الطبقات. اما المانية فقد استأنفت حملتها بعد ذلك واخذت تحتل ما تريده بدون ان تجد مقاومة ، وهذا ما لم يكن يعتقد به تروتسكي . ولما رأى لنين تردد السوفيت بقبول تلك الشروط المهينة المخزية الثقيلة هدد بالانسحاب ، وقال : نعم ان شروط الالمان لا تطاق ، ولكن على من نستطيع ان نعتمد ؟ وقد يقال ان هذا السلم مرذ لنا ، فاجيب نعم انه مرذلنا

اضعافا ، ولكن لانستطيع الا قبوله . فنزل السوفيت حينئذ على ارادة زعيمهم ولكن تروتسكي ظل مستنكفا وبرر موقفه بقوله : الآن تقف المانية في جبروتها وسلطانها امام العسكرية الانكليزية والفرنسية والامريكية ، وهذا وحده يبرر السلم بين روسية والمانية ، ومن الواجب ان نستفيد من هذا الموقف ، فمصلحة الثورة هي القانون الأعلى الذي تذعن له ، ولما كنا لانستطيع ان نرفض هذا السلم فعلينا ان نتقبله وان نرتاح قليلاً منصرفين بجميع قوانا الى العمل في داخل البلاد ، ولاسيما انشاء الجيش ، ومتى اصبحنا اقوياء فانه يجب علينا ان نحارب المانية ، متفقين مع عامتها الناهضة .

وكان تروتسكي كتب في اثناء المفاوضات رسالة الى لنين قال فيها : اننا نقرر ان الحرب انتهت ، ولكن لانعقد سلماً ، اذ من المحال ان نوقع السلم الذي يعرضونه، فقد اتفق الالمان مع الحكومات الموهومة القائمة في بولونية ولتوانية ولتونية فيما يتعلق بالتنازل عن بعض الاراضي ويتعلق بالاتفاقات العسكرية والجمركية وغيرها، واذا نظرنا الى هذه المناطق من حيث مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ومن حيث التكوين الالماني نفسه ، فاننا نراها قد اصبحت منذ الآن بلاداً مستقلة ، وقد وقعت بهذه الصفة اتفاقات جغرافية مع المانية والنمسة ، ولما فاجأتهم اليوم بهذه الحجج ، جاءت اجوبتهم واضحة لاتدع مجالاً للشك ..

هذا وان رحى الحرب لاتزال دائرة في الميدان الغربي ، فما علينا الا ان نقرر انتهاء الحرب ولكن بدون توقيع صلح .

وفي اثناء النضال في مؤتمر برست لتوفسك ، اطرى الرئيس ولسن موقف الروس البلشفيك واثنى على صدق نياتهم في رفض صلح لايقوم الا على الفتح والاستيلاء ، وذكر ان مندوبيهم كانوا على حق وصواب واتفاق مع روح الدمقراطية الحديثة ، باصرارهم على ان تكون مفاوضات المؤتمر علنية يشهدها من يريد ، لا ان تغلق دونها الابواب وتعقد في مكامن الاسرار ، وقال :

لقد غلب الشعب الروسي وهو الآن بدون عون امام القوى الالمانية التي لم تظهر

بعد تسامحاً ولارحمة ، واذا كانت قد كسرت قوة ذلك الشعب فان روحه لاتزال بعيدة عن الوقوف في مواقف الهوان ، وهو لايريد ان يستسلم لامن حيث المبدأ ولا من حيث العمل ، وقد اعرب بصراحة واخلاص وبعد نظر وعلو رأي وتضامن عام ، يستحق اعجاب كل صديق للانسانية ، عن قناعة فيما هو عدل وحق وفيما هو انساني وشريف ، وابى ان يتنازل عن مثله الاعلى وان يستسلم لغيره حتى ينقذ نفسه، وهو اليوم يناشدنا ان نعلن مانريد ، وان نصرح فيما اذا كانت خططنا ونياتنا تختلف بامر عما لديه .

فامنيتنا ورغبتنا هي ان نقود المفاوضات السلمية متى بديء بها على وضح من النهار، بحيث لايكون فيها سر نخفيه ولا اتفـاق نطوي القلوب عليه ، فزمان الفتوح والتوسع قد انقضى عهده ، كما انقضى عهد المعاهدات السرية التي تعقد لمصلحة هذه الحكومة او تلك ، والتي تكون في الغالب سبباً لتعكير السلم في العالم وافساد امره.

والبرنامج الوحيد الذي قد يضمن السلام في العالم يكون في تحقيق المبادىء الآتية:

١ — اتفاقات سلم علنية .
٢ — حرية البحار .
٣ — الغاء الحواجز الاقتصادية .
٤ — تحديد التسليح .
٥ — تسوية الأمور الاستعمارية بكرم وسخاء .
٦ — الجلاء عن البلاد الروسية .
٧ — الجلاء عن البلجيك والتعويض عليها .
٨ — الجلاء عن الاراضي الفرنسية المحتلة واعادة الألزاس واللورين .
٩ — تعديل الحدود الايطالية
١٠ — تمتع الشعوب التابعة للنمسة والمجر بسيادتها .
١١ — الجلاء عن رومانية وصربية والجبل الأسود
١٢ — استقلال الشعوب الخاضعة لتركية استقلالاً ذاتياً .
١٣ — انشاء دولة بولونية ذات منفذ الى البحر .
١٤ — تأليف عصبة دول عامة على قاعدة المساواة بين الدول الصغيرة والكبيرة .

والمبدأ الذي ينبغي ان يسود هذا البرنامج هو العدل الموزع على جميع الأمم وجميع الشعوب قوية كانت ام ضعيفة ، واذا لم يتحقق هذا المبدأ فان بنيان العدل الدولي يتداعى من اساسه .

وكتب كزرنين وزير خارجية النمسة السابق عن مؤتمر برست لتوفسك ، فقال : تم عقد الصلح في ٣ آذار سنة ١٩١٨ بين السوفيت وبين الدول المركزية التي انهت حالة الحرب بينها وبين روسية ، على ان الاتفاق الذي كان وقع في لندرة، في ٤ ايلول سنة ١٩١٤ بين فرنسة وبريطانية العظمى وروسية ، يقضى على هذه الاخيرة ان لاتعقد سلماً منفرداً ، ولكن ثورة روسية واستيلاء السوفيت على مقاليد الحكم قلب الاوضاع في هذه البلاد رأساً على عقب ، وجعل المانية في حالة تستطيع ان تعقد سلم مع روسية ، وقد تبعتها معاهدات اخرى بين المانية وفنلندة ورومانية واكرانية . وبحسب هذه المعاهدة تنازلت روسية عن نحو مليون كيلو متر مربع و ٦٣ مليونا من النفوس ، وتخلت عن القرص والباطوم وجزر آلاند . واضيفت معاهدة ملحقة في ٢٧ آب من السنة نفسها ، خففت من شروط الأولى وتعهدت فيها المانية بان لاتتدخل في شؤون روسية ، ولا في تقسيم دول البلطيك وتنظيمها ، ولا في جورجية وباكو ، مع شروط اخرى تتعلق في بولونية ولتوانية وفنلندة .

وكانت دول اوربة الوسطى قد اتصل بها منذ صيف ١٩١٧ انه من الممكن مصالحة روسية على انفراد ، وتلقت تقريراً في هذا الشأن من بعض البلاد المحايدة، غير ان هذا الصلح لم يطل امره وقضى على شروطه في فرساي .

٤ — طائفة من اقوال الرئيس ولسن

السلام والشرف : المباديء العزيزة التي اسست عليها حياتنا السياسية اعظم من السلام في عين الشعب الاميركي ، وهو في كل حين متأهب للدفاع عنها وصيانتها من كل اعتداء ومن كل اذى ، واني فيما يتعلق بي لايسعني ان ارضى مطلقاً ان تنتقص حقوق المواطنين الاميركيين ، ففي ذلك مايمس شرف بلادنا وكرامتها ، ونحن

ونحن نريد السلام ونحافظ عليه ، ولا نضن بشيء في سبيله ماعدا الشرف الذي هو اعز علينا منه .

الاساليب السياسية الجديدة : ان العبرة التي نستخرجها من هذه الأحداث المفاجئة والاحوال الخطيرة التي تمر بها الانسانية تتضح بجلاء يبهر العيون ؛ وذلك انه بعد الآن ينبغي ان يقوم السلم في العالم على اسس قويمة جديدة ، فنشعر بان الحضارة قد اخذت تسوغ وجودها وتدافع عن حقها بالنصر النهائي . وجدير بالشعوب ان تحكم في مستقبل الأيام بقانون الشرف الرفيع الذي ينقاد لمثله الافراد.

المستقبل : المستقبل القريب يجعلنا بدون اي تحول مستطاع نواجه اموراً ملحة متعددة ، تمتحن فيها قدرتنا على القيام في هذا العالم المقام الذي نطمح اليه... هذا المستقبل لاينبغي ان يخيفنا ولكن ينبغي ان يسوقنا ويدفعنا الى بذل افضل ما لدينا من جهود ومزايا لملاقاته بصدق وعزيمة ، وليس في مقدور شعب ان يحيى في عزلة وانفصال اذا كانت حياة سائر الشعوب ومصالحها مهددة بالخطر ، وانا لنغتبط بمقدم اليوم الذي لاينظر فيه الناس الينا مزاحمين بارعين باعجاب يتجدد ، ولكن ينظرون الينا نفوساً كريمة تهمها الانسانية لا المنفعة ولا السلطة المستأثرة .

السلام الذي لا اكراه فيه : السلام يجب ان يكون بدون انتصار ، وهذا امر لا يرغب فيه ، ولكني احب ان اقف من الحقائق وجها لوجه ، بدون ضعف ولامؤاربة ، فمعنى الانتصار هو السلم الذي تملى فيه على المنكسر شروط غالب المغلوب ، وهو يقبل في صغار وينال باكراه ، وتبذل في سبيله ضحايا مؤلمة ، وتبقى منه في النفوس حزازات وضغائن وذكريات مريرة ، وسلم كهذا السلم يقوم على مثل هذه الاسس هو سلم يبنى على شفا جرف هار ، اما السلم الذي يدوم ، فهو الذي يعقد بين جماعات اكفاء ، ويؤسس على قاعدة المساواة والاشتراك في تبادل المنافع ، وكما انه من اللازم لتأسيس سلم عادل ، ان تقوم في الشعوب حالة نفسية عادلة وشعور بالانصاف ومحبة له ، فكذلك من اللازم ان يكون هنالك تنظيم حق لمشكلات البلدان ومشكلات الاجناس والشعوب ، وقد مضى الزمن الذي لا يراد فيه العدل الا في توزيع الحقوق ، فالذي يهم الانسانية هو حق الحياة لا سياسة الدول في التوازن .

السلم والحق : الحق هو اعظم من السلم ، ونحن نقاتل في سبيل الغايات التي ما برحت اعز شيء الى قلوبنا ، في سبيل الدمقراطيـة ، في سبيل اولئك الذين يطأطئون رؤوسهم للسلطان حتى تفتح في وجوههم المذاهب والمسالك ، في سبيل حقوق الشعوب وحرياتها . في سبيل الحق الذي ينبغي ان يسود العالم ، وان يؤسس على اتفاق الشعوب الحرة ، فيضمن السلم والطمأنينة لجميع الشعوب ، ويجعل العالم متمتعاً بالحرية الهنيئة ... وفي سبيل مثل هذه الغاية نستطيـع ان نبذل كرائم نفوسنا ونفائس اموالنا وكل مالدينا ، مفاخرين بانه اقترب اليوم الذى تضحي فيه امريكة بدمها وقوتها ، دفاعا عن مبادىء اسس عليها بنيانها ، وعن الرخاء والسلام اللذين هما أثمن ماتحرص عليه ، امدهـا الله بعونه فهي لاتستطيع ان تصنـع الا الذي صنعته .

الوسائل : ليس لنا ان نبحث عن الوسائل التي ليست هي الا صيغاً محبوبة رنانة ، فالمسائل العملية لاتحل الا بوسائل عملية ، والعبارات قليلة الجدوى .

الحرية : مامن شعب يمكن ان يكره على ان يعيش في ظل سلطان لايريده ، وما من ارض يجوز ان تتداولها الايدي بدون ان يضمن لها نصيب عادل في الرغد والحرية ... وحينئذ فالشعوب الحرة تجتمع في عصبة ، وتتعاون بصدق وجد، حتى تنشيء قوة مجتمعة قادرة على صيـانة السلم والعدل وضمانها في العلائق الدولية ، وحينئذ تصبح الاخوة الانسانية شيئاً غير الكلام المنمق الخاوي ، وتصنع منـه حقيقة حية قوية ، وتشعر الشعوب بمابينها من صلة وتضامن . ويشد بعضهـا ازر بعض باخلاص ، حتى تجعل المصالح الحرة المشتركة بأمان من اعتداء الظلم والطغيان.

العلم : هذا الجمع الذى يضمنا هو للاحتفال في يوم العلم ، وهذا العلم الذي نجله ونكرمه ونعمل في ظلاله وافيائه ، هو رمز اتحادنا وسلطاننا وضميرنا الوطني ، وآمالنا القومية ... هو يخفق صامتاً في جلال فوق الجماهير ... في السلم وفي الحرب ، وهو في صمته يفصح عن بيان ، يحدثنا عن الماضي ، عن الرجال والنساء الذين سبقونا ، وعن التاريخ الذي كتبوه لنا في طياته ، وما اكثر ماشهد من الحوادث

الجسيمة منذ يومه الأول الى هذه الساعة ، وما كان عنوان فخاره من الخطط الموضوعة لشعب كبير . . . وسنرفعه في معركة الغد عالياً فوق نيران الاعداء .

اليمين : اسأل الله ان يمدني بالحكمة وبالحذر ، حتى اكون قادراً على اتمام مهمتي وحسن القيام بواجبي ، كما يريد هذا الشعب وينطبق على نفسه ، وما انا الا خادم له ، ولست ببالغ نجحاً اذا لم يؤيدني بثقته ويرشدني برأيه ونصيحته ، وكل ما اعتمد عليه واعتقد ان بدونه لافائدة من كل رأي وكل جهد ، هو اجماع اميركة واتحادها في عواطفها وفي تعيين واجباتها وتحديد الوسائل التي يجب القيام بها لخدمة الانسانية ... ونحن جميعاً متحدون في القيام بواجبنا ، صادقون في عزمنا وعزائمنا ... نمد انفسنا للعمل العظيم الذي هو عملنا بعد الآن . اما انا فاسألكم ان تسامحوني وان تؤازروني ، وسينجلي عما قريب هذا الظلام المخيم فوق رؤوسنا ، ونسير في طرق واضحة نيرة اذا تمسكنا باخلاقنا وحرصنا على ما اعلناه واشدنا به على رؤوس الأشهاد ، ودعونا اليه كل من يحب الحرية والعدل والحق .

الحق يبقى حقاً : اذا اسيء استعمال الحق فهذا لايمنعنا من حسن استعماله ، واصدقاؤه الصادقون هم الذين ينبغي ان يرعوه ويحرسوه ، وعلينا يتوقف تشييد اركان السلم على اسس العدل والكرم ، وان نرد كل مطلب وامتياز تمليها الانانية وان كانا لأجل الغالب .

النظام الجديد وحقوق الشعوب : نحن واثقون ان رغبتنا في انشاء نظام دولي جديد يسود فيه المنطق والعدل والحرص على مصالح الانسانية هي رغبة جميع الرجال الرشيدين في جميع البلاد ، ويجب ان تنال الرغائب القومية الصحيحة كل ما يرضيها ويطمئنها ، فالشعوب والولايات لايجوز ان تكون بعد الآن في ايدي الحكومات كقطيع من الغنم او حجارة في رقعة الشطرنج ، وكل تسوية ارضية يجب ان تتم لخير الشعوب المتعلقة بها ولما فيه مصلحتها ، لا ان تكون وسيلة للتسوية والتعاقد تتراضى فيها الدول المتنافسة وتحقق اطماعها ، ولايجوز ان تدار الشعوب وان تحكم الا برضاها ومشيئتها ، وكل رجل دولة يتجاهل في المستقبل هذا المبدأ ، فان ذلك يعود عليه بالخسران .

الحق والقوة : ايكفي ان تكون السلطة العسكرية لدولة من الدول او لمجموعة من الدول ، حتى تسوي قضايا الشعوب التي ليس لها من حق عليها الا حق القوة ؟ وهل تبقى للشعوب القوية حريتها في العبث بالشعوب الضعيفة واتخاذها وسيلة لتحقيق ما تضمه من خطط وادراك ما تريده من منافع ؟ وهل تحكم الشعوب وتدار حتى في شؤونها الداخلية بسلطة عرفية غير مسؤولة ، او انها تحكم وتدار بحسب رغبتها واختيارها ؟ وهل تكون هناك قاعدة عامة تحدد فيها حقوق جميع الشعوب وجميع الدول ، او ان الاقوياء يعملون ما يريدون ، والضعفاء يتألمون ولا يجدون من يستعينون به ويرجعون اليه ؟ وهل يترك الدفاع عن الحق للصدفة والمحالفات المبرمة ، ام يكون هنالك عقد عام يجبر على احترام حقوق الجميع ؟ .

العدل والمحالفات : - ينبغي ان يوزع العدل المجرد عن الهوى من غير تفريق ولا تمييز بين الذين نريد ان نعدل فيهم ، ويجب ان يكون هذا العدل لا تفضيل فيه لأحد على سواه ، ولكنه شامل لجميع الشعوب ، مساو بينها بدون استثناء .

٢ — لا قيمة لكل مصلحة خاصة لأي شعب على حدة او لمجموعة من الشعوب عند التسوية النهائية اذا لم تتفق مع مصلحة الجميع .

٣ — لا يجوز ان تكون عصب ومحالفات وعقود خاصة ضمن الاسرة العامة لعصبة الأمم .

٤ — لا يجوز ان تبرم عقود اقتصادية تقوم على الانانية والمصالح الخاصة ، ولا يجوز ان يلجأ الى اي طريقة من طرائق المقاطعة والاقصاء الاقتصادي الا اذا كان بسبب عقوبة دولية .

٥ — ينبغي اعلان جميع العقود والمعاهدات الدولية مهما كان نوعها ... فالمحالفات الخاصة كانت معيناً لا ينضب من الدسائس والضغائن التي تقود الى الحرب .

٥ — بين النظام القديم والنظام الجديد

تنبأ بلفور قبل شهرين من اجتماع مؤتمر فرساي ان النضال سيكون شديداً ، وقد تحقق ذلك من بعد ، فان الممثلين السياسيين للعالم القديم والنظام القديم امو

باريس ليضعوا السلم الذي يريدونه ، وكانت وسائلهم الفنية قوية مكينة ، وفي جانبها التقاليد والتجاريب والاساليب السياسية البارعة ، وفوق كل شيء التنظيم الراجح والاوضاع الراسخة التي بلغت اقصى حدود الكمال والتمام ، في الحكومات الاوربية المتمسكة بامانها وسلامتها . اما الذين كانوا يمثلون العهد الجديد والعالم الجديد ، فقد كانوا كذلك غير محرومين من التنظيم والتدبير والوضع ، ولكن تنقصهم التقاليد والاساليب ، ومع ذلك فان آمالهم كانت تبعث الحماسة ، وكانوا عارفين انه اذا لم تؤيدهم رؤساء الحكومات في اوربة فالعالم بأسره معهم .

فالتقى المعسكران واشتبك بينهما النزاع منذ البدء ، وكان ذلك بسبب النظام والاصول والمراقبة ، وزاد في تعقيد الامور وجود القادة والرؤساء العسكريين الذين كانوا يسيطرون في اوربة منذ اربع سنين ويحكمونها كما يريدون ، فلا يسعهم التضاؤل امام السلطات المدنية ، ولا بد لهم من النضال حتى النهاية في كل مكان وبكل جد ودأب الى ان تنتصر آراؤهم وتفوز خططهم التي يؤيدهم فيها بعض السياسيين ، وقد حاولوا في بداية اعمالهم ان يعدلوا شروط الهدنة نفسها تعديلاً ينطبق على ما يريدون بحجة اصلاح بعض الاغلاط ، فاعترض الرئيس ولسن قائلاً : انه لا يوافق على اضافة شيء الى شروط الهدنة ، وانه كان على المجلس ان يفكر من قبل عندما وضع هذه الشروط ، اما الآن فليس من الحق ولا من الاخلاص والصدق ان يحاول تصحيح ما ارتكب حينئذ من الاغلاط .

وكان من النتائج الاولى التي لا بد منها بعد انتصار الحلفاء الكبير الساحق وبث الآراء الوطنية المفرطة ، ان انتشرت الحماسة في صفوف الشعوب الكبرى والصغرى وملأت قلوب ممثليها ، ولم تكن الشعوب الصغرى لتقل عن الكبرى حرصاً وتهالكا وتهافتاً على احراز ثمرات الانتصار ، وقد سببت الحرب خسائر كبرى في الرجال والأموال ، والجميع يريدون تعويضها بنيل الجزر والمعادن والمدن والسفائن ، وكان مثلهم جميعاً كمثل الفلاح الذي اضاع بقرة فاخذ يطالب فوراً بواحدة او باثنتين ، فاصبح هذا الوضع منذ افتتاح المؤتمر مهدداً ومنذراً ، فوقف

الرئيس ولسن ودعا الى نشر بيان ينبه الجميع الى عواقب الحرص والطمع والتهافت وقد جاء فيه :

ان الحكومات التي اجتمعت اليوم في هذا المؤتمر لتنشيء في العالم عهد سلم مستقر الأساس ثابت الدعائم ، أثرت بها الاخبار التي تصل اليها اشد تأثير ، ففي كثير من الاحيان وكثير من البلدان في الغرب والشرق تلجأ الشعوب الى السلاح لتستولي على بعض الاراضي وتضع يدها عليها . . . فليمتنع اولئك الذين ينتظرون العدل من اللجوء الى القوة ، وليدعوا مطمئنين واثقين الى المؤتمر ما يريدون صيانته من حقوق ومصالح .

غير ان هذا النداء لم يكن الا كلاما تذروه الرياح ، وخرجت منتصرة من النضال الشهوات والاحقاد والاطماع التي كانت سائدة في اوربة ، وقام البرهان مرة اخرى على ان خطب رجال السياسة ومبادئهم العامة لا تؤثر على سير الانسانية ، ولكن العبرة للروح التي تملأ قلوب رجال السياسة وتقودهم في اعمالهم وترشدهم في خططهم ومناهجهم ، والسياسيون الذين اجتمعوا في فرساي لم يكونوا متفاوتين في المناهج السياسية والمطالب القومية ، وكان التشابه عظيماً حتى بين ممثلي الدول الكبرى وممثلي الدول البلقانية ، سوى ان رجال السياسة في الدول الكبرى اكثر تصميما والبلقانيين مترددون ، ماعدا فنزيلوس الذي هو من البحر المتوسط ... واكثر مايعيب رجال السياسة في اوربة حرصهم على المنافع الآنية الزائلة واهتمامهم في الغالب بان لايعملوا عملاً يسبب نجاحاً لمن سبقهم او لمن يخلفهم ، اما الرئيس ولسن فما كان ينظر الى الاشياء نظر اولئك السياسيين الذين اعماهم مايدعون من حق وسلامة ومصلحة ، وقد كان يرى الواجبات والمسؤليات ، ويري مايترتب على الدول العظمى ولاسيما اميركة لغيرها ، ويقدم على وضع المبادىء الاخلاقية لمقاومة الشدة والانانية والاطماع التي تميزت بها السياسة القديمة ، والتي لاتسوغ اقامة سلم عادل باعتمادها على قاعدة المصلحة التقليدية ، وكان على العالم ان يقف موقفاً جديداً في معالجة هذه المشكلات التي هي سبيل حياة وموت ، وقد قال الرئيس ولسن من خطبة له

في منشستر : انكم تعلمون علم اليقين ان العالم قد حكم الى هذا اليوم ، اوانه على الاقل اريد حكمه ، كما تحكم الجماعات المشتركة في المنافع ، ولكن هذه الطريقة كانت عاقبتها الخيبة .

غير ان هذه الفكرة السامية التي دعا اليها قوتلت في باريس قتالاً شديداً ، ولكنها برغم ما اصابها من اخفاق فقد ظلت سائرة في طريقها لأنها عنوان الحقيقة ومظهرها ، حتى انها بعد عشرين سنة لم يحجم الذين يدعون الى آراء ومذاهب تناقضها كل المناقضة من توجيه الملام الى الذين خرجوا عليها ولم يتمسكوا بقواعدها . وقد يكون ذلك اعظم تكرمة للفكرة التي مات صاحبها بعد ان واراها لحدها بيده والأسى يفعم قلبه ، فقد كان الرئيس ولسن نصيراً للانسانية باسرها ، لا لشعب واحد ، وكان في كلماته من بعد الغور وعظمة الحقيقة ما جعلها تنفذ الى الضمائر ، ولكن النفع العاجل والسلامة الآنية اللذين تفضلهما الشعوب ، يجعلانها بغفلة عن المستقبل ، على ان انماء روابط الثقة ، وتوطيد عناصر المودة ، والعمل على تأمين الرخاء ، هو افضل عاقبة وارجى في توثيق عرى الدول ، وتمكين ما بينهما من صلات وعلائق .

وفي اثناء هذا النضال بين مبادىء النظام القديم ومبادىء النظام الحديث ، كان الرئيس ولسن يتلقى من مندوبيه السياسيين والعسكريين تقارير سرية وعلنية تنبئه بالدسائس التي تحاك في الشرق والغرب لتحقيق الاطماع المختلفة ، ويذكرون له ما قد شاهدوه في كل مكان في اوربة الوسطى من البزات العسكرية الفرنسية التي يحملها الجنود والضباط ، ويقولون خاصة ان فكرة السيطرة الامبرطورية الحمقاء قد استولت على عقول الفرنسيين ، وهم يريدون ان يخلقوا سلسلة من الدول في نطاق عسكري محكم ، تنظمها فرنسة بقدر ما تستطيع ليكونوا لها حلفاء ، وقد كتب الجنرال بلس رئيس اركان حرب الجيش الاميركي يشكو مما رآه في هنغارية ودنتزيغ في كل واحدة منها وفي كاتيهما من اعمال تؤدي الى نقض عقد الهدنة ، وتكاد تجر الى استئناف الحرب ، لأن المفاوضات والمحادثات مع العدو كلها في يد الفرنسيين

... وفي كل مكان معارك حامية وقادة فرنسيون يتدخلون في كل شيء ، فلا تنقطع مساعيهم ، وهم متصلون دائماً بوزير الحربية ، ومامن قانون يمكن ان يحول دون هذه المساعي واشباهها .

٦ – المعاهدات السرية

كان كلمنسو رئيس الوزارة الفرنسية وارلندو وسونينو الوزيران الايطاليان يمثلون العهد القديم ، وكان الوفد البريطاني في موقفه بين هؤلاء الرجال وبين انصار العهد الجديد ، وجاءت الدول الكبرى والدول الصغرى تحمل احقادها واطماعها ، وتطالب بتنفيذ المعاهدات السرية التي قال الرئيس ولسن عنها ان الولايات المتحدة غير مقيدة بواحدة منها ، وهي لاتؤيد الا الاوضاع القائمة على الحقائق ، على ان المطالبين لم يكتفوا بحدود المعاهدات بل انهم في الغالب يتجاوزون في مطالبهم ما سبق وعدهم به ، وظل الرئيس ولسن خصما عنيداً للمعاهدات السرية والمطامع الكثيرة ، وقد كان في حين من الدهر حاملاً لواء الآمال للذين عادوا من الخنادق والحصون ، يرجون ان تشيد اركان السلم على اسس من الحرية ، حتى لاتعود الحرب سيرتها او تكون هي آخر الحروب ، ولكن قوة ولسن لم تذهب وتضمحل الا عندما اخذ يتنازل عن مثله الأعلى ليصبح في صف السياسيين ، و هو في هذه الحالة اشد خطراً لأن اصحاب هذه الصناعة ليسوا مغلوبين عليها ولا منكرين لخططها واساليبها ، وقد قال المسيو كلمنسو في كلام عنه : قدم الرئيس ولسن الى اوربة حاملاً برنامج سلم للعالم كله ، وهو سام في مثله الاعلى ، ولكن يعترض تنفيذه وتطبيقه مصاعب كبيرة ، تسببها الاحقاد المتوارثة التي تفرق بين مختلف الأعراق .

وكانت قضية النمسة قد اثيرت في مواقف كثيرة واقترحت لها حلول عديدة ، فكان يرى بعض رجال السياسة الأبقاء عليها ، وكان شارل آخر اباطرة آل هبسبورغ خائفاً وجلاً من العواقب ، وقد حاول عقد سلم منفرد فلم ينجح ، كما انه حاول اقناع غليوم بالتنازل عن الالزاس واللورين فلم يجد منه اذنا صاغية ، وكان

يرى غليوم اسيراً في امبرطوريته، محكوما عليه بقواده واركان حربه ، وهو في ظنه الرجل الوحيد الذي يعقل بينهم ، وكان شارل يفكر باقامة نوع من الاتحاد في بلاده ، ولكن بعد فوات الوقت ، وكذلك فكر ولي عهد بافارية بتحويل الريخ ايضاً الى دولة متحدة تشترك فيها النمسة ، كما كان الأمر في التحالف الجرمني بين سنة ١٨١٥ و ١٨٦٦

وقد تمسك الايطاليون خاصة بما وعدوا به في معاهدة لندرة التي اذاعها السوفيت قبل انتهاء الحرب ، واصر سونينو على تنفيذ شروطها ، ولم يكن سديداً موفقاً في اخفاء الاطماع الايطالية ، كما كانت تخفي في فرساي اطماع كثيرة تحت ستار الاقوال الطيبة ، ولم يصغ الى نصائح الذين نبهوه الى وجوب مسايرة المبادىء الحديثة الولسنية . على حين انه يوم وضعت معاهدة لوندرة ، كان ينتظر بقاء النمسة وتأسيس دولة من الكروات تضم اليها فيومي التي كانت سبب الخلاف بين ايطالية ويوغوسلافية وبين ولسن والوفد الايطالي . وبقيت ايطالية تطالب بالتعويضات الاستعمارية وبتسوية نظام الايطاليين في تونس ، وقد قامت انكلترة بما تعاهدت عليه وتنازلت لايطالية عن ارض واسعة في افريقية الشمالية ، وظل الخلاف مع فرنسة ، وطالت المفاوضات بدون طائل ، حتى ان الاتفاقات لم تنفذ ، وكما كان يتوقع بسمرك فان وجود الطليان في تونس ، مازال سبب خلاف دائم بين الدولتين : فرنسة وايطالية .

اما تركية فقد كان يراد اعادة تنظيمها والتدخل في شؤونها ، ولاسيما ان نظام الامبرطورية العثمانية قد استمر في جرائره واسرف في سوء عمله ، وكان موضعاً للأخذ والرد بين الدول ولم يبق فيها سلطة تتكلم باسمها ، فاستفاد فنزيلوس من لباقته وحسن تقبل الرئيس ولسن له وتأييد الانكليز ومسايرة الفرنسيين . وقد هز فنزيلوس اعطاف الرئيس الاميركي بتمجيده فكرته الكبرى، وخرج من اجتماعه به وهو يقول لاصحابه : سننال ازمير . ولما ذهب ارلندو وسونينو مغاضبين بسبب فيومي ، اقترح ولسن على فنزيلوس انزال جنود في الانضول ، فادرك ان هذا الاقتراح من نتائج الخلاف مع ايطالية واجاب اليه بدون تردد ، وقد يكون هذه هي المرة

الوحيدة التي انقاد فيها ولسن الى تأثره ، ولكن لايجوز ان يعد ولسن مسؤولاً عن عمل اليونان ، فقد كان لهم محام اكثر نشاطاً وحماسة وهو لويد جورج ، الذي حاول ان يسير في القضية اليونانية وفي مقاومة الترك الى النهاية ، ولكنه سقط من الحكم بدون ان يدرك غايته ، كما سقط فنزيلوس واضاعت اليونان ما استولت عليه واخرجت جوالبها الغنية من الانضول ، وبدأت بذلك النهضة التركية التي كانت بخطأ اعداء الترك اكثر من ان تكون بصنعهم ، وعززت من شأنهم واضعفت نفوذ الاوربيين عندهم . ومما يستغرب ان فنزيلوس تنبأ بعد سقوطه بانكسار اليونان ، ولكن هذه هي العادة المألوفة – كما قال الكونت سفورزا – من بعد النظر الذي يأتي في الزمن الاخير عند بعض رجال السياسة ، فهم لا يتحلون بهذه الصفة الا بعد سقوطهم من الحكم الذي تهالكوا عليه ، ولم يدلوا على شيء من اصالة الرأي وهم فيه .

وكانت البلاد العربية عرضة لتلك الاطماع ومن مواضيع تلك المعاهدات ، حتى ان الوفد الاميركي اصر على ارسال لجنة الى البلاد السورية واستفتاء سكانها ، برغم معارضة الفرنسيين واستنكاف البريطانيين ، ولكن لم يجد ذلك نفعاً فقد نفذت بنود المعاهدات السرية في شأنها تنفيذاً تجاوز ما وضعت له .

٧ — العهد الدقيق في مؤتمر السلم

نضال الرئيس ولسن واخفاق المباديء الجديدة

غادر الرئيس ولسن مؤتمر السلم وقام برحلة الى اميركا ، وكان يتوقع بعد عودته الى المؤتمر ان يكون النضال حاسماً بين الماضي وبين الحاضر ، وكان ما ادركه من النجاح في باديء الأمر بجعل عصبة الامم اساساً للاتفاق على قواعد السلم وجزءاً من المعاهدة نذيراً للحلفاء ، ولاسيما الافرنسيون الذين لم يرضوا بالتسليم والاذعان . وكان غياب الرئيس خطراً على عمله فاضعف مركزه وشد من قوى خصومه ، ولم يعرف ان النجاح الذي ناله قبل سفره اصبح مهدداً ، فقد تألبت القوى العسكرية والسياسية ، واستعدت في معاقلها وحصونها ، ولما رجع وجد الموقف على غير ما تركه ،

وقد زاد في ضعفه انه اراد ان يدخل بعض التعديل على ميثـاق العصبة ليكون الاميركيون جميعهم وراءه . وقد يسوغ القول بان الرئيس لولم يسافر لما كان اضاع ما اضاعه ، ولو انه بقي لاحتفظ ببعض المزايا التي نالها ، ولكن الحقيقة ان هذه المزايا لن تكون الاقليلة لأن قوى عظيمة كانت تتهيأ لنضاله ، وهي قوى منكرة مخيفة ، وكان ولسن يستطيع ان يمني نفسه بالانتصار على النظام القديم لأن العالم كله يؤيده ويهتف له ، ولكن العالم كله ايضاً كان يرتاب بنجاحه وينتقده ويحمل عليه حتى ان بلاده نفسها تخلت عنه ، وبقي وحده يناضل في قتال عنيف ، ويعالج المصاعب الجسام ويعاني الشدائد التي لا تطاق .

وبينما كان موقف الرئيس ولسن قد اصابه الضعف في مواجهة الأمور الدقيقة ، تعزز موقف خصومه واشتدت قواهم ، فكروا عليه بعد ان اعدوا الرأي العام لمقاومة برنامجه ، وكان جو باريس الملتهب في اثناء المؤتمر معيناً على مثل هذه المؤامرات حتى ان خصومه تأهبوا ليلقوا عليه تبعة التأجيل في عقد السلم ، وفي الحقيقة انه كان يعوق السلم الذي يراد منه ، كما ان خصومه كانوا يعوقون السلم الذي يريده ، وكانت سياسة كلمنسو مسددة في هذا النضال ، حتى قيل انها لم تكن دون اساليب فوش العسكرية ، وكان الفرنسيون بارعين دائماً في هذا الفن السياسي ، وقد سبق لتليران انه ادرك نجاحاً عظيما في فينة على انه كان يمثل في المؤتمر دولة مغلوبة ، فليس بيدع ان يطبق رجال الدولة الفرنسيين ، ببراعـة متناهية ، خطط الاسلوب السياسي القديم .

وكان الرئيس ولسن يتململ من موقف الفرنسيين واعتراضهم على كل شيء ، حتى عزم على مغادرة باريس اذا ظلت الامور سائرة على هذا المنوال ، وقال انه يجب وضع شروط السلم على حسب القواعد التي سبق قبولها ، وقد تبادل المذكرات لويد جورج وكلمنسو عن شروط الصلح ؛ وكان الاول يخشى ان لا يوافق الالمان على الشروط الثقيلة التي تملى عليهم وان يفتح الباب بذلك للفوضى والشيوعية في بلادهم ، وقد اصر كلمنسو على مطالبه فيما يتعلق بفرنسة وفيما يريد انشاءه من الدول الاوربية ،

واشتبك الخلاف مرة بين الرجلين السياسيين ، فكان لويد جورج يطلب ان تعامل المانية بتسامح ، فيجيبه كلمنسو على لويد جورج ان يبدأ بالتسامح ، وان يتنازل عن السفن وعن المستعمرات الالمانية الغنية ، وقد كتب اليه رجل الدولة الانكليزي مذكرة اورد فيها المحاسن والمنافع التي نالتها فرنسة في الالزاس والمستعمرات وبلاد الشام ، وفي السفائن والتعويضات والضمانة البريطانية ، وعند ذكر الشام اشار الى المفاوضات التي استمرت في شأنها مدة اشهر ، ثم قال : أكل ذلك لا يهم فرنسة وانما يهمها ان تخضع المان دنتزيغ لبولونية ؟ والمذكرة شديدة في صيغة تهكمها .

ولكن موقف لويد جورج كان شديد التبدل ، وهو يتأثر جداً بحالة بلاده السياسية وحاجاتها البرلمانية وبما تقوله صحفها ، كما انه كان يتأثر بما ينشره الفرنسيون في صحفهم في باريس من حملات عليه وعلى ولسن يتردد صداها في بلاده ، وفي اثناء النضال بين ولسن وبين كلمنسو وقف موقف الرجل الذي لا يهمه الامر ، ثم اشتبك بدوره مع كلمنسو ، ولو انه آزر ولسن مؤازرة حقيقية منذ البدء ، لكان السلم في الغالب افضل من الوضع الذي آل اليه ، وقد خابت آمال ولسن بلويد جورج بعد ان رأى تقلبه وتناقضه ، واسراعه في الدفاع عن الآراء المتعارضة ، مما يدل على انه رجل برلماني سياسي اكثر مما هو رجل دولة ، لأن سحر البيـان وجمال الأسلوب وطلاوة الحديث وفصاحة اللسان من حاجات الأول ومميزاته ، اما الثاني فتظهر فضائله في الوقوف عند الرأى الصحيح ووضع الخطط للمستقبل ، وارشاد العـاملين وقيادتهم حتى يسيروا في الطريق القويم ، الذي رفعت لهم اعلامه واوضحت مناهجه .

وبعد ان اشتد الأمر على الرئيس ولسن واستدعى الدارعة وشنطن لتحمله الى اميركة ، دخل مؤتمر السلم في طور من التفاهم كان الخسران فيه نصيب النظام الجديد والمبادىء الحديثة ، وكان الرئيس مسؤولا عن بلاد عظيمة ، فاذا غابت اميركة عن هذه المهمة الدولية الخطيرة ولم تأخذ بنصيبها منها كان كل شيء معرضاً للزوال ، فهل يحق له ان يدع كل شيء وراءه وان يعود الى بلاده في ساعة من ساعات

الألم واليأس ؟ ام ينبغي له ان يستمر على معالجة الموقف في مصاعبه ، ولا يبرح مكانه كجندي يذود عن حماه ، وان يصبر ويصابر حتى يصل الى بعض ما يريد من مبادئه. ولو كان الرئيس رادكالياً لاختار الخطة الأولى ، ولكنه لم يكن رادكاليا بالمعنى الذي اشتقت من اصله هذه الكلمة ، ولم يكن من دعاة الثورة وقلب النظم . كما يصنع الفرنسيون عادة في تعاقب ثوراتهم على النظام القائم وشكواهم من الاسراف والاساءة ، فلا يجدون سبيلاً غير نقض البنيان من اساسه وتبديل قواعده واركانه.

وبعد الفراغ من المعاهدة شعر البريطانيون بعظم ماجرى ، فاخذت جرائدهم الحرة تنعت هذه المعاهدة بانها جائرة كالمعاهدات السابقة ، وكتب بعض مندوبي الممتلكات البريطانية المستقلة مثل هيوزوسمطس كتابات شديدة الى لويد جورج والرئيس ولسن في انتقاد شروطها ، وحاول لويد جورج نفسه ان يشن عليها الغارة وان يطالب بتعديلها قبل تنفيذها ، وان يستعين على ذلك بالرئيس ولسن الذي لم يكن ينكر شدة وطأتها ، ولكنه كان يعتقد ان الانتقاد والتعديل كان يجب ان يكونا عند وضعها بنداً بنداً لا عندا لانتهاء منها ، فعقبت اشد الحروب هولاً معاهدة لم تكن معاهدة سلم ولكن تماد في الحرب ، معاهدة غرست بثور الاضطراب والفتن والقلاقل والاحقاد والشدائد ، وكانت سبباً لحرب جديدة ، وقد تنبأ بذلك المستر لنسنغ سكرتير الدولة في الولايات المتحدة في ايام الرئيس ولسن نفسه ، وقال : ان هذا الأمر محقق ، بقدر ماهو محقق ان يعقب الليل النهار . وما أكثر ماصدقت الأيام ظنه .

٨ — محذورات صلح فرساي وآراء رجال السياسة فيه

ما كادت تنشر معاهدة فرساي حتى وجهت اليها اشد الانتقادات في كل مكان بل ان فريقاً من واضعيها والمسؤلين عنها لم يجدوا بداً من ان ينكروها ويحذروا من عواقبها ، وقد كان في مصلحة اولاية بل في مصلحة العالم كله تنفيذ شروط الرئيس ولسن والتقيد بها .. فهذه الشروط انقذت الحلفاء في سنة الحرب الأخيرة بما اثارته

من العقيدة والرجاء ، بعد ان اصبح الانكليز يتساءلون اذا كانوا يستمرون في بذل الضحايا في سبيل الالزاس ، وبعد ان اصبح الفرنسيون انفسهم يتململون من القتال في سبيل غايات موهومة .

وقد انكر على ولسن شأنه مفاوضاً ورجل دولة ، ولكن لايجوز ان ينسى ان قواعده هي الوثيقة الأولى التي كان يخاطب بها الفريقين المتقاتلين وتدعى اليها الحكومات والشعوب ، وهل تنسى الآمال التي احياها في جميع النفوس ولاسيما عند الجنود ، وعند الشعوب المستضعفة في الشرق والغرب ، وقد ظن الرئيس الاميركي عندما اعلن اراءه ونقاليده ان السياسة الدولية القديمة قد قضت نحبها ، وانه ازيل الستار الذي كان يخفي وراءه الدول العظمى ، وهنأ الناس انفسهم بان رجلا في هذه المنزلة وفي هذا المقام والسلطة من امة عظيمة ، رفع صوته بذلك النداء الذي يشتمل عليه كل قلب وكل شعور ، ولكن هذا الرجل الذي اصبح قبلة الانسانية وموضع رجائها ، لم يكد يصل الى فرنسة ، حتى انقاد الى اساليب الزمان وسلطانه ،

غير ان الفكرة الجديدة التي تتغلب عليها العناصر القديمة لايكون ذلك سبباً للحكم عليها ، وقد افسد العمل العظيم الذي جاء به ولسن ، الرجال الذين اراد ان ينشيء معهم الدنيا انشاءاً جديداً ، فقد كان في مقدمتهم كلمنسو الذي لقب بالنمر ، والذي هو صحفي قديم ، وقد شهر بالعنف والشدة وقلب الوزارات وكان الرجل الذي وضعته الحرب في مقدمة الصفوف ، وهو في وطنيته المسرفة يكاد يعد من محترفي الوطنية اكثر من ان يعد رجل دولة وصاحب فكرة ، وكان يقول عن ولسن متهكما : انه يتكلم كالمسيح ، وقد وافق على رأيه في عصبة الامم لانها تعين على الاحتفاظ بنتائج النصر .

ومن اقوال كلمنسو ، التي تدل على ماينطوي عليه من الآراء القديمة واستنكار الفكرة الحديثة ، كلمة له من خطبة عليها كذلك طابع السخرية : يقولون انكم ستضعون سلما عادلا ، واذا وضعتموه فكل شيء يصبح سهلاً ، وقد سمعتم كلمات كثيرة من هذا القبيل ... على ان الرئيس ولسن رجل يوحي الثقة ببساطة فكره

ونيله ، ومع ذلك فقد قال كلمنسو ذات مرة كلمة صواب : ان بيدنا مقاليد الامور فاذا اردنا ان ننجح نجاحا ينعم به ابناؤنا في المستقبل ، فانه يجب علينا ان ننتفع من هذه السيادة ، وذلك بان نجعل خطتنا على جانب من الاعتدال الذي هو ضروري لضمان بقائها ... ولكن فرنسة لم تجن مطلقاً هذه الثمرة ، ولم تحم نفسها من خطر وقعت فيه بعد الحرب ، وذلك مالا يمكن شرحه الا بالسبب الخالد ، وهو ان النصر ينشئ في النفوس سكرة اقتدار هي اشد خطراً من السم . وكان ارلندو رئيس وزراء ايطالية مشابها لكلمنسو في نزعاته ومطالبه ، اما لويد جورج فقد عمل في المؤتمر بما طبع عليه من سياسة ومرونة ومن فكرة اوربية ملتبسة ، وكان يقيم البراهين الدامغة التي تسوغ الانانية الوطنية ، عند المسيطرين البريطانيين ، دعاة الامبرطورية واصحاب رؤوس الاموال الذين حملوه الى الحكم وسلموه مقاليده ، وقد نال من الرئيس ولسن الغاء شرط حرية البحار ، على حين انه لا شيء يعين على تثبيت السيادة الانكليزية في البحار مثل ضمان حريتها ، الذي يجعل رجال الأمن في الدول يدافعون عن المملكة المتحدة واجزاء امبرطوريتها .

وقد شعر السياسيون الانكليز بخطأ السياسة التي قادتهم الى القبول في فرساي بمبادىء لا تمين على الاستقرار في العالم ، وناقش لويد جورج احد وزراء الامبرطورية فكتب مذكرة في انتقاد هذه المعاهدة قبل وضع صيغتها النهائية ، في ٢٥ آذار سنة ١٩١٩ ، قال فيها : عندما تخرج الشعوب من حرب مهلكة قد استنفدت اموالها وانهكت قواها ، لا يعسر عليها ان تعقد صلحاً يدوم بقدر مايدوم الجيل الذي عانى اهوال الحرب ، اما خيال البطولة والانتصار فهو لا يستميل الا اولئك الذين لم يخوضوا غمرات الحروب ولم يذوقوا اهوالها ومر عباتها ، وقد يسهل تشييد بنيان سلم دائم يدوم ثلاثين سنة ، غير ان الصعوبة هي في اقامة سلم لا تنشأ عنه حرب جديدة عندما يكون الذين تجشموا بانفسهم اخطار القتال قد فارقوا هذا العالم ، والتاريخ شاهد عدل على ان السلم الذي يتلقاه الشعب المنتصر كانه ظفر للسياسة والبراعة والدهاء لا يبرح قريب الزوال ، حافلاً بالاخطار التي تهدد المنتصر ، وقد عقدت المانية سنة ١٨٧١

سلماً ظنت انه يضمن لها مع الامان والسلامة دوام التفوق في اوربة ، غير ان الحوادث اقامت البرهان على نقيض ذلك ، وفرنسة نفسها تقيم الدليل على ان الذين يؤكدون بانه يمكن ابقاء المانية بحالة من الضعف بحيث لاتستطيع ان تثأر لنفسها ذات يوم هم مخدوعون كل الانخداع ، فبرغم ان فرنسة كانت في كل سنة اضعف بمواليدها من الغالبين كانت تزداد قوة على قوة ، وقد اسهرت طرفها في اوربة وثابرت على الدأب وعقدت المحالفات مع الدول التي كانت المانية تضطهدها او تهددها ، وما انفكت تنذر العالم بالخطر الداهم حتى استطاعت في آخر الأمر ، ان تتغلب على الدولة التي هي اقوى منها بما لايقاس والتي اغارت عليها بقسوة وعنف .

في وسعكم ان تسلبوا المانية مستعمراتها وان تجردوها من سلاحها حتى لا يبقى لديها من القوى الا مايكفي لحفظ الأمن وتجعلوا بحريتها في الدرجة الخامسة ، كل ذلك لاشأن له ، وهي اذا كانت قانعة انها ظلمت في معاهدة فرساي فستجد ذات يوم الوسيلة للانتقام ، وسيزول الأثر المخيف الذي بقي في النفوس بعد اربع سنين استحر بها القتل وسفك الدماء بزوال هؤلاء الرجال انفسهم ، ولذلك فان السلم لايكون ثابتاً مستقراً دائماً الا اذا لم تبق بحق اسباب تدفع على الاستماتة ، وتهيج الفكرة الوطنية ، وتثير عاطفة العدل ، وقد تكون شروطنا في السلم عنيفة قاسية ولكنها يجب ان تكون عادلة بحيث ان الذين يعاملون بها يشعرون في قرارة نفوسهم ، انه ليس لديهم اى شكوى يرفعون الصوت بها ، ولكن الظلم والخيلاء والزهو في ساعة النصر لن تكون من الامور التي تنسى او التي يعفى عنها .

ولذلك اعارض اشد المعارضة ، بالاستمرار على اخضاع الالمان الى سيادة اجنبية بدون ضرورة مطلقة ، وارى من جملة اسباب الحرب في المستقبل ان يصبح الشعب الالماني الذي اقام الدليل على انه من اعظم شعوب العالم قوة واشدها مراساً محاطاً بدول صغيرة ، جلها لم يستطع في الماضي ان ينشيء في بلاده حكومات حية ، ولكن كل واحدة منها ستمتع بالجماهير من الالمان الذين يصرحون باراداتهم ان يعودوا الى الوطن الام ، اما اقتراح اللجنة البولونية بان تضم الى بولونية ٢،١٠٠،٠٠٠ خاضعين لقوانين

شعب لايدين بدينهم ولا يدل تاريخه على انه قادر على حكم نفسه، هو في رأيي مما يسبب في اجل قريب او بعيد حرباً في اوربة الشرقية ، وما ذكرته في شأن المان بولونية ينطبق كذلك على هنغارية ، اذ لا يمكن تشييد السلم في اوربة الشرقية الجنوبية اذا كانت كل دولة من هذه الدول الصغيرة الناشئة تحكم عناصر مجرية ناقمة ، وعندي ان اكبر مبدأ من مبادىء السلم هو ان تضاف بقدر مايستطاع من وجهة انسانية، الجماعات العرقية بعضها الى بعض في وطنها الاصلي ، وهذا الاعتبار يجب ان يتغلب على كل ماسواه من الاعتبارات العسكرية والاقتصادية ووسائل المواصلات وغير ذلك.

ومضى بعد ذلك لويد جورج ذاكراً الفرق بين العالم بعد معاهدة فينة حيث نضب معين الثورة الفرنسية ، وبعد معاهدة فرساي والثورة متأصلة في القلوب ، والعالم ناقم في اقصاه وفي ادناه ، وجميع الطبقات تشكو من سوء حالها ، والثورة الروسية منتصرة على خصومها ، وذكر ان الخطر الاكبر الذي ينبغي اجتنابه هو ان تتحد المانية وروسية في قضية مشتركة ، ثم قال :

وجملة ما اراه : انه ينبغي علينا ان نعرض على الحكومة الالمانية شروطاً تستطيع القيام بتنفيذها ، اما اذا قدمنا شروطاً جائرة فانه لاتوجد حكومة في المانية تستطيع النهوض بها ، والحكومة الحاضرة التي هي ضعيفة جداً فانها سترفض ، واذا قبلت فانها ستسقط في اربع وعشرين ساعة ، ولكن اذا لم نجد في المانية من يوافق على شروطنا ويقبل بصلحنا فماذا نصنع ؟ لاشك انه لامجال للبحث في امر احتلال عسكري طويل الأمد واقامة جيش كبير في المانية ، على ان هذا ليس من شأنه ان يهم الالمان ، فقد يرحب كثير منهم بهذا الجيش الذي يكون الوسيلة الوحيدة لاقامة النظام في بلادهم واعادته الى نصابه ، ولكن المعارضة ستأتي من بلادنا نفسها، فلا الامبراطورية البريطانية ولا الولايات المتحدة ترضيان بذلك ، وفرنسة وحدها لاتستطيع ان تتحمل اعباء الاحتلال ونفقاته ، وحينئذ لامناص لها من العودة للحصار ، وهذا مايؤدي الى انتصار الثورة من جبال الاورال الى نهر الرين ، على ان الرأي العام لايرضى بتجويع المانية لحملها علي قبول شروط ثقيلة لاتطيقها ...

ومن جميع وجوه النظر، فاني ارى انه يجب ان نؤسس بنيان السلم كأننا محكمون منصفون، قد نسينا العواطف التي اثارتها الحرب الأخيرة. والنظام الجدير في رأيي ينبغي ان يستلهم من ثلاثة شروط: ١ً ينبغي ان يكون عادلاً بحق الحلفاء فلا يغفل التبعة الملقاة على عاتق المانية في اثارة الحرب وفيما اتخذته من اساليب القتال، ٢ً ينبغي ان يكون بحالة تستطيع المانية ان توافق عليه وتقوم بتنفيذه، ٣ً لا يجوز ان يحتوي اقل سبب من اسباب اثارة الحرب في المستقبل، ويجب ان يحول دون انتشار الشيوعية، بحيث لا يتقبلها الرجال العقلاء كأنها حل عادل للقضية الأوربية. ثم عرض بعد ذلك لويدجورج الى عصبة الامم واقامة السلم الدائم واخطار الشيوعية.

وكان الجنرال سمطس مندوب افريقية الجنوبية نافذ الرأي في دوائر مؤتمر الصلح فارسل كتابا بتاريخ ٢٢ مايس سنة ١٩١٩ الى المستر لويدجورج يطلب فيه تعديل بعض شروط المعاهدة وينتقد اساليب النكاية التي لا فائدة منها، وقد قال خاصة في شأن الحدود الشرقية: اني لا ارتاب مطلقاً بان توسيع بولونية بهذا المقدار هو تمزيق للتاريخ، وخطأ سياسي كبير سيكون التاريخ مكلفاً بدوره في اصلاحه فان بولونية الجديدة ستحتوي ملايين من الروس ومن الالمان، اومناطق بقيت عهدا طويلاً المانية وروسية وستعود الدولتان الى ما كانتا عليه من العظمة، بحيث لا تستطيع بولونية ان يكون لها شأن اذا لم تتسامح هاتان الدولتان معها، فانشاء الدولة الجديدة اذن يؤدي الى اخفاق لا شك فيه، حتى اذا كان البولونيون قادرين على حكم انفسهم، والتاريخ يسجل عليهم انهم كانوا دائماً عاجزين عن ذلك، على ان البولونيين، منذ الآن والمؤتمر لا يزال منعقداً يتحدون الدول العظمى ... فماذا يقع في المستقبل عندما تختلف هذه الدول وتتعارض؟ فلا شك اننا نقيم هذا البنيان على اساس واه ... واني قانع ان الخطأ الاكبر في المعاهدة هو في مدى احتلال الرين وفي توسيع بولونية الى ما وراء الحدود التي كان يفكر فيها في اثناء الحرب ... وهاتان الخطيئتان هما اللتان تهددان السلم في اوربة فيجب ان يبذل كل ما يستطاع بذله لازالتها قبل مضي الزمن.

وارسل الجنرال سمطس ايضاً الى الرئيس واسن كتابا بتاريخ ٣٠ مايس سنة ١٩١٩ قال فيه : ان جواب الالمان لي شروط السلم التي عرضناها عليهم تبين الناحية الخطرة التى لانستطيع اجتناب البحث فيها بكل عناية ، فهم يصرحون باننا ملزمون بعهود معلنة سابقة جاءت في قواعد الاربعة عشرة ، وهذا كذلك رأيي مع التقيد بالتحفظين اللذين وضعها الحلفاء قبل الهدنة (حرية البحار والتعويضات) ، وكل اخلال باي شرط من الشروط هو انتهاك لحرمة التعاقد واخلال به .

وقد ابتدأت الحرب باعتبار المانية العهد المقطوع قصاصة ورق ، وكان من جملة غايات الذين حاربوا فيها تقديس العهود ، فهل ينتهي الحلفاء الى امر كالذي لاموا المانية عليه ؟ واني لأميد فرقا من تذكر ذلك ، ومن التفكير بالوقع الذي يكون امملنا في الرأي العام ... فاذا قيل ان الرئيس ولسن قد وافق او القيت عليه تبعة ماجرى ، فلا بد لنا من سؤالك هل المعاهدة تنطبق على القواعد التي دعوت اليها في خطبك ؟ اني اقول بصراحة لا ، واعتقد ان الالمان محقون باحتجاجهم ، فالمعاهدة مناقضة بنصها وروحها لما وضعته من قواعد ، واني لاارى في هذه القواعد مايسوغ كثيراً من شروط المعاهدة ، وما اشد خوف الشعوب التي ترى انه لم يعقد السلم بحسب قواعد الرئيس واسن ، واننا تناسينا ماوعدنا به ، وعاهدنا العالم عليه ، واذا رأى الناس اننا نقضنا عهودنا بانفسنا ، فاي عار يلحقنا وسيكون هذا السلم نكبة اشد من الحرب .

ولم تقتصر هذه الانتقادات على رجال الامبرطورية البريطانية فقد شاركهم فيها سواهم من ساسة الدول المتحالفة ، فقال المسيو فندرفلد وزير خارجية بلجيكة باحثاً عن مراقبة المانية العسكرية التي قررتها معاهدة فرساي : من اكبر الحماقات واشد الاوهام خطراً الاعتقاد بان المراقبة العسكرية في المانية تسوي قضية الامان والسلامة ... وطالما يوجد في اوربة شعب مؤلف من اربعين مليونا مدجج بالسلاح ومعزز بالمحالفات ، يريد ان يحمل شعباً آخر مؤلفاً من ستين مليونا ، على ان يبقى اعزل من السلاح ، مجرداً من الجيش ، مقتصراً على قوى الأمن ، متحملاً بدون

اجابة قانون الغالب ... فبوسعكم ان تتخذوا جميع وسائل المراقبة في العالم، فانها لاتمنع المغلوبين ان يلجأوا الى جميع الحيل للاستعداد والمقاومة، والتاريخ يعيد نفسه كما جرى بعد تلسيت ... ولا يمكن الوصول الى اي غاية باكراه بعض الشعوب على التجرد من السلاح، ولكن يمكن الوصول الى كل غاية بالالتجاء الى تسويات دولية عامة عادلة، وذلك بتكوين ارادة دولية مشتركة عند جميع الشعوب لنزع السلاح. وخاطب فندرفلد ايضا الذين يريدون الحاق بلاد المانية عنوة فقال: ان الاستعانة بالقوة بغية الحاق اجزاء المانية وارغامها يخلق تطرفاً جديداً في اوربة، ويحول حرب المقاومة للجبروت الالماني الى حرب الشعب الالماني لفتح بلاده، وهذا مايحرم قضيتنا من كل مايسوغها ويعلي شأنها.

وكان لوزاتي مقرر المعاهدة في ايطالية الذي يطلق عليه اسم صديق فرنسة ـ وان كان رجال الدول لايصح نعتهم بمثل هذه النعوت لانهم لايكونون الاصدقاء بلادهم ـ قد ادخل في تقريره انتقادات مرة للمعاهدة، وقال انه يصنع ذلك لانه لايريد ان يخون فرنسة في اشد اوقات محنتها، غير انه حذف الانتقادات العنيفة بعد ان قيل له ان عرضها في مجلس نواب دولة اجنبية يثير الغضب والحفيظة، اذ ينبغي ان يترك لكل بلاد ان تكشف بنفسها القناع عن اغلاطها.

اما تردبو احد واضعي معاهدة فرساي فلم يبرح يقرظها وقد قال يصفها: كان ٢٨ حزيران ١٩١٩ في قصر فرساي يوم وقع ممثلو المانية المعاهدة مثيراً في نفوس الفرنسيين ذكرى ٨ كانون الثاني سنة ١٨٧١، فما اعظم التناقض بين التاريخين! وهذه المعاهدة لم تنقض فقط معاهدة فرنكفورت، بل عصراً ونصفاً من التقهقر والتقلب، فبينما كانت الفكرة تظهر متراجعة اذا بها تثب بقوة عظيمة، ولكن تقهقر السياسة الفرنسية كان مستمراً، فقد تقهقرت السياسة الاستعمارية في القرن الثامن عشر وانتزعت المستعمرات شيئاً فشيئاً، وتمادى التراجع في القرن التاسع عشر وضاعت الالزاس واللورين ... ثم كان ان طامنت فرنسة هواها وشعورها وعدل قضيتها باستعادة الالزاس واللورين وتحرير فرنسيي السار. واحتفظت بثمرات

النصر ، ونالت من الضمانات ما اذا لم يكن قاطعاً مطلقاً ، فهو اكثر ما نالته من الضمانات في جميع تاريخها .

غير أن ترديو نفسه ، المعروف بقوة عارضته ودفاعه عن هذه المعاهدة ، قال في خطبة القاها في مؤتمر نزع السلاح في جنيف في ٨ شباط سنة ٩٣٢ ، وهو يومئذ رئيس الحكومة الفرنسية ، وكأنه يلتمس العذر لواضعي المعاهدة : الآن بعد ان اصبحت ذرى هذه المعاهدة تضاء بانوار المثل الاعلى للتعاون ... فان تلك الشروط الموضوعة لم يكن بالمستطاع ان لا تستوحي من ضرورات الساعة التي كانت تجري المفاوضة فيها ... وقد قضت بها طبيعة الاشياء التي نشأت من ماض قريب ، كما هو شأن كل معاهدة مثلها تقع على اثر حرب ... هذا امر واقع وانكار الامر الوقع لا يفيد شيئاً والعقود الدولية كالعقود الخاصة تعتبر الظروف التي وضعت فيها بعض شروطها .

ولكن اي سلطة اخلاقية تبقى لمعاهدة انكرها واضعوها كما انكرها المغلوبون الذين امليت عليهم ، وكيف يستغرب اذا شاع في المانية ان كلمات رجال الدولة من الحلفاء قبل وضع المعاهدة لم تكن الا صنعة نفيسة من الرياء ، وقد تمسكوا كثيراً في هذه المعاهدة التي لم تكن في حقيقتها الا ميثاق هدنة ، وقد وصفها الرئيس هوفر بقوله في خطبة القاها في وشنطن سنة ١٩٣٢ : انها ينبوع عظيم للقلق والاضطراب السياسي . وقضى ولسن نحبه وهو يضطرم غيظاً من الذين حملوه على قبول هذه واضطروه الى التخلي عن المبادىء التي وضعها وعقدت عليها الشعوب آمالها .

واذا كانت معاهدة فينة قد ولدت بدون حياة لانها انكرت الحقيقة الناشئة وهي حقوق الشعوب ، فان معاهدات سنة ١٩١٩ ولدت كذلك بدون حياة لانها لم تنظر الى القانون الجديد الذي ينبغي ان يخضع العالم له ، وهو نمو القوميات في نظام من القانون المشترك الذي يربط بينها وينظمها ويمنع قيام بعضها على بعض ، ولو تم ذلك لكانت دفعت كثيراً من المشاكل والضغائن التي اثارت الدول وباعدت بين الشعوب ، وقد وقفت اوربة مستخفة باحتجاج المانية على معاهدة فرساي ، كما استخفت من قبل باحتجاج دول مغلوبة على معاهدة ظالمة لم يقض دليها الا بالنار

والدم ، وقد انذر الجنرال فيغان فرنسة بقوله في كتابه المشهور عن « تورن » : يقع في الغالب للمنتصر بعد الفوز في الحرب ان يرقد مطمئناً الى ثقة غرارة برجحانه، على حين ان خصمه يجد ويدأب في البحث عن اسباب انكساره ويعمل جاهداً للاستقالة من عثاره ، فمغلوب الامس يصبح غالب الغد ، فان تورخيم تلتها روسباخ وينا تلتها سدان ، وبعد سدان رتوند ، فعسى ان لا ينسى ذلك .

اما بولونية فقد ايدتها فرنسة تأييداً عظيما وعقدت عليها آمالا كبيرة ، حتى انها لم تخف حزنها في الماضي عندما احتل الروس فرسوفية ، وقد اطلق على ابنائها اسم فرنسيي الشمال ، على انها لم تأت الا متأخرة الى صف الحلفاء ، فقد كان بلسودسكي مشايعاً للالمان في بادىء الامر ، وارادت فرنسة ان تقيم منها دولة كبيرة حليفة على حدود المانية ، ولكن اتساعها وحكمها للعناصر الروسية والعناصر الالمانية ، جعلها عرضة للخطر الذي وقعت به ، اما نظامها فقد قام على رغائب العسكريين وخطط بلسودسكي وعبقريته المريضة ، وبدأ الخلاف بين البولونيين والالمان بعد الاستفتاء الذي جرى في سلزية العليا والفت لجنة لتسويته ، فبذرت معاهدة فرساي بذور الخلاف بين الفريقين ، وكان كل الماني ينظر الى بلاده المنفصلة بعضها عن بعض ويأخذ منه الغضب مأخذه ، فالرواق البولوني ودنتزيغ من نتائج تلك المعاهدة السيئة ، وقد خدع العسكريون البولونيون بانفسهم واعتدوا كثيراً بقوائم سيوفهم ، وانشأوا في بلادهم حكما لا يجد في اوربة من يمدحه الا الذين كانوا يمدحون من قبل القيصرية الروسية ، وكان من آثار هذا الحكم ان عم البلاد البؤس والشقاء والاستبداد ، حتى ان رئيس الحكومة البولونية التي تألفت في فرنسة بعد ان اجتاح الالمان والروس بولونية ، الجنرال سيكورسكي ، قال في خطبة له : ان عاملين جوهريين يحثاننا على مواصلة الجهد في سبيل انبل الغايات نعني الغاية الوطنية ، فالعامل الاول هو انكار انظمة الحكومات السابقة انكاراً باتا والتنصل منها ، فقد كانت تهمل شؤون البلاد الاقتصادية والسياسية والعسكرية في الوقت الذي كان يأخذ فيه العدو عدته ، وتعمل ماتشاء بدون ان تكترث بمراقبة الرأي العام ، فكانت هذه الاساليب والانظمة

من اسباب الاهمال ، فعلينا ان نستفيد من اشد الحوادث ايلاماً في تاريخنا حتى نجتنب تجديد مثل هذه الاغلاط في المستقبل، والعامل الثاني الذي يرشدنا في مساعينا هو ان يكون كل رجل في المكان الذي يجدر به، على حسب ماعنده من غناء وكفاية ... حتى نعيد احياء مادرس من معاهد الوطن . ونكون في شدة حبنا له عاملين على بعثه كرة اخرى ، فتكون بولونية مجيدة ، عامرة ، كبيرة ، سعيدة اكثر مما كانت عليه في ماض قريب .

وقد وضع الكونت سفورزا كتبا عديدة ، وصف فيها حالة اوربة وماخلفته معاهدة فرساي من مشاكل وعقبات ، فبحث عن المواد الاربعة عشرة الولسنية ، وعن سياسة فرنسة والمانية التي ادت الى القضاء على كل مارجي من اساليب التقارب وعلى كل مايعول عليه من خطط الرئيس ولسن ونواياه ، فطويت بذلك الأسس الاخلاقية التي اسدلت الستار على الحرب في تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، على حين ان المانية القت سلاحها في الحقيقة بعد ان وعدت بتطبيق هذه القواعد ونزلت على شروط الهدنة ، ولكن لم يبق منها الا رسم ضئيل ، واتخذ الالمان سبب الاخلال بها وسيلة لمحاربة صلح فرساي الذي امليت عليهم شروطه ، فجردت المانية من سلاحها ولم تسو المسائل الاستعمارية تسوية عادلة تراعى فيها مصلحة السكان ، واكتفى باقصاء المانية اقصاءً تاما عن المستعمرات ، ونفذت كل التنفيذ المسائل المتعلقة بانشاء الدول الجديدة ، وتعمير البلاد المخربة ، ومنح ايطالية الحدود التي تريدها في اوربة ، واعادة الالزاس واللورين الى فرنسة ... وتكليف المانية باعباء ثقيلة من التعويضات لم تنته الا في مؤتمر لوزان .

وبحث هذا السياسي الايطالي عن سياسة التقاليد، فقال : الذكر ام النسيان؟ ايهما اكثر فائدة في السياسة ؟ قد تكون الحياة غير ممكنة اذا لم يكن هناك نسيان ، او على الاقل ابعاد الذكريات التي تبقينا عائشين تحت تأثير الماضي وسلطانه عن خواطرنا ، على ان السياسة الخارجية هي في ذاتها تقليدية ، فذكريات التاريخ توحي الحكمة والسداد ، ولكنها تخفي في ثناياها بذور الاحقاد والشكوك ، وقد كان يقول جول

كمبون : ان سياسة لويس الرابع عشر لم تضمحل آثارها في المانية ، وقد عززت المعاهدات بروسية ومكنت لها في اوربة وجعلتها مركزاً للتنظيم الجرمني ، وكان يظن ان هذا العالم يبقى بدون نظام ولا وضع ، واذا كانت معاهدة وستفالية بقيت منذ توقيعها في سنة ١٦٤٨ الى ايام الثورة اثراً من آثار السياسة الفرنسية وصنعها النفيسة ، فان معاهدة فينة كانت نظيراً لها صنعة مترنيخ النفيسة في تقسيم ايطالية .

وقال : عندما كنت سفيراً في فرنسة كنت افكر كثيراً بان كل درج في الكي دورسي يحتوي على نسخة من معاهدة وستفالية التي كانت قد استلهمت قواعدها وخططها من حالة اوربة بعد حرب الثلاثين سنة ، والتي بقيت كالكتاب المقدس في بعض المحافل والدوائر التي استولى عليها مرض الحنين للماضي ... وقد لمحت الى ذلك في حديث مع المسيو بريان ، فاجابني نعم ! نعم ! معاهدة وستفالية ... وقد شعرت انه لم يكن كثير الثقة بالتواريخ والتقاليد ، ثم تبسم بعد ذلك وهو يقول : ان هؤلاء السادة في الكي دورسي اقوياء في التاريخ ولكنهم قلما يعرفون الحياة .

وقد كانت تجزئة الشعب الالماني هي الفكرة الكبرى التي ورثها الفرنسيون من معاهدة وستفالية ، واتخاذ دولة النمسة وسيلة لتجزئة المانية الى دولتين على الاقل ، وهذه الفكرة هي التي سادت بعد الحرب عند الفرنسيين الذين يستخرجون من القرن السادس عشر اسباب السياسة وعللها في القرن العشرين ، واذا نظرنا الى خطة فرنسة نحو المانية وخطة انكلترة نحو نابليون وجدنا تفاوتا عظيما ، فقد كانت انكلترة اشد الدول حقداً على الكورسيكي المتغلب وعلى البلاد التي سلمت له مقاليدها ، ولكن ما عاد السلم الى نصابه حتى ردت انكلترة الى فرنسة ما كانت انتزعته من مستعمراتها (الجزر والسنغال) ، بل ان اللورد كاستلرغ كان يقول في خطبة رد بها على انصار الالحاق : انني اعتقد اعتقاداً لاشك فيه : ان سمعة بلادنا وقوتنا وعظمتنا وصدقنا اهم لدينا في اوربة من هذه الالحاقات ... والغريب ان نابليون كتب في سانت هلين يزدري حماقة اللورد وجهله ، ويستغرب كيف ان الانكليز لم يستبقوا لانفسهم همبورغ وجاوة وسعطرة والمرتنيك .

وبحث ايضا الكونت سفورزا عن نزع السلاح فقال : كان المراد من نزع سلاح المانية ان يكون مقدمة لنزع سلاح عام ، على هذا قام مبدأ ولسن ، وارسل كلمنسو مذكرة الى الالمان ، واتفق الحلفاء والالمان على ذلك ، وقد كان في قضية نزع السلاح عامل خوف وخشية فاهتمت بعض الدول وخاصة فرنسة اهتماما شديداً بأمانها وسلامتها ، واذا سوغ لهذه الدول ان تهتم بمصائر امورها وصيانة بلادها ، فلا عجب اذا اهتم الالمان ايضاً في امانهم وسلامتهم ، وقد كان يعتقد كثير من الفرنسيين انه من الاخلاص في الوطنية المماطلة في شروط نزع السلاح فيما يتعلق بهم والاكتفاء بنزع سلاح المانية ؛ على ان نزع سلاح امة او تحديد صلاحياتها في البر والبحر ، قلما يؤدي الى فائدة ، فقد اشترط على روسية ان لا تكون لها بواخر حربية في البحر الاسود سنة ١٨٥٦ ؛ ولكنها الغته بعد ذلك سنة ١٨٧٠ وابلغت الدول ماعملته ، فلم تحر جواباً ، وقد تعهدت بروسية لنابليون الأول في تلسيت ان تبقي عشرة اعوام محددة السلاح ، ثم تدخل في النظام العام ومع ان فرنسة كانت يومئذ قوية وبروسية ضعيفة فان نابليون لم يطلب نزع سلاح دائم كما طلب في القرن العشرين ، وكان يظن نابليون انه يراقب بروسية ولكن مراقبته كانت عقيمة كما كانت مراقبة الحلفاء المانية بعد فرساي ، ولم يحجم يومئذ رجال بروسية مثل شتاين من مخاطبة مليكهم فردريك غليوم الثالث بقولهم ، ان المعاهدة لا تمنعهم من العمل على حماية انفسهم بالخديعة دفعاً للهوان والعنف ؛ ويضيفون على ذلك قائلين : هل اذن الامبرطور نابليون وحده ان يقيم التسلط مقام الحق والباطل مقام الصدق ، وهذه تجربة الفرنسيين الأولى التي لم يطل امدها والتي كانت عاقبتها مريرة خائبة .

على انه اذا كانت المانية قد تسلحت بعد الحرب العظمى فهذا دليل على ان قيود فرساي لم تجد نفعا ، كما ان حذر نابليون ما كان مجديا له ، واعظم ما اصابه هو من سوء تقديره لبروسية العزلاء ، وبعد ان انتهت سكرة النصر الأولى عم الفرنسيين شعور اشتركت فيه جميع الاحزاب وجميع الطبقات ، وهو عدم الرضى ولا سيما عدم الرضى عن انفسهم ؛ فقد كانوا يعارضون في الحوادث حتى التي كانت مقدرة ومنتظرة ، وكانوا يسلمون بها بعد ذلك عندما تحمل لواء الامر الواقع ؛ وكان

قليل من الاجانب الذين كانوا قادرين على معرفة فرنسة وتفضيلها على سياستها وعلى عامة صحفها . وكان الانكليز كلما وجه اليهم ملام قالوا ماذا نصنع ؟ هذا خطأ فرنسة. ولاريب في ان هنالك ما أخطأت به فرنسة بعد الحرب ، فقد اضاعت قناعتها بقوتها الحقيقية ، وارادت الاكتفاء بالاستعدادات العسكرية واقامة سور على طول حدودها.

وقد جاء في كتاب وضع باللغة الانكليزية والفرنسية عن الرئيس ولسن وتنظيم العلائق بين فرنسة والمانية استناداً لأوراق الرئيس ووثائقه ، ان فرنسة قد نالت ماتريد من نزع السلاح في شاطىء الرين ، ومن احتلال بعض المناطق القائمة على الحدود وتجريد المانية من السلاح ، ولكنها لم تكترث بقواعد النظام الذي كان يراد تأسيسه بدلا من الاساليب القديمة ، وحققت اكثر ماترمي اليه في حرمان المانية من مستعمراتها وفي الالزاس واللورين وفي حدود بلجيكة وفي الشمال والشرق من اوربة ، وسلبت المانية ما كان لها من نفوذ في اللكسمبرغ ، واقامت العقبات في سبيل اتحادها مع النمسة ، واحرزت من الناحية الاقتصادية مراقبة شاطىء الرين الايسر ، وحملت المانية اعباء تعويضات عظيمة ونفقات احتلال ورواتب جنود ، ونشأ من ذلك اضطراب المانية الاقتصادي وان كان دون الغاية التي ارادتها فرنسة ... ومع ذلك فهل ادركت فرنسة بهذه الوسائل ماتبغيه من امان وسلامة ؟ لو سئل اي فرنسي عن ذلك لأجاب سلباً ، وان كانت الحجج تختلف ، وقد يعد الحلفاء السبب في ذلك ، ولكن هناك وسيلة تبقي الشعب الالماني بوضع دون الشعب الفرنسي والاول يزداد نمواً ويفيض قدرة ونشاطاً ، والثاني مستغرق في محافظته ونقص لذاته ؟ ومع ذلك فلابد من الاكراه والتوسل بغير ذلك من الوسائل التي لايمكن ان تضمن سلامة فرنسة وسلامة العالم ، والامل الوحيد الذي يبقى لها هو العمل على تحقيق النظام الجديد والاخذ فيه بعزم وتصميم واخلاص . ولكن تقديم رجل في النظام الجديد وابقاء اخرى في النظام القديم لايفيد ابداً ، والسلامة التي تبحث عنها فرنسة ، حتى التي ادركتها ، لاتكون الامصدراً للأحقاد والمشكلات فتقود العالم الى كارثة جديدة ... وذلك ماحدث بعد عشرين سنة .

خاتمة

من ولسن الى روزفلت

في خريف سنة ١٩١١ والمعمعة الانتخابية على اشدها زار المستر فرنكلن روزفلت الدكتور وودرو ولسن حاكم ولاية نيوجرسي واحد مرشحي الدمقراطيين لرياسة الولايات المتحدة ، فتبادلا مقدمات الكلام وصيغ المجاملة في فترة من الزمن ، فكان اثر هذه المحادثة ضئيلا بادىء الرأي في نفس روزفلت ، حتى تردد في خاطره الشك بقدرة هذا الفيلسوف الهادىء المطمئن على السير بالولايات المتحدة قدماً ، وقيادة عناصر التقدم فيها ، التي تبحث عن قائد حازم مقدام ، واحس بان مزاجيهما على طرفي نقيض ، غير انهما مالبثا ان تغلغلا في شجون الحديث ، فانطلق ولسن يكشف القناع عن دخيلة امره وشدة مراسه ومستقبل سياسته ، وهنا اخذ روزفلت يشعر رويداً رويداً بزوال الوحشة الأولى ، ووجد انه بين يدي رجل هو ضالته المنشودة ، وان كان منقبضاً في محياه ، قد اربى على الاكفاء وتميز عن النظراء ، شريف المبادىء ، جرىء الخطوات ، بعيد المدارك ، جدير ان يحمل لواء الدمقراطيين ويقودهم الى مواطن الظفر .

وظل كذلك روزفلت بعد ان جلس ولسن على اريكة الرياسة ، وهو بين جماعة مريديه واكابر انصاره ، وكان في الوفد الذي سافر لى اوربة لعقد مؤتمر السلم ، بعد الحرب العالمية الأولى التي قيل يومئذ انها ستكون آخر الحروب ، واطلع على ميثاق عصبة الأمم الذي عقد عليه الرئيس رجاءه واناط به آماله ، في انشاء عالم جديد ونظام سديد وسلم دائم وعدل شامل وحق سائد ، حتى اذا انتهت اليه الرئاسة سنة ١٩٣٣ وقد اشرف عهد الجمهوريين على الانقضاء ، تحدث الى سكرتير الدولة ستيمسن ، وهو يتمثل المائدة التي كان يراجع عليها سلفه الكبير ولسن

صحائف الميثاق في سفينة جورج وشنطن في طريقها الى اوربة ، ويستعيد في خاطره ذكرى ذلك الرجل المثالي بين رجال السياسة ، ومافي قلبه من عقيدة وحماسة، وفي رنة صوته من صدق واخلاص ، وفي سمو دعوته الى قواعد اخلاقية تدير لها الدول والامم ، فبرقت عينا روزفلت ، والتفت فجأة الى سكرتير الدولة ، الذي استغرب استغراباً شديداً هذه المفاجأة ، وهو يقول اني ساصنع ذلك .

وفي الحق ان روزفلت سلك هذه السبيل ، واقتفى آثار ولسن ، وفاقه في خططه العملية ، وكان يعتقد ان اعظم مهمة لرجال الدولة تربية الأمة وارشادها، والتوسل بوسائل الاقناع وضرب المثل في التضحية لنيل المؤازرة العامة في السياسة التي يراد اتباعها ، واتخاذ المناهج الفنية لبلوغ اغراضها ، وقد جرب ذلك حينما اراد ان يحمل بلاده على خوض غمرات الحرب ، عندما اوشكت المانية ان تملك قياد العالم ، فسار ببلاده سيراً ليناً حتى اخرجها من الحياد ، وحملها على قبول مبدأ الاعارة والتأجير ، وتغلب على دعاة العزلة . وانشأ قواعد الحريات الاربع كما انشأ ولسن قواعده الاربعة عشرة ، ووقع الميثاق الاطلسي الذي مهد فيه الأمم المتحدة هو وتشرشل ، كما وضع ولسن الميثاق الذي قامت عليه عصبة الأمم .

وقد اغرق مقرظو الرئيس روزفلت بالاشادة في مديحه ، حتى كادت المبالغة تطمس محاسنه ، ووجد ناقدوه مغامز كثيرة في سياسته الدولية ، ولم يكن احد يعلم اكثر منه ان سبب اخفاق الرئيس ولسن في تنفيذ خططه انه لم يعد لها العدة والزمان موات له ، ولم يشترط على حلفائه ، وبهم حاجة شديدة اليه ، شروطاً واضحة بينة ، اقوى من المبادئ العامة والقواعد المبهمة ، ولذلك فانهم عندما ظفروا بعدوهم لم يعودوا يأبهون لآرائه بل انهكوه في مفاوضات طويلة مضنية . وكذلك كان شأن روزفلت فلم يأخذ العهود والمواثيق لما بعد الحرب ، وكان يصد عن تحذير المحذرين ويقول ليس لي غاية الآن غير الظفر ، اما ستالين الحول القلب الذي وجده في طريقه فكان يلقي نظراته الى ما بعد الظفر ، ويأخذ لكل شيء اهبته ويعد عدته ، وقد حمل روزفلت نفسه مشاقاً كثيرة ، اودت في النهاية به ، ليخفف من غلواء ستالين

في مؤتمر طهران ويالطة وغيرهما ، على انه قبل اذيته في نحبه افضى بذات صدره الى بعض المقربين له ، وشكا من اساليب ستالين وساسة الروس الذين كانوا قد احكموا خططهم ، واستفادوا من غفلة حلفائهم عن الأخذ باسباب الحيطة والحذر ، حتى تمكنوا في المؤتمرات المتوالية من بسط سلطانهم على نحو ثلث العالم وهم جادون في السيطرة عليه كله ، يبثون الدعوة في جميع ارجائه ، ويعدون ما استطاعوا من قوة .

وكان روزفلت يقول في سنة ١٩٤٠ ، ان الاتحاد السوفيتي ، كما يعلم كل امرئ يريد ان يواجه الحقائق ، يحكم حكما دكتاتوريا مطلقاً ككل حكم دكتاتوري في العالم ، ولكنه قال قبل انتهاء سنة ١٩٤١ ، ان الدفاع عن الجمهوريات الاشتراكية التي تؤلف الاتحاد السوفيتي ، دفاع عن الولايات المتحدة نفسها ، وقد واصل الحرب بشدة وعنف لاهوادة فيها ، واصر على تسليم الاعداء في الشرق والغرب تسليما لا قيد فيه ولا شرط ، حتى خلا الجو لحلفاء القياصرة ، واصبح الناس يتحدثون بانه لامناص من حرب ضروس ثالثة وشيكة الوقوع ، لتسوية المشكلات بين العالمين الرأسمالي والشيوعي حتى تكون الغلبة لاحدهما ، وان كان يقال بين حين وآخر ، لتهدئة النفوس القلقة والقلوب الواجبة المضطربة ، انهما يستطيعان ان يعيشا كلاهما الى جانب الآخر .

◆
◆ ◆

في اول نشأتي السياسية والأدبية تأثرت كثيراً بدعوة الرئيس ولسن ومبادئه الخلقية ، وكنت في تتبعاتي ودراستي بعد الحرب العالمية الأولى اميل كثيراً الى مطالعة الكتب والمذكرات السياسية التي لها صلة بذلك ، وزاد في ذلك الأثر عندي ان الرئيس ولسن ابدى عناية كبرى في تأييد مطالب السوريين ، وان اللجنة الاميركية التي بعث بها الى هذه البلاد وضعت تقريراً في مصلحتها بل في مصلحة عرب فلسطين ايضا ، واستنكرت ان يعود اليهود بعد الفي سنة الى البلاد التي عمرها غيرهم من بعدهم وطبعوها بطابع حضارتهم ، وكانت فيها مساكنهم واوطانهم ، ولكن الرئيس ولسن كما قال لي سفير الولايات المتحدة وينانت في لندن سنة ١٩٤٥ ، قد

تضاءل نفوذه ، فذهب هذا التقرير نسياً منسياً ، الا من بعض الدوائر العليمة التي مازالت تستشهد بمحتوياته .

وقد اتاح لي القدر ان احمل في يوم شديد القيظ من سنة ١٩٤٤ جواب الحكومة السورية لممثل الولايات المتحدة في سورية ولبنان المستر وودسورث ، وكان يومئذ في بيروت وهو اليوم سفير بلاده في تركية ، وذلك في شأن الاعتراف باستقلال سورية ، وكنت سعيداً بهذه المهمة ، كما انني شهدت مناقشات مجلس الامن في اثناء الدعوى التي اقامتها سورية ولبنان على فرنسة وانكلترة ومطالبتهما بالجلاء ، وكانت مؤازرة مندوبي الولايات المتحدة ظاهرة بينة ، ولا انس حسن الصلات التي كانت في لندن بيني وبين سفارة الولايات المتحدة وموظفيها المختصين بشئون الشرق . وكنت احادث السفير هريمان ذات مرة في المشكلة الفلسطينية وقد حملت اليه مقالاً كتبته جريدة السبكتيتر في شأن العلائق الطيبة التي كانت في الماضي بين الدول العربية وبين الولايات المتحدة ، وما قامت به الجامعات الاميركية من بث الفكرة الوطنية والدعوة الحرة والنهضة العلمية والاجتماعية ، وكيف ان موقف الولايات المتحدة في تأييد الصهيونية قد صرف عنها قلوب الكثيرين من اصدقائها العرب الذين نشأوا على حبها ، دولة دمقراطية حرة ، وأثر فيهم تأثيراً شديداً .

ولعل آخر مسعى قمت به وانا في لندن كان في سفارة الولايات المتحدة ، في ختام مأدبة اقامها السفير دوغلاس المستر بفن قبل سفره في آذار السنة الماضية الى وشنطن ، فتحادثنا ملياً في امر فلسطين ، وقد ارسلت بذلك تقريراً للحكومة في حينه ، وسانشر ما يسوغ لي نشره من هذه المحادثات والتقارير في الكتاب الذي اعده بعنوان:

« رسائل من لندن » .

الفهرس

	ص
تمهيد :	
الفصل الأول : مكيفلي مؤسس السياسة الحديثة	٥
١ — السياسة التقليدية	٥
٢ — الاخلاق والسياسة	٧
٣ — التآمر والنكث والغدر	٩
٤ — اصول الحكم	١٢
٥ — مكيفلي بين انصاره وخصومه	١٤
٦ — طائفة من آراء مكيفلي	٢٣
الفصل الثاني : رشليو وتقاليد فرنسة السياسية	٣١
١ — سياسة فرنسة الخارجية	٣١
٢ — رشليو في طريقته وأساليبه	٣٥
٣ — رشليو ومزران	٣٨
٤ — نضال فرنسة للامبراطورية المقدسة	٤٣
٥ — تبدل السياسة الفرنسية واضطرابها	٤٦
الفصل الثالث : تليران داهية السياسة	٥٥
١ — اوربة والثورة الفرنسية	٥٥
٢ — السياسة الخارجية الجديدة	٥٨
٣ — مشكلة الحدود والسياسة في ايام الثورة	٦٢

	ص
٤ ــ الحدود الطبيعية وتقاليد الفتوح	٧٠
٥ ــ صفات تليران واخلاقه السياسية	٧٦
٦ ــ تليران ونابليون	٨٠
٧ ــ تليران في خدمة فرنسة	٨٥
٨ ــ تليران في اواخر ايامه	٩١
الفصل الرابع : مترنيخ في سحره واساطير سياسته	٩٤
١ ــ سياسة النمسة والثورة الفرنسية	٩٤
٢ ــ مترنيخ والسياسة الاوربية	٩٨
٣ ــ احباط خطط نابليون	١٠١
٤ ــ اوربة في عهد اسكندر ومترنيخ	١٠٧
٥ ــ الحاكم بأمره في النمسة	١١١
٦ ــ اوصاف مترنيخ والآراء فيه	١١٣
الفصل الخامس : كافور قطب الوحدة الايطالية	١٢٠
١ ــ القواعد الاساسية لانشاء الامم والشعوب	١٢٠
٢ ــ مبشرات النهضة الايطالية	١٢٤
٣ ــ مزيني وكافور	١٢٨
٤ ــ الحرب والسياسة في تكوين الدولة	١٣٠
الفصل السادس : بلمرستن وأساليب السياسة البريطانية	١٣٧
١ ــ المصالح والسياسة في القرن الثامن عشر	١٣٧
٢ ــ وليم بيت والثورة	١٤٢
٣ ــ منشأ بلمرستن ومميزاته	١٤٦
٤ ــ النزاع بين انكلترة وفرنسة	١٥٣
٥ ــ السياسة الانكليزية ونابليون الثالث	١٦٠
٦ ــ شكوك فرنسة بالسياسة الانكليزية	١٦٧

الفصل السابع : بسمرك رجل الدولة العظيم ١٧٥
١ ــ المانية قبل الوحدة ١٧٥
٢ ــ بوادر المستشار الحديدي ١٨٣
٣ ــ شلزويغ ــ هولشتاين وحرب النمسة ١٩٠
٤ ــ حرب فرنسة وتأسيس الامبرطورية ١٩٦
٥ ــ سياسة بسمرك الاوربية ٢٠٣
٦ ــ بسمرك والمحالفات الدولية ٢٠٧
٧ ــ استقالة بسمرك وسياسته التقليدية ٢١٧

الفصل الثامن : الرئيس واسن والسياسة الاخلاقية ٢٢٥
١ ــ الرؤساء الثلاثة ٢٢٥
وشنطن ٢٢٥
لنكلن ٢٢٩
واسن ٢٣٦
٢ ــ حرب سنة ١٩١٤ ومسؤوليتها ٢٤٤
٣ ــ تطور الآراء في اثناء الحرب ٢٥٢
٤ ــ طائفة من اقوال الرئيس ولسن ٢٥٨
٥ ــ بين النظام القديم والنظام الجديد ٢٦٢
٦ ــ المعاهدات السرية ٢٦٦
٧ ــ العهد الدقيق في مؤتمر السلم ٢٦٨
٨ ــ محذورات صلح فرساي وآراء رجال السياسة فيه ٢٧١

خاتمـــــة : من واسن الى روزفلت ٢٨٥

تنبيه

نشرنا في القسم الاول من هذا الكتاب ، في آخر البحث عن الاتحاد العربي وما يقال فيه ، من السطر ٦ صفحة ١٣٤ الى آخر البحث ، كلمة كنا نشرناها في مجلة الرابطة العربية ، جوابا عن سؤال في هذا الموضوع ، في العدد الصادر في ٢٣ ايلول سنة ١٩٣٦ . حسبها بعض الكتاب الافاضل انها تعالج شؤون الجامعة العربية اليوم ، و جامعة الدول العربية ، على انها كتبت قبل نحو عشر سنين من انشاء هذه الجامعة.

ونذكر بهذه المناسبة ، انه وقع في الكلمة المذكورة اغلاط مطبعية ، مثل ١٩٢٤ بدل ١٩٣٦ في سطر ٦ صفحة ١٣٤ ، وسدت ظلالها بدل ومدت ظلالها في سطر ١٠ من الصفحة المذكورة ، وصلات متشابهة بدل صلات متشابكة في سطر ٤ صفحة ١٣٥.

وقد ورد ايضاً من الاغلاط المطبعية في السطر الرابع من صفحة ج من مقدمة الكتاب في القسم الاول : وان يلتمسوا وجود التأويل بدل من : وان يلتمسوا اجوه التأويل .

مراجع الكتاب : القسم الاول والقسم الثاني

١ — اللغة الانكليزية

The foreign affairs reader	Armstrong
The great globe itself	Bullitt William C.
Speaking frankly	Byrnes James
The second world war	Churchil W.
England, the unknown isle.	Cohen - Porthein Paul
Crusade in Europe	General Eisenhower
The life of Neville Chamberlain	Feiling Keith
Studies in diplomacy and statecraft	Goock. G. P.
Diplomacy by conference	Lord Hankey
Citizen of the world Franklin d. Roosevelt .	Hatch Alden P.
The memoirs of Cordell Hull	Cordell Hull
Diplomat in peace and war	Hugessen - Knatchbull
Two memoirs	Keynes John Mayuard
Diplomacy in fetters	Ley Victor welles
The british year book of inter - national Law 1947	Lauterpacht H.
Diplomatic prelude	Namier L. B.
Lincoln the president	Randall J. G.
The Habsburg monarchy	Taylor A. J. P.
David Lloyd George.	Thomson
Stalin	Trotsky L.
The Rome - Berlin Axis	Wiskemann Elizabeth
A Letter from Grosvnor Square	Winant John G.
Britannica book of the Year 1947	
The history of the Times	The Office of the Times
International affairs review	The Royal Institute of International Affairs

L'Empire Britannique	Magnon de Bornier J.
La vie de Disraeli	Maurois Andre
Les origines du droit international	Nys
La reconstruction de l'Europe politique	Pinon Rene
Les nouvelles tendances du droit international	Poltis Nicolas
Romantisme et Diplomatie : Talleyrand Metternich Chateaubriand	Paleologue Maurice
Discours et conferences	Renan
Histoire des grands principes du droit des gens	Redslob Robert
Histoire politique de l'Europe contemporaine	Seignobos Ch.
L'Angleterre dans le monde	Stoye Johannes
L'Europe et la revolution française	Sorel Albert
Cinq ans de turquie	Sanders Liman Von
Les freres ennemis	Le Comte Sforza
Les battisseurs de l'Europe moderne	: :
Synthese de L'Europe	: :
Traite pratique de diplomatie moderne	Baron de Szilassy
Memoires de guerre	Lloyd George
La paix	Tardieu Andre
Les mandats internationaux	Van Rees
L'Ambassade d'Angleterre a Paris	Wilson Beckles
Messages et discours	Wilson W.
L'histoire des Etats - Unis	
Correspondance secrete de wülow et de Guillaume II	
Le Probleme des Changements Paciques dans les relations Internationales	Institut International de Cooperation Intellectuelle
Dictionnaire diplomatique	

٢ — اللغة الفرنسية

Le Politique	Barthou L.
Bismarck	Bainville Jacques
Manuel historique de politique étrangere	Bourgeois Emile
Le president wilson et le règlement franco-allemand	Baker Ray
Metternich	Pibl Victor
Richelieu	Bailly Auguste
Le Machiavelisme apres Machiavel	Benoist Charles
Psychologie politique du peuple anglais	Boutny Emile
Talleyrand homme d'Etat	Blil Franz
Memoires du chancelier prince de Bülow	Bloch Henri
Le Diplomate	Cambon Jules
La crise mondiale	Churchil W.
Les relations des chretiens avec les Arabes au moyen - age	De Mas Laterie
Les consuls de France	Donnadieu James
Mission a Moscou	Davies oseph E.
Races - Nationalites- Etats	Le Fur
Traite de droit international public	Fauchille Paul
Memoires de Edward Grey	Vicomte de Fallodon
Souvenirs de guerre de M. Erzberger	
Machiavel	Gautier Vignal L.
Traite de diplomatie	Genet R.
Retour de L'U. R. S. S.	Gide Andre
Ce qui se passa reellement a Paris en 1918 - 1919	Col. House & Ch. Seymon
L'Ecole des ambassadeurs	Jusserand J.
Bismarck	Ludwig Emil
Napoleon	: :
Staline Essai biographique	: :

للمؤلف

١ – الحملة المصرية
او   مترجم من التركية سنة ١٩٢١
من باريس الى صحراء التيه
٢ – مفاوضات ووثائق سياسية   سنة ١٩٢٦
٣ – الشرع الدولي في الاسلام   بالفرنسية   سنة ١٩٢٩
٤ – الشرع الدولي في الاسلام   بالعربية   سنة ١٩٣٠
٥ – السياسة الدولية واشهر رجالها
القسم الاول : الاعمال والاخلاق والتقاليد   سنة ١٩٥٠
٦ – القسم الثاني : اقطاب المناهج السياسية   « ١٩٥١

معد للطبع :

١ – الدولة العربية في بلاد الشام   ١٩١٨ – ١٩٢٠
وذكرى الحكومة الفيصلية
٢ رسائل من لندن   شباط ١٩٤٥ – حزيران ١٩٤٩

مطبعة الانشاء بدمشق